

مجلة المجمع العلمي العراقي



فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م
الجزء (الأول) المجلد (التاسع والستون)
شباط ٢٠٢٢م - رجب ١٤٤٣هـ





فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الأول ــ المجلد التاسع والستون

شباط ٢٠٢٢م ــ رجب ١٤٤٣هـ

(شروط النشر وضوابطه)

١ - تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢ - لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعي الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣ - يشترط في البحث أن لا يكون قد نشر أو قدم للنشر في مجلّة اخرى ورفض لعدم صلاحيته او انه مسروق .

٤ - تعرض البحوث المقدّمة للنشر في المجلّة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيان مدى أصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥ - هيئة تحرير المجلّة غير ملزمة برد البحوث الى أصحابها في حالة عدم قبولها للنشر.

٦ - لا تنشر المجلة الدراسات السياسية التي تمس كيانا معينا او تنظيما خاصا .

٧ - لا تنشر المجلة البحوث الدينية التي تمس العقائد لان هذا مجال نشره المجلات الخاصة.

٨ - لا تنشر المجلة بحوثا تتحدث عن الفساد لأي من المؤسسات .

٩ - لا تنشر المجلة بحوثا مضطربة اللغة والاسلوب ولا يمكن اصلاحها .

١٠ -يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات الاتية :

أ. ان يكون مطبوعا على الحاسوب ومخزونا على قرص CD ومرفق بنسخة ورقية.

ب. ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

ت. يجب أن لا يزيد عدد الصفحات على (٣٠) ثلاثين صفحة .

ث. أن يكون مستوفيا للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقا تاما حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

ج. يرفق بالبحث ما يلزمه من أشكال أو صور أو رسوم أو خرائط أو بيانات توضيحية أخرى ، على ان يوضح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار إلى المصدر إذا كانت مقتبسة .

ح. يرفق بالبحث ملخص باللغتين العربية والانكليزية بحدود نصف صفحة لكل ملخص .

خ. تكتب الكلمات الدالة باللغة الإنكليزية .

د. ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربيا .

١١ -يعطى صاحب البحث (عند نشرهِ) نسخة واحدة من المجلّة مع خمس مستلات من بحثهِ وللمجمع حق التصرف بما يبقى من نسخ المستلات.

البحوث لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجمع العلمي

توجه البحوث والمراسلات الى رئيس تحرير مجلة المجمع العلمي العراقي

iraqacademy@yahoo.com
journalacademy@yahoo.com

الاشتراكات : داخل العراق (٢٠٠٠٠)الف دينار سنويا .

خارج العراق (١٠٠) دولار امريكي سنويا .

المحتويـــات
الجزء الأول/المجلد التاسع والسـتون

الشعراء واللغة الابداعية

الأستاذ المتمرس الدكتور

سحاب محمد الأسدي

كلية الآداب/جامعة بغداد

الملخص:

هذا بحث وقفت فيه عند طبيعة الأساليب اللغوية التي اهتدى إليها الشاعر؛ على وفق ألفاظ وتراكيب وعبارات؛ أفصحت عن بناء شعري له تميزه المنسجم مع اختيارات الشاعر لطبيعة مادته اللغوية التي أودعها سياقات دالة؛ وجدها كفيلة بالاستجابة لنزعته الفنية؛ بأداء إبداعي جعله ينأى بمسار لغته الشعرية عن منحًى استعمالها المألوف والمتداول بحسب ما نصَّ عليه العُرف اللغوي الذي اتفق عليه اللغويون؛ وأقرّوا القول به في مدوناتهم المعجمية؛ التي يختار الشاعر منها ما يشاء لبنائه الشعري؛ الذي يبقى تميزه فيه رهنا بتميز قدراته الإبداعية في التعامل مع ألفاظ لغته التي اجتهد في انتقائها ووضعها بسياق شعري التحم بعضها ببعض؛ عبر علاقات بنائية خاصة برع في إقامتها محمّلا إيّاها دلالات توّخى الإبلاغ عنها في نسيج أخيلته وصوره؛ بما أبدع من أقوال شعرية تفاوتت فيها قراءات النّقاد إعجابا أو إنكارا لأسباب تتعلق بمستوى الفهم وطبيعة الوعي وتنوع الرؤى.

المقدمـة:

ان النص الشعري يولد عبر مخاض إبداعي، يمارس فيه الشاعر سلطته الابداعية، بحسب مقوماتها المتاحة ومهيمنات إرادة فعله، بما تفرضه من رؤى فنية، تأخذ امتداها وعمقها وهيمنتها، بما رصد لها من أساليب لغوية، بدت في نوعية الفاظها وتراكيبها وعباراتها، مفصحة عن بناء شعري، له تميزه المنسجم مع اختيارات الشاعر، لطبيعة مادته اللغوية، التي أودعها سياقات دالة، وجدها كفيلة بالاستجابة لنزعته الفنية، على وفق ما اهتدى اليه من نمط أدائي ابداعي، جعله ينأى بمسار لغته الشعرية عن منحى استعمالها المألوف والمتداول، بحسب ما نص عليه العرف اللغوي، الذي اتفق عليه اللغويون وأقروا القول به في مدوناتهم المعجمية التي يختار الشاعر ما يشاء منها لبنائه الشعري، الذي يبقى تميزه فيه، رهناً بتميز قدراته الابداعية في التعامل مع ألفاظ لغته، التي اجتهد في انتقائها ووضعها بسياق شعري، التحم فيه بعضها ببعض، عبر علاقات بنائية خاصة، برع في اقامتها، محمِّلا إيّاها دلالات، توخّى الابلاغ عنها في نسيج أخيلته وصوره، بما أبدع من اقوال شعرية، تفاوتت فيها قراءات النقاد إعجاباً أو انكاراً؛ لأسباب تتعلق بمستوى الفهم وطبيعة الوعي وتنوع الرؤى المحكومة بتوجهات معينة، ومثل هذه الاقوال، ستكون لي وقفات عندها في هذا البحث؛ لأتبين منها جانباً من براعة قائليها في إبداعهم اللغوي؛

لأن ما قالوه تفرّدت صورته عبر معالجة لغوية، تراصت فيها الألفاظ بسياق دلالي، تجلّت فيه شعرية الأداء الفني، بنسق مجازي غاية في الابداع والجمال.

وقد ألزمتني طبيعة هذا البحث ان استرسل في عرض وقفاتي فيه، فلم أقسمه على فقرات أو مباحث بعنوانات محددة، فمضيت بسرد ما وجدته منسجما مع عنوانه. آمل ان اكون قد وفقت فيما سعيت اليه، وبذلت ما أمكنني من جهد فيه.

الشعراء واللغة الابداعية

ان اطلاق تسمية شاعر لها استحقاقاتها وشرائطها فليس كل من اتقن نظم الكلام بمواصفات السياق الشعري المقيّد بضوابط الوزن والقافية يُسمّى شاعرا، لأن هنالك فارقا جوهريا بين من يكون شاعرا او يكون ناظما، فنظم الكلام يمكن ان يتقنه من لديه دراية بتفعيلات الشعر العربي، ضمن بحوره المعروفة بنظامها الايقاعي الذي وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي، وقد يتعود على اتقانه، ولو بحدود معينة، عن طريق الدراسة والممارسة وكثرة المران، ولكنه في هذه الحال، أي لون من الشعر ينظم ؟ انه يفيد من معجم اللغة فيأخذ منه ما يسعفه على قول ما يريد قوله فلا يتعدى حدود الدلالة المعجمية لمفرداته الشعرية، فينظم شعره ضمن أُفق المعنى الشعري المتداول المنسجم مع العرف اللغوي السائد، من غير ان يكون له معجمه الخاص، المنبثق عن حركية ابداعه وحيوية مهارته وطاقات لغته الابداعية، التي يمكنه بها اختراع معانيه وتوليدها بظرافته ومهارته، ومثل هذا وبمواصفاته يستحق ان ينال صفة الشاعرية، كما عبّر ابن رشيق في رؤيته النقدية، عمن تنطبق عليه تسمية شاعر حقيقَةً لا مجازا[١]، ذلك ان الشاعر هو من يفجر ينابيع الكلام وبحره، ويدع من يجيد السباحة العوم فيه، كي يلتقط ما يشاء من درره، كما قال ابن ميادة[٢]:

فَجَرْنا ينابيعَ الكلامِ وبحرَهُ   فأصبحَ فيهِ ذو الروايةِ يَسبحُ[٣]

ومثل هذا القول يدعونا للتأمل فيه؛ لنتبين حقيقة مقاصد الشاعر منه، وقد أدار حديثه بلغة الجمع، فأشرك غيره من الشعراء معه، ولم يفرد نفسه بهذه التجربة الابداعية التي يلتقي في عيون ينابيعها وامتداد آفاق بحرها حشد من المبدعين، الذين أودعوا تجاربهم الشعرية، لغة عرفوا كيف يطوعون ألفاظها وتراكيبها، لتستوعب صورهم ومعانيهم، على وفق ما اهتدوا اليه من دلالات لغوية، حملوها فيض لمساتهم الفنية، ليقدموا بها انساقاً شعرية مميزة بآصرة علاقاتها اللغوية،

---

[١] ينظر العمدة ١١٦/١ .

[٢] ابن ميادة، هو الرماح بن أبرد بن ثوبان الذبياني، شاعر مخضرم من العصرين الأموي والعباسي، وقد شهر بنسبته الى أمه (ميادة) فعرف بها وتوفي سنة ١٤٩هـ . ينظر الاعلام ٣١/٣ .

[٣] شعر ابن ميادة/٩٧، وينظر دلائل الاعجاز/٥١٤، ٥٩٩ .

التي يأتلف بها سياق شعري يتسم بدقة نظمه ومتانة صنعته، تلك الصنعة التي برع فيها الشاعر؛ ليجعل دلالتها خِضَمَّاً، تنفتح فيه ممرات العوم والغوص في بواطن بنيتها وعمق جوهرها؛ للظفر برؤية تأويلية ثاقبة صائبة. إنّ الدلالة الخفية التي يتوخّى الشاعر الابلاغ عنها عبر صنعته الشعرية، لا يمكن للقراءة العابرة أو النظرة العجلى، الاقتراب منها وإماطة اللثام عنها؛ ذلك انها بسبب ما بلغته من الغاية في لطفها، لا تبين معالمها، الا لمن تملك حساسية تصفح الكلام، وكان عارفا بما توحي به طبائع الشعر، وما يستدق من خفاياه، التي تتسلل خلسةً وتسري همسا، سريان نفس في نفس[٤]؛ لأن الشاعر في مثل هذا النوع من شعره، نحا بلغته الشعرية منحى فنياً خاصاً به، تجاوز فيه حدود ما تواضع عليه اللغويون في معجماتهم، حين قّيدوا دلالات مفرداتها بما اعتمدوه من معنى استُعمِلَ له، فَقُيِّدَ به، وأضحى الخروج عنه باستعمال مجازي لم يعهد فيه، مقترنا بالابهام والغموض؛ لأن القارئ أو المتلقي، يستغلق عليه فهم مقاصد القائل، فلا يمكن لقراءته الاولى ان تيسر له استيعاب دلالة القول، فهو به حاجة الى إدامة النظر فيه وتأمل بناء سياقه اللغوي لاستظهار ما خفي من تداخل علاقات الفاظه وترابط بعضها ببعض، وهذه تستدعي قراءة متأنية تستجلي ما أبهم واستغلق من نسق شعري أودعه الشاعر عبر تركيب لغوي نسجه من خزين إبداعه وفنه ومهارته، مؤكدا براعته في استحضار ما تكتنزه ذاكرته وحافظته من ثراء لغوي، تتعدد فيه الدلالة وتتنوع، ليلتقط منها سياقا دلاليا، توخاه لبنائه الشعري الذي انزاحت دلالته اللغوية عن مسارها المعتاد؛ لتلتحق بمسلك فني وضعها الشاعر فيه، باداء إبداعي تشكلت به لغة شعرية، تناغمت فيها دلالتها المجازية وصورتها البيانية، لتلتقي مع رؤى تأويلية، تكون معها القراءة مثيرة ممتعة، حين تغري بمزيد من ايحاءات المعنى، الذي توحي به طبيعة الشعر، لمن تكون حاسته الشعرية متحفزة لالتقاط أسرار الابداع فيه، وهذا ما سيتضح جليا، حين تبرز حساسية لها تميزها في تصفح الشعر، بقراءة يتداخل فيها خاطر منفعل مع عاطفة متفاعلة، بتآلف روحي جميل، تلتقط مجساته شوارد ما خفي من معنى، لم يوفق الى الظفر به من وقف عند القول الشعري عينه، وأعني ذلك القول الذي وقف عنده ابن قتيبة، واجدا فيه مثالا شعريا حسنت الفاظه وحلت، ولكنه افتقد لفائدة معناه[٥] كقول الشاعر :

ولما قضينا من مِنًى كُلَّ حاجـةٍ	ومسَّحَ بالأركانِ من هو ماسحُ
وشُدَّتْ على حُدبِ المهارى رحالُنا	ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنـا باطـرافِ الاحاديث بيننــا	وسالتْ بأعناقِ المطيِّ الأباطحُ[٦]

---

[٤] ينظر أسرار البلاغة /٣٠٦ .

[٥] ينظر الشعر والشعراء ٦٦/١ .

[٦] الشعر والشعراء ٦٦/١، كتاب الصناعتين /٥٩، أسرار البلاغة /٢١، وهذه المصادر، لم تنسب الابيات الى قائلها، وقد وردت في ديوان كعب بن زهير، صنعة السكري، فنسبها له ثم استدرك بالقول : أنها لابنه عقبة،

ويعلق ابن قتيبة على الأبيات مستحسنا ألفاظها بمخارجها ومطالعها ومقاطعها، من غير ان يمتد استحسانه الى ما تحتها من معنى، لا يرى فيه سوى تعداد الايام وتسلم الأركان وامتطاء الإبل لبدء رحلة العودة وتبادل الأحاديث مع سير المطي في الأبطح[٧]، بمثل هذه الرؤية كانت نظرة ابن قتيبة الى قول الشاعر، الذي قرأه قراءة عابرة، لم تتجاوز نظرته فيه حدود الدلالة المعجمية لالفاظه، فقيّد مضمونه بقيود العرف اللغوي، وقد تابع ابن قتيبة فيما رأى أبو هلال العسكري الذي أكد حلاوة لفظ الكلام وعذوبته وسلاسته وسهولته وقصر معناه عن مجانسة جمال ألفاظه[٨] ، وهذا ما رأه ناثرا القول نثرا استقاه من معين المعجم اللغوي؛ لأن قراءته للقول الشعري هي عينها قراءة ابن قتيبة، ولهذا تطابقت نظرتهما، فاحتجبت عنهما دلالات اخرى، انفتح فيها المعنى على تأويلات افصحت عنها قراءة مميزة بلمسات بيانية جميلة، تجلّت فيها براعة استيعاب وحساسية فهم لمتلقٍ مبدعٍ واعٍ، ذلك هو عبد القاهر الجرجاني الذي توقف عند القول، متأملا مراجعا فكره، شاحذا بصيرته، محسنا تأمله فيه، ليخلص الى ما وجده من (استعارة وقعت موقعها، وأصابت عرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع، واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن)[٩]، ومضى الجرجاني مفصلاً القول في اعجابه بمحاسن هذا الشعر، بوقفات عبَّر فيها عن ترابط مضامينه، بنقلات تؤكد حسن انسجام الافكار وتعالق الدلالات المفضية الى دواعي هذا القول، من تجاذب أطراف الحديث بألفة أصحاب وأنسة أحباب، تحفّ بهم أفراح ومسرات، تنبئ عن طيب نفوسهم وغاية سعادتهم، بما هم مقبلون عليه، من تنسم روائح أحبتهم وأوطانهم، وما يسمعون من تهاني الاخوان والخلان وتحاياهم، بعدما وفِقوا لاتمام عبادتهم الشريفة، ويرى الجرجاني أن الشاعر زان وصفه لحال الاحباب والاصحاب باستعارة لطيفة، مصورا سرعة سير الإبل بسلاسة، بدت بها شبيهة بماء تسيل به الأباطح، وكان سيرها مدعاة لزيادة نشاط الركبان، المفضي الى ازدياد حديثهم طيبا[١٠]، ويتوقف الجرجاني عند صورة أعناق الإبل ودقة رصد الشاعر لوصف حركتها، وهو يعبر عن اقتران سيلان الأباطح بها، حين قال (باعناق المطي ولم يقل بالمطي؛ لان السرعة والبطء يظهران غالبا في أعناقها ويبين أمرهما من هواديها وصدورها وسائر اجزائها

وهي ضمن قصيدة عدد ابياتها واحد وعشرون بيتاً، مع اختلاف في رواية بعض الفاظها، ينظر شرح ديوان كعب /٢٣٩،٢٤٢، كما وردت منسوبة الى الشاعر كثير عزة ضمن مقطوعة بخمسة أبيات، ينظر شرح ديوان كثير /٥٨ .

[٧] ينظر الشعر والشعراء ٦٦/١-٦٧ .

[٨] ينظر كتاب الصناعتين /٥٩ .

[٩] أسرار البلاغة /٢٢ .

[١٠] ينظر المصدر نفسه /٢٢-٢٣ .

تستند اليها في الحركة، وتتبعها في الثقل والخفة، وتعبر عن المرح والنشاط)[١١].

ولنا ان نتبين غاية ما وصل اليه إعجاب عبد القاهر الجرجاني، بهذه الصورة الشعرية انه لم يكتف الاستشهاد بها وتفصيل القول فيها بكتابه (أسرار البلاغة) بل تكررت وقفاته عندها في كتابه (دلائل الاعجاز)[١٢] فهو يرى في صورة الاستعارة المتمثلة بقول الشاعر (وسالت بأعناق المطي الأباطح) لوناً من صياغة لغوية خاصية نادرة، لا يستوفيها الا من هو فحل من الشعراء وفرد من الرجال[١٣] والشاعر فيما ابدع من صورة للابل (اراد أنها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلاسة، حتى كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الاباطح فجرت بها)[١٤] ويتابع الجرجاني رصد ما يتصل بوقفة إعجابه بالصورة الاستعارية التي احتوتها عبارة الشاعر (وسالت بأعناق المطي الأباطح)، مشيرا الى أن تشبيه سرعة (المطي) في سيرها السهل، بماء جار في الأبطح لا غرابة فيه؛ لانه ظاهر معروف، ولكن دقته ولطفه تجلت فيما افاد من خصوصية لغوية، برع الشاعر في الاهتداء اليها، حين جعل الأباطح فاعلا للفعل (سال)، الذي عّداه بالباء فقال: (بأعناق المطي)، ولم يقل بالمطي، ولو قال (سالت المطي في الأباطح، لم يكن شيئاً [١٥]، وهذا القول الشعري المثير بما تضمنه من وصف مؤثر، شغل به الجرجاني، مدلا على تميزه بمعرفة ايحاءات طبائع الشعر، وقراءته المثلى لطبيعة أدائه اللغوي المتقن، الذي نسج به صورة شعرية، تجسدّت فيها لوحة فنية جميلة، بدت بها أعناق المطي شبيهة بامواج سيل لا حدود لتدفقه، وهو تصوير فني، أدرك الجرجاني معالم جماله عبر قراءة تراءت له بها انساق شعرية، انتظمت الفاظها وتراكيبها بسياق لغوي تمخض عنه جمال تصوير ودقة تعبير سمت به المعاني، وبذا يتبين لنا هذا الفارق الجوهري بين رؤية ابن قتيبة ورؤية الجرجاني، وفي هذا دلالة على تميز قراءة من أخرى، بما يمكن ان تفضي اليه القراءة المعمّقة من نظرات نقدية، تسهم في بيان معالم الجمال، وكشف صور الابداع التي تبقى محتجبة عمن يكتفي بقراءة الشعر قراءة سطحية عابرة .

إّن براعة الشاعر ومهارته ونبوغه، تعد أدوات بالغة الاهمية في بناء شاعريته وتفرد نسيجه الشعري، الذي تتشكل فيه اللغة تشكلا خاصا، يمنحها تنوعا دلاليا يتيح تعدد الرؤى المستندة الى قراءة تنفتح على مزيد من احتمالات وتأويلات، تسمح بها تلك اللغة؛ لان صانعها ومبدعها

---

[١١] المصدر نفسه /٢٣ .

[١٢] ينظر دلائل الاعجاز / ٧٤، ٧٥، ٢٩٤، ٢٩٦ .

[١٣] ينظر المصدر نفسه /٧٤ .

[١٤] ينظر المصدر نفسه .

[١٥] ينظر المصدر نفسه /٧٥-٧٦ .

ارتقى بها الى مستوى ابداعي مجازي، جعلها تنفلت من قبضة محددات أرادت تقييد انطلاقها وانفتاحها، لتكون في آفاق فضاءاتها وضمن مساراتها التي وفَّقَ الشاعر للاهتداء اليها.

إنّ الشاعر المتفرد بمنجزه الابداعي تعامل مع لغة شعره برؤية فنية مميزة، حرص فيها على بناء نسق شعري إئتلفت فيه الالفاظ، ليلتحق بعضها مع بعض بترابط جميل تسوده علاقات لغوية خاصة، تبدو غير مألوفة؛ لان الشاعر غادر فيها السياق البنائي التقليدي المتعارف عليه، ليتحول بها الى سياق مجازي حافل بتعدد الاحتمالات والتأويلات التي نضع اليد على أدقها وأصوبها، حين نحسن قراءتنا للنص الشعري، بما يتيح لنا الاقتراب من الابانة عما كان خافياً من نسق لغوي، برع الشاعر في نسجه، مستثمرا مجسات مهارته وموهبته في استثارة محفزات ابداعه الفني؛ ليجعل من مكتنز طاقات لغته، معنى شعرياً متسماً بجدته وطرافته وغرابته، لاجادته التعبير عنه، مستعيرا له من لغته يسير الفاظها، المانحة وافر المعاني، لتنتج الصدفة الواحدة دررا جمة، وتُقتطف من الغصن الواحد ثمار منوعة [١٦]، يُسر بها الناظر اليها ويستمتع بحلاوة مذاقها، فتترك في النفس آثار الارتياح لها، إعجاباً وتعلقاً وفرحاً، ولنا فيما قاله ابن مقبل[١٧]، ما يفسر زهو الشاعر المبدع وفخره بما صنع من قواف تفرد في ذكرها، مكابداً للظفر بها؛ ليكون لها شأنها ومنزلتها بعد موته حين ينشدها المنشدون، فيتملكهم العجب بروعتها وبلاغتها، ويأخذهم الارتياح بترديدها والتغني بها، ولا يملون تكرارها، لما بلغت من منتهى الجودة والغرابة، وهذا ما يتضح في قول ابن مقبل :

إذا مِتُّ عن ذكرِ القوافي فلن ترى ... لهـا تاليـاً مثلي أطبَّ وأشـعرا

واكثـرَ بيتـاً مـارداً ضُرِبـت لــه ... حُزونُ جبالِ الشِّعرِ حتى تيسـرا

أغرَّ غريباً يمسَحُ النـاسُ وجهَــهُ ... كما تَمسَحُ الأيدي الأَغرَّ المشَّهرا[١٨]

ويصل الشاعر في بيته الاخير الى غاية ما وصف فيه شعره من عجيب تفرده وغرابته ووضوح جماله، وقد بلغ إعجاب الناس به، إنّهم راحوا يمسحون وجهه، كما تمسح أيديهم الجواد الاغر المشهر [١٩]، على ان هذا الاقتران بين مسح وجه البيت الشعري الأغر الغريب، ومسح وجه الفرس الأغر المعروف، له دلالته المعبرة عن تميز قول الشاعر، الذي تجلت سمات تفرده،

---

[١٦] ينظر أسرار البلاغة /٤٣ .

[١٧] ابن مقبل، هو الشاعر، تميم بن أبي بن مقبل، من بني عجلان، شاعر مخضرم، ادرك الاسلام واسلم، توفي نحو ٢٥هـ، ينظر الاعلام ٧١/٢ .

[١٨] ديوان ابن مقبل / ١٣٦، أطب : أعرف، المارد : العاتي الشديد، ويريد به البيت الجيد السائر، الحزون: جمع الحزن، وهو ما غلظ من الارض في ارتفاع وخشونة، الاغر : الفرس الأبيض، المشهر : المشهور.

[١٩] ينظر الشعراء نقاداً /٢٥-٢٦ .

بجمال صورته وجودة تخيل الشاعر لنسج لغته، ليكون ما قاله (بيتاً مارداً ضربت له حزون جبال الشعر حتى تيسرا) (ويريد به البيت الجيد السائر)[٢٠] وهو بيت استحق ان يحوز على إعجاب الناس وإكرامهم لما للنفس من تعلق به وتفاعل مع سمو مضمونه، فكان سابقا غيره في الاشادة والثناء، كما كان ذلك الفرس مستحقاً لاكرام الناس وحبهم لانه جاء في مقدمة الركب، فسبق الخيل كلها .

بمثل هذا الوصف، عبر الشاعر عن قوة شاعريته ومقومات بنائه الشعري، الحافل بالاثارة والجمال، فحق له ان يفخر به، فيفصح عن براعته في اجادة نظمه، ومهارته في صوغ لغته الشعرية، فليس هناك من قافية تستعصى عليه، ونجد غير ابن مقبل من الشعراء ممن أبانوا عن اعجابهم بدرر قولهم والتباهي ببديع صنعهم ووصف اقتدارهم، وتمكنهم من ابتداع المعاني ونسج الصور، وهذا ما تجلّى في قول أبي حية النميري[٢١] :

إنَّ القصائـدَ قـد عَلِمْـنَ بأنني صَنَعَ اللسانِ بهنَّ، لا أتنَّحلُ

واذا ابتدأتُ عروضَ نسجٍ ريِّضٍ جَعَلتْ تَذِلُّ لما أُريدُ وتُسهِلُ

حتى تطاوعَني، ولو يرتاضُها غيري يحاولَ صعبةً لا تَقبَلُ[٢٢]

فيعبر الشاعر عن ثقة راسخة باقتداره الفني، فاذا ما كانت القوافي عصية على غيره، فهي سهلة مذللة معه منقادة له.

إنّ لغة الابداع يمكن ان تمنح المعنى الشعري المكتنز في الفاظها وتراكيبها، بعدا دلاليا يبقى الوصول اليه عصيا على من يظل إدراكه لفهم مضمون القول الشعري، مقيدا بحدود المعنى المعجمي، وما يرتبط بالدلالة المباشرة لمفردات لغته، على وفق الاكتفاء بتفسير معناه الظاهر، وعدم الاحتكام الى رؤية تأملية، عبر قراءة دقيقة متأنية، من شأنها ان تفضي الى فهم سليم صائب لجوهر المعنى الشعري الذي أراده الشاعر، وتوخى الابلاغ عنه، بلغته الابداعية التي تضيق فيها منحنيات تباعد الدلالة، لانها وليدة رؤية فنية، وفق الشاعر الى تبنيها وتأطير صورته الشعرية بها، لتأخذ امتدادها وبعدها، المنسجمين مع تميز شاعريته، وفي ضوء هذا كله تأتي التفاتة أبي تمام، وهو ينحو بدلالة لغته الشعرية منحى يلتبس فيه المعنى على المتلقي،

---

[٢٠] ديوان ابن مقبل /١٣٦ الهامش .

[٢١] ابو حية النميري، هو الهيثم بن الربيع بن زرارة من بني نمير بن عامر، شاعر مجيد، من مخضرمي العصرين الاموي والعباسي، توفي نحو ١٨٣هـ . ينظر الاعلام ١٠٣/٨ .

[٢٢] دلائل الاعجاز /٥١١-٥١٢ لا أتنحل: لا اغير على شعر غيري لسرقة معانيه .

حين يكتفي بقراءة قوله، بحسب الدلالة المعجمية، التي توصد أمامه سبل الفهم، فتضطره الى ان يقف موقف الرافض والمعارض، لالتفاتة أبي تمام في قوله :

لا تَسقِني ماءَ الملامِ فانَّني صَبٌ قد استَعْذَبْتُ ماءَ بُكائي [٢٣]

فالذي سمع هذا القول من أبي تمام لم يعجبه ما تضمنه من معنى، منكرا عليه ايراده (ماء الملام)[٢٤]؛ طالبا تزويده بشيءٍ منه في قارورة ارسلها اليه، وبدا أبو تمام مستعدا لتلبية رغبته والاستجابة لطلبه، لكنه اشترط عليه ان يأتيه بريشة من جناح الذل، يستعين بها؛ ليزوده بماء الملام [٢٥]، وقد قصد أبو تمام الاشارة الى قوله تعالى (واخفض لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرَّحمةِ وقل ربِّ ارحَمهُما كما رَبياني صغيرا)[٢٦] ولا شك في ان ما ذهب اليه ابو تمام، أفصح فيه عن رؤية إبداعية، اكدت الفارق الجوهري بين فهم مستند الى قراءة عابرة مكتفية بالمعنى الظاهر للتركيب اللغوي، وفهم آخر مستند الى قراءة متأنية راصدة لدلالات أنتجها نسق لغوي، برع أبو تمام في جعله وعاء لمعنى رأى فيه المتلقي غرابة وغموضا؛ لأنه استند في فهمه إلى قراءة شارحة مفسرة، لم تغادر حدود العرف اللغوي، المقيد بضوابط المعجم وقواعده، وهي ضوابط وقواعد لها أهميتها وسلامة وظيفتها، بوصفها تفصح عن منطلق الدلالة ونواة المعنى، لكن الالتزام الحرفي الدقيق بتوصيفاتها، تحجب تلك الظلال الموحية، التي تنفتح بها لغة القول الشعري على دلالات يتطلب الظفر بها جهدا استثنائيا، يقتحم عوالم الابداع عبر تفحص لغته الخاصة؛ للوقوف على ثرائها الفني وطاقاتها المشعة المنتجة، وهي لغة لا يهتدي الى مذاهب القول فيها والتصرف بعلاقات الفاظها وتراكيبها الا شاعر عبقري، يجيد التعامل معها، فيبرع في خلق علاقات لغوية، تتسم بجدتها وتفردها وتمردها على مسلمات لغوية معروفة، وهذا ما تنبه عليه الخليل بن أحمد الفراهيدي، ودعاه الى التصريح بتجنب العراقيل والعقبات أمام المنجز الابداعي؛ لأنه يرى الشاعر المبدع جديراً بأن يتصرف باساليب الكلام؛ لما له من سلطة مطلقة عليه تمنحه التعامل معه بما يشاء، وبحسب ما يراه منسجما مع نزعاته الفنية وبراعة مهارته وعبقريته، فله ما يريد، من اطلاق معناه الشعري وتقييده، بالصورة التي يقرر هو شكلها وهيئتها على وفق ما يختار لها من نظام لغوي، يحقق فيه ما كلَّ لسان غيره عن تمام وصفه وكمال نعته وما بدا عصياً على البيان والفهم[٢٧].

---

[٢٣] شرح الصولي لديوان أبي تمام ١٧٨/١ .

[٢٤] ينظر الموشح /٣٩٨ .

[٢٥] ينظر المثل السائر ١٥٥/٢ .

[٢٦] سورة الاسراء، الآية /٢٤ .

[٢٧] ينظر منهاج البلغاء /١٤٣-١٤٤ .

إن رؤية الفراهيدي تبنى فيها موقفا أكد به انحيازه لاحقية الشاعر بالتعامل مع مقتضيات لغته، على وفق أداء فني تستلزمه صنعته الشعرية، والفراهيدي في موقفه هذا، انطلق من ادراكه العميق لمعنى ان يكون الشاعر حرا في التصرف بأساليب اللغة ومذاهب قوله فيها، بلا سلطة ولا قيود، تحد من انطلاقته وتمنعه من إيراد ما يشاء من قول شعري، يفضي الى منجز ابداعي يستحق التوقف عنده وتبين مواطن الجمال والفن فيه، وما ينتج عن ذلك من فائدة، تعين على فهم البناء اللغوي المجازي، وطبيعة صورته المؤثرة في اتساع الكلام والتواصل في انتاجه، عبر رؤية فنية مميزة، يكون فيها الشعر بلغته الابداعية مرجعا للغة، فتتضاءل فرصة اللغة المعيارية، في ان تكون مرجعا للابداع الشعري، بحسب ما استقر عليه تفكير شراح الشعر ومفسريه [٢٨]، ممن شغلوا بظاهر معانيه، ولم تمتد قراءاتهم الى جوهر القول الشعري، الذي بعدت فيه غايات الشعراء، فامتدت آمالهم في معرفة الكلام المعبر عنه على اتساع مجالات قولهم، الموسوم بخواص صحته وفصاحته وصوابه[٢٩].

ولا شك في أن الشاعر يسعى بكل ما أوتي من اقتدار وتمكن من لغته، الى ان يصطفي منها تلك الأساليب، التي تجعل معالجته الفنية لموضوعه الشعري، معالجة نابعة من درايته وفهمه، لما ينبغي ان يكون عليه ابداعه نمطا فنياً، تسوده حيوية المعنى، بمثيراته المحفزة، على تعدد القراءة وتنوع مجسات الفهم، المفضية الى دلالات، ينفتح بها المعنى الشعري لآفاق لا حد لها، تتيح للمتلقي، حرية تأويلاته وفهمه، وتمنحه فرصة التأمل والعبور بذوقه الى رؤية يطمئن اليها؛ لانه اجتهد وجدّ في تبنيها والقرار عليها، وفي هذا السياق تندرج الاثارة التي يرسلها عدد من الشعراء فيما يقولون، ويحمِّلون صياغتهم الشعرية أوجهاً، تتسع فيها تأويلات الدلالة، وتتفاوت عندها صور الفهم، وربما تبلغ مستوى التقاطع بين معنى وآخر، ومثل تلك الأقوال شغل بها الفكر النقدي فاطال التوقف عندها، وقفات استفهام واستنكار، كما حصل مع أبي نواس في قوله :

يا أحمد المرتجى في كلِّ نائبةٍ قم سيدي نعصِ جبار السمواتِ [٣٠]

إذ اتهم بسببه بالزندقة، مما دعا الخليفة العباسي (المأمون) الى استدعائه، ليستجلي منه حقيقة الأمر، وماذا يمكنه ان يقول فيما اتهم به، فكان جوابه : أنى يكون زنديقاً من يقرّ أن للسموات جباراً، وهذا جواب أقنع الخليفة بسلامة موقف أبي نواس، فعفا عنه، وتُذكر لهذا الموقف رواية أُخرى، قيل فيها: إّن ابا نواس ردّ على سؤال الخليفة بسؤال آخر، قال له : أفقام يا

---

[٢٨] ينظر مفهوم الابداع / ٢٨ .

[٢٩] ينظر منهاج البلغاء /١٤٤ .

[٣٠] شرح ديوان أبي نواس ١٩٢/١ .

أمير المؤمنين ؟ فأجابه لا أدري، وقرر العفو عنه [٣١]، ويبقى تلمس المعنى، الذي تحتمله لغة الشعر، غاية مهمة يسعى اليها المتلقي، مستعينا بالشاعر، كالذي فعله الفرزدق مع من سأله عن مضمون قوله:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا   بيتاً دعائمُهُ أَعزُّ وأَّطولُ [٣٢]

فأعز مماذا ؟ وأطول مماذا ؟ فرد عليه الفرزدق بجواب أردف به سؤالاً، معبراً عن دلالة اخفاء مراده وعدم بوحه بقرينة قصده، بعد أن سمع قول المؤذن (الله اكبر) فقال لسائله أكبر مماذا أعظم مماذا ؟[٣٣] والفرزدق فيما ذهب اليه، أراد الايحاء بان اداءه الفني لصنعته الشعرية، يتقنه ويجوِّد فيه، حين يكون بارعاً في التمكن من لغته وتطويع ألفاظها، لتؤدي وظيفتها الفنية، عبر نسيج شعري، تتجلّى فيه حركية لغته وحيويتها، بميزة ما تحمله من اسئلة واستنتاجات وتصورات، تنفتح معها دلالات البنية اللغوية؛ لتستوعب مزيداً من مستويات الادراك والفهم[٣٤]، وهي مستويات يعضدها ويقويها توجه نقدي، تؤازره قراءة واعية، يستحضر فيها الناظر لاي قول شعري ذوقه المسند بادراكه ودرايته وفهمه، كي تكون رؤيته التأملية فيما يقرؤ، عابرة به حدود المعنى المباشر، الذي تكتفي عنده القراءة العابرة، مستسهلة التقاط دلالات لغته المعجمية، التي يبقى الحوم حولها والدوران في فلكها عائقاً من دون الانفلات من أسر سلطتها وقيد قبضتها، نحو أفق دلالي، تخترق مساراته ظلال، تبدو خفية غامضة للوهلة الأولى، ثم تزداد اتساعا ووضوحا، بعد طول تأمل وتفكير، يعينان على رصد أبعاد دلالات أوحى بها ذلك البناء اللغوي المتفرد، وانتجتها تلك القراءة المتأنية، وحينها تتجلى معالم الابداع، عبر صنعة شعرية، برع الشاعر في اتقانها وأجاد الافصاح عن مهارته بنسجها، حين اختار لها نظاما لغويا، تيقن من دقته وسلامة بنائه وصحة تأليفه وفصاحة تراكيبه، وهذه كلها اخضعها لمعيار ذكائه وذوقه وصحة طبعه وفطنته ونبوغه، ولهذا كان واثقا من صواب ما يقول، ألم يقف الفرزدق موقف الواثق المطمئن مما يقول، فيرد على من زعم بأنه يخطئ في شعره ردّا بليغاً، قال فيه (عليَّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا)[٣٥]، وهذا الذي قاله الفرزدق، يمكن وصفه بأنه قول تجلت فيه ثقة مطلقة، سندها موهبة فذة، تكاملت فيها مقومات الأداء اللغوي المتقن، الذي أودعه الشاعر صنعة شعرية، نحت بناءها نحتا فنيا متينا؛ لأنه امتلك مؤهلات إبداعه الشعري، فأتقن إخراجه

---

[٣١] ينظر مختارات من قطب السرور في وصف الانبذة والخمور /١١٦-١١٧ .

[٣٢] شرح ديوان الفرزدق ٧١٤/٢ .

[٣٣] ينظر العمدة ٢٥٢/١ .

[٣٤] ينظر مفهوم الابداع /٣٣ .

[٣٥] الشعر والشعراء ٨٩/١ .

بلغة أجاد انتقاء الفاظها وتراكيبها ونسيجها المجازي، الذي تتعدد فيه القراءات، لتنفتح معها دلالاتها على احتمالات وتأويلات لا حد لها[٣٦].

وستكون لنا وقفات عند عدد من أقوال الشعراء، التي رأى فيها بعض اللغويين والنقاد غير ما اراد بها قائلوها، واجدين في ذلك وهما لغويا، عدوه عيبا من عيوب الشعر، لا يصح ان يغفل عنه الشاعر، الذي ينبغي ان يحرص على سلامة شعره من اي عيب يشينه، على وفق رؤية أولئك وقراءتهم، وهذا ما يتجلى في موقف من انكر على ذي الرمة، ما تضمنه قوله :

وعينانِ قال اللهُ : كونا فكانتا   فَعولانِ بالألبابِ ما تَفعَلُ الخَمرُ [٣٧]

رواه الاصمعي (فعولين بالألباب) وأيَّد روايته من نقل عنه خبرها، وحين ذكر هذه الرواية لذي الرمة لم يقبلها منه، قائلا له : (لو شئت سبحتُ أو لو شئتَ أن أسبح لسبحتُ إنما قلتُ: وعينان فعولانِ، وصفتهما بذلك)[٣٨] .

إن اعتراض ذي الرمة وايضاحه على تأكيد رواية الرفع (فعولان) قصد به ما توخاه من معنى لقوله، إذ ربط الدلالة بحقيقة العينين وصفاتهما، فمنحهما قدرة الانفتاح على احتمالات وتأويلات يلتقطها المتلقي، عبر قراءته المتأملة المدققة، التي ترى في تلك العين قدرة على فعل، تمتد به الدلالة الى افق اكثر اتساعاً، يتجلى فيه تألق لغة الابداع الشعري؛ لأن هذا الأفق سيُفتَقَدُ حين تكون الدلالة مرتبطة بفعل خالق العينين (تبارك وتعالى)، وعندها تهبط لغة النص لتقترب الى مستوى لغة الكلام[٣٩]، وهذا ما لا يرتضيه لشعره ومعانيه، شاعر بارع ماهر من طراز ذي الرمة، عرف باتقان صنعته وإجادة وصفه، ليكون ما يقوله متسماً بخواص الأصالة والجزالة والجودة، موشحاً بلمسات إبداعه وفنه، كما عبر عن ذلك بقوله :

وشعرٍ قد أرقتُ له غريبٍ   أجنِّبُـهُ المساندَ والمُحـالا
فَبِـتُ أُقيمُه وأقدُّ منـه   قوافيَ لا أعدُّ لها مِثالا
غرائبَ قد عُرفنَ بكل أفقٍ   من الآفاقِ تُفتَعلُ افتعالا [٤٠]

ولا شك في ان هذا البناء الشعري المتقن، الذي تعهده ذو الرمة بجهد فني مميز، أقامه على أساس لغوي متين، إذ كان حريصاً على سلامة تراكيب لغته الشعرية ودقة اختيارها وصواب ما

---

[٣٦] ينظر مفهوم الابداع /٢٥ .
[٣٧] ديوان ذي الرمة ٥٧٨/١ .
[٣٨] المصدر نفسه ٥٧٩/١، وينظر مجالس العلماء /٦٦ .
[٣٩] ينظر مفهوم الابداع /٢٥ .
[٤٠] ديوان ذي الرمة ١٥٣٢/٣-١٥٣٣ .

يصف بها، ولهذا لم يكن أبو عمرو الشيباني على صواب، حين خطَّأه في بعض استعمالاته اللغوية، وما تضمنته من معان، وتابعه في ذلك الأصمعي، حين وافق على تخطئة ذي الرمة في قوله:

حتى إذا دَوَّمَتْ في الأرض أدركه كِبرٌ ولو شاءَ نجَّى نفسه الهربُ [٤١]

يصف ذو الرمة مطاردة كلاب الصيد لثور وحش، فيراها من فرط سرعتها قد طافت أرجلها في الفضاء، ولم تعد تلامس الارض محاولة، اللحاق بذلك الثور، فعاب أبو عمرو الشيباني، على ذي الرمة قوله (دومت في الأرض) معترضاً عليه بقوله: (لا يقال: دوم في الارض، انما يقال : دوى في الارض، وتابعه الأصمعي في ذلك، فقال : التدويم، ارتفاع مع استدارة، يقال دوم الطائر في السماء، ودوى السبع في الارض)[٤٢]، وهذا الذي ذهب اليه أبو عمرو وأيدّه فيه الاصمعي، انكره ابن الاعرابي، فقال (ان كان لا يقال دوم في الأرض فمن أي شئ سُميت الدوامة)[٤٣] .

فعضد ابن حمزة البصري رأي ابن الاعرابي ووافقه عليه، بقوله (وقد صدق ابن الاعرابي : دوم ودوى بمعنى وانا اقول : لو لم يكن التدويم الا في السماء لما قيل أصاب فلاناً دُوام كما يقولون : أصابه دُوار، ولما قالوا: دومة الجندل)[٤٤] .

ووقف ابو الطيب اللغوي عند قول ذي الرُّمة الذي خطّأه فيه الاصمعي، مؤكدا ان غيره من أهل اللغة أنكروا عليه ذلك؛ لانهم ذهبوا الى ان التدويم يكون في الأرض وفي السماء [٤٥]، وأشار ابن منظور الى ان تدويم الكلاب إمعانها في السير، وذكر قول ذي الرُّمة [٤٦]، مؤيدا إصابة وصفه، فيما عبّر عنه من معنى، اختار له مفردة مجانسة لم يدعها تفلت، فتمضي الى حيث دلالتها على أصل ما وضعت له، فيمسك بها ليجعلها طوع أدائه على وفق ما يستجيب لنوازعه الفنية، مجيداً تدوير المعنى، ليحيل التدويم في السماء الى التدويم في الارض، فقد برع ذو الرمة في نقل معنى التدويم من حرفيته اللغوية المعجمية الى فضاء ابداعه الشعري، محملاً تلك اللفظة فيضاً حركياً من روحه وحاسته الفنية وذوقه الجمالي المرهف، ليخرج بها الى أفق براعته، فيخترق جدار العرف اللغوي السائد، لينأى بمعالجته اللغوية عما هو متعارف عليه،

---

[٤١] المصدر نفسه ١٠٢/١ .

[٤٢] بقية التنبيهات /٩٤.

[٤٣] المصدر نفسه .

[٤٤] المصدر نفسه .

[٤٥] ينظر الاضداد /١٨٢، ديوان ذي الرمة ١٠٢/١، الهامش .

[٤٦] ينظر لسان العرب / دوم .

ليضخ في عبارته الشعرية نسقاً دلالياً عميقاً، يتسع للتعبير عن جدة صورته الشعرية وطرافتها ومهارة الشاعر في المقاربة بين تنافر أجزائها، ليوحد بينها، فتغدو بناء شعرياً متقناً مميزاً، بمثل هذا التوجه، تعامل ذو الرُّمة مع مادته اللغوية، بتطويع بارع، منسجم مع رؤيته الفنية وقدراته الابداعية[٤٧]، ومثل هذا الموقف الذي حصل مع ذي الرمة، كما حصل مع غيره من الشعراء، يستدعي ايلاء الأقوال الشعرية عناية خاصة، ترتبط بطبيعة قراءتها ونوعية هذه القراءة، التي يحتكم فيها المتلقي أو الناقد الى رؤية فكرية وبصيرة نافذة، يخترق بهما جدار ما خفي من دلالات توحي بها لغة الابداع الشعري، وهكذا قرأحازم القرطاجني قول زياد الأعجم[٤٨]:

تراه إذا ما أبصرَ الضيفَ مقبلاً　　　　يكلمُه من حبهِ وهو أَعجمُ [٤٩]

ففي الوقت الذي رأى قدامة بن جعفر في القول تناقضاً؛ لأن الشاعر أوجب الكلام للكلب ثم أعدمه [٥٠]، جاءت قراءة القرطاجني لترى فيه وجهاً آخر للتأويل يحتمله القول فيصح به المعنى، ذلك ان قصده من الكلام إشارة تفهم وحركة يُستدل بها؛ لتتضح خفايا ما في نفسه[٥١]، فأظهر الشاعر ذلك الكلب، بحال بدا فيها مرحباً بضيف مقبل، بحركات موحية معبراً بها عن صورة ما يكون عليه إكرامه والفرح بقدومه وهي صورة نسجت بأداء لغوي، انحرفت فيه الدلالة فمنحت الكلب ما ليس له، فجعلته متكلماً (وهو أعجم) .

وتنحرف الدلالة عند أبي تمام انحرافاً ابداعياً تأتي فيه استعمالاته اللغوية مثيرة للغرابة والغموض، فتجعل غير قليل من أقواله عرضةً لانكار المنكرين لمضامينها وطعنهم بها، بسبب مفارقته فيها للمعتاد من اساليب اللغة وطريقة التعبير عن معانيها، بتناول شعري تنفتح فيه الدلالة اللغوية على مزيد من التأويلات الصائبة، بحسب ما ينسج به سياق القول الشعري، كما أراد ذلك أبو تمام حين قال :

تروح علينا كلَّ يومٍ وتغتدي　　　　خطوبٌ كأنَّ الدهرَ منهُنَّ يُصرَعُ[٥٢]

وهذا ما لم يقبل منه، فأعابوا عليه قوله، وبلغ إنكار من أنكره وعارضه فيه الى رميه بالجنون؛ لأنه ارتضى لنفسه ان يقول مثل هذا القول، الذي بان فيه إسرافه فيما دلّ عليه من

---

[٤٧] ينظر بائية ذي الرمة /٨٩-٩٠ .

[٤٨] زياد الأعجم، هو زياد بن سليمان او سليم، أبو أمامة العبدي، مولى بني عبد القيس، شاعر أموي، جزل الشعر، فصيح الالفاظ، كانت في لسانه عجمة، فلقب بالأعجم، توفي نحو ١٠٠هـ . ينظر الاعلام ٥٤/٣ .

[٤٩] شعر زياد الأعجم /١١٣ .

[٥٠] ينظر نقد الشعر / ١٩٩ .

[٥١] ينظر منهاج البلغاء /١٤٠ .

[٥٢] شرح الصولي لديوان أبي تمام ١٠/٢ .

معنى، باعد بينه وبين ما استعار له من الفاظ[٥٣]، فمن وقف عند قول ابي تمام مستغرباً منكراً، لم يستوعب هذا المنحى المجازي الذي سلكه الشاعر في استعماله اللغوي، لأنه قرأ القول قراءة حمل فيها معنى الفاظه على وفق دلالة معجمية، بدت منقطعة الصلة بدلالة لغة الشعر المجازية، بحسب ما وضعت فيه من سياق أجاز الفتك بالدهر أو صرعه فقول أبي تمام يمكن ان توجه به دلالات النيل من الدهر، بما يحصل من انهيار عند مواجهة المخاطر والشدائد، وما يحصل من إخفاق، فيما يصبو اليه الانسان ويتطلع، للظفر بما يأمل ويتمنى، فهذه كلها استحضرها الشاعر عبر رؤيته الابداعية، فتمثلها بمصرع ما لا يمكن صرعه ولا قهره، وهي رؤية أراد بها أبو تمام الايحاء الى ان بعض الخطوب لشدتها وعظمتها وقساوتها يعذر من يعجز عن مواجهتها[٥٤]، وهذه الرؤية المفارقة لما هو معتاد من سياق المعنى المعجمي، تظل خافية على من يكتفي بالتعامل معها تعاملا سطحياً مباشراً، يفرضه انغلاق الدلالة المعجمية، بقيود تحد من حرية الانطلاق الى رحاب فضاءات الابداع، التي يسعى الشاعر الى التحليق في مساراتها؛ ليظفر بشوارد صور ومعان، تعّز على الادراك والفهم، فتبقى مثار غرابة وقطيعة، كان نصيب أبي تمام منها كبيراً؛ لذا ظلّت بعض أشعاره حججا عليه، حين اتخذ منها عدد من النقاد المعارضين لنهجه الشعري، مسوغا للطعن في شاعريته والتشكيك بقدراته، فلما قال :

تكادُ عطاياهُ يَجِنُّ جنونُها إذا لم يُعوِّذْها بنغمةِ طالبِ [٥٥]

عيب عليه ما تضمنه قوله؛ لأن عطاياه تترقب من يطلبها، كي يجن جنونها [٥٦]، وبسبب هذا الفهم لمعناه عُدّ القول من جنون أبي تمام، كما أشير الى ذلك في قول مر، ويقف القاضي الجرجاني عند هذا القول، منتقداً أبا تمام[٥٧]، لأنه جعل عطاياه محتاجة الى الجنون، ملتمساً لها تعويذة للخلاص، منتظراً بها نغمة طالبها[٥٨].

إن ما قيل في مضمون قول أبي تمام، بُنِيَ على ما أفصحت عنه لغته، عبر نسق ألفاظها، التي قيد نظام العلاقات بينها، بترابط معانيها المعجمية المحددة بفسحة تفسيرية لا مجال لتجاوزها والعبور بها الى أفق أوسع، أراده لها ابو تمام، انطلاقاً من رؤية ابداعية تميز بها، وهو ينتزع لصنعته الشعرية لغة تفردت بأداء فني، أوحت مفرداتها بدلالات، نقلها الشاعر الى خياله

---

[٥٣] ينظر الموشح /٣٩٦ وفيه يكاد الدهر، كتاب الصناعتين ٣٠٣-٣٠٤ .

[٥٤] ينظر مفهوم الابداع /١٧٨ .

[٥٥] شرح الصولي لديوان أبي تمام ٢٨١/١ .

[٥٦] ينظر الموشح /٣٧٧ .

[٥٧] ينظر المصدر نفسه /٤١٩ .

[٥٨] ينظر الوساطة /٧٥-٧٦ .

الخصب، كي ينسج منها صورة يصعب تمثلها والاحاطة بجوهرها وكشف خفاياها وعلاقات بنائها، وهو يعرض لكرم ممدوحه، فيرى تدفق عطاياه وهدير سيلها بصخبه وضجيجه وشدته، كأن به مساً من جنون، لن يهدأ الا حين يكون بين يدي من يسعى اليه، (بمثل هذه الصور التخييلية الجديدة يكون أبو تمام قد اجهد النقاد في فهم ما يبدعه)[٥٩]، ولهذا كان توجهه منصباً على اشراك متلقي شعره في إدراك مضامينه، وفهم مقاصده منها، فحين سأله رجل (يا أبا تمام لم لا تقول من الشعر ما يعرف، قال : وانت لم لا تعرف من الشعر ما يقال)[٦٠] ؟ وهو هنا، يكون قد تبنى دعوة مفادها، ضرورة تدبر القول الشعري، والتمعن في مضمونه، وفهم بنائه اللغوي، عبر قراءة واعية، تكشف عن دلالاته المكتنزة بسياق لغته الابداعية التي اجاد الشاعر صنعها وتصوير أخيلته بها وتتجلى اهمية هذه الدعوة، في ان متبنيها شاعر فنان، ماهر، تجلت براعته، فيما اصطفى لعبارته الشعرية من الفاظ احتواها معجمه اللغوي، الذي استقى من خزينة النثر، لغة شعرية ارتقت دلالات تراكيبها، لتعبر تعبيراً دقيقاً عن رؤيته التخييلية، المستمدة من عقل متوقد الذكاء وطبع شعري غني بحوافز الهامه ومثيرات ابداعه، ويلتحق بأبي تمام جمع كبير من الشعراء، ممن أثروا منجزهم الشعري، بصور شعرية لها تميزها؛ لفرادة ما تضمنته من معانٍ، تمكن الشاعر من اقتناصها، عبر صياغة لغوية، أظهر بها قوله الشعري بهذه الصورة المتفردة في عمق المعنى وتنوع دلالاته، وهو فعل إبداعي، تمخض عن جهد فكري وفني خلاق، يحتاج الى جهد خلاق موازٍ له، يبذله المتلقي، كي يقف على حقيقة مراد الشاعر، بقراءة نافذة واعية، تعبر بالدراية والفهم الى مستوى، تزول عنده حجب الخفاء والغموض، التي بدا المعنى الشعري متناهياً فيها على وفق ذلك الاستعمال اللغوي المميز، كما مر بنا، فيما عرضنا من أقوال شعرية، نحا فيها قائلوها، مثل هذا المنحى الابداعي، الذي وقفنا على أسبابه واسراره وخفاياه ومقاصده، وهي أسرار وخفايا ومقاصد، تتصل – في امتدادها وعمقها – بطبيعة الأداء اللغوي الذي تبناه الشاعر، فعرض به نصه الابداعي، محملاً اياه دلالات، سعى للظفر بها، عبر ما بذل من جهد استثنائي، اراد فيه ان يكون منجزه الفني، بمستوى ما يطمح اليه، من ألق الابداع والاقتدار اللائق باسمه وبمقامه، ولهذا نجده حريصاً على تميز قوله الشعري، بما يجعله محتفظاً بصورة ألقه وديمومة أصالته وخلود ذكره، فهو يفرض حضوره في كل زمان، حين يتمثل به المتذوقون والمعجبون، الواجدون فيه ثراء وخصباً وغنى ومتعة ومنفعة، فلا يملون إنشاده وتكرار قوله، اعجاباً وانفعالاً وتفاعلاً؛ لانه نتاج مخاض ابداعي مميز لشاعر فنان، ظفر به قارئ مبدع نابه، فتبادل الاثنان إكراما مستحقاً، لائقاً بهما .

---

[٥٩] مفهوم الابداع /١٨٠ .

[٦٠] الموشح /٤٠٠ .

المصادر:

القرآن الكريم

- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، جدة، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .
- الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب اللغوي (٣٥١هـ) تحقيق الدكتور عزة حسن، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م .
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين – بيروت ط١٤، ١٩٩٩م.
- بائية ذي الرمة، قراءة في براعة الأداء ومهارة الفن، الدكتور سحاب محمد الأسدي، مكتب نور الحسن للطباعة، بغداد، ط١، ٢٠١٥م.
- بقية التنبيهات، علي بن حمزة البصري (٣٧٥هـ) تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩١م .
- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .
- ديوان ابن مقبل، تحقيق الدكتور عزة حسن، دمشق، ١٣٨١هـ – ١٩٦٢م .
- ديوان ذي الرمة، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الايمان، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .
- شرح ديوان أبي نواس، إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٧م .
- شرح ديوان الفرزدق، عنى بجمعه وطبعه والتعليق عليه عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، ط١، ١٣٥٤هـ – ١٩٣٦م .
- شرح الصولي لديوان أبي تمام، تحقيق خلف رشيد نعمان، ط١، وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٧م .
- شعر ابن ميادة، جمعه وحققه الدكتور حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.
- شعر زياد الأعجم، تحقيق الدكتور يوسف حسين بكار، دار المسيرة، دمشق، ط٣، ١٩٨٣م .
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢٧٦هـ) تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٨٢م.
- الشعراء نقاداً، الدكتور عبد الجبار المطلبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق (٤٥٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م .
- كتاب الصناعتين، ابو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي محمد ابو الفضل ابراهيم، الطبعة المصرية، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .
- لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، مطبعة المعارف، مصر، بلا تاريخ .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الاثير (٦٣٧هـ) تحقيق الدكتور احمد الحوفي، الدكتور بدوي طبانة مطبعة نهضة مصر ط١، ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م .
- مجالس العلماء، ابو القاسم الزجاجي، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، القاهرة، ط٢، ١٩٨٣م.
- مختارات من قطب السرور في أوصاف الانبذة والخمور، إبراهيم بن القاسم القيرواني (نحو ٤١٧هـ) مؤسسة الانتشار العربي ط١، ٢٠٠٨م .
- مفهوم الابداع الشعري في التراث النقدي عند العرب الى نهاية القرن السابع الهجري، اطروحة دكتوراه، سعد عبد الحمزة الجبوري، كلية الآداب جامعة بغداد ٢٠١٣م .
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الاسلامي، ط٣، بيروت، ١٩٨٦م .
- الموشح، المزرباني (٣٨٤هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، بلا تاريخ .
- نقد الشعر، قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني (٣٣٦هـ) تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٤، ١٣٨٦هـ – ١٩٦٦م .

التَّعقِيبة بين المعجم وواقع الاستعمال

الدكتور محمد جمعة الدِّربيّ
باحث معجميّ وعضو اتحاد كتاب مصر

الملخص:

يهدف البحث إلى دراسة كلمة(التعقيبة) بين المعجم والاستعمال، من خلال المنهجين التاريخيّ والنقدي.

ويتكوَّن البحث من مقدِّمة وثلاثة محاور:

المُقدِّمة تتناول الهدف من البحث، والدِّراسات السابقة عليه، والمنهج العلميّ المتبع، ومحتويات البحث.

والمحور الأول بعنوان: التعقيبة والتعريف المعجميّ.

والمحور الثاني بعنوان: التعقيبة وفوائت المعجم.

والمحور الثالث بعنوان: التعقيبة وتحقيق النصوص.

ويتلو هذه المحاور الخاتمةُ والتوصيات بأهم النتائج التي توصَّل إليها البحث، ثم بعض مصادر البحث ومراجعه.

الكلمات المفتاحيَّة: التعقيبة – المعجم – تحقيق – الاستعمال – فوائت.

المقدِّمة:

يُخطئ خطأ كبيرًا من يظنُّ أن المعجم – أيَّ معجم – يستوعب كلَّ الألفاظ المتوقَّع وجودها بين دفَّتيه؛ فما بالنا بدلالات الألفاظ؟

ومن هنا ظهر الاستدراك على المعاجم، وإن اعترى بعض المستدرِكين شيء من الجرأة ونقص الاستقراء حين ظنَّ بعضهم أن خلوَّ المعاجم المشهورة مثل لسان العرب لابن منظور من استعمال معيَّن، مسوِّغ للاستدراك، بل سلك بعضُ المستدرِكين مسلكًا أضلَّ؛ حيث توهَّموا أن خلوَّ المادة المعجميَّة في المعاجم من لفظ معيَّن مسوِّغ للزَّعم بأنَّ هذا اللفظ لم يرِد في المعاجم!

ويعالج البحث مصطلح (التعقيبة) موضِّحًا دلالته القديمة والحديثة، وتعامُل المعاجم معه قديمًا وحديثًا.

وقد اتبع البحث المنهجين التاريخيّ والنقديّ؛ حيث تتبَّع كلمة(التعقيبة) في المعاجم القديمة والحديثة، وجاء البحث في ثلاثة محاور:

المحور الأول: التعقيبة والتعريف المعجمي.

والمحور الثاني: التعقيبة وفوائت المعجم.

والمحور الثالث: التعقيبة وتحقيق النصوص.

ويتلو هذه المحاور الخاتمةُ والتوصيات بأهم النتائج التي توصَّل إليها البحث، ثم بعض مصادر البحث ومراجعه.

وأرجو أن يكون البحث محفِّزًا لإثبات لفظ(التعقيبة) بدلالاته المختلفة في المعاجم الحديثة ومنها المعجم الكبير أكبر معاجم مجمع اللغة المصريّ الذي صدر الجزء الأول منه في نسخته التجريبيَّة عام ١٩٥٦م، ولم يصدر منه حرف العين حتى يومنا هذا! والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

المحور الأول

التعقيبة والتعريف المعجمي

التعقيبة في عُرف المهتمِّين بالمخطوطات وتحقيقها هي" الكلمة التي تُكتَب في أسفل الصفحة اليمنى غالبًا؛ لتدلَّ على بدء الصفحة التي تليها"[١]، والصفحة اليمنى ظهرٌ للورقة، أو هي الوجه(أ) للوحة في مقابل الصفحة اليسرى التي يعبَّر عنها بالوجه(ب) للوحة.

وعند التفصيل يمكن وصفُ التعقيبة بأنها " الكلمة التي كانت قديمًا تُكتَب في أسفل كل صفحة ثانية من كل ورقة من الكتاب تحت آخر السطر الأخير منها، وتعاد مرَّة أخرى في أول الصفحة الأولى من الورقة التالية فوق أول السطر الأول منها؛ لتدل على أن الكلام متصل وعلى أنه لم يسقط شيء من الأوراق بين الصفحتين؛ أي بين ورقتيهما"[٢].

وقد تُسمَّى الورقة– تسامُحًا أو تجاوُزًا– لوحةً؛ فيقال إنَّ التعقيبة " هي أن يكتب الناسخ في نهاية كل لوحة الكلمةَ التي تبتدئ بها اللوحة التالية؛ لتنبيه القارئ إلى ربط الكلام في بداية اللوحة التالية بما سبق في اللوحة التي قبلها"[٣].

وقد عرَّف معجم مصطلحات المخطوط العربيّ التعقيبة بأنها" نوع من الترقيم استعمله القدماء لترتيب مؤلَّفاتهم، وتسمَّى الرقَّاص والوصلة، وهي أن يُثبت الناسخ في نهاية الصفحة تحت آخر كلمة من السطر الأخير(أول كلمة) في الصفحة الموالية. التعقيبة المضادَّة هي أن يُثبت الناسخ في بداية الصفحة (الكلمات) الأخيرة من الصفحات السابقة"[٤].

---

[١] تحقيق النصوص ونشرها– عبد السلام هارون– مكتبة الخانجي– القاهرة ط١٩٧٧/٤م. ص٤١.

[٢] لسان المحدثين– محمد خلف سلامة– ملتقى أهل الحديث بالمكتبة الإلكترونيَّة الشاملة.

[٣] الفوائد الجسام لابن رسلان الكناني(ت٨٠٥هـ)– تحقيق الدكتور محمد يحيى– وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية– قطر ط٢٠١٣/١م.ص١٠٦.

[٤] معجم مصطلحات المخطوط العربي: قاموس كوديكولوجي– تأليف شوقي بنبين ومصطفى طوبي– الخزانة الحسنيَّة– الرباط ط٢٠٠٥/٣م.ص٩٣.

وقد اقتصر المعجم– مع التطويل– على مرادفين اثنين فقط للتعقيبة التي جعلها(كلمـة)، وعلى شكل واحد لها وهو التعقيبة المضادَّة التي جعلها (كلمات)، وفي تعريفه تقييد للتعقيبة بأنها من عمل النسَّاخ وحدهم!

ويبدو لي أن تعريف الأستاذ هارون أفضل التعريفات السابقة إيجازًا واحترازًا؛ لأن كلمة(غالبًا) تراعي بعض الحالات التي يخلو فيها المخطوط من التعقيبة(٥)، أو تكون تعقيبتُه بين الكُرَّاسات فقط، أو تحتوي ورقتُه على تعقيبتين إحداهما في الوجه والأخرى في الظَّهر زيادةً في الحرص. وربما يشير الاحتراز بكلمة(غالبًا) إلى الورقة الأخيرة من المخطوط التي قد تقع تعقيبتُها في أسفل الوجه (الصفحة اليسرى من اللوحة)؛ للدلالة على أول كلمة من ظهر الورقة(٦).

ولكن يؤخذ على تعريف الأستاذ هارون حصرُه التعقيبة في (كلمة) اسمًا وفعلًا وحرفًا! والصواب أنها (كلمة أو أكثر)؛ فقد تأتي التعقيبة في صورة مضاف ومضاف إليه مثل: (عندهم) و(ابن كثير)، أو جارّ ومجرور مثل: (لبعض) و(من عادة) و(عنه)، أو فعل ومفعوله مثل: (قاله)، أو حرف عطف وفعل مثل: (واشتقَّتْ) و(سبقَ)، أو حرف ناسخ واسمه ومضاف إليه مثل: (أن أصلَه)(٧)، أو غير ذلك من نماذج رآها الأستاذ هارون في عشرات المخطوطات التي اطَّلع عليها.

ويؤخذ أيضًا على تعريف هارون إغفالُه الأشكالَ الكتابيَّة للتعقيبة؛ فهي غالبًا مفصولة عن السطر الأخير أفقيَّة أو مائلة في اتجاه هابط أو صاعد، وربما تُكتَب عموديَّة، وتجيء أحيانًا عكسيَّة مضادَّة بتكرار كلمة أو أكثر من آخر سطر بظهر الورقة في وجه الورقة التالية(٨)، فضلًا عن مجيء بعض التعقيبات مُزخرَفة؛ حيث يوضع سطر فوق التعقيبة أو تصحبها فاصلة مقلوبة مدوَّنة بالمداد الأحمر(٩).

ويصعب الاتفاق مع د.شوقي بنبين في قوله: التعقيبة " تكون على العموم أفقيَّة أو مائلة في أسفل الجهة اليسرى من الورقة أو في وسطها"(١٠)؛ والتعبير الدقيق (أسفل يسار الصفحة

---

(٥) لأسباب منها مقصّ التجليد أو غياب فكرة التعقيبة عن بعض دُور النِّساخة.

(٦) أرشيف ملتقى أهل التفسير بالمكتبة الإلكترونيَّة الشاملة.

(٧) راجع النماذج المذكورة في مسوَّدة كتاب عبد القادر البغداديّ (توجيه قراءة ابن محيصن في الإستبرق) الذي صدر بتحقيقي في الهيئة المصريَّة العامة للكتاب– القاهرة ط٢٠١٩/١م.

(٨) وربما يظنُّ بعض المبتدئين أن التكرار هنا خطأ من الناسخ!

(٩) راجع: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربيّ– فرانسوا ديروش– نقله إلى العربية وقدَّم له الدكتور أيمن فؤاد سيد– مؤسسة الفرقان للتراث الإسلاميّ –لندن ط٢٠٠٥/١م. ص١٦٩: ١٧٠.

(١٠) بحثه: التعقيبة في المخطوط العربي– المجلد ١٤ العدد ٥– مجلة عالم الكتب– دار ثقيف– الرياض ط١٩٩٣/١م. ص٥٢١.

أو أسفل وسطها)؛ ويخلط –أو يزاوج– بعض الباحثين بين الصفحات واللوحات؛ ويمكن التمثيل بقول أحدهم: " نجد في التعقيبة أسفل الصفحة كلمة (في)، وفي اللوحة المقابلة ذكر الأوجه السبعة"[١١]!

ويصعب الاتفاق مع الأستاذ محمد علي عطا الذي عرَّف التعقيبة بأنها: " الكلمة التي تحلُّ محلَّ ترقيم ورق المخطوطة، وتوضع في آخر الصفحة الوجه(!) لتدل على أن اللوحة(!) القادمة ستبدأ بها"[١٢]؛ ففي هذا التعريف خلط بين الصفحات واللوحات؛ وقد تبيَّن أن التعقيبة توضع في آخر الصفحة اليمنى التي هي ظَهر الورقة؛ لتربطها بوجه الورقة التالية! وربما يُوهِم كلام الأستاذ عطا أن التعقيبة لم تظهر في المطبوعات! والواقع يؤكِّد استمرار نظام التعقيبة بجانب الترقيم العدديّ في جُلّ المطبوعات الحجريَّة، ومطبوعات بولاق ودائرة المعارف العثمانيَّة، وبعض المصاحف المطبوعة حديثًا؛ تمسُّكًا بتقاليد المخطوطات، أو جمعًا بين الوسيلتين، أو شعورًا بأن نظام التعقيبة في الأوراق أقوى من ترقيمها بالأرقام أو الحروف[١٣].

المحور الثاني

التعقيبة وفوائت المعجم

للتعقيبة بالمعنى المشهور في عُرف المهتمِّين بالمخطوطات وتحقيقها مُرادفاتٌ منها الكعب، والوَصْلة، أو الرَّقَّاص في الاصطلاح المغربيّ العتيق، أو التَّرْك والرَّكَّاب في اصطلاحات علماء الهند[١٤]. وقد خَلَت المعاجم العربيَّة القديمة من لفظ التعقيبة، على الرَّغم من سماعها في المَثَل العربيّ: " تَعقيبة خيرٌ من غَزاة "[١٥]؛ أي: معاودة الغَزو وتكراره في السَّنة خيرٌ من الغزوة الواحدة. وثبوتها كذلك في التراث الأدبيّ مثل: " ثم أتبعتم رَحْلَ المرَّة بالحقيبة، وجهادَ الشيطان الناعق بالتَّعقيبة"[١٦].

واستدرك رينهارت دوزي فقال في تكملته: " بلسم التعقيبة: صمغ الكبيبة... ... سَيَلان

---

[١١] راجع بالمكتبة الإلكترونيَّة الشاملة: أرشيف ملتقى أهل التفسير، وأرشيف منتدى الألوكة، وأرشيف ملتقى أهل الحديث(٤).

[١٢] مخطوطة مجهولة لكتاب الملاحن– العدد ٢– مجلة المخطوطات الثقافية– معهد المخطوطات العربية– القاهرة ط/٢٠١٩م. ص٦٩.

[١٣] وقد عرفَت المخطوطات العربيَّة ترقيم الكراريس بجانب تعقيبة الكراريس؛ للدلالة على تسلسلها.

[١٤] آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي اليماني– اعتنى به مجموعة من الباحثين– دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع– الرياض ط١/١٤٣٤هـ. جـ٢٣/٢٥.

[١٥] الفائق للزمخشري– حقَّقه أبو الفضل إبراهيم والبجاوي– عيسى الحلبي– القاهرة ط٢(د.ت). (ع ق ب) جـ٣/١٢.

[١٦] ريحانة الكُتّاب للسان الدين بن الخطيب– تحقيق محمد عبد الله عِنان– مكتبة الخانجي بالقاهرة ط١/١٩٨٠م.ص٣٢٣.

فرنجي[١٧]: حُرْقة البول، تعقيبة"[١٨]، ويُحسَب له استدراك معنيين جديدين، والاشتقاق واضح في المعنيين؛ فالسَّيَلان والصَّمغ يتتابع بعضُه عقب بعض، ولكن يؤخذ على دوزي غفلتُه عن المعنى المشهور للتعقيبة!

ومن العجيب حقًّا تقصير المعاجم اللغويَّة العامَّة الحديثة التي جاءت بعد تكملة دوزي؛ فالمعجم الوسيط أشهر معجمات مجمع اللغة العربيَّة بالقاهرة لم يذكر لفظ التعقيبة أصلًا؛ ففاته المعنى المشهور بين المحقِّقين والمعنيان اللَّذان استدركهما دوزي! وكان في إمكان المعجم الوسيط- وقد ذكَر كلمات كثيرة أقلَّ استعمالًا من التعقيبة- أن يذكر المعنى الصرفيّ للكلمة؛ فهي اسم مرَّة من التعقيب بمعانيه المختلفة، لا سيَّما أن الوسيط ذكر هذا المعنى لبعض الكلمات مثل: "الجَرْعة المرَّة من الجَرْع"، و " الجَلْسة مَرَّة الجلوس"، و " العَرْكة المرة؛ يقال: لقيتُه عَرْكة بعد عَرْكة :مَرَّة بعد مَرَّة، والمرَّة من القتال"، و" اللَّقْمة: اللُّقْمة، وما يُلقَم في مَرَّة"، و" النَّهْلة؛ يقال: ما سُقي إلا نهلةً: مَرَّةً واحدةً"[١٩]؛ ولا يخفى القصور الناتج عن متابعة المعاجم القديمة؛ ولعلَّ المجمع الموقَّر يُدرج كلمة (التعقيبة) في المعجم الكبير الذي بدأ فيه المجمع قبل عام ١٩٥٦م ولم يصل في الأجزاء المطبوعة المتاحة لجمهور القرَّاء حتى الآن إلى حرف العين!

وأمّا معجم اللغة العربية المعاصرة فلم يذكر التعقيبة في مادَّتها المعجميَّة، لكنه قال في تعريف الغُدَّة: " غُدَّتا الفرج: (شر) هما الغُدَّتان الواقعتان في مدخل المهبل وفيهما تعشِّش جُرثومة التعقيبة، وتكون الواحدة عادةً بحجم حبة الأرز، إلا أنها تبلغ في حالة الوَرَم حجم البيضة"[٢٠]، ويُحسَب له ذكرُ كلمة(التعقيبة) ضمن أحد مصطلحات علم التشريح الذي اختصره في الرمز(شر)، ولكن يؤخذ عليه إهمال الكلمة في مادَّتها المعجميَّة؛ فالمعجم الناجح يفتح مدخلًا لجميع الألفاظ التي ترِد في شرح المداخل المعجميَّة الأخرى! وكان المتوقَّع من هذا المعجم ذكر المعاني الأخرى المشهورة للكلمة، أو المعنى الصرفيّ لا سيَّما أنه ذكر المعاني الصرفيَّة لبعض الكلمات مثل: "بَوْسة [مفرد]: ج بَوْسات وبَوَسات: اسم مَرَّة من باس: بُوسة،

---

[١٧] بلا ضبط! ولعلها (فِرِنْجي) أو (إفرنجِي)؛ حيث ينتج السَّيلان عن ميكروبات منها استعمال المرحاض الإفرنجي، ولعلَّ الأصل بلفظ: (فَرْجِيّ) نسبة إلى الفَرْج؛ تمييزًا للإفرازات السائلة من فتحات أخرى كالأنف والفمّ.

[١٨] تكملة المعاجم العربية- نقله إلى العربية د.النعيمي وأ.الخياط- مطبوعات وزارة الثقافة - بغداد ط/٧٨-٢٠٠١م. (ب ل س م) جـ١/٤٢٦، (س ي ل) جـ٦/٢١١، (ع ق ب) جـ٧/٢٥٠.

[١٩] المعجم الوسيط- مطبوعات مجمع اللغة العربية- القاهرة ط٣/١٩٨٥م. (ن هـ ل) جـ٢/٩٩٨، وانظر: (ج ر ع) جـ١/١٢٢، (ج ل س) جـ١/١٣٥، (ع ر ك) جـ٢/٦١٨، (ل ق م) جـ٢/٨٦٨.

[٢٠] معجم اللغة العربية المعاصرة- د.أحمد مختار عمر بمساعدة فريق كنتُ واحدًا منهم - عالم الكتب- القاهرة ط١/٢٠٠٨م.(غ د د) جـ٢/١٥٩٦.

قُبلة"[٢١]، ولا يخفى أثر السَّير في رِكاب المعجم الوسيط!

ومن هنا وجب استدراك لفظ(التعقيبة) على المعجم العربيّ الحديث بدلالاته المصطلحيَّة القديمة والحديثة، ودلالاته العامَّة لا سيَّما ما ظهر منها في الاستعمال المعاصر؛ ويمكن التمثيل بالإعلام العربيّ المعاصر الذي يُطلِق على بعض العمليَّات العسكريَّة لتصفية الإرهاب تعبير(عمليَّات تَعقيبة).

المحور الثالث

التعقيبة وتحقيق النصوص

يجب على الباحثين المبتدئين التفريق بين أوراق المخطوطة وصفحاتها وبين لوحاتها المصوَّرة؛ لأن العزو إلى الأصول المخطوطة يكون بأوراق وصفحات المخطوطة نفسها[٢٢]؛ فالورقة(٢٠أ) مثلًا تعني وجه الورقة(٢٠) وهو يمثِّل الوجه الثاني أو الصفحة اليسرى من اللوحة المصوَّرة. أمّا الورقة(٢٠ب) فتعني ظهر الورقة(٢٠)؛ وهذا الظَّهر هو الصفحة اليمنى للوحة التالية[٢٣]، وفي أقصى اليسار من أسفل هذه الصفحة الظَّهْر يوجد نظام التعقيبة غالبًا، ذلك النظام الذي قام مقام الترقيم العدديّ، وساعد في ترتيب الكتاب عند ترميمه وتجليده[٢٤]، وكشَف عن جانب من عبقريَّة التأليف العربيّ؛ حيث حرَص المؤلِّفون والنسَّاخ والورَّاقون على تسلسل الأوراق المتناثرة التي يستخدمونها، وعلى مجيء كل ورقة عقِب أختها؛ كي يتصل الكلام.

واتصال الكلام يعني أن التعقيبة إحدى وسائل معرفة ما في المخطوط من خَرْم لكنها ليست الوسيلة الوحيدة؛ فربَّما تتفق التعقيبة في آخر ورقة مع أول ورقة أخرى غير التي يجب أن تليها، وربما تسقط ورقة أو يقع تقديم وتأخير؛ فيكتب مالك النسخة– عجلةً أو جهلًا

---

[٢١] السابق(ب و س) جـ١/٢٦٢، وانظر(أ ك ل) جـ١/١٠٨، (ع ر ك) جـ٢/١٤٨٩، (ل ق م) جـ٣/٢٠٢٩، (ن هـ ل) جـ٣/٢٢٩٦.

[٢٢] ومعلومٌ أن عدد اللوحات أكثر؛ إذ يشمل الأوراق التي لا مكان فيها للتعقيبة مثل الغلاف والعنوان، كما أن الورقة الواحدة تصوَّر في لوحتين. وفي الوصف الكوديكولوجيّ للمخطوط يُعوَّل على الأوراق والصفحات.

[٢٣] وقد يُعبَّر عن الوجه بالرمز(و)، وعن الظهر بالرمز(ظ)؛ فيقال:(٢٠/و)، و(٢٠/ظ)؛ وفي أعمال المحقِّقين العرب والمستشرقين نماذج كثيرة لدقة العزو إلى أصل المخطوط.

[٢٤] ونعترف ببعض الخَلَل في نظام التعقيبة؛ فقد ينسى المؤلِّف أو الناسخ التعقيبة في بعض الأوراق، وهو ما يوصف بعدم الالتزام، وربما يقع الخلط بين شكلين من أشكال التعقيبة؛ ويمكن التمثيل بمسوَّدة كتاب (توجيه قراءة ابن محيصن في الإستبرق)؛ حيث انتهى السطر الأخير من ظهر الورقة قبل الأخيرة بجملة (الحمد لله)، وبدأ السطر الأول من وجه الورقة الأخيرة بالجملة نفسها، على الرغم من وجود التعقيبة المائلة الهابطة (رب)، وهي الشكل الملتزَم في المسوَّدة!

[٢٥] وتفيد التعقيبة أحيانًا في معرفة الكاتب الذي قد يكون المؤلِّف أو الناسخ أو أحد المعلِّقين على المخطوط أو غيرهم.

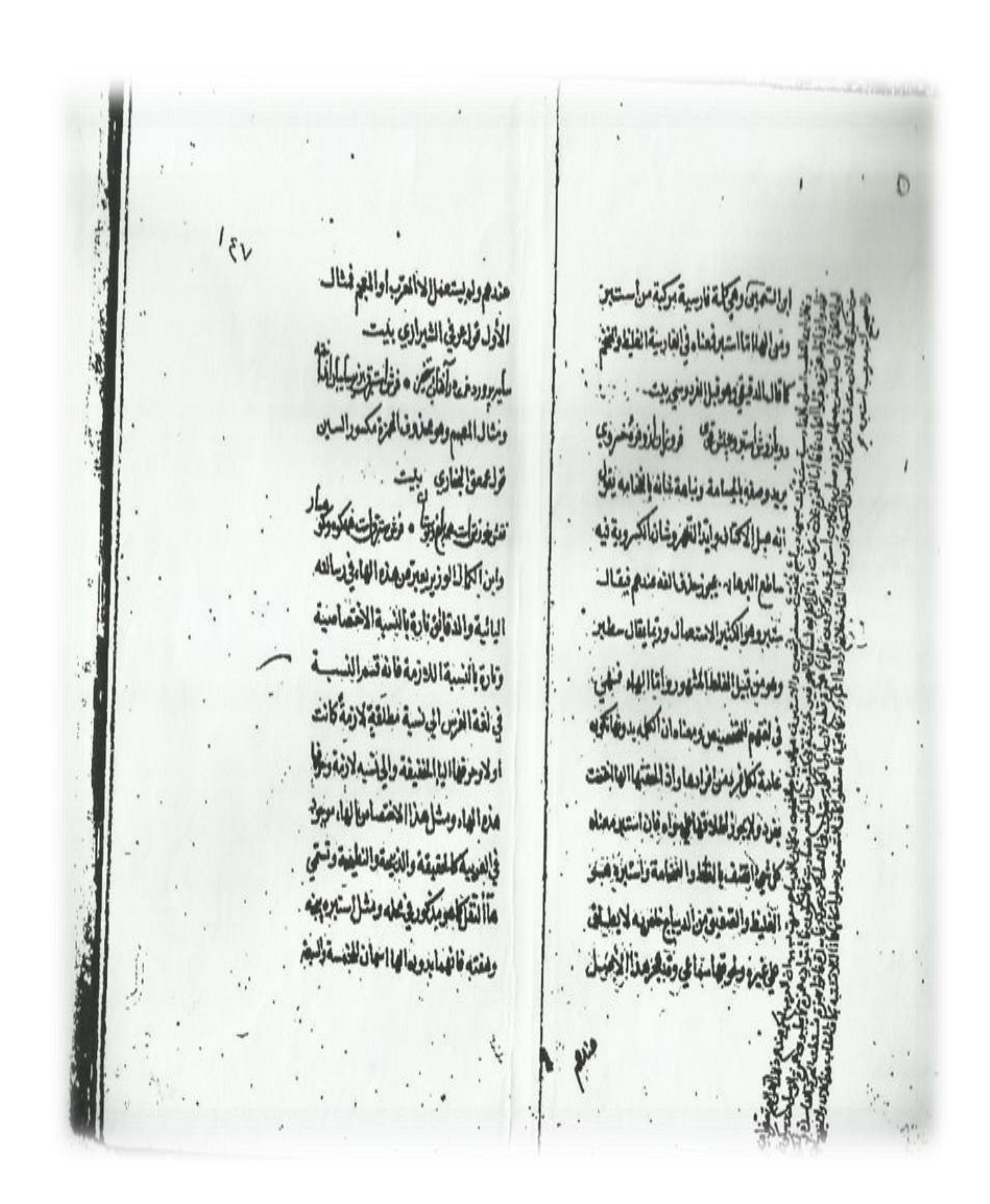
أو غِشًّا – في آخر الورقة مثلَ الكلمة التي في أول الورقة التالية لها! وكم من نُسْخة نفيسة كاملة خلَتْ من التعقيبة! وكم من نسخة التُزم فيها نظام التعقيبة سقَط منها الكثير الذي لم يظهر إلا بالسياق أو بمقابلة النسخة بنسخ أخرى!

وهذه الفوائد للتعقيبة يجب الإفادة منها في تحقيق النصوص ومنها النصّ المعجميّ، ويجب أيضًا استثمارها في تغذية المعاجم المتخصصة في علم المخطوط العربيّ.

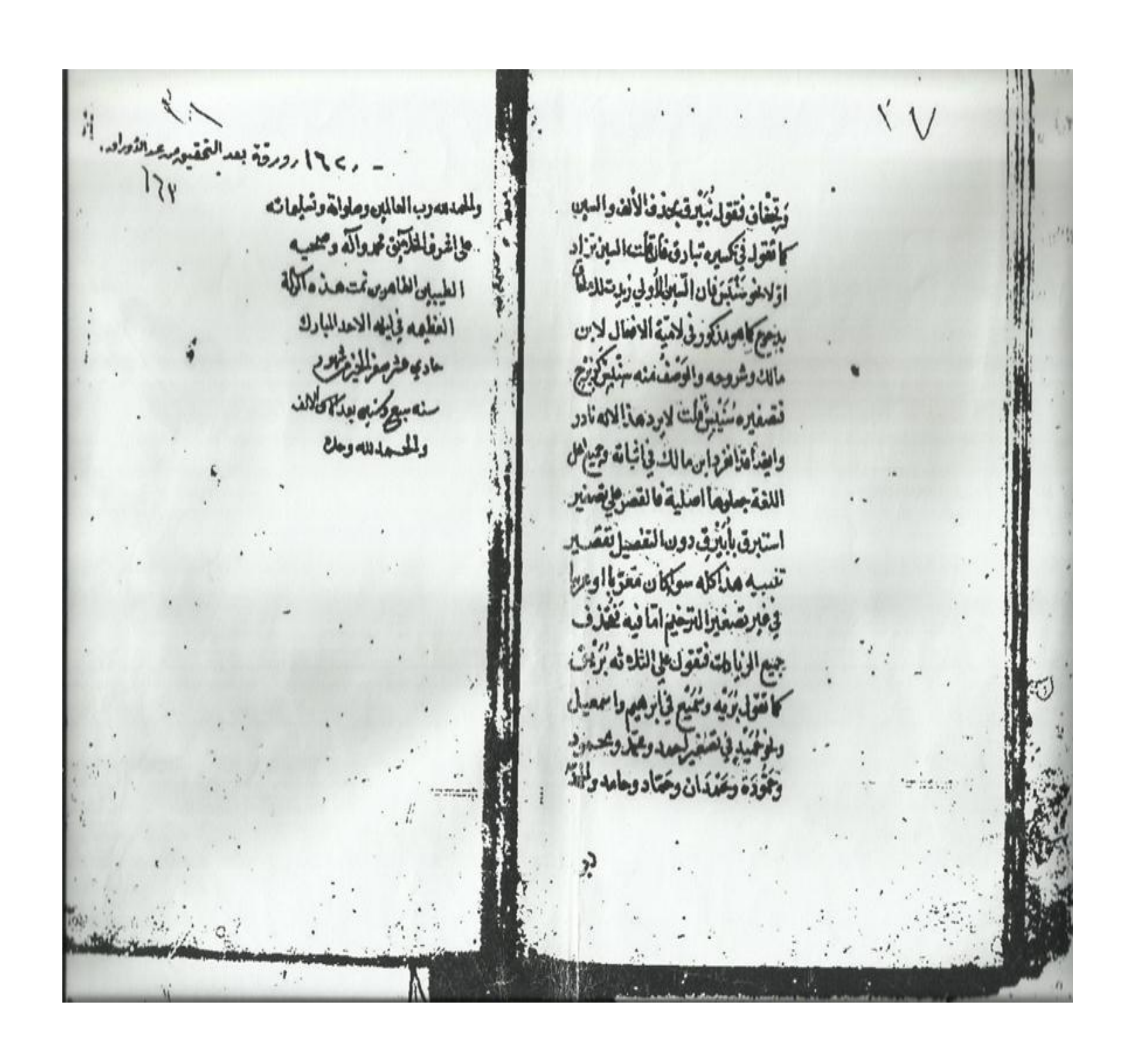
الملاحق

(١) تعقيبة أفقيَّة

(٢)تعقيبة عكسيَّة



(٣) تعقيبة مائلة



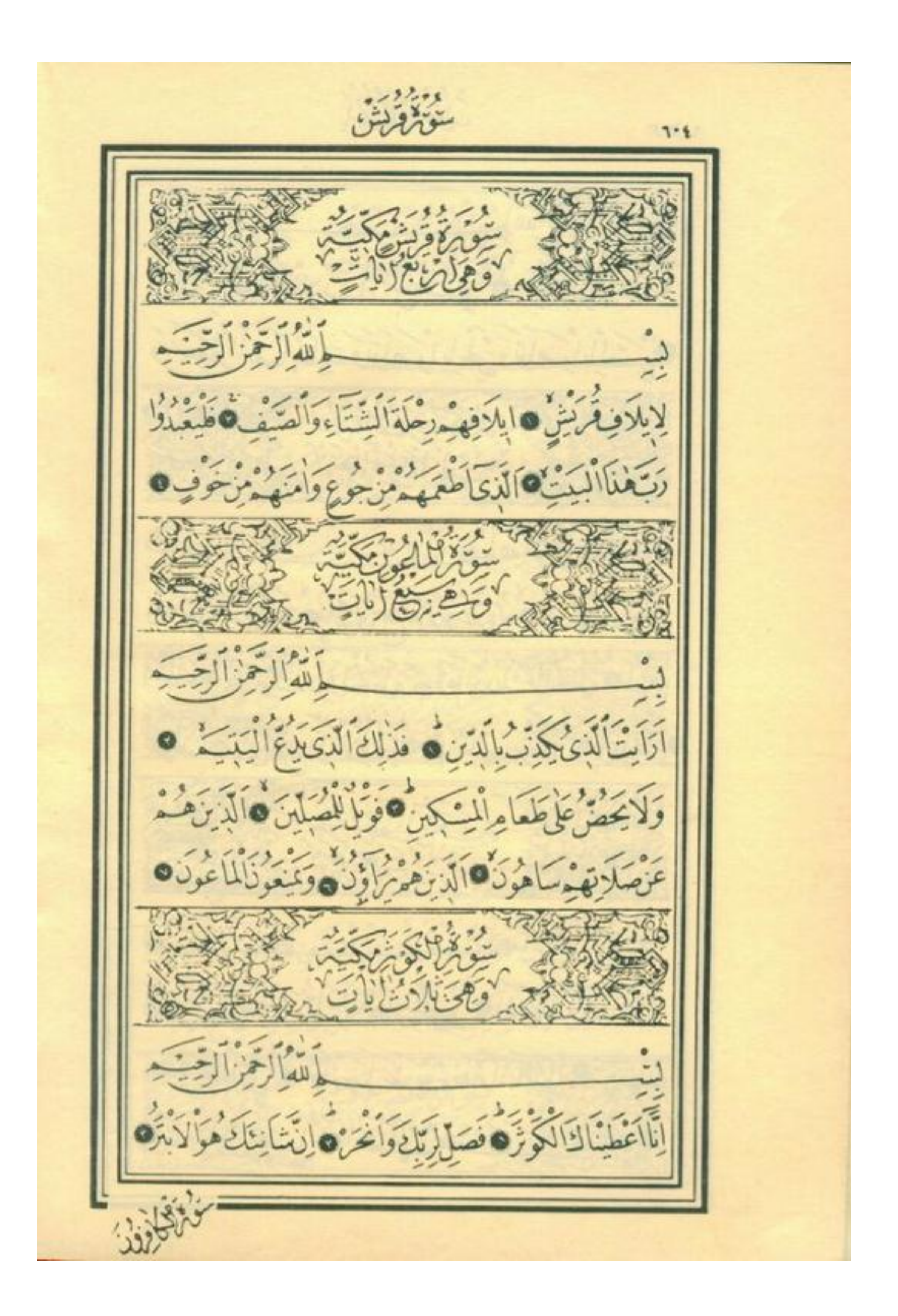
٢٧

وتخفان فتقول بُنَيْرِق بحذف الألف والسين
كما تقول في تكسيره تبارق فإن قلت السين تزاد
أولًا نحو سنبس فإن السين الأولى زيدت للإلحاق
بدحرج كما هو مذكور في لامية الأفعال لابن
مالك وشروحه والوصف منه سنبس كزبرج
تصغيره سُنَيْبِس قلت لا يرد هذا لأنه نادر
وأيضًا هذا انفرد ابن مالك في إثباته وجميع أهل
اللغة جعلوها أصلية فالقصر على تصغير
استبرق بأُبَيْرِق دون التفصيل تقصير
تنبيه هذا كله سواء كان معربًا أو عربيًا
في غير تصغير الترخيم أما فيه فتحذف
جميع الزيادات فتقول على الثلاثة بُرَيْق
كما تقول بُرَيْه وسُمَيْع في ابرهيم واسمعيل
ونحو حُمَيْد في تصغير أحمد ومحمد ومحمود
وحمودة وحمدان وحماد وحامد والحمد

١٦٧٠ ورقة بعد التحقيق
١٦٢

والحمد لله رب العالمين وصلواته وتسليماته
على أشرف الخلائق محمد وآله وصحبه
الطيبين الطاهرين تمت هذه الرسالة
العظيمة في ليلة الأحد المبارك
حادي عشر صفر الخير من شهور
سنة سبع وتسعين بعد المائتين والألف
والحمد لله وحده

(٤)مزاوجة بين تعقيبة مائلة وعكسيَّة



سورة قريش ٦٠٤

سورة قريش مكية وهي اربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

لإيلاف قريش ١ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ٢ فليعبدوا رب هذا البيت ٣ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ٤

سورة الماعون مكية وهي سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

أرأيت الذي يكذب بالدين ١ فذلك الذي يدع اليتيم ٢ ولا يحض على طعام المسكين ٣ فويل للمصلين ٤ الذين هم عن صلاتهم ساهون ٥ الذين هم يراءون ٦ ويمنعون الماعون ٧

سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا أعطيناك الكوثر ١ فصل لربك وانحر ٢ إن شانئك هو الأبتر ٣

سورة الكافرون

(٥)تعقيبة باسم السورة في مصحف مطبوع



سورة الهمزة

سورة الهمزة مكية (١٠٤) وآياتها ٩ نزلت بعد القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

ويل لكل همزة لمزة ۝١ الذي جمع مالا وعدده ۝٢

أن ماله أخلده ۝٣ كلا لينبذن في الحطمة ۝٤

ما الحطمة ۝٥ نار الله الموقدة ۝٦ التي تطلع على

۝٧ إنها عليهم مؤصدة ۝٨ في عمد ممددة ۝٩

سورة الفيل مكية (١٠٥) وآياتها ٥ نزلت بعد الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ۝١

في تضليل ۝٢ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ۝٣

بحجارة من سجيل ۝٤ فجعلهم كعصف

سورة قريش مكية (١٠٦) وآياتها ٤ نزلت بعد التين

الجزء الثلاثون

كالعهن المنفوش ۝٥ فأما من ثقلت موازينه ۝٦ فهو في

عيشة راضية ۝٧ وأما من خفت موازينه ۝٨ فأمه هاوية ۝٩

وما أدراك ما هيه ۝١٠ نار حامية ۝١١

سورة التكاثر مكية (١٠٢) وآياتها ٨ نزلت بعد الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

ألهاكم التكاثر ۝١ حتى زرتم المقابر ۝٢ كلا سوف

تعلمون ۝٣ ثم كلا سوف تعلمون ۝٤ كلا لو تعلمون علم

اليقين ۝٥ لترون الجحيم ۝٦ ثم لترونها عين اليقين

۝٧ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ۝٨

سورة العصر مكية (١٠٣) وآياتها ٣ نزلت بعد الشرح

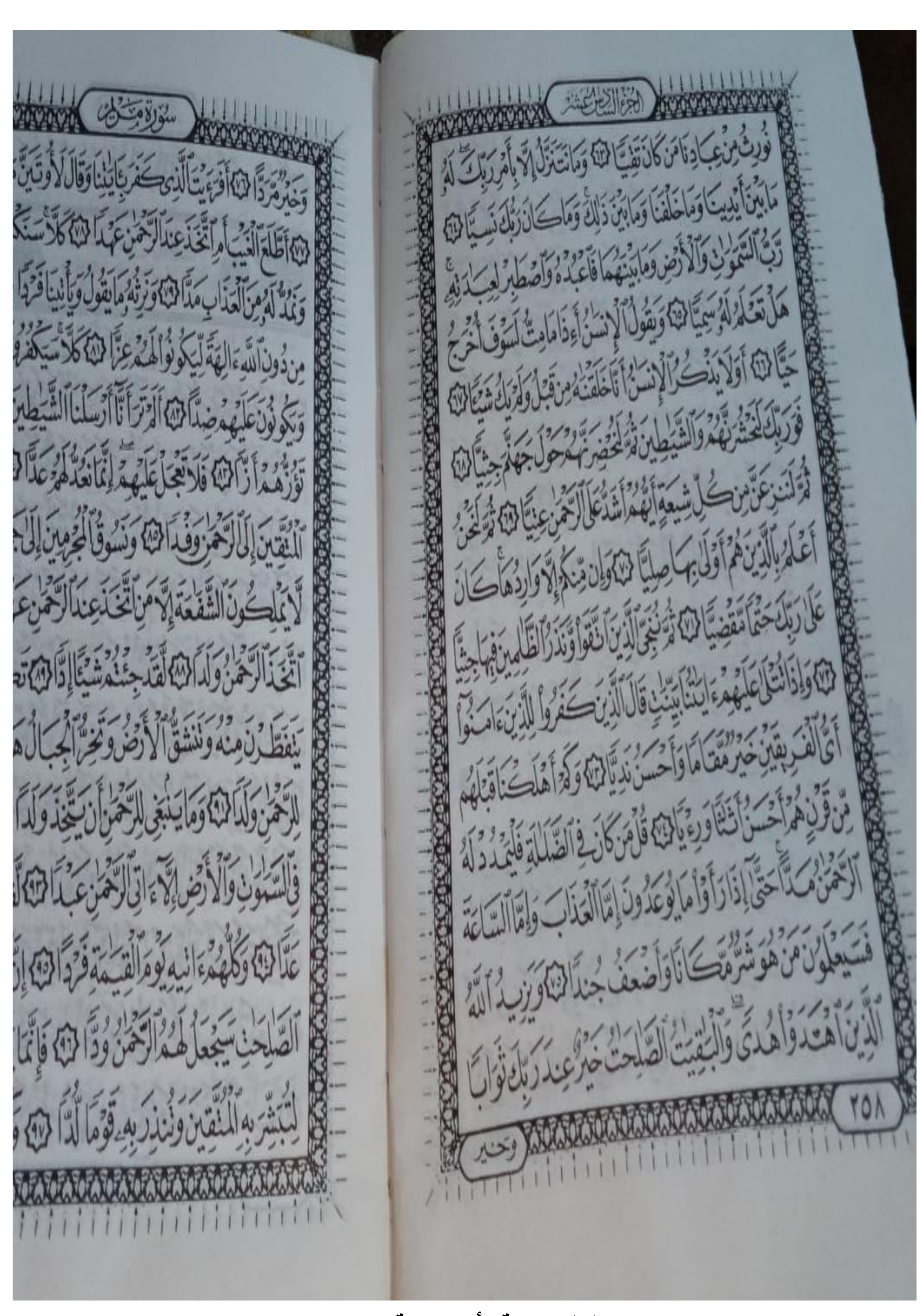
بسم الله الرحمن الرحيم

والعصر ۝١ إن الإنسان لفي خسر ۝٢ إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ۝٣

٥١٨ سورة

(٦) تعقيبة بكلمة سورة



الجزء السادس عشر

نورث من عبادنا من كان تقيا ﴿٦٣﴾ وما نتنزل إلا بأمر ربك له
ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴿٦٤﴾
رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته
هل تعلم له سميا ﴿٦٥﴾ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج
حيا ﴿٦٦﴾ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴿٦٧﴾
فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴿٦٨﴾
ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴿٦٩﴾ ثم لنحن
أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴿٧٠﴾ وإن منكم إلا واردها كان
على ربك حتما مقضيا ﴿٧١﴾ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا
﴿٧٢﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا
أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴿٧٣﴾ وكم أهلكنا قبلهم
من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا ﴿٧٤﴾ قل من كان في الضلالة فليمدد له
الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة
فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ﴿٧٥﴾ ويزيد الله
الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا

٢٥٨

وخير

سورة مريم

وخير مردا ﴿٧٦﴾ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين
﴿٧٧﴾ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا ﴿٧٨﴾ كلا سنك
ونمد له من العذاب مدا ﴿٧٩﴾ ونرثه ما يقول ويأتينا فردا
من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ﴿٨١﴾ كلا سيكفرو
ويكونون عليهم ضدا ﴿٨٢﴾ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين
تؤزهم أزا ﴿٨٣﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا
المتقين إلى الرحمن وفدا ﴿٨٥﴾ ونسوق المجرمين إلى ج
لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن ع
اتخذ الرحمن ولدا ﴿٨٨﴾ لقد جئتم شيئا إدا ﴿٨٩﴾ ت
يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال ه
للرحمن ولدا ﴿٩١﴾ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا
في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴿٩٣﴾
عدا ﴿٩٤﴾ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴿٩٥﴾ إ
الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴿٩٦﴾ فإنما
لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴿٩٧﴾

(٧) تعقيبة بأول كلمة



ان يجعلنا لسنته من التابعين
ولذاته الكاملة من المحبين فانه
على ذلك قدير لا اله غيره ولا خير
الا خيره وهو نعم المولى ونعم النصير
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
فصل في فضل الصلوة على النبي صلى
الله عليه وسلم قال الله تعالى
عز وجل ان الله وملئكته يصلون
على النبي يا ايها الذين امنوا صلوا عليه
وسلموا تسليما ويروى ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم جاء

ذات

ذات يوم والبشرى ترى في وجهه
فقال انه جاءني جبريل عليه السلام
فقال لي اما ترضى يا محمد ان لا يصلي
عليك احد من امتك الا صليت عليه
عشرا ولا يسلم عليك احد من امتك
الا سلمت عليه عشرا وقال
صلى الله عليه وسلم ان اولى الناس
بي اكثرهم علي صلوة وقال
صلى الله عليه وسلم من صلى علي
صلت عليه الملئكة ما دام يصلي
علي فليقل عند ذلك او ليكثر

(٨) تعقيبة في بعض المطبوعات

النتائـج والمقترحات

كشفَ البحث من خلال صفحاته السابقة عن خَلَل كبير وتقصير مُفرِط في المعاجم العربيَّة القديمة والحديثة حول كلمة(التعقيبة) ومدلولاتها العامَّة والمصطلحيَّة!

وأوصي المعاجم الحديثة بالرجوع إلى اللغة الحيَّة التي يمثِّلها واقع الاستعمال؛

ولعلَّ التعمُّق في واقع الاستعمال يُثري المعجم العربيَّ بمزيد من العلاقات الدِّلاليَّة واللَّهجات والتعبيرات السياقيَّة؛ فمرض السَّيلان المعروف في بعض البلاد العربية بالرَّدَّة أو القرقعة أو الجونوريا Gonorrhea هو المسمَّى – حسب استدراك رينهارت دوزي – في بلاد عربيَّة أخرى بالتَّعقيبة.

وأوصي باحثي الكوديكولوجيا La codicologie (علم المخطوطات) بفحص النسخة الفريدة لكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للأصمعيّ(ت٢١٦هـ)، ولا يعنيني هنا خطأُ العنوان ومخالفتُه لمحتوى الكتاب وخاتمتِه ومقدِّمة مؤلِّفه؛ فقد أشرتُ إلى هذا في مقالي قيمة الغلاف في التأليف العربيّ[٢٦]. ولكنَّ المهمّ هنا أن نسخة هذا الكتاب بها نظام التعقيبة، وهي منسوخة في عاشر شوال سنة ٢٤٣هـ، وإذا صحَّ هذا التاريخ سقَط قولُ من زعَم أن التعقِيبات لم تظهر في المخطوط العربيّ إلا بعد القرن الرابع الهجريّ، ووجب البحثُ في مخطوطات النصف الأول من القرن الثالث الهجريّ وما قبله؛ لعلَّنا نصل إلى تاريخ مُقنع في أوليَّة استعمال التعقيبة[٢٧].

المصادر:

١- آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلِّمي اليماني -اعتنى به مجموعة من الباحثين- دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع- الرياض- السعوديَّة ط١/١٤٣٤هـ.

٢- أرشيف ملتقى أهل التفسير، وأرشيف منتدى الألوكة، وأرشيف ملتقى أهل الحديث(٤) بالمكتبة الإلكترونيَّة الشاملة.

٣- تحقيق النصوص ونشرها- عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة -مصر ط٤/١٩٧٧م.

٤- تعقُّبات الأصمعيّ اللغويَّة: جمع ودراسة- د.محمد جمعة الدِّربيّ(محمد جمعة معوض خضر سالم)- ماجستير- كلية دار العلوم- جامعة القاهرة- مصر ط/٢٠٠٦م.

٥- التعقيبة في المخطوط العربي- د.شوقي بنبين- المجلد ١٤ العدد ٥- مجلة عالم الكتب- دار ثقيف- الرياض- السعوديَّة ط/١٩٩٣م.

٦- تكملة المعاجم العربية- نقله إلى العربية د.النعيمي وأ.الخياط- مطبوعات وزارة الثقافة -بغداد- العراق ط/٧٨- ٢٠٠١م.

---

[٢٦] راجع مقالي بالعدد الخامس عشر من مجلة الرَّبيئة الجزائريَّة.

[٢٧] راجع: علم الاكتناه العربي الإسلامي- د.قاسم السامرائي- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة- الرياض ط١/٢٠٠١م. ص١٨٢، ١٩٥، وذكَر د.شوقي بنبين أن التعقيبة " في معظم مخطوطات اللغات الأخرى من سامية وهندية، أوربية قديمة أو وسيطيَّة"! راجع: التعقيبة في المخطوط العربي ص٥١٩، وراجع: مدخل إلى علم المخطوط- جاك لومير- ترجمة مصطفى طوبي- إشراف وتقديم أحمد شوقي بنبين- الخزانة الحسنية- الرباط ط١/٢٠٠٦م. ص٢٨٥.

٧- توجيه قراءة ابن محيصن في الإستبرق لعبد القادر البغداديّ(ت١٠٩٣هـ)- دراسة وتحقيق د.محمد جمعة الدِّربيّ- سلسلة التراث الحضاريّ(١٦)- الهيئة المصريَّة العامة للكتاب- القاهرة- مصر ط١/٢٠١٩م.

٨- الجهود اللغويَّة لأبي حاتم السِّجستانيّ: دراسة في ضوء علم اللغة الحديث-د.محمد جمعة الدِّربيّ(محمد جمعة معوض خضر سالم)- دكتوراه- كلية دار العلوم- جامعة الفيوم- مصر ط/٢٠١٤م.

٩- ريحانة الكُتَّاب للسان الدين بن الخطيب(ت٧٧٦هـ)- تحقيق محمد عبد الله عِنان- مكتبة الخانجي- القاهرة- مصر ط١/١٩٨٠م.

١٠- علم الاكتناه العربي الإسلامي- د.قاسم السامرائي- مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميَّة- الرياض- السعوديَّة ط١/٢٠٠١م.

١١- الفائق للزمخشريّ(ت٥٣٨هـ)- حقَّقه أبو الفضل إبراهيم والبجاوي- مكتبة عيسى الحلبي- القاهرة- مصر ط٢(د.ت).

١٢- الفوائد الجسام لابن رسلان الكناني(ت٨٠٥هـ)- تحقيق د. محمد يحيى- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر ط١/٢٠١٣م.

١٣- قيمة الغلاف في التأليف العربيّ- د.محمد جمعة الدِّربيّ- العدد ١٥- مجلة الربيئة- نادي الرقيم العلميّ- جمعية العلماء المسلمين الجزائريِّين- الجزائر ط/٢٠١٩م.

١٤- لسان المُحدِّثين- محمد خلف سلامة- ملتقى أهل الحديث بالمكتبة الإلكترونيَّة الشاملة.

١٥- مخطوطة مجهولة لكتاب الملاحن- محمد علي عطا- العدد ٢- مجلة المخطوطات الثقافية- معهد المخطوطات العربية- القاهرة- مصر ط/٢٠١٩م.

١٦- المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربيّ- فرانسوا ديروش- نقله إلى العربية وقدَّم له د.أيمن فؤاد سيد- مؤسسة الفرقان للتراث الإسلاميّ -لندن ط١/٢٠٠٥م.

١٧- مدخل إلى علم المخطوط- جاك لومير- ترجمة مصطفى طوبي- إشراف وتقديم أحمد شوقي بنبين- الخزانة الحسنية- الرباط- المغرب ط١/٢٠٠٦م.

١٨- المعجم الكبير- مطبوعات مجمع اللغة العربية- القاهرة- مصر (نسخة تجريبية) ط/١٩٥٦م،(حرف الهمزة) ط١/١٩٧٠م،(حرف الباء) ط١/١٩٨١م،(حرفا التاء والثاء) ط١/١٩٩٢م،(حرف الجيم) ط١/٢٠٠٠م، (حرف الحاء) ط١/٢٠٠٠م،(حرف الخاء) ط١/٢٠٠٤م،(حرف الدال) ط١/٢٠٠٦م،(حرف الذال) ط١/٢٠٠٨م،(حرف الراء- ق١) ط١/٢٠١٢م،(حرف الراء- ق٢) ط١/٢٠١٥م، (حرف الزاي) ط١/٢٠١٩م.

١٩- معجم اللغة العربية المعاصرة- د.أحمد مختار عمر بمساعدة فريق كنتُ واحدًا منهم – عالم الكتب- القاهرة- مصر ط١/٢٠٠٨م.

٢٠- المعجم الوسيط- مطبوعات مجمع اللغة العربية- القاهرة- مصر ط٣/١٩٨٥م.

٢١- معجم مصطلحات المخطوط العربي: قاموس كوديكولوجي- تأليف شوقي بنبين ومصطفى طوبي- الخزانة الحسنيَّة- الرباط- المغرب ط٣/٢٠٠٥م.

***

النظريات اللسانية الحديثة
وأثرها في صناعة المعجم الكبير

الأستاذ الدكتور
محمد صالح ياسين الجبوري
جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص:

يعد علم اللسانيات من أهم العلوم والمعارف الإنسانية، الذي نشأ عن طريق نظريات خاصة، إذ يمتلك ضوابط ومصادر استدلالية واستشارات نفعية ومهمة لا يمكن الاستغناء عنها، وقد تضافرت جهود الدارسين المحدثين في دراسة هذا العلم وما يطرأ عليه من تطورات، إذ نجد جهود الهيئات والمجامع اللغوية في الوطن العربي كبيرة في دراسة المباحث اللسانية وما يطرأ عليها من أمور، وكثرة ما طرأ على هذا العلم مما دفع الباحثين والأكاديميين إلى عقد ندوات ومؤتمرات وطنية ودولية كثيرة، فجاءت دراستنا هذه لترصد أثر النظريات اللسانية الحديثة في صناعة المعجم الكبير الذي صنعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وقد بدأنا دراستنا بالحديث عن النظريات اللسانية وأثرها في حركة التجديد العمل المعجمي، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن المعجم الكبير وخطة بنائه، مُبينًا منهجه في التأليف، وكذلك تحدثتُ عن ظاهرة التجديد فيه، وبعد ذلك دراسة أثر اللسانيات الحديثة في صناعة المعجم الكبير والذي تمثل بالأمور الآتية: اللسانيات الوصفية وأثرها في المعجم الكبير، وكذلك ملامح اللسانيات الاجتماعية وأثرها في صناعة المعجم الكبير ومن ذلك النظرية السياقية وأثرها في المعجم الكبير، ونظرية التواصل اللسانية وأثرها في المعجم الكبير، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن النظريات الدلالية وأثرها في صناعة المعجم الكبير ، ومنها: النظرية الإشارية وأثرها على لجنة المعجم الكبير، ونظرية الحقول الدلالية و تأثيرها على المعجم الكبير، والنظرية التحليلية التكوينية وتأثيرها على المعجم الكبير، وبعد ذلك تحدثنا عن اللسانيات الوظيفية وأثرها في صناعة المعجم الكبير، ويتمثل هذا الموضوع بالتعريفات الوظيفية والتعريفات العلائقية.

المقدمة:

أولًا: النظريات اللسانية وأثرها في حركة التجديد العمل المعجمي: من المعروف إنَّ المعجمات القديمة سارت على المنهج الاحتجاجي (أي نظرية الاحتجاج) والمتمثلة بـ(السماع، والقياس، والاشتقاق)، وقد غلب عليها الطابع التقليدي ولا سيما في الأخذ والنقل. ومن يتتبع ذلك سيجد الكثير من الألفاظ والمصطلحات والأساليب المتداولة فيما بينهم وبنفس الدلالة، وقد يكون هناك

زيادة أو نقصان عليها، فسمة النقل فيما بينهم موجودة في كل شيء حتى في الاستشهادات. وقد بقِيَ الحال على حاله حتى العصر الحديث، وقد عمد الكثير من أصحاب المعجمات الحديثة إلى النقل عن كتب ومؤلفات المتقدمين، من أجل المحافظة على معايير الفصاحة والأصالة في اللغة العربية، وهذا الأمر مما أدى إلى خلق الخلاف بين المعجميين ومن ثم حدث الانشقاق بينهم منهم المؤيد والمقلد للقديم ومنهم المجدد؛ فأصحاب الفريق الأول وهم المحافظون الذين ينادون، كما نادى القدماء بالمحافظة على الثروة اللغوية العربية الصميمة التي استمدت من القبائل العربية بكل ما خرج منها، دون الرجوع إلى المولديين وما دخل العربية من الألفاظ المعربة والدخيلة. أما الفريق الثاني وهم المتجددون الذين يعربون عن قبول الألفاظ والتراكيب والأساليب التي شاعت على ألسنة المعاصرين من الكُتّاب والنُّقاد والأدباء والإعلاميين والصحفيين. فنرى أن الفريق الثاني الذي نادى بالتجديد، قد تأثر بمبادئ اللسانيات الغربية ونظرياتها ومناهجها، إذ ثاروا على نظرية الاحتجاج، واعدوها نظرية معيارية لا يمكن خضوعها إلى المنهج العلمي الموضوعي القائم على وصف اللغة على حالها وليس على الافتراض، كما شقّ عليهم ما كان بين الحياة والمعجم من تناقض، فمن جهة وجدوا معاني جديدة تفتقر العربية إلى ألفاظ تدلّ عليها، ومن جهة أخرى وجدوا معاني لها أكثر من لفظ واحد ومئات الألفاظ لمعنى واحد.

ومن العرب المتأثرين بالنظريات اللسانية الغربية ومناهجها الدكتور إبراهيم أنيس(١٣٢٤ هـ/١٩٠٦م –٢٠ جمادى الآخرة ١٣٩٧ هـ/٨ يونيو ١٩٧٧م) الذي كان ينادي بالتجديد، وقد وصف المحافظين بالمتزمتين في قوله:((فهناك قوم من المتزمتين الذين ينادون بأنه يجب أن نقف عند نصوص أجدادنا العرب لا نتعداها ولا نجاوزها))[1]. وقد حظيت الصناعة المعجمية بعناية كبيرة من قبل الدارسين بسبب تدفق الكثير من المصطلحات العلمية والفنية والحضارية إلى اللغة العربية، فهذا الأمر أوقع الدارسين العرب في أزمات فيما بينهم ،منها(أزمة المصطلح) مما أدى إلى ابتعادهم وتأخرهم عن مواكبة التطور العلمي والحضاري واللغوي الغربي المتسارع، إذ بَقِيَ الكثير من العرب المحدثين متمسكين بقضية التراث المعجمي القديم المحشو بالغث والسمين والغريب والمهجور والنادر والشاذ والقليل من الألفاظ، ودون مراعاة عصورها التاريخية، واستيعاب اللغات العربية جميعها، إذ ينقل فيها اللواحق عن السوابق واتصفت بالجمود. وقد ظهرت دعوات إلى التجديد ومواكبة التطور العلمي والحضاري في العصر الحديث في الصناعة المعجمية، على أيدي العرب والمستشرقين، ومنهم:

---

(1) من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، ٢٧، وينظر: أثر اللسانيات الحديثة في صناعة المعجم الوسيط، الدكتور ربيعة برباق،(بحث منشور)، مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد الثامن، يناير ٢٠١٧م، ص١٥٩.

١) أحمد فارس الشدياق(ت١٨٨٧).

٢) إبراهيم اليازجي(ت١٩٠٦).

٣) عبدالله البستاني(ت١٩٣٠).

٤) الشيخ أحمد رضا(ت١٩٥٣).

٥) الدكتور أحمد مختار عمر(ت ٢٠٠٣).

٦) الدكتور حسين محمد نصار(ت ٢٩ نوفمبر ٢٠١٧).

٧) الدكتور محمود فهمي حجازي الذي تأثر بالألمان عندما درس في جامعة ميونيخ (١٩٦٠ ـ١٩٦٥)، ودرس المنهج التحليلي اللغوي. ومن المستشرقين:

١) المستشرق الهولندي (رَينْهَارْت دُوزِي: Reinhart Dozy) (ت١٨٨٣): صاحب كتاب (تكملة المعاجم العربية).

٢) المستشرق الإيطالي(كارلو ألفونسو نَلِّينُو: CARLO ALFONSO NALLINO) (ت١٩٣٨): وكان لتدريسه في الجامعة المصرية القديمة أخطر الأثر في تكوين كبار الأدباء في مصر الآن، وقد عيّن عضوًا في المجمع اللغوي(١٩٣٢). وفي شتاء(١٩٣٧) زار مصر زيارته المعتادة من أجل حضور جلسات المجمع اللغوي. وكان أحد أعضاء لجنة المعجمات وإحياء التراث داخل المجمع. ومن مؤلفاته(اللغة العربية في لهجتها المصرية). وهو من أهم المؤثرين في نفوس الدارسين العرب المحدثين ولاسيما المصريين منهم بسبب صلته الوثيقة بهم.

٣) المستشرق الألماني(أوغست فيشر :August Fischer) (ت١٩٤٨): صاحب المعجم التاريخي للغة العربية.

٤) المستشرق الألماني(إينو ليتمان: LITTMANN Richard Ludwig Enno) (ت١٩٥٨) : من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة بمصر، وعدة مجامع أوربية. وهو أحد أعضاء لجنة المعجمات اللغوية داخل مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وله تأثير واضح في نفوس الباحثين والدارسين العرب المحدثين ولاسيما المصريين منهم.

٥) المستشرق البريطاني(هامِلْتُون ألكسندر روسكن جب: Gibb, Sir Hamilton.A.R) (ت ١٩٧١): عَمِل أستاذاً للغة العربية بجامعة أكْسفُورد، ثم انتقل إلى جامعة هَارْفارْد في الولايات المتحدة. اختير عُضوًا بمَجمع اللغة العربية سنة(١٩٣٣)، فكان من الرعيل الأول من أعضائه المستشرقين. وهو أحد أعضاء لجنة المعجمات اللغوية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقد كان تأثر الدارسين العرب بأفكار هؤلاء المستشرقين وغيرهم واضحًا، إذ أخذوا عنهم الكثير بل أصبحوا مرجعًا لهم في الصناعة المعجمية، ومن المعجميين العرب المتأثرين بالفكر اللساني الغربي(إبراهيم أنيس، وأحمد مختار عمر، وحسين محمد نصار،...) فهؤلاء قد تتلمذوا على أيديهم فتأثروا بأفكارهم وآرائهم، ونجد أن أحمد مختار عمر قد تأثر بمنهج (فرديناند دي سوسير: Ferdinand de Saussure) (ت١٩٣١): وهو المنهج الوصفي وهو من المنتصرين لهذا المنهج، إذ نجد أحمد مختار فقد عاب على القدماء منهجهم المعياري؛ لكونهم أهملوا المادة اللغوية المعاصرة في زمانهم، مما حرمنا من الاطلاع على تطورات المادة اللغوية خلال العصور اللاحقة. ويرى أن نظرية الاحتجاج أثرت بالسلب على تطور اللغة، فأصبحت المعجمات متأخرة عن ركب الحضارة، والتطور، فلم نلحظ ظهور أي مستجدات في مادتها اللغوية[٢]. وقد ردَّ إبراهيم أنيس على المتأثرين بالمنهج التاريخي(أصحاب المعجمات اللغوية القديمة) المتأخرين الذين أخذ بعضهم عن بعض بطريقة النقل، فكانت غايتهم هي المضي بالتطور المعجمي، وقد وافقوا معجماتهم في طريقة الترتيب والتصنيف، فليس منهم من اتجه في البحث في تاريخ الألفاظ وتطورها الدلالي جيل بعد جيل[٣]. وقد كانت طروحات هؤلاء اللغويين العرب المحدثين تدور في الأفكار اللسانية الحديثة، و دعوا إلى التخلي على المناهج التقليدية القديمة والمتمثلة بالمنهج التاريخي والمعياري، ونظرية الاحتجاج، ودعوا إلى المنهج المتجدد والمواكب للتطور الحضاري وما يتناسب مع حاجيات ومتطلبات العصر الحديث، ورصد كل ما هو جديد قد دخل العربية وعلى جميع مستوياتها، وقد قال رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة السابق إبراهيم بيومي مدكور: ((إنَّ للغة ماضيًا وحاضرًا، فلها قديمها الموروث، وحاضرها الحيّ الناطق، ولا بد أن يلاحظ ذلك في وضع معجم جديد للغة العربية، فيستشهد فيه بالشعر والنثر، مهما يكن العصر الذي أنشئ فيه، وتثبت الألفاظ الطارئة التي دعت إليها ضرورات التطور، وفرضها تقدم الحضارة ورقي العلم))[٤]. وقد تأثر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بجهود المستشرقين في صناعة المعجمات اللغوية والعلمية وأخذ عنهم الكثير متجاوزين ما وقعوا القدماء في أخطاء وزلات، مستثمرين ماخرج عن النظريات اللسانية من مبادئ وآراء تخدم اللغة العصرية، ومن ذلك محاولة المجمع في صناعة معجم تاريخي للغة العربية يعمل على تأصيل اللفظة وارجاعها تاريخيًا وهو(المعجم الكبير) وهو المعجم البديل المفيد عن معجم فيشر التاريخي للغة العربية الذي لم يكتمل بسبب وفاته. والذي تأثر بأفكاره وآرائه وبنى عليه مادته اللغوية. وغيره من المعجمات اللغوية العربية

---

[٢] ينظر: البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ٢٦٣ ـ ٢٦٥، وأثر اللسانيات الحديثة في صناعة المعجم الوسيط، العدد الثامن، يناير ٢٠١٧م، ص١٦٠.(بحث).

[٣] ينظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

[٤] المعجم الوسيط:١/١٠.

الحديثة كالمعجم العربي الأساسي الذي سار على مبادئ وآراء اللسانيات الحديثة ولاسيما النظرية السياقية.

ثانيًا: المعجم الكبير وخطة بنائه: هو قانون الأمة المعاصر الذي يعد أضخم عمل معجمي لغوي في العصر الحديث، الذي بدأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتأليفه منذ خمسينيات القرن الماضي، والذي كان إخراجه على غرار (معجم أكسفورد الكبير)، وقد حشّد له فريقًا من الخبراء والمختصين بالعمل المعجمي من العرب والمستشرقين، وقيل إن المجمع قد اقتبس فكرة صناعته من المستشرق الألماني (فيشر) الذي كان أحد أعضاء لجنة المعجمات داخل المجمع، وقيل هو البديل المفيد عن المعجم التاريخي للغة العربية لفيشر الذي لم يكتمل بسبب وفاته(١٩٤٨)، وقد أصدر المجمع أحد عشر جزءًا منه بدءًا من الجزء الأول حرف الهمزة الذي صدر سنة(١٩٥٦) حتى الجزء العاشر القسم الثاني من حرف الراء سنة(٢٠١٥)، ولا زال العمل فيه مستمراً إلى يومنا هذا، فهو معجم موسوعي يضم(اللغة، والأدب، والنحو، والصرف، والصوت، والبلاغة) وفيه أيضًا المصطلحات الشائعة في التاريخ والجغرافية وعلم النفس والفلسفة والمعارف الإنسانية وعلوم الحياة والفلك والحضارة ومصطلحات علمية وتقنية ومصطلحات العلوم اللغوية والإنسانية والعلوم الحديثة والمستحدثة وغيرها.

١) جوانب المعجم الكبير الرئيسة: انماز المعجم الكبير بجوانب رئيسة بحسب رأي مؤلفيه، وهي على النحو الآتي:

أ) جانب منهجي: هدفه الأول دقة الترتيب ووضوح التبويب. وتم هذا باتباع الترتيب الألفبائي المألوف.

ب) جانب لغوي: تصور اللغة تصويرًا كاملًا، فيجد فيها طلاب القديم حاجتهم، ويقف عشاق الحديث على ضالتهم.

ج) جانب موسوعي: إذ يقدم ألوانًا من العلوم والفنون والمعارف تحت أسماء المصطلحات والأعلام[٥].

٢) خطة بناء المعجم الكبير: عمل فريق العمل في لجنة المعجم الكبير على وضع خطة بناء للمعجم الكبير، وهي على النحو الآتي:

---

[٥] ينظر: المعجم الكبير، إبراهيم مدكور، (بحث منشور)، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ١٢/٢٨، والمعجم الكبير وأثره في تطور اللغة العربية، محمد صالح ياسين، (بحث منشور)، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج٦١/ج٣/٥٩، وسياسة التعريب دراسة في آراء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومعالجاته ١٩٣٤ ـ ٢٠١٠م، محمد صالح آل ياسين، ٤٦.

أ) بدأ بذكر النظائر السامية بحروف لاتينية تحت الجذر العربي متلوة بالنطق العربي التقريبي، وأرجعت الكلمات المُعربة إلى أصولها.

ب) ذكر المعاني الكلية، ورُتبت من الأصلي إلى الفرعي، ومن الحسي إلى المعنوي، ومن الحقيقي إلى المجازي، ومن المألوف إلى الغريب.

ج) الأفعال إذ قدّمها المعجم على الأسماء، وقدم الثلاثي على الرباعي، والمجرد على المزيد، واللازم على المتعدي.

د) المصادر: أتى منها بما نصّت المعجمات عليه، وقدّم القياسي من الفعل الثلاثي، أما المصادر القياسية من الأفعال غير الثلاثية فقد أهملها.

هـ) الأسماء: رتبها على المنهج الألفبائي مع تقديم الألف اللينة على الهمزة[٦].

ثالثًا: اللسانيات الحديثة وأثرها في صناعة المعجم الكبير: إن للنظريات والمناهج اللسانية أثر كبير على مجمع اللغة العربية بعامة وعلى لجنة المعجمات بخاصة، وعن طريق هذه الدراسة لمسنا أثر واضح للسانيات الحديثة في صناعة المعجم الكبير، ويمكن أن نقسم أثر اللسانيات هنا على ثلاثة أقسام وهي على النحو الآتي:

١) اللسانيات الوصفية وأثرها في صناعة المعجم الكبير: ظهرت اللسانيات الوصفية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتدرس علم الإنسان الاجتماعي والثقافي اللذين يدرسان القيم والمعايير المجتمعية، ومن ذلك الأنثروبولوجيا اللغوية وهي العلم الذي يدرس التخصصات في تأثير اللغة على الحياة الاجتماعية، وهو فرع من علم الإنسان ثم توسع ليشمل تراكيب اللغة واستعمالاتها. ومن مبادئ اللسانيات الحديثة استعمال المنهج الوصفي الذي يقوم على أساسين، هما: (المكان والزمان). أي دراسة اللغة في مكان واحد ووقت واحد، إذ نجد المعجم الكبير معجمًا وصفيًا، تعامل مع ألفاظ اللغة، كما هي في العصر الحديث. فتأثير لجنة المعجم الكبير بالمنهج الوصفي تأثيرًا واضحًا، وقد حشروا الآلاف من الألفاظ الحديثة والشائعة على ألسنة الكُتاب والنقاد والأدباء المحدثين، وقد تأثر المعجم أيضًا بمتطلبات الحياة الحضارية والعصرية وهذا ما أدعى إليه مجمع القاهرة اللغوي إلى الحداثة ومراعاة اللغة العربية المعاصرة والابتعاد عن التكلف والألفاظ الحوشية والنادرة والقليل والشاذ التي ثقلت بها المعجمات القديمة.

أما المعجم الكبير فقد عالج مادته المعجمية عن طريق استعمال المنهج الوصفي، ويمكن

---

[٦] ينظر: المعجم الكبير وأثره في تطور اللغة العربية، (بحث منشور)، مجلة المجمع العلمي العراقي: مج٦١، ج٣/ ٦١ ـ ٦٢، وسياسة التعريب دراسة في آراء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومعالجاته ١٩٣٤ ـ ٢٠١٠م، ٤٧.

توضيح ذلك من الأمثلة الآتية:

أ) لفظة(البحري): ذكر المعجم الكبير: البحري من استعمال أهل مصر: بمعنى جهة الشمال، يقابلونه بالقبلى لجهة الجنوب. وفي اصطلاح الجيش(Marine): أُطلقت أصلًا على جميع السفن التي تمتلكها الدولة للحرب أو التجارة، أما الآن فتطلق على السفن التي تُخَصَّص للقتال، أو للقيام بحماية الدولة، ومنها الأسطول. ومن ذلك البحرية التجارية:(Marine Marchande): مجموعة المُنشآت والأشخاص الذين يعملون في خدمة التجارة البحرية.[٧]

ب) لفظة(البدرُوم): بيتٌ تحت الأرض للسُّكنى، أو للخزن، عربيته: السرب. من الألفاظ المحدثة التي أقرها المجمع وثبتها في المعجم الكبير.[٨]

ج) لفظة(البدل): قانون التجنيد في مصر: وهو مقدار من المال، كان يُدفع عوضًا عن أداء الخدمة العسكرية، بناء على الأمر العالي الصادر في سنة(١٩٠٢)، والغى هذا النظام بصدور قانون التجنيد الإجباري بمصر سنة(١٩٤٧).[٩]

د) لفظة(الثروة القومية): من الألفاظ الحديثة التي أقرها المجمع وثبتها في المعجم الكبير، بمعنى: مجموعة القوى المنتجة في الدولة[١٠]. وقد هجر المعجم الكبير الألفاظ ذات خاملة وركز على استعمال الألفاظ الحديثة والجديدة التي ساعدت على انماء اللغة العربية وتطورها، إذ نلحظ اعضاء المجمع كثيرًا ما يستأنسون بالحديث والجديد الذي يطرأ على اللغة العربية ويعملون على تفسيره وشرحه ويضعونه تحت مداخل المعجم تطبيقًا للمنهج الوصفي.

٢) اللسانيات الاجتماعية وأثرها في صناعة المعجم الكبير: أثرت اللسانيات الحديثة على صناعة المعجم الكبير وقد ساعدت على كشف دلالة الألفاظ وبيان معانيها، ومن أهم نظرياتها، نذكر الآتي:

أ) النظرية السياقية: من النظريات المعرفية الاجتماعية التي ظهرت في أوروبا لمعالجات الوحدات اللغوية من خلال السياق الكلامي، ونجد أن مصطلح(السياق) يدور في معنى التتابع والاتصال الاجتماعي.

يرى هاليداي(M.Halliday) أنَّ السياق:((هو النص الآخر أو النص المصاحب للنص

---

[٧] ينظر: المعجم الكبير: مادة(بحر): ٩٧/٢.

[٨] ينظر: المصدر نفسه: مادة(بدر): ١٣٨/٢.

[٩] ينظر: المصدر نفسه: مادة(بدل): ١٤٧/٢.

[١٠] ينظر: المصدر نفسه: مادة(ثرو): ٢٥٠/٣.

الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية)).[١١]

تعد نظرية السياق بعد ذلك الحجر الأساس في المدرسة اللغوية الاجتماعية التي أسسها (العالم اللغوي البريطاني جون روبيرت فيرث John Rupert Firth British linguist (١٨٩٠-١٩٦٠))، فقد عُرفت(مدرسة لندن) بـ (المنهج السياقي)[١٢]. ومن المتأثرين بهذه النظرية من العرب المحدثين تمام حسان(عضو المجمع) الذي درس في لندن وتأثر بأفكار هذه النظرية ومبادئها، إذ تحدث عنها قائلًا:((من خلال ربطه بين الشكل والوظيفة في حديثه عن المجاورة في السياق، أي: دراسة الكلمة عن طريق المجاورة في السياق بوصفها نواة الدلالة، أو لأنها ذات معنى معجمي، وفرّق بين المعنى المعجمي والمعنى الوظيفي))[١٣]. وبعد ذلك العرض ظهر تأثير هذه النظرية على أعضاء لجنة المعجم الكبير، من ملامح تطبيق مبادئ هذه النظرية في المعجم الكبير كان ذلك عن طريق الاعتماد على الشرح بالسياق في كثير من المداخل اللغوية والعناصر التي ترد قبل لفظ معين وبعده، وعلى تعريفات الألفاظ والكشف الدلالي عنها عن طريق السياق الكلامي تحت إطار الوظيفة الاجتماعية للغة. فاللفظة تأتي أما مفردة أو مركبة وتستعمل استعمالات متنوعة ومختلفة ولا يمكن معرفة معانيها إلا عن طريق السياق اللغوي التي وضعت من أجله سواء كان المعنى حقيقيا أم مجازيا.

فاستعمالات اللفظة متعددة في اللغة ولا يمكن معرفة دلالاتها إلا عن طريق السياق أو ما يعرف بالتفسير السياقي. والذي نقصد بالتفسير السياقي اعطاء أمثلة سياقية للمداخل اللغوية التي وضعها المعجم وقام بشرحه على وفق السياق الذي يناسب السياق المراد. ويجب ان يكون بمعنى تام غير مخل، وواضح المقاصد، وكشف دلالات المداخل اللغوية وبيان معانيها. ويمكن توضيح (السياق) عن طريق تفسير وشرح الألفاظ أو المداخل اللغوية للمعجم الكبير على النحو الآتي:

لفظة(برقش): وضع المعجم الكبير هذه اللفظة تحت مادة(برقش) الرباعي الصحيح، إذ استعملت بحسب السياق الاجتماعي، فمثلًا: بَرْقَشَ الرجل، أي: ولّى هاربًا. وبَرْقَشَ الشيء، أي: تفرّق. وكذلك: برقش فلانٌ في الأكل، أي: بمعنى: أقبل عليه، وبرقش عليه في الكلام، أي: خَلَّطَه عليه. وبرقش الشيء، بمعنى: نقشه بألوانٍ شتى. ومن ذلك(تبرقش فلانٌ): تزين بألوانٍ شتى. وكذلك قولهم: تبرقش النبت، بمعنى: تلون. وتبرقشت البلاد: تزينت وتلونت[١٤]. فإن هذه

---

[١١] علم النص ونظرية الترجمة، يوسف نور عوض، ٢٩.

[١٢] ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ٦٨.

[١٣] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ١٦٣.

[١٤] ينظر: المعجم الكبير: مادة(برقش): ٢٥١/٢.

المعاني والدلالات التي ذكرت قد تبينت بوساطة السياق الكلامي. وقد ذكر المعجم الكبير مجموعة متنوعة من العبارات المصاحبة أو تحت اللفظة الواحدة والتي من شأنها يتبين المعنى المقصود، وهذ المعنى يختلف من سياق إلى آخر وبحسب الاستعمال، ومن ذلك لفظة (ثقب): ورد تعريفه: هو أن ينفذ الشيء ومنه: ثقبت النارُ ثقوبًا، أي: اتقدت. ويقال: ثقب الكوكبُ ونحوهُ: نفذ ضَوؤه. ويقال: ثقبَ رأَيُه: نفذ، أي: أصاب. وثقبت الرائِحَةُ: سطعت وانتشرت. وثقب الطائرُ، أي: حلق ببطن السماء. وثقبَ فلانٌ في رأيه، بمعنى: أصابَ، وكذا ثقبَ عن الأمرِ: تعرفَه. ويقال: ثقب القدَّاحُ عين المريض: أخرج ما نزل أو تجمع فيها من ماء. وثَقُبَ الشيءُ واللون ـ ثقابةً، أي: بمعنى: توهج واشتدت حُمْرَتُه، فهو ثقيبٌ. ويقال: رجلُ ثقيبُ وامرأةٌ ثقيبةٌ: مشبهانِ لَهَبَ النارُ في شدَّةِ حُمْرَتُها. ويقال: فيهما ثقابةٌ[١٥]. فبوساطة السياق الكلامي المتداول يتضح المعنى الدلالي للألفاظ، إذ بنى المعجم الكبير مواده اللغوية على هذا الأساس.

ب) نظرية التواصل: ظهر مصطلح التواصل في أوروبا، وبالتحديد في فرنسا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، في السياق الكلامي، تعني(شارك في)، ثم تطور هذا المصطلح تطورًا دلاليًا في القرن السابع عشر، إذ أصبح يدلُّ على(النقل)حينما ظهرت(الأنابيب الناقلة)، التي تدلُّ على(القطارات، والتليفونات، ووسائل الإعلام)، وفي القرن الثامن عشر أطلق هذا المصطلح على(الطرق والقنوات والسكك الحديدية) في الفرنسية المعاصرة. وقد دخل هذا المصطلح ضمن مفردات الفن والصحافة، وفي الوقت نفسه أطلق هذا المصطلح في أمريكيا وبريطانيا على المطابع والسينما والراديو والتلفزيون. عن طريق ما تقدم وضع(روبير) سنة(١٩٧٠)خمسة تعريفات لهذا المصطلح في المعجمات الكبرى للغة الفرنسية، وهي تدور في:

١) الإرسال: إرسال شيءٍ ما لشخصٍ ما.

٢) التحدث عن شيءٍ ما.

٣) التحاور [المحاورة] مع شخصٍ ما.

٤) الانتقال من مكانٍ إلى آخر.

٥) تدخل العلاقة الديناميكية في عمل ما[١٦].

إنَّ نظرة المعجم الكبير إلى التواصل اللساني بأنه سيرورة اجتماعية مفتوحة على الاتجاهات كافة، إذ لا تتوقف عند حدّ بعينه بل تتضمن عددًا هائلًا من سلوكيات الإنسان السيميائية، والتي تتمثل في اللغة والإيماءات والنَّظرة، والمحاكاة الجسدية، والفضاء الفاصل بين المتحدثين، وعليه

---

[١٥] ينظر: المصدر نفسه: مادة (ثقب):٢٨٤/٣ ـ ٢٨٥.

[١٦] ينظر: نظرية التواصل واللسانية، رابص نور الدين، ٢٣ ـ ٢٤.

لا يمكن الفصل بين التواصل اللفظي، والتواصل غير اللفظي السيميائي، والسبب في ذلك؛ لأنَّ الفعل التواصلي هو(فعل كليٌّ)، ومثلما أنَّ الاتصال اللفظي يعتمد على اللغة في تأدية الوظائف؛ فإن الاتصال غير لفظي يؤدي أيضًا وظيفة أخرى مهمة سواء كان مصاحبًا ومكملًا للنمط الأول أم مستقلًا عنهُ. وقد ألتفت المعجم الكبير إلى هذه القضية الاجتماعية عن طريق مادة (خَضَعَ) وغيرها من مواده اللغوية، إذ ذكر(للخضوع) بمعنى: (الإمالة في الكلام والإنته) عن طريق التواصل بين(الرجل والمرأة) نحو: خَضَعَ فلانٌ بالقول: آلان كلامه للمرأةِ[١٧]. وقد ذكر المعجم الكبير: يقال: خضعت المرأةُ بالقولِ، أي: أَلانت كلامها للرجل ورققته. فكان ذلك عن طريق التواصل بينهما، كما استشهد المعجم الكبير لذلك بقول الحق تبارك وتعالى مخاطبًا نساء الرسول (صلّى الله عليه وسلم): {يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} [الأحزاب: ٣٢]. فـ (الخضوع) في الآية الكريمة تدلُّ على معنى(إمالة الكلام والإنته) فهو تعبيرٌ مباشرٌ عن نمط الإيصال غير اللفظي الذي يستخدم خصائص ما وراء اللغة، أي: السيميائية، والنهي عن تليين الكلام مرتبط بفعالية هذه الرسالة غير اللفظية وتأثيرها حتى ولو تناقضت مع ظاهر الكلام أو الحديث بما تثير من توقعات وآمال عند الفُسّاق ذوي القلوب المريضة[١٨]. واستشهد المعجم الكبير بقول الكُميت يصف نساء ذوات العفاف[١٩]:

إذ هُنَّ لا خُضُعُ الحَدْيـِـ ـــثِ و لا تَكَشَّفَتِ المَفاضِلْ

فالمفاضل: جمع مفضلٍ ومفضلةٍ، وهو الثوبُ تتفضلُ به المرأة، أي: تلبَسُه وحدهُ في بيتها. وذكر صاحب اللسان: ((قَالَ ابْنُ الأَعرابي: الخُضَّع اللَّوَاتِي قَدْ خَضَعْن بِالْقَوْلِ ومِلْن؛ قَالَ: وَالرَّجُلُ يُخاضِع المرأَةَ وَهِيَ تُخاضِعُه إِذا خَضع لَهَا بِكَلَامِهِ وخضَعت لَهُ ويَطْمع فِيهَا، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ؛ الخُضوع: الانْقِيادُ والمُطاوعةُ))[٢٠]. وكل هذه الأمور تدور في التواصل الاجتماعي وهو القائم عادةً بين اثنين أو أكثر، فهو لا يقوم إلا عن طريق التبادل للحديث أو الكلام، سواء كان لفظيا أو غير لفظي، أي بـ(الإشارة) في ما وراء اللغة.

إذن نجد بأن اللغة قد تتخذ موضعًا مهمًا في عملية التواصل الاجتماعي؛ كونها ظاهرة أو وسيلة إتصال ضمن مجموعة الأنظمة الإعلامية المستعملة للتواصل، ولذلك ذكر المعجم الكبير

---

[١٧] ينظر: المصدر نفسه: مادة(خضع):٦/٤٧٤.

[١٨] ينظر: المصدر نفسه: مادة(خضع): ٦/٤٧٤.

[١٩] ديوان، الكميت بن زيد الأسدي، ٢٥٦، وينظر: المعجم الكبير: مادة (خضع): ٦/٤٧٤.

[٢٠] لسان العرب، ابن منظور: مادة (خضع): ٨/٧٣.

لفظة(البُوق): تمثيلًا للغةِ غير المنطوقة بجهاز النطق الإنساني، فاستعمال(البُوق) للشيوع بين اثنين أو أكثر، إذ يقال: فلانٌ بُوقٌ لفلانٍ: إذا كان يشيعُ ذكرهُ[٢١]. فهو يعّد رمزًا للإعلام والتنبيه الاجتماعي؛ وللغة غير المنطوقة، واستشهد المعجم الكبير بقول المتنبي[٢٢]:

إذا كانَ بعضُ الناسِ سيفًا لدولةٍ ففي الناسِ بُوقاتٌ لها وطُبُولُ

يعد(البوق) و(الطبل) من إعلام الناس بما يحدث، وكثيرًا ما ينتشر ذكره بين الناس في الحروب والغزوات، وقد استعملهما الشعراء كثيرًا في شعرهم للتنبيه. والبوق والطبل وغيرهما لم يكن الأساس في التواصل أو الاتصال الإنساني، بل إن الأساس هو وجود اللغة المنطوقة، ويتكون نظام عملها من ركنين أساسيين، هما:(البث ـ والاستقبال) أي: استقبال أصوات منتجة بعملية الكلام، وهذه اللغة التواصلية هي موضوع علم اللغة الاجتماعي.

إذن يمكن القول بان التواصل: هو عملية اشتراك لفظي(لغوي) بين المرسل والمرسل إليه في سنن المجتمع الإنساني، إذ تقتضي هذه العملية قناة تنقل الرسالة من الباث المتكلم إلى المتلقي. وهو يمكن أن نعّدهُ عملية التبادل بين المرسل والمرسل إليه، وهو ما عُرِفَ بذات المُستقبل في مجال علم الدلالة(Semantics). مما تقدم وجدنا بأن لمصطلح (التواصل) وظائف يمكن أن نذكرها على النحو الآتي:

١) وظيفة تأثيرية وجدانية: هي التي تقوم على تقوية العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الإنسانية وتفعيلها على مستويين (لفظي وغير لفظي) أي: اشاري، أي: (منطوق وغير منطوق).

٢) وظيفة معرفية: وهي التي تتمثل في نقل الرموز الذهنية وتبليغها زمانيًا ومكانيًا، أي: وصفيًا، وذلك عن طريق وسائل(لغوية وغير لغوية)، أي: (منطوقة وغير منطوقة). ومن يتتبع المعجم الكبير يجده قد استعمل هذه الوظائف عن طريق شرحه وتفسيره للألفاظ الاجتماعية والإنسانية التي حشرها في بطون أجزائه.

٣) النظريات الدلالية وأثرها في صناعة المعجم الكبير: إنَّ للنظريات الدلالية دورا وأثرا مهما في صناعة المعجم الكبير، ونلحظه قد اعتمد عليها في بناء مواده اللغوية، ومن ذلك نذكر النظريات الآتية:

أ) النظرية الإشارية: من النظريات الدلالية التي ظهرت في بريطانيا في العصر الحديث، إذ

---

[٢١] ينظر: المعجم الكبير: مادة (بوق): ٦٨٧/٢.

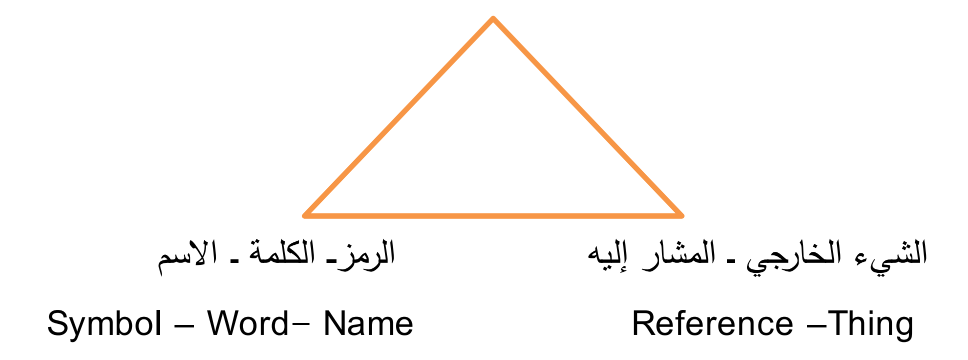
[٢٢] ديوان، أبو الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ١٠٨/٣، وينظر: المعجم الكبير: مادة (بوق): ٦٨٧/٢.

كان أوغدن ورتيشاردز في كتابهما المشهور (معنى المعنى: دراسة لأثر اللغة في الفكر والعلم والرمزية).

(The meaning of meaning): أول من طوّر ما يمكن أن يُسمّى بالنظرية الإشارية. (Referential Theory) أو (Denotational)، التي أوضحاها بالمثلث الآتي[٢٣]:

الفكر - المرجع - المدلول

Though– Reference – Sense



فهذا الرسم يميز ثلاثة عناصر مختلفة للمعنى، ويوضح أنه لا توجد علاقة مباشرة بين الكلمة كرمز، والشيء الخارجي الذي تعبر عنه، والكلمة عندهما تحوي جزأين، هما: صيغة مرتبطة بوظيفتها الرمزية، ومحتوى مرتبط بالفكرة أو المرجع[٢٤]. وتعني بالنظرية الإشارية أن معنى الكلمة هو إشارتها إلى شيء غير نفسها. وهنا يوجد رأيان:

١) رأي يرى أن معنى الكلمة هو ما تشير إليه.

٢) رأي يرى أن معناها هو العلاقة بين التعبير وما يشير إليه[٢٥].

إذن إن دراسة المعنى على الرأي الأول تقتضي الاكتفاء بدراسة جانبين من المثلث، وهما جانبا [الرمز والمشار إليه]، وأما الرأي الثاني: فيتطلب دراسة الجوانب الثلاثة، والسبب في ذلك؛ لأن الوصول إلى المشار إليه يكون عن طريقة الفكرة أو الصورة الذهنية.

وقد تأثر المعجم الكبير باللسانيات الحديثة والاستفادة من النظرية الإشارية، إذ استعمل الرمز والإشارة للإحالة أو للمشار إليه، وسار على الجوانب الثلاثة (الدال، والمدلول، والمرجع)، وإن معنى الكلمة يجب إحالتها إلى المرجع الذي تدلّ عليه في الواقع، وهذا ما يشرحه ويحلله التعريف الإشاري أو الرمزي في المعجم الكبير، أي التعريف باستعمال الرسوم والصور

---

[٢٣] ينظر: المعجم الكبير: مادة (ثلب):٣/٩٩.

[٢٤] ينظر: المصدر نفسه: مادة (زهره): ج١٠/ ق١١٩٢/٢.

[٢٥] المصدر نفسه: مادة (ذ ع ف):٨/١٣٣.

والمخططات والرموز. وهو عبارة عن طريقة من طرائق التعريف المساعدة تستعمل لكشف المعنى عن طريق الرسوم والصور والرموز، ومن الأمثلة على ذلك في المعجم الكبير، نذكر منها الآتي:

١) استعمل المعجم الكبير رموز إشارية للكشف عن معانٍ ودلالات الألفاظ، وهي :

أ) (*): إشارة عن الدلالة التي تسبق رأس الكلمة المفسرة، نحو: اتلأب الشيء: انتصب. والتلأبيبة: الاستقامة والاطراد[٢٦].

ب) (وــ:): إشارة للدلالة على تكرار الكلمة لمعنى جديد. نحو: رَهرَه لونه: حَسُنَ بَريقُه ولَمَعانُه. (وـ:) الراعي بالضَّأن: دَعاها إلى الماء، بقوله: رَهْ رَهْ. وهو مقلوبٌ من هَرْ هَرْ. وـ: فلانٌ مائدته: وسعها كرمًا وسخاءً. [٢٧]

ج) (٠): إشارة للمادة الفرعية تمييزًا لها من المادة الأصلية. ذكر المعجم الكبير: ((٠ وموتٌ ذُعَافٌ: سريعٌ يُعجلُ بالقتل)) .[٢٨]

د) (مج): إشارة للدلالة على ما أقرَّه المجمع من الألفاظ الحديثة وثبتها في المعجم، ومن ذلك نذكر: لفظة (الدَّوْلابُ ـ والدُّولابُ): جهازٌ لِرفع الأثقال، وهو نوعٌ من المِلفات.(مج). وـ: خِزانةٌ تُحْفَظُ فيها الثيابُ.(مج) .[٢٩]

هـ) (ــ): للإشارة إلى أن المعنى بالتفسير هو ما يليها، أما ما قبلها فقد ذكر، لأنه مظنّة الطّلب لهذا التعبير.

و) (ـُـِـ): استعمل المعجم الكبير هذا الرمز لبيان ضبط عين المضارع بالحركة، أو الحركات التي توضع فوقها أو تحتها، مثال على ذلك:((رَتَكَ البَعِيرُ والظّلِيمُ ونحوُهما ـُـِ رَتْكًا، ورَتَكًا، ورَتَكانًا: عَدا في مُقاربةِ خطْوٍ)).[٣٠]

٢) استعمل المعجم الكبير التعريف الإشاري والرمزي والمتمثل بالصور والرسوم للكشف عن معاني ودلالات الألفاظ، ومنها نذكر الآتي:

أ) لفظة(بخورُ مَريمَ): Cyclamen: نبات عشبي معمر ينبت في غربي آسيا وشمال إفريقية، وفي المناطق الجبلية في أواسط أوروبا وجنوبها، له درنات، وأوراقه كبيرة، وأزهاره حُمر، يزرع للزينة ، وتستعمل درناته في مداواة الحيوان[٣١]. يرافق هذا التعريف

---

[٢٦] ينظر: المصدر نفسه: مادة (دولب):٦٨٣/٧.

[٢٧] المصدر نفسه: مادة (رتك): ج١٠/ق٢٣١/١.

[٢٨] ينظر: المصدر نفسه: مادة (بخر):١٠٨/٢.

[٢٩] ينظر: المصدر نفسه: مادة (برق):٢٤٩/٢.

[٣٠] ينظر: المصدر نفسه: مادة (برق):٢٤٩/٢.

[٣١] ينظر: المصدر نفسه: مادة (رنن):ج١٠/ق٢/ ١١٧٥ ـ ١١٧٦.

الرسم التوضيحي ليتعرف عليه المتصفح.



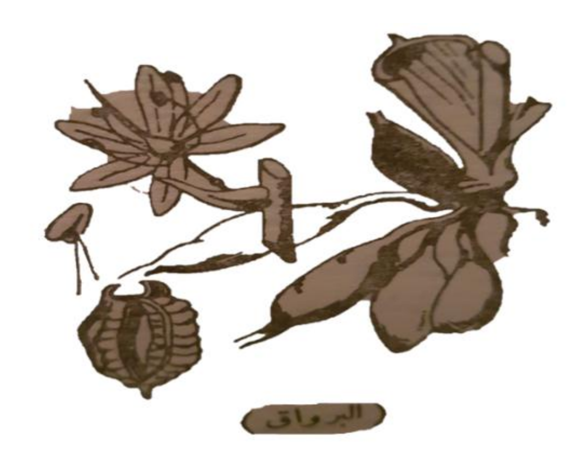
ب) لفظة (البرقوق) : Prunus Domestica : شجرٌ من الفصيلة الوردية ، ينمو في المناطق المعتدلة. أزهاره بيضٌ ورديةٌ، وثمره مختلف الألوان، وطعمه حُلو يُؤكل، ويُسّمى في الشام(الإجاص) وفي المغرب (المشمش)، وعندنا في العراق(الإجاص). فيرافق هذا التعريف العلمي الرسم الذي يشير إلى النبات في الواقع، كما هو موضح في الرسم الآتي(٣٢):



ج) لفظة(البرواق): Asphodelus Fistulosus : عشبٌ له جذور درنية متجمعة، وأوراقه مجموعة وردية عند القاعدة، وله شمراخ يحمل أزهارًا صغيرةً بيضاء أو مشربة بالحُمرة، والثمرة علبة كروية ،وهو (بصل إبليس)، ويسمى في المغرب(الخنثى). وفي بعض المراجع(البرواق

(٣٢) ينظر: المصدر نفسه: مادة(دور):٧/٦٥٤.

والخنثى) مترادفان، وهما ــ مع تشابهما ـ مُتباينان. ويرافق هذا التعريف رسم توضيحي للقارئ للتعرف على هذا العشب[٣٣]. وهو على النحو الآتي:



د) لفظة(الرَّنة): في علوم الأحياء: Reindeer : حيوانٌ مجترٌ من فصيلة الأيائل، من الحافريات زوجية الأصابع، يتميز بمناطيح antlers عظيمة متشعبة، فروعها الطريفة راحية الشكل، توجد في الذكور والإناث، وتعيش الرنة في قطعان تقودها عادةً أنثى كبيرة، وتقطن المناطق الجبلية الخالية من الأشجار. وهي النوع الوحيد من الأيائل الذي يمكن استئناسه. وفي البلاد الإسكندنافية وفي المناطق القطبية من امريكا الشمالية تستخدم الرنة في الجر وإنتاج اللحوم والألبان والجلود، اسمها العلمي:

Rangifer tarandus. وتعرف في أمريكا باسم كاريبو: Caribou[٣٤]. وقد أشار المعجم الكبير إلى هذا التعريف بالصورة التوضيحية للقارئ والمتصفح للتعرف على هذا الحيوان، وذلك من خلال الصورة الآتية:



[٣٣] ينظر: المصدر نفسه: مادة(دور):٧/٦٥٤.

[٣٤] ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر:٣٨.

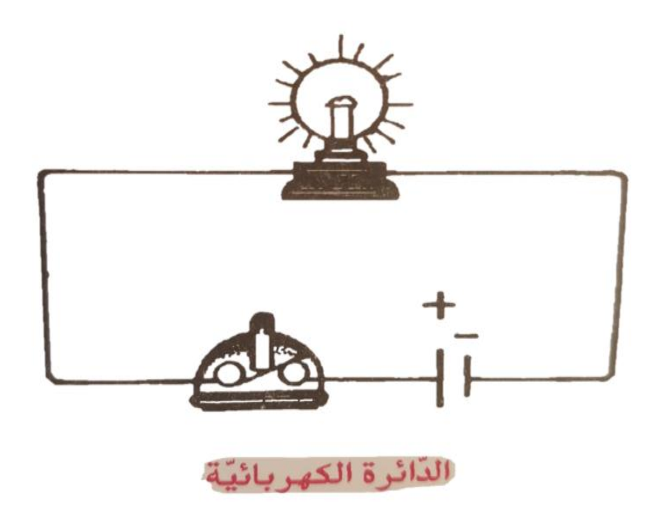
هـ) لفظة(دائرة البروج):(في الفلك)(F) Zodiaque (E) Zodiac[٣٥]: منطقة الفضاء، الذي تدور فيه الشمسُ، والقمرُ، والكواكبُ الرئيسة، وتنقسم اثنى عشر بُرجًا، تبدأ من البُرج الذي تكون فيه الشمسُ في الاعتدال الربيعي. ويرافق هذا التعريف مخططًا توضيحيًا يساعد المتصفح على معرفة دائرة البروج



دائرة البروج

.

و) الدائرة الكهربائية: Electric Circle: التوصيلة التي يمر فيها التيار الكهربائي. يرافق هذا التعريف الرسم التوضيحي الآتي ليشير إلى الدائرة الكهربائية ويساعد المتصفح لمعرفة تلك الدائرة[٣٦]:



الدّائرة الكهربائيّة

إذن تأثير النظرية الإشارية على المعجم الكبير واضحًا ، وذلك عن طريق استخدامه للرموز الإشارية والصور والرسوم التي تساعد القارئ والمتصفح المعرفة تعاريف الألفاظ والمصطلحات ، وهذا مما دفع المعجم الكبير إلى وضع تلك الإشارات والرموز مع التعاريف

---

(٣٥) ينظر: المصدر نفسه:١٠٧.

(٣٦) المصدر نفسه:٩٨.

للتوضيح. وإن تلك الإشارات تقوم على(الدال، والمدلول، والمرجع). فإن معنى اللفظ يجب الاحالة إلى المرجع الذي يدل عليه في الواقع، وهذا ما يفسره استخدام التعريف الإشاري في المعجم الكبير كما بينا ذلك، باستخدام الرسوم والصور والرموز، وهذا من الطرائق الحديثة في التعريف الإشاري للألفاظ والمواد اللغوية. وقد استخدم المعجم الكبير الوسائل التكنولوجيا والحاسوب الآلي لتزويده بالصور والرسومات لتوضيح التعريفات الإشارية للألفاظ لخدمة القارئ والمتصفح.

ب) نظرية الحقول الدلالية: إنَّ فكرة الحقول الدلالية لم تكتمل على صورتها إلا في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين على يد علماء سويسريين وألمان ثم تطور السيمانتيك في فرنسا باتجاه خاص حيث ركز motore وأتباعه(١٩٥٣) على حقول تتعرض ألفاظها للتغيير والامتداد وتعكس تطورًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا مهمًا. تبني هذه النظرية على المفهوم الحقلي، وهو المفهوم الذي يندرج تحته مجموعة من العناصر التي تربطها علاقة ما؛ لأن المفهوم قاعدة تصنيفية، تصنف من خلالها أشياء الكون وعناصره على وفق قواعد معينة[٣٧].

أما معجم الحقول الدلالية: فقد أدت نظرية الحقول الدلالية إلى وضع يعتمد كافة الحقول الدلالية في اللغة وتقدم فيه الألفاظ داخل كل حقل.

وربما كان أشهر معجم أوروبي مبكر صُنِّف على أساس الموضوعات هو المعجم الذي وضعه Rogetلكلمات اللغة الانجليزية وعباراتها، الذي ذكر في مقدمة هذا المعجم إلى أنه مرتب ليس على حساب النطق ولا الكتابة وإنما بحسب المعاني ولعلّ أحدث معجم يعتمد نظرية الحقول الدلالية هو المعجم الذي عنوانه Greek New Testament ولا بد من الملاحظة هنا إلى أنه كان للعرب أسبقية في ميدان المعاجم المعنوية ابتداء من رسائل الموضوعات التي وضعها جامعو اللغة الأول. وقد قسم المستشرق(أولمان) الحقول الدلالية إلى ثلاثة أنواع وهي على النحو الآتي[٣٨]:

١) الحقول المحسوسة المتصلة : والمثال على ذلك نظام الألوان إذ أن مجموعة الألوان امتداد متصل من الممكن تقسيمه بطرق مختلفة، و تختلف اللغات في ذلك التقسيم.
٢) لحقول المحسوسة ذات العناصر المنفصلة كنظام العلاقات الأسرية، وهي أيضًا يمكن أن تصنف وفق معايير مختلفة.
٣) الحقول التجريدية وتمثلها الألفاظ الخاصة بالمعاني الفكرية غير المحسوسة.

---

[٣٧] ينظر :المصدرنفسه:مادة(بأس):٣٦/٢،ومادة(حرب):١٨٥/٥.ومادة(أرب):١٧٥/١،ومادة(دهى):٦٣٨/٧.

[٣٨] ينظر: المصدر نفسه: مادة(بين):٧٣٣/٢ـ ٧٣٩.

وقد جاءت تأثيرات المستشرق (أولمان) وغيره من المستشرقين على الصناعة المعجمية العربية ولا سيما المعجم الكبير واضحةً وجليةً.

أما الحقل الدلالي (Semantic Field) أو المعجمي فهو مجموعة من الألفاظ التي ترتبط دلالتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثل الألفاظ الدالة على الألوان في اللغة العربية .. فهي تقع تحت مصطلح عام هو (اللون)، وقد يضم ألفاظًا، نحو:(الأحمر، الأزرق، الأصفر، الأخضر ،الأبيض، الأسود، ...). وقد عّرف(لاينز) Lyons معنى الكلمة بأنها: ((محصلة علاقاتها بالكلمات الأخرى داخل الحقل المعجمي))[٣٩]. وقد برز تأثر المعجم الكبير بمبادئ نظرية الحقول الدلالية، وظهرت عنايته بالعلاقات الدلالية، والهدف من ذلك هو جمع كل الألفاظ التي تخصّ حقلًا معينًا، والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها باللفظ العام ولا تخرج هذه العلاقات في أي حقل معجمي عن:

١) الترادف: ومن ذلك ذكر المعجم الكبير ألفاظ ذات معانٍ مترادفة، منها: الحرب / البأس. والداهية/ الأربية،..[٤٠].

٢) التضاد: ذكر المعجم الكبير ألفاظ ذات علاقات دلالية كثيرة ، ومنها ألفاظ التضاد، ونذكر منها على النحو الآتي: لفظة(البين): دلالاتها الأصلية: الفرقة، والفصل، والابتعاد، ثم تنتقل إلى دلالات مجازية وهي: الوصال، والإظهار، والوضوح[٤١].ولفظة(جلل): ودلالاتها الأصلية: معظم الشيء، والتغطية، والعِظَمُ، وعظمة الله وكبرياؤهُ. ثم انتقلت إلى معانٍ ودلالات أخرى: الضعف، والأمر الهين الحقير، والشيء الصغير،... انتقالًا مجازيًا. [٤٢]

٣) الاشتراك: ذكر المعجم الكبير الكثير من معاني الألفاظ المشتركة، ومنها(آل) بمعنى (أهل) ويقال: آل الرجل: أهله وعياله وأتباعه وأنصاره(هذا هو الأصل)، وغيرها من المعاني فهي: مجازيًا، نحو: آل اللبن : خثر، وآل الشيء: ردهُ، وآل جسم الرجل: نحف، وآل لحم الناقة: ذهب فضمرت، وآل القطران: انعقد بالنار، وآل الدُّهن: أنتن، وآل الصّابُ: عُصارة الصبر.[٤٣]

٤) الاشتقاق: برز الاشتقاق بشكل واضح وكبير في المعجم الكبير في معالجة الألفاظ والمواد اللغوية، ومن ذلك لفظة (تيع):((تَاعَ القَيْءُ ـِ تَيْعًا ، وتَيَعًا، وتَيَعانًا: خَرَجَ [...] أتاعَ الرجلُ: أخرجهُ [...] تَتَيَّعَ فُلانٌ: أسرعَ إلى الشَّرِّ [...] تَتَايعَ في الشَّرِّ: تهافتَ فيه وأَسْرع

---

[٣٩] ينظر: المصدر نفسه: مادة(جلل):٤/٤٧٠ ـ ٤٧٦.

[٤٠] ينظر: المصدر نفسه: مادة(أول): ١/٦١٥ ـ ٦١٧.

[٤١] المصدر نفسه: مادة(تيع):٣/ ١٧٧ـ ١٧٩.

[٤٢] ينظر: المصدر نفسه: مادة(تيع):٣/ ١٧٧ـ ١٧٩.

[٤٣] المصدر نفسه: مادة(ثقف):٣/٢٨٩.

إليه[...] التَّيِّع من الرِّجال : السَّرِيع إلى الشَّرَّ [...] تَتَايعَ الجَمَلُ في مَشْيِهِ في الحَرِّ: حَرَّك ألواحَه حتى يكاد يَنْفَكُّ [...] وَتَاعَ إليه عجل...)).[٤٤]

وممّا يقرب من دلالة الاضطراب قرب دلالة العام من الخاص ما يأتي : تَاعَ الماءُ ونحوهُ: سَالَ، فالسيلان حركة وهي أعم من الاضطراب، ومما يتقارب مع دلالة (تَيَّعَ) التَّيْع: أخذ الشيء باليد؛ لأنَّ الأخذ باليد يقتضي حركتها، ونحو ذلك : تَاعَ الطريق: قطعهُ. وتَاعَ المسافةَ: قَطَعَها. لأنَّ ذلك يقتضي الإسراع والحركة[٤٥].

وكذلك لفظة(الثقف): ذكر المعجم الكبير: ((ثَقِفَ فلانٌ فُلانًا ـُ ثَقْفًا: غلبه في الحِذق. وـ فلانٌ فُلانًا ـُـ ثَقْفًا، وثَقَفًا: صارَ حاذقًا خَفِيفًا فَطنًا، فهو ثَقِفٌ، وثَقْفٌ. وـ الخَلُّ: اشتدَّتْ حُموضَتُه وصار حِرِيفًا لاذعًا فهو ثَقِيفٌ، وثِقِّيفٌ، والأخيرة على نسب. وـ الشيء ثَقْفًا، وثقافًا، وثقُوفةً: حذقه. وـ فلانًا ثَقْفًا: صادفه. وـ ثَقَفًا: أخذه، وظفر به... ثَقُفَ فلانٌ ـُ ثقافةً: صار حاذقًا خفيفًا فَطِنًا فَهِمًا، فهو ثَقْفٌ...)).[٤٦]

٥) التوليد الدلالي: أقرَّ المجمع موضوع التوليد منذ تأسيسه، وقد وضع الكثير من الألفاظ المولدة في معاجمه اللغوية ولاسيما المعجم الكبير، ومن ذلك: لفظة(الجامعة) بمعناها الجديد: ((مجموعة معاهد علمية، تُسمّى كُليات، تدرس فيها الآداب والفنون والعلوم))[٤٧]، وكذلك لفظة(الجريدة): وهي من الألفاظ المولدة ذات تحولات دلالية مختلفة، ومن معانيها الجديدة: تدلّ على صحيفة خُصّت ببعض الأمور، وصحيفة تنشر فيها أخبار ومقالات تصدر في أوقات معلومة، وصحيفة يومية أو أسبوعية تنشر مقالات في موضوعات مختلفة وأخبار محلية وعالمية وإعلانات ونحو ذلك[٤٨].وكذلك لفظة(الدبابة): Tank ، ومعناها الجديد: ((سيارة غليظة مصفحة بها مدافع تهجم على صفوف العدو، وترمي بالقذائف))[٤٩]. ومن الأخرى الألفاظ المولدة الجديدة التي ذكرها المعجم الكبير، لفظة(ثلاجة): وهي جهاز للتبريد وحفظ الأطعمة لمنعها من التلف. واللفظ الشائع (فريجيدير) وهي على وزن (فَعَالة) من الأوزان القياسية التي أقرها المجمع. والثلاجة: هي مكبس الثلج، وخزانةُ ذات جهاز مُبرد[٥٠]. ومن الألفاظ المولدة ذات دلالات جديدة:

---

(٤٤) المصدر نفسه: مادة(جمع):٥٢٨/٤.

(٤٥) ينظر: المصدر نفسه: مادة(جرد): ٢٠٧/٤ ـ ٢٠٨.

(٤٦) المصدر نفسه: مادة(دبب): ٤٠/٤ ـ ٤١.

(٤٧) ينظر: المصدر نفسه: مادة(ثلج): ٣١٢/٣.

(٤٨) ينظر: المصدر نفسه: مادة(جرد): ٢٠٧/٤ ـ ٢٠٨.

(٤٩) المصدر نفسه: مادة(دبب): ٤٠/٤ ـ ٤١.

(٥٠) ينظر: المصدر نفسه: مادة(ثلج): ٣١٢/٣.

لفظة(الاحتجاج)، و(ركب رأسه) وهو اللفظ الفصيح الذي يوازي الإصرار على العناد. وهناك الكثير من الألفاظ ذات دلالات حقيقية ومجازية تذكر بحسب استعمالها، أي بحسب السياق اللغوي(الكلامي)، وهذا ما يسمى بـ(التطور الدلالي للألفاظ).

٦) النحت: ذكر المعجم الكبير ألفاظ منحوتة ذات دلالات متنوعة، ومن تلك الألفاظ(باشا): ((كلمة تركية منحوتة في الأرجح من باد شاه الفارسية، بمعنى السلطان: لقبٌ أطلقه العثمانيون على كبار العلماء والصوفية والولاة وحُكام الأقاليم، ثم قُصِر على أصحاب المناصب الكبرى من عسكريين ومدنيين، وبعد قيام الجمهورية التركية خُصَّ به العسكريون، ثم أُلغي سنة ١٩٣٤م. وفي أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر لُقب به العسكريون من رتبة لواء، ومنحه بعض المدنيين من الوزراء وكبار الموظفين والأعيان،...))[٥١]. وهذا هو ابراز ما أغفلته معظم المعجمات اللغوية القديمة، إذ حرصت لجنة المعجم الكبير على تطبيق مبادئ نظرية الحقول الدلالية، وتجاوز الخلط والاضطراب والتحريف والتصحيف في تفسير معاني الألفاظ، وبعد ذلك قامت لجنة المعجم برسمِ منهجٍ لنفسها سارت عليه في ترتيب مواد المعجم، وهو على النحو الآتي:

رُتبت مواد المعجم الكبير بحسب أصولها وفق الحرف الأول فالثاني فالثالث من حروف الهجاء.

أولًا: النظائر السامية: ذكر في صدر المادة نظائرها السامية إن وجدت، وكتبت الكلمات السامية بحروف لاتينية. متلوة بالنطق العربي التقريبي، وردت الكلمات المُعرَّبة إلى أصولها.

ثانيًا: المعاني الكلية: ذكرت بعد النظائر السامية، ورُتبت متدرِّجة من الأصلي إلى الفرعي، ومن الحسيّ إلى المعنوي، ومن الحقيقي إلى المجازي، ومن المألوف إلى الغريب، وأُغْفِلت في الكلمات المقلوبة والمُبدلَة اكتفاء بذكرها في أصولها قبل القلب أو الإبدال..

ثالثًا: الفعل: قُدِّمت الأفعالُ على الأسماء، وقُدِّم الثلاثي منها على الرباعي، والمجرد على المزيد، واللازم على المتعدي، ورُوعي في ترتيبها ما يأتي:

أ) الثلاثي المجرد...

ب) الثلاثي المزيد وأنواعه: مزيد بحرف، ومزيد بحرفين، ومزيد بثلاثة أحرف.

ج) الرباعي وأنواعه: مجرد : وأورد في ترتيب أصوله، وفُصِل مضعَّفهُ عن مادة الثلاثي منهُ، وذُكِرَ في موضعه من الترتيب الحرفي، فتذكر مادة(حصحص) مثلًا قبل (حصص) و(مضمض) بعد (مضض)، مزيد بحرف، ومزيد بحرفين.

د) المبني للمجهول: اقتصر فيه على ما نصت عليه المعجمات، وذكر بعد المبني للمعلوم

---

[٥١] المصدر نفسه: ٢٥/٢.

المتفق معه في الصيغة، ثلاثيًا كان أو رباعيًا.

هـ) ضبط عين المضارع من الفعل الثلاثي: رسمت حركة عينهُ فوق خط أفقي صغير أو تحته هكذا(ـَـ ـِـ ـُـ).

و) الإبدال: ذُكرت الأفعال التي صُدِّرت بالتاء المبدلة من الواو إبدالًا دائمًا، مثل:(تَجِهَ) و (تقى) في ترتيبها الهجائي من حرف التاء، لتُحال على أصلها من حرف الواو في مادتي(و ج هـ) و (و ق ي).

ز) القلب: الأفعال التي دخلها القلب في جميع تصاريفها، مثل(أستن) مقلوب (أسنت) ذكر مقلوبها في مادته مع الإشارة إلى الفعل المقلوب منه.

رابعًا: المصادر: ذكرت بعد الفعل مباشرةً، والتزم فيها ما يأتي:

أ) مصادر الثلاثي. ب) مصادر غير الثلاثي.

خامسًا: المشتقات:...

سادسًا: الأسماء: ذكر المشتق منها والجامد، بعد الأفعال مرتبةً ترتيبًا هجائيًا مع تقديم الألف اللينة على الهمزة، مثل(الباز) قبل(البأز).

❖ الجانب الموسوعي: انماز المعجم الكبير بطابع الموسوعي: إذ يشتمل على المصطلحات وأعلام الأشخاص والبلدان وأسماء النبات والحيوان...

❖ وضع فهرس في آخر كل جزء من أجزاء المعجم الكبير لتحديد تاريخ وفيات الشعراء الذين استشهد بهم[٥٢]. وهذا المنهج الذي اتبعته لجان المعجم الكبير المتعاقبة يوضح ما قدّمه المجمع من إضافات وتجديد، مما جعل هذا المعجم يختلف عن المعجمات اللغوية الأخرى في الترتيب المحكم والتبويب ولاسيما الترتيب الداخلي، وما يخص التأصيل والمقارنة مع النظائر السامية ، وترتيب المعاني المحسوس قبل المجرد، والحقيقة قبل المجاز،...

ج) النظرية التحليلية التكوينية: Compositional Analysis Theory : من النظريات اللسانية الحديثة التي أثرت على الصناعة المعجمية بشكل واسع وكبير، وفي حين يستخدم الباحث نظرية المجال الدلالي Semantic Field يحتاج بعد تحديد ألفاظ المجال الدلالي وجمعها- إلى التمييز الدقيق بين معانى الكلمات داخل المجال، وهنا يأتي دور النظرية التحليلية، لتمد الباحث بأهم الملامح الدلالية، سواء تلك الملامح التي تشترك فيها ألفاظ المجال الدلالي، أو تلك الملامح التي تميز بين ألفاظ المجال الواحد،((حيث إن معنى الكلمة يتحدد عند أصحاب هذه النظرية بمجموع الملامح

---

[٥٢] ينظر: المصدر نفسه: ١/ (مقدمة الدكتور إبراهيم مدكور رئيس المجمع).

الدلالية التي تحملها))[٥٣].

أما مفهوم التحليل التكويني فهو دراسة البِنية الداخلية لمدلول الكلمات خارج السياق، ويعني دراسة عناصر أو مكونات الدلالة لوحدة لسانية مستقلة، ويُعنى بمعرفة الكيفية التي يتم بها ربط الكلمات فيما بينها ابتداء من تكوينها الداخلي[٥٤]. أو أن التحليل التكويني هو تجزئة الوحدات المعجمية إلى مكوناتها الأساسية من خصائصها البارزة أو مقومات ماهيتها. وهذا التحليل كثير في المعجم الكبير الذي قام بتجزئة الوحدات اللغوية إلى موضوعات فرعية، إذ تقوم فكرة تحليل المعنى على عناصره التكوينية، وعلى استخلاص أهم الملامح الدلالية للألفاظ داخل الحقل الدلالي، والإشارة إلى الملامح المشتركة التي تجمع الألفاظ تحت المادة اللغوية، وداخل الحقل الدلالي ومكوناته، وهذا ما نجده في المعجم الكبير[٥٥].

أما فوائد نظرية التحليل التكويني: يمكن أن نذكر أهم فوائد نظرية التحليل التكويني على النحو الآتي:

١) تساعد على تحديد نوع العلاقة بين معاني الوحدات المعجمية من ترادف، وتضاد، وتضمين، وغيرها من العلاقات.
٢) تتيح الفرصة لدراسة العلاقات الدلالية دراسة علمية دقيقة.
٣) تحديد الملامح الدلالية لمعنى كلمة من الكلمات في المجال الدلالي الواحد، وذلك من استقراء السياقات التي ترد فيها الكلمة[٥٦].

ومن مظاهر تأثر المعجم الكبير بالنظرية التحليلية. ومن أمثلة تحديد معنى الكلمة بوساطة منهج التحليل التكويني في المعجم الكبير، مثل كلمة(إمام)، وقد عرَّفهُ المعجم الكبير بأنه: ((مَنْ يُقتدى به و يُؤتَمُّ، ومنه إمام الصلاة، يطلق على المذكر والمؤنث. وقد يقال: امرأةٌ إمامةٌ على الوصفية، والأرجح الاسمية))[٥٧]. ويمكن وضع الجدول التحليلي التكويني لمصطلح(الإمام) على النحو الآتي:

السمات الدلالية / المصطلح	يُقتدى بأفعاله وأقواله	له الرئاسة والقيادة	الشرع	الطريق الواضح	له القيادة في الصلاة
الإمام	+	+	+	+	+

[٥٣] John Lyons–Semantics.1 – Cambridge University Press ،(١٩٧٧)،V.1،P326

[٥٤] ينظر: علم الدلالة، كلود جرمان وريمون لوبلون،٦٦ ـ ٦٧.

[٥٥] ينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس،٣٣، وعلم الدلالة، أحمد مختار عمر،١٢١.

[٥٦] ينظر: محاولات بناء المعيار الدلالي في الدلالة المعجمية دراسة وصفية، بدر بن عائد الكلبي، ٢٨٦.

[٥٧] المعجم الكبير: مادة(أمم):١/٤٨٦.

إن التحليل التكويني لمصطلح(الإمام) يقودنا إلى إن دلالتهِ اللغوية لم تتغير، وقد ذكر المعجم الكبير ذلك، وذكر أيضًا الطابع الخصوصي الذي أكتسبهُ هذا المصطلح من ارتباطهِ(شرعًا) بعماد الدين، وهي(الصلاة). فالمكون الدلالي الشائع والمميز لمصطلح(الإمام) وهو ((القيادة والرئاسة والتقدم في الصلاة))[٥٨].

وقد بيّن المعجم الكبير المكونات الدلالية في تعريف بعض مداخله، ومنها(بجل): ويمكن توضيح ذلك عن طريق الجدول التحليلي التكويني الآتي:

السمات الدلالية / المصطلح	العِرْقُ	الشيء العظيم	الكفاف	الهيئة الحسنة	كثير الشحم	من حُسن الحال وأخصابه	التوسع	من الضخامة عند الرجل
بجل	+	+	+	+	+	+	+	+

إن التحليل التكويني لمصطلح(بجل) يقودنا إلى إن دلالته اللغوية ثابتة ولم تتغير، وقد ذكر المعجم الكبير ما أكتسبه هذا المصطلح من دلالات مرتبطة بصفات (الرجل)، ومنها(الضخامة) دون النساء أو المرأة، وقد ذكر لذلك ثلاث دلالات أصلية، وهي: العرقُ، والشيء العظيم، والكفاف. وإن المكون الدلالي الشائع لمصطلح(البجل):هو العظمة والضخامة والاتساع[٥٩]. ومن الأمثلة على التحليل التكويني للألفاظ والمصطلحات التي ذكرها المعجم الكبير، ومن ذلك لفظة(البجعة): ويمكن توضيح ذلك عن طريق الجدول التحليلي التكويني الآتي:

السمات الدلالية / اللفظة	له منقار طويل ضخم	عنقهُ طويل	رأسه صغير	أصابعه طويله	جسمه نحيل نسبيًا	يتغذى بالأسماء	لونهُ أبيض	من الطيور البرية	يعيش في المناطق الحارة والمعتدلة
البجعة	+	+	+	+	+	+	+	+	+

عن طريق التحليل التكويني للفظة(البجعة) التي وضعها المعجم الكبير في مدخل مادة(بجع) التي حملت دلالة (القطع) قائلًا: بَجَعَ الشيءَ ـَ بجعًا: قَطَعَهُ بالسيف. وبَجِعَ الرَّجُلُ ـَ بَجَعًا: أكثرَ من الأكلِ حتى كادَ ينفَطِر. ثم ذكر بعد ذلك لفظة(البجعة) وبين فيها المكونات الدلالية: وهو طائر مائي شاطئي من الفصيلة البجعية: Pelecanidae، ورتبة البجعيات، والمكون الشائع لدى هذا الطائر هو (طويل الساقين والعنق والمنقار). ومن

---

(٥٨) المصدر نفسه: مادة(أمم):١/٤٨٦.

(٥٩) ينظر: المصدر نفسه: مادة(بجل):٢/٧٩.

أنواعه: البجع الأبيض: Pelecanus Onocrotalus، ويشاهد في مصر بكثرة في فصلي الربيع والخريف، وريشه أبيض عليه أحيانًا مسحة وردية.[٦٠]

ومن التحليل التكويني للألفاظ والمصطلحات التي ذكرها المعجم الكبير مصطلح(الحجّ)، ويمكن توضيح ذلك عن طريق الجدول التحليلي التكويني الآتي:

السمات الدلالية / المصطلح	مطلق القصد	القصد لشيء معظم	القصد إلى بيت الله الحرام	للتعبد	بشروط معينة ومحددة	في أوقات معلومة	السنة
الحجُّ	-	+	+	+	+	+	+

ملحوظات على مصطلح(الحج)، ومن خلال الجدول التحليلي التكويني:

١) ذكر المعجم الكبير سمات ومكونات دلالية كثيرة لهذا المصطلح، وما أُشتق منهُ، وهو من المصطلحات الفقهية الذي ذكره هذا المعجم تحت مادة(حجج).

٢) ذكر المعجم الكبير لمادة(حجج) ثلاثة أصول دلالية: أ) القصد. ب) السنة. ج) العظم المستدير حول العين.

٣) وضح المعجم الكبير المعنى الدلالي للحجِّ بأنه:((قصد إلى بيت الله الحرام [أي زيارته] والغرض منه التعبد)).[٦١]

وقد ذكر المعجم الكبير معاني ودلالات جديدة للفظة(الدائرة)، على وفق منهج التحليل التكويني، وقد عرَّفها بقوله: ((ما يحيطُ بالشيء ويدور حوله... و- : مبنى تُدارُ فيه شؤونُ المزرعَةِ، أو أعمالُ قِطاعٍ من الإدارات الحُكومية ونحوها.(محدثة). ويقال ما لِفلانٍ دائرةٌ، أي: لم يُحكم أمره. و-(في الهندسة) Circle (E) : شكلٌ مستوٍ محدود بخط مُنحنٍ، جميع نُقطه على أبعادٍ مُتساويةٍ من نُقطةٍ داخليةٍ هي مركز الدائرة.(مج).))[٦٢]. وبناء على الدلالات الجديدة للفظة(الدائرة) التي أقرها ووضعها المجمع في المعجم الكبير، يمكن وضع الجدول التحليلي التكويني للفظة(الدائرة) على النحو الآتي:

---

[٦٠] ينظر: المصدر نفسه: مادة(بجع):٢/٧٨.

[٦١] المصدر نفسه: مادة(حجج):٥/٩٢.

[٦٢] المصدر نفسه: مادة(دور):٧/٦٥٣.

السمات الدلالية / اللفظة	الإحاطة بالشيء من حوله	المنزل المسكون	الحلقة أو شبه الحلقة	الهزيمة	دوار الرأس	شكل مستو محدود	الداهية	مبنى حكومي	الكرة	منطقة الفضاء
الدائرة	+	–	+	+	–	+	+	+	+	+

إذن أن أثر النظرية التحليلية التكوينية في المعجم الكبير كان بارزًا وواضحًا، وهذا ما وجدناه فيما ورد من تحليلات دلالية للمداخل والمصطلحات والألفاظ التي أقرها وذكرها المجمع في المعجم الكبير؛ ولاسيما المصطلحات والمفاهيم العلمية الجديدة.

٤) اللسانيات الوظيفية وأثرها في صناعة المعجم الكبير: أسهمت اللسانيات الوظيفية في صناعة المعجمات العربية الحديثة ولا سيما المعجم الكبير اسهامًا كبيرًا ، ولا يمكن التخلي عنها ، بل تساعد على تطور المواد والمداخل اللغوية التي اختارها المجمع وثبتها في المعجم الكبير، وقد اسهمت المستويات اللسانية بوظائف متعددة في المعجم الكبير، وعن طريق ذلك نذكر أهم التعريفات التي اسهمت في بناء مواد المعجم الكبير ومداخله، هي على النحو الآتي:

أ) التعريف الوظيفي: هو المظهر الذي يساعد على الكشف الدلالي الذي يستخدم في المعجم لمعالجة المواد والمداخل اللغوية، وهو الذي يختص بالموضوعات القواعدية، والنحوية. والصرفية، والصوتية، وغيرها.

فالتعاريف الوظيفية: يمكن تقسيمها وبحسب ما رصدناه في المعجم الكبير على ثلاثة أقسام:

الأول: التعريف بالوظائف النحوية: استعمل المعجم الكبير هذا التعريف للتعريف بمدلول المدخل، مثال على ذلك (الهمزة الممدودة): (آ): حرف نداء للبعيد، وما ينزل منزلته عند الكوفيين، وجعلها ابن عصفور للقريب. وقال الجوهري: هي لنداء القريب والبعيد[٦٣]. وكذلك حرف(الباء): الذي ذكرهُ المعجم الكبير في بداية مدخل الجزء الثاني، ذاكرًا له أربعة عشر معنى، هي(الإلصاق، التعدية، الاستعانة، السببية، المصاحبة والملابسة، الظرفية، البدل، المقابلة أو العوض، المجاوزة، الاستعلاء، التبعيض، القسم، الغاية، التوكيد).[٦٤]

ومن ذلك أيضًا(ذا): اسم إشارة للمفرد المذكر، عاقلًا كان أو غير عاقل، وهو مبني على السكون دائمًا، في محل رفع أو نصب أو جر، بحسب موقعه من الجملة... وكذلك(ذات):

---

[٦٣] ينظر: المصدر نفسه: أ/١/٤.

[٦٤] ينظر: المصدر نفسه: ٢/٧-٨.

مؤنث(ذو) بمعنى صاحب. يقال: هي ذاتُ مالٍ. و- مؤنث(ذو) بمعنى (الذي). قال الفراء: سمعتُ أعرابيًا، يقول: بالفضلِ ذو فضلكم اللهُ به، والكرامة ذاتُ أكرمكم الله بها. و- ظرف زمان غير متمكن بشرط إضافتها للزمان دون غيره، فتلزم النصب على الظرفية الزمانية. يقال: لقيتهُ ذات يومٍ، ولقيتهُ ذات مرةٍ[٦٥]. وهناك الكثير من الأمثلة.

الثاني: التعريف بالوظائف الصرفية: عالج المعجم الكبير مواده باستخدام الوظائف الصرفية، ومثال على ذلك حرف(التاء) من حروف الزيادة، وتزداد لمعانٍ، منها:

١) الفرق بين المذكر والمؤنث.
٢) تمييز الواحد من اسم الجنس.
٣) كما تلحق المصدر للدلالة على المرة.
٤) المبالغة في الصفة أو تأكيدها: وهي الداخلة على الصفات التي على بناء فاعل أو فعَّال أو مِفْعال أو فَعُول،...
٥) الدلالة على النقل من الوصفية إلى الاسمية، وذلك تلحق صيغتي فَعُول أو فعيل بمعنى مفعول إذا جردنا عن الوصفية.
٦) تلحق التاء صيغة منتهي الجموع، فتدل على:

أ) التعريب. ب) النسب. ج) التعويض.[٦٦]

الثالث: التعريف بالوظائف الصوتية: قام المعجم الكبير بمعالجة مداخلة باستخدام التعاريف بالوظائف الصوتية، ومن ذلك نذكر صوت(الثاء): وهو صوت أسناني رخو مهموس نظيرهُ المجهور صوت الذال[٦٧].وكذلك صوت(الحاء): وهو صوت مخرجه من وسط الحلق، وهو صوت مهموس رخو، لولا بحة فيه لأشبه العين، وقيمته في.[٦٨]

ومما تقدم نلحظ أن المعجم الكبير قد اعتنى بوظائف المستويات اللسانية لبعض الألفاظ التي ليس لها دلالات معجمية، ولكن لها وظيفة قد دفعت اللسانيات الوظيفية إلى الموضوعات اللسانية على قسمين، هما:

الأول: تسمية الموضوعات المعجمية: هي تلك الموضوعات التي تحمل معنى ودلالة معجمية كالأسماء والأفعال. وهذا كثير في المعجم الكبير.

---

(٦٥) ينظر: المصدر نفسه: مادة(ذا):١١/٨.

(٦٦) ينظر: المصدر نفسه: التاء/٣/٩ -١٠.

(٦٧) ينظر: المصدر نفسه: الثاء/٣/١٩٥.

(٦٨) ينظر: المصدر نفسه: الحاء/٥/٧.

الثـاني: تطلـق علـى الوحـدات أو الموضـوعات اللسـانية بمصـطلح الوحـدات القواعديـة أو الوظيفية، كالأدوات والحروف، وهذا ما نجده في بدايات المداخل اللغوية للمعجم.

ب) التعريف العلائقي: هو أحد مظاهر المنهج الوظيفي الذي تأثر به المعجم الكبير من خلال استعماله التعاريف العلائقية القائمة على إظهار الوظيفة النحوية والصرفية للألفاظ وبيان علاقتها الوظيفية فيما بينها، وما حدث لها من تغيرات صرفية من خلال تغيير التراكيب التي ترد فيها، ولذلك نذكر بعض الأمثلة على هذه التعريفات في المعجم الكبير: قوله في:((ثَدَنَ الشيءُ ـُ ثُدُونًا: نَدِي. ثَدِنَ الرَّجُلُ ـَ ثَدَنًا: كَثُرَ لَحْمُه وثقُل. فهو ثَدِنٌ. وـ يَدُه: قَصُرَت، فهو مَثْدُونٌ ، وهي بتاءٍ. وـ نَقَصَ خَلْقُهُ. وـ الشيءُ: تغيرت رائحتُه، يقال: ثَدِنَ اللَّحْمُ[أي: تغيرت رائحته]. أَثْدَنَ الشيءَ: قصره. ويقال: أَثْدِنَ فُلانٌ: نقصَ خَلْقُه، فهو مُثْدَنٌ. ثُدِّنَ الرَّجُلُ: كَثُرَ لحمُهُ واسترخَى. وـ نقص خلقُه.))[69]. وقال أيضًا في(ثدى):((ثَدَى الشَّيءَ ـِ ثَدْوًا، وثَدْيًا: بَلَّهُ. ثَدِيَ الشيءُ ـَ ثَدًى: ابتلَّ. وـ الأرضُ: سدِيَتْ، أي كَثُر نَداها. وـ المرأةُ: عَظُمَ ثَدْيَاها. (ج) أَثْدٍ، وثُدِيٌّ، وثِدِيٌّ، وربما جُمِع على ثِدَاءٍ، وأَثْداءٍ.))[70]. وذكر في (ترب) قائلًا: ((ثَرَبَ فُلانًا ـ ثَرْبًا: وبخـه ولا مَـهَ. وــ : عَيَّرَهُ بذَنْبِـه. وــ المَـرِيضَ: نَـزَع عنـه ثَوْبَـه. ثَـرِبَ: فسـد. أثـربَ الكـبشُ: زاد شَحْمُهُ. وـ فلانٌ: مَنْ بما أَعْطى. وـ: قَلَّ عَطاؤُهُ. وـ فُلانًا: وَبْخَهُ. خلطَ وأفسدَ.(ج) ثُرُوبٌ، وأَثْرُبٌ(جج) أَثارِبُ))[71]. ففي هذا التعريف تراكيب لغوية متعددة توضح دور الكلمة ووظيفتها في السياق اللغوي ولا سيما في المستوى النحوي التي وردت فيه.

ومن الأمثلة الأخرى على أثر اللسانيات الوظيفية في المعجم الكبير، نذكر الوظيفة النحوية والصرفية فـي مـا ورد فـي المعجم الكبير قـائلًا:((خَزَن اللَّحْمُ ونَحْوُه ـُ خَزْنًـا، وخُزُونًـا: تغيَّـرت رائحتُه وفَسَد. وـ لِسانَه: حفظه. وـ الشيءَ عن فلانٍ: مَنَعَهُ وحَبَسَهُ. يقال: خَزَن العطاءَ عن فلانٍ. فهو خَازنٌ.(ج) خَوازنُ. والمفعولُ: مَخْزونٌ، وخَزِينٌ(فعيلٌ بمعنى مَفْعُول)...))[72]. وقال فـي ((خسأ: الزَّجْرُ والإبْعادُ. خَسَأ الكلبُ وغيرهُ ـَ خَسْئًا، وخُسُوءًا: بَعُدَ وذَلَّ. وــ البصَـرُ: سَدِر(تَحيَّر) ، وكَلَّ، وأَعيْا. وقيل: انقبض عن مهانةٍ. أو فاعِلٌ بمعنى مَفْعولٍ، كقوله تعالى: {فَهُوَ فِـي عِيشَـةٍ رَّاضِـيَةٍ} أي: مرضِيَّة. وــ فلانٌ الكلبَ وغيره: طرادهُ وأبعدهُ. وــ فلانٌ: ذَلَّ وخَضَع. وـ البصرُ: خَسأ.))[73]. نكتفي بهذا القدر من الأمثلة وهناك الكثير..

---

(٦٩) المصدر نفسه: مادة (ثدن):٢٣٢/٣.

(٧٠) المصدر نفسه: مادة (ثدو/ى):٢٣٣/٣.

(٧١) المصدر نفسه: مادة (ثرب): ٣/ ٢٣٤ـ ٢٣٥.

(٧٢) المصدر نفسه: مادة (خزن):٣٢٣/٦ ـ ٣٢٤.

(٧٣) المصدر نفسه: مادة (خسأ):٣٣٣/٦ـ٣٣٥.

الخاتمة:

بعد الدراسة العلمية العميقة بين أجزاء المعجم الكبير وتتبع تأثيرات النظريات اللسانية الحديثة عليه، توصلنا إلى أهم النتائج التي يمكن ذكرها على النحو الآتي:

١) تعد صناعة المعجم الكبير من أكبر الموسوعات اللغوية في العصر الحديث، والذي يحمل فيه الكثير من المسائل اللسانية، وقد انماز بالطابع الموسوعي لما يحمل في طياته الكثير من العلوم التطبيقية والمعرفية، وقد بدأ المجمع بصناعته منذ خمسينيات القرن الماضي وإلى يومنا هذا لم يكتمل.

٢) إنَّ صناعة هذا المعجم جاء نتيجة جهود جماعية كبيرة بذلها عدّد من أعضاء المجمع من العرب والمستشرقين، من أجل توفير المادة اللغوية التي يحتاج إليها القارئ والباحث العصري.

٣) نلحظ إن المعجم الكبير قد افاد من النظريات اللسانية واستثمرها في بناء مواده اللغوية من أجل النهوض بها وتطويرها، وبذلك يعد من ابرز الصناعات المعجمية الحديثة التي اعتمدت على اللسانيات التطبيقية الحديثة.

٤) نلحظ أن أثر اللسانيات الحديثة على صناعة المعجم الكبير جاء عن طريق عوامل التأثير، ومنها: تأثر أعضاء لجنة المعجم الكبير ولا سيما الذين درسوا في أوروبا بفكر واضعي النظريات اللسانية وقد حملوا مبادئ تلك النظريات؛ وافادوا منها في صناعة هذا المعجم، ومنهم: إبراهيم أنيس، وإبراهيم بيومي مدكور، وتمام حسان، وأحمد مختار عمر، وكمال بشر، ومحمود فهمي حجازي وغيرهم من أعضاء لجنة المعجم الكبير. وأما العامل الثاني في التأثير على صناعة المعجم الكبير هو ما وضعه المستشرقين من أعضاء(لجنة المعجم) داخل المجمع من أفكار ومظاهر ومبادئ لسانية، واستثمروا طاقاتهم في خدمة هذا المعجم، ومنهم ليتمان، و أولمان، وجب، ونللينو، وأوغست فيشر وغيرهم.

٥) تعد النظرية السياقية من أهم النظريات اللسانية التي استثمرها المعجم الكبير، على الرغم من وجود مواد كثيرة من المداخل فيه لم يستخدمها في تعريفها السياق.

٦) نلحظ أن المنهج الوصفي يعّد أكثر المناهج اللسانية تأثيرًا في صناعة المعجم الكبير، الذي يعدُّ من أهم المبادئ والأسس اللسانية البنيوية السوسيرية إلا أن ذلك لم يمنع لجنة المعجم من إيراد تطور المعاني واتساعها لخدمة بعض مداخله.

٧) إن المظهر اللساني الحديث قد أثر على صناعة المعجم الكبير، من خلال استعماله الكثير من الألفاظ والمصطلحات العلمية والحضارية والعصرية، والدخيلة والمعربة التي شاعت في الاستعمال اللغوي الحديث.

٨) نرى تأثير نظرية التحليل التكويني على صناعة المعجم الكبير تأثيرًا واضحًا وذلك عن طريق تحليل المعنى ودراسته، فهي عبارة عن مزيج من نظريتين السياقية والحقول الدلالية؛ لأنَّ المعنى لا يفهم إلا عن طريق السياق، ولا يعرف إلا عن طريق الظواهر اللسانية، إذ إن الكثير من الألفاظ فيها مشترك لفظي، وترادف، وتضاد، وتنافر،...

٩) أسهمت النظرية اللسانية الوظيفية في بناء مداخل المعجم الكبير ولا سيما على المستوى النحوي والصوتي والصرفي. وهذه المستويات ساعدت على الاتساع الدلالي للألفاظ والمصطلحات التي حشرها هذا المعجم. وبذلك جاءت محاولات أعضاء المعجم جادةً في استثمار الأفكار اللسانية الحديثة في صناعته.

المصادر:

- القرآن الكريم.
- أثر اللسانيات الحديثة في صناعة المعجم الوسيط، الدكتور ربيعة برباق،(بحث منشور)، مجلة الذاكرة، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري، العدد الثامن، يناير ٢٠١٧م.
- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، دار الكتب،ط٤، ١٩٨٢.
- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية،مصر،١٩٩٧.
- ديوان، أبو الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان، تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الإبياري و عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، (ب . ت).
- ديوان، الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق: الدكتور محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت،ط١، ٢٠٠٠م.
- سياسة التعريب دراسة في آراء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومعالجاته ١٩٣٤ ـ ٢٠١٥، محمد صالح آل ياسين، ط١، المطبعة المركزية ، جامعة ديالى،٢٠١٧.
- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨.
- علم الدلالة، كلود جرمان وريمون لوبلون، تحقيق: نور الهدى لوشن، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا،ط١، ١٩٩٧.
- علم النص ونظرية الترجمة، يوسف نور عوض، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور(ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت،ط١٤١٤،٣هـ.
- اللغة والدلالة آراء ونظريات، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،١٩٨١.
- محاولات بناء المعيار الدلالي في الدلالة المعجمية دراسة وصفية، بدر بن عائد الكلبي، دار الجنان للنشر والتوزيع،(ب . ت).
- المعجم الكبير، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط١، القاهرة.(طبعات متباينة بين الأجزاء).
- المعجم الكبير، إبراهيم مدكور،(بحث منشور)، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثامن والعشرون، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، بولاق، رمضان ١٣٩١هـ ـ نوفمبر ١٩٧١م.
- المعجم الكبير وأثره في تطور اللغة العربية، محمد صالح ياسين،(بحث منشور)، مجلة المجمع العلمي العراقي:مج٦١، ج٣. لسنة ٢٠١٤.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار عمران، القاهرة،١٩٨٥.

❖ مقدمـة فـي علمـي الدلالـة والتخاطـب ، محمـد محمـد يـونس علـي، دار الكتـاب الجديـدة المتحـدة، بنغـازي، ليبيا،ط٢٠٠٤،١.
❖ مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، الدار البيضاء ، دار الثقافة، ١٩٨٦.
❖ نظرية التواصل واللسانية، رابص نور الدين، مطبعة سايس ـ فاس، ط١، ٢٠٠٧.

المصادر الأجنبية:

❖ The Meaning of Meaning: A study of The In fluence of Language upon Thought and of the Science of Symbolism.1923.
❖ Cambridge University ،(1977).
John Lyons–Semantics.1 – Press

عطف المجموع في النظرية اللغوية العربية

الدكتور محمود بن يحيى الكندي
الدكتور يعقوب بن سالم آل ثاني
سلطنة عُمان– جامعة نزوى

الملخص:

نظر علماء اللغة العربية في ظاهرة العطف من زوايا متعددة، وتأملوا فيها بصفتها جزءا من نظام اللغة، وبصفتها استراتيجية كلام، فانكشف لهم منه مستويات متعددة؛ فكان أن وقع بين المفردات والجمل، وبين ما هو أكثر من الجمل، وكان من شواغل هذه الدراسة أن تتلمس حدود العطف فيما جاوز الجملة إلى المجموع.

عبّر علماء العربية عن هذا العطف بأكثر من مصطلح؛ كعطف القصة على القصة، وعطف المجموع على المجموع وعطف المتعدد على المتعدد، وبين هذه المصطلحات أوجه شبه بعضها يصل حدّ التماثل، واعتمد البحث عطف المجموع جامعا لها، وكشفت هذه الدراسة ماهية هذا العطف وأبعاده؛ فهو عطف يقع بين ما جاوز الجملة الواحدة إلى المجموع، وهذا المجموع تركيبي من جهة؛ إذ يلزمه أن يكون بين جمل متعددة، ودلالي من جهة أخرى؛ فيلزمه أن يكون بين مجموعي دلاليين يكون بين أفرادهما تجانس.

ولهذا النوع من العطف شروط وخصائص يشترك فيها مع سائر أنواع العطف؛ كشرط تباين المعطوفين، أو يختص بها كسقوط شرط المناسبة في آحاده لا مجموعه، وجواز تباين نوع المعطوفين بين الخبر والإنشاء.

ويكشف هذا النوع من العطف عن مدى عمق الدراسات النصية في النظرية العربية، كما يكشف عن عمق توظيف علماء العربية لها في دراسة الكلام وتلاوينه، وتفتح هذه الدراسة الباب؛ لتتبع توظيف المفسرين هذا العطف في تبين الترابط بين مجموع الآيات القرآنية، فقد ارتبط هذا العطف بتفاسير القرآن بصورة شديدة.

المقدمة:

زخرت النظرية اللغوية العربية بمادة عميقة فيما يمكن أن يدرج الآن في اللسانيات النصيّة، وفي مباحث الوصل والفصل مثلا ينصهر نحو الجملة بنحو النص، والعطف أحد أبواب الوصل التي تجاوزت البنية المفردة في أثر العامل فيها، إلى بُنى أرحب، فشمل الجملة وما فوق الجملة، وقد وضع علماء العربية مصطلحات تشير إلى مستويات العطف، وكان من بين هذه

المصطلحات ما يشير إلى العطف بين الجمل المتعددة، وقد اقتفينا أثر عبد القاهر في تبين خصائص هذا العطف، "واعلم أنّ سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف في المفرد، ثمّ نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتعرّف حالها"[١]، ثمّ نعود إلى ما فوق الجملة ونتعرّف حاله وخصائصه، و "الأصول المتحكّمة في بنية العطف فيما دون الجمل تصدق أيضا على العطف بين الجمل"[٢]، وقد تصدق كذلك على العطف بين المتعدد من الجمل والعطف بين النصوص.

وهدفنا في هذا البحث تبيّن جذور مفهوم مصطلح المجموع في إشارات النحاة المتقدمين، وحدود هذا المصطلح مفهوما وتوظيفا عند البلاغيين والمفسرين والنحاة، مقتفين في ذلك الوصف والاستقراء، ولمّا كان الاستقصاء عصيّا؛ فلا طاقة لنا أن نزعمه، فربما ندّ علينا ما يمكن أن يضيف في البحث فكرة أو يسدّ ثغرة.

ولم تخل بعض البحوث التي عنيت باللسانيات النصية من التعرض لمصطلح العطف المتعدد ومفهومه، ولا سيما مباحث وسائل الاتساق التي نظرت في إسهامات علماء العربية في هذا المجال، ونذكر من ذلك:

- بحث محمد خطابي لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، وقد أشار إلى العطف المتعدد ضمن عطف جملة على جملة، كما أشار إلى توظيف المفسرين لهذا العطف في إثبات انسجام النص القرآني وتخريج ما ظاهره خلاف ذلك[٣].
- بحث محمد الشاوش في أسس تحليل الخطاب في النظرية اللغوية العربية، وقد أفدنا منه حيثما وصل، وكان للإشارات التي رصدها نفع استفدنا منه في تتبع هذا النوع من العطف[٤].
- بحث رشيد برقان، وقد فصّل القول أكثر من غيره في العطف المتعدد أو عطف القصة على القصة، وبين منزلته في الترابط النصي، وأشار إلى البعد النصي في هذا العطف[٥].

وقد أفدنا هن هذه البحوث التي تناولت الاتساق النصي من خلال إشارتها إلى مستويات العطف، ومنه عطف المتعدد، وانفتحت لدينا زاوية التفكير والتأمل والبحث عن أبعاد عطف المجموع في النظرية العربية واقفين على أكتاف من سبق. ولا يفوتنا الإشارة إلى أن بعض البحوث تناولت العطف، ولم تحفل بعطف المجموع، كما هو الحال في كتاب بلاغة العطف

---

[١] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٢٢.

[٢] الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ج١، ص٤٢٣.

[٣] خطابي، لسانيات النص، ص١٦٩- ١٧٠.

[٤] الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية اللغوية العربية ، ص

[٥] برقان، آليات ترابط النص القرآني، ص١٢٣-١٢٧.

للشرقاوي[٦]، وهذا ليس مثلبا في هذا الكتاب المفيد، ولكن لم يكن من شواغله القول في العطف المجموع أو المتعدد. وكذا الحال في اللسانيات النصية في التقاليد الغربية؛ إذ تتبعنا كتاب هاليدي ورقية حسن الاتساق في الإنجليزية[٧]، ولم نجد فيه غناء ينهض بما وصلت إليه النظرية اللغوية العربية في مستويات العطف النصي، وليس المقام مقام مقارنة ولا مفاضلة؛ فمع ما في هذا الكتاب من فوائد منهجية وقواعد في نحو النص؛ لم يكن فيه لبحثنا غناء.

جذور مصطلح عطف المجموع في النظرية العربية:

تعمّق النحاة في دراسة العطف وحروفه، وفصَّلوا القول في عطف المفردات وعطف الجمل وبيّنوا الشروط وعددوا الأنماط فذكروا الصور الممكنة في عطف مفرد على مفرد أو جملة على جملة؛ وحرف العطف على حدِّ قولهم "لا يخلو أن يعطف مفردا على مفرد وجملة على جملة"[٨]، وهو ما جمعه الفارسي في قوله "عطف الشكل على الشكل"[٩]، وهذا أقصى ما شاع من حدود العطف تنظيرا في كتب النحاة، ولكن في مواطن معينة تجاوزوا هذا الحد إلى ما بعده فيشيرون تصريحا أو ضمنا إلى ما يخرج عن عطف المفردات والجمل، على تفاوت بينهم في التنظير والتحليل؛ فيتوارى التجاوز عند النحاة خلف استطرادهم واستقصائهم مباحث عطف المفردات والجمل إلا من إشارات تظهر بين الحين والآخر، وبخاصة حين يحوجهم وضع القواعد إلى تحليل نص يندُّ عنها، ويستعصي إخضاعه لها، ويتجاوز حدود التأويل فتظهر إشارة سريعة لا يحفل بها النحوي فيضمنها مبحثه، فاتحا بذلك الباب للباحثين من أجل التنقيب عن ملاحظته وتعميق النظر فيها وتتبع حدودها وشروطها.

ويبدو أنَّ الخروج عن عطف المفردات والجمل عند المشتغلين بالبحث في المعاني وتحليل النصوص وتفسيرها أكثر وضوحا، فيتجلى بارزا عند البلاغيين والمفسرين إجراء لا تنظيرا؛ والسبب في ذلك أنهم يعالجون النصوص، فتعينهم القواعد إلى حدٍّ معينٍ، ورُبّما لا تفي بكل ما يتجلّى في النص من طاقة وأبعاد، فتبرز مجاوزة قواعد نحو الجملة وما دونها في معالجتهم.

ولا يمكننا الجزم بظهور مصطلح عطف المجموع عند أحدهم، مع أننا وجدناه مصطلحا مكرسا في دلائل الإعجاز عند عبد القاهر في محيط بحثنا، وليس من شواغلنا إدراك فضل السبق فيه، ولكن مفهوم عطف المجموع بدأ في إشارات النحاة في مواضع نادرة أخذنا منها ما يشير إلى بذرة هذا المفهوم أو ما نزعم أنه يجاوز العطف بين الجمل، وقد عبر عنه النحاة

---

[٦] الشرقاوي، بلاغة العطف.

[7] Haliday, M. A. K. and Hasan, Ruqaiya. Cohesion in English.

[٨] الأنباري أبو البركات، أسرار العربية، ص٢٢١.

[٩] الفارسي، التعليقه على كتاب سيبويه، ج١، ص١٢١.

بما يناسب طبيعة العطف الذي يرونه في الموضع الذي يدرسونه.

- عطف النص على المقام أو الحال:

تتصدر الواو بعض القصائد الشعرية فيجعلها الشاعر في مستهل قصيدته وتغدو بذلك محل تساؤل ومشروع بحث، من حيث النوع والعمل، ويعمق التساؤل غياب ما يمكن أن يكون معطوفا عليه، وقد أجاب ابن جني (٣٩٢هـ) عن هذا التساؤل المتخيَّل فعدّها عاطفة للنص كلِّه على سياق الحال أو المقام إذ "القصيدة تجري مجرى الرسالة، وإنّما يُؤتى بالشعر بعد خطاب يجري أو خطاب يتصل فيأتي بالقصيدة معطوفة بالواو على ما تقدمها من الكلام"[١٠]، وعطف نص بأكمله على الحال أو المقام مجاوز لعطف جملة على أخرى، ولا يقصد ابن جني بالكلام المعنى الاصطلاحي عند النحاة، بل هو الكلام الذي كان؛ ليعبر عن الحال أو المقام المحرّك لعاطفة الشاعر، ويؤيد ابن جني رأيه بقياس هذا التركيب على كلمة (بعد) التي ترد في الرسائل إذ يقول: "ويدلُّ على ذلك قولهم أيضا في بداية الرسائل: أما بعدُ فقد كان كذا وكذا، فكأنه قال أما بعد ما نحن فيه، أو بعد ما كنَّا بسبيله فقد كان كذا وكذا، فاستعمالهم هنا لفظ (بعد) يدلّ على ما ذكرناه عنهم من أنهم يعطفون القصيدة على ما قبلها من الحال والكلام"[١١]، وعلى هذا التأويل يمكن أن نصوغ العطف في الخطاطة الآتية:

المعطوف (القصيدة بأكملها) ــ المعطوف عليه (الحال أو المقام)

- العطف المتعدد في أحد طرفيه:

أشار النحاة المتقدمون إلى تجاوز العطف الجمل المفردة، إلى تعدد أحد المتعاطفين، فإما أن يتعدد المعطوف أو يتعدد المعطوف عليه، وفي هذا قسمان:

الأول: عطف جملة على أكثر من جمله:

خرّج المبرد (٢٨٥هـ) النصب بعد إذن في قول القائل: إن تأتني آتك وإذن أكرمك، إلى عطف جملة على جمل قبلها، ونعَت المعطوف عليه بالكلام المستغني حيث يقول: "... وأن تنقطع إذن بعدهما مما قبلهما، ثم يدخلان للعطف بعد أن عملت إذن، ونظير ذلك قولك إن تعطني أشكرك وإذن أدعو الله لك، كأنه قال: إذن أدعو الله لك، ثم عطف هذه الجملة على ما قبلها؛ لأنَّ الذي قبلها كلام مستغن"[١٢]، فجملة (أدعو) معطوفة على جملتي الشرط والجواب

---

[١٠] ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج٢، ص١٨٢. هذا التخريج على أن واو ربَّ حرف عطف، وأن الجار للاسم بعدها هو رب المحذوفة تخفيفا لا الواو.

[١١] السابق، ص١٨١.

[١٢] المبرّد، المقتضب، ج٢، ص١٢.

فعلى هذا يكون أحد المتعاطفين متعددا، ليس جملة واحدة.

وعطف الأخفش(٢١٥هـ) جملة "وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" على "ما بعد حتى"[١٣] في قوله تعالى: "فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" (النساء:٦٥) ومقصود الأخفش مما بعد حتى متعدد وليس جملة مفردة، فأحد المتعاطفين في تخريج الأخفش في حكم المجموع.

الثاني: عطف شرط على شرط:

عدّ ابن الأنباري (٣٨٩هـ) الواو عاطفة في قول طرفة بن العبد [الطويل]:

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

إذ رأى أن "ما بعد الواو نسق على ما قبلها"[١٤]، وعلى هذا فالعطف حاصل بين شرطين، والشرط مجموع أكثر من جملة، فيكون المتعاطفان متعددين في تخريج الأخفش.

- **من شروط عطف الجمل في النظرية العربية ويؤسس لعطف ما فوقه:**

قرّر علماء العربيّة قاعدة مهمّة في العطف إذ قالوا: إنّ الشيء لا يعطف على نفسه؛ فيلزم تغاير المعطوف عن المعطوف عليه، يقول المبرد: "ولا يقع العطف على استواء إلّا أن تجعل الكلام الثاني على غير معنى الكلام الأوّل، فذلك جائز متى أردته"[١٥]، فشرط استواء العطف أن يكون المعطوف غير المعطوف عليه، وإلّا كان القول لغوا.

ولكنّ التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه لابدّ أن يكون محدودا بقيد آخر هو قيد التناسب؛ فيجب أن يكون المعطوف بسبب من المعطوف عليه "ولا يتصوّر إشراك بين شيئين حتّى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه"[١٦]، فالعطف شراكة دلاليّة مع كونه شراكة في الإعراب، ويجب أن تكون الشراكة بين متجانسين يمكن أن يقع بينهما الاشتراك.

والتغاير والتناسب كما هما شرط في العطف بين المفردات ينسحبان على العطف بين الجمل، فلا تعطف الجملة على نفسها فلا تقول: جاء زيد وجاء زيد، وزيد في الجملتين نفسه، فهذا لغو في القول، ومثله التناسب فيجب أن تكون الجملتان متناسبتين، والتناسب بين الجمل المعطوفة بعضها على بعض يكون في مستويين:

---

(١٣) الأخفش، سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، ص١٦١.

(١٤) الأنباري أبو بكر، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص ٢٠٠.

(١٥) المبرد، المقتضب ج٣، ص٢٧٩.

(١٦) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٢٤.

●الأوّل: في الجزء، فإذا عطفت بين جملتين وجب أن يكون طرفا الإسناد الأكبر فيهما متناسبين، بينهما سبب وعلاقة تؤهلهما في جامع الشركة بالعطف، "وذلك أنّا لا نقول: زيد قائم وعمرو قاعد، حتى يكون عمرو بسبب من زيد، وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، وبحيث إذا عرف السامع حال الأوّل عناه أن يعرف حال الثاني"[١٧]، فلا يكون العطف بين جملتي: زيد قائم وعمرو قاعد مستقيما إلّا إذا كان زيد مناسبا لعمرو في وجه من الوجوه، وهذا التناسب ذو بعد تداوليّ يحدّده مقام ما بينهما، فيعلم السامع من حال هذا المقام ما يعنيهما ويشتركان فيه.

● الثاني: في الكلّ، فإذا عطفت بين جملتين وجب أن تكون دلالة الإسناد في الجملتين متناسبة، فلو قلت: "زيد طويل القامة وعمرو شاعر كان خلفا؛ لأنه لا مشاكلة ولا تعلّق بين طول القامة والشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب وعمرو شاعر، وزيد طويل القامة وعمرو قصير"[١٨] فالمناسبة حاصلة منطقا بين الكاتب والشاعر، وكذلك بين طول القامة وقصرها.

فشرط المناسبة يجب أن يكون حاصلا في الجملة على مستوى الكلّ في الإسناد، وعلى مستوى المسند إليه (المحدَّث عنه) بين الجملتين، وقد أجمل عبد القاهر الجرجاني بيان ذلك في قوله: "واعلم أنّه كما يجب أن يكون المحدَّث عنه في إحدى الجملتين بسبب من المحدَّث عنه في الأخرى، كذلك ينبغي أن يكون الخبر عن الثاني ممّا يجري مجرى الشبيه والنظير والنقيض للخبر عن الأوّل"[١٩]. والتناسب يحصل بالنقيض كما يحصل بالشبيه، فالمناسبة واقعة بطريق النقيض في قولك: زيد طويل القامة وعمرو قصير، فبين طول زيد وقصر عمرو تناسب النقيض، ومفهوم المناسبة في سعته ينهض بوظيفة التناسق، وهي من وظائف العطف الأصيلة.

وقد ترتب على شرط التناسب بوصفهِ شرطا في سلامة التركيب قيمة نقديّة عن البلاغيين والنقّاد العرب؛ فالسكاكي يرى "أن الوصل من محاسنه أن تكون الجملتان متناسبتين"[٢٠]، فحسن الكلام بالعطف رهين بتحقيق التناسب بين الجملتين المعطوفة إحداهما على الأخرى، وبعدم المناسبة علّل عبد القاهر الجرجاني رأي من عاب قول أبي تمّام [الكامل]

لا والذي هو عالم أنّ النوى صبر وأنّ أبا الحسين كريم[٢١]

---

[١٧] السابق.

[١٨] السابق، ص٢٢٥.

[١٩] السابق.

[٢٠] السكاكي، مفتاح العلوم، ص٢٧١.

[٢١] يقول في دلائل الإعجاز: "وذلك أنّه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى، ولا تعلّق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديثُ بهذا الحديثَ بذاك" ص٢٢٥. وقد علّق باحثون على هذا الملحظ النقدي

ومن أشكال التناسب بين الجملتين طرفي العطف أن تتفقا في الخبر أو الإنشاء، فلا تعطف الإنشائيّة على الخبريّة ولا الخبريّة على الإنشائيّة[٢٢]، فتحوّل الكلام من الخبر إلى الإنشاء خرق للتناسب المطلوب بين الجملة المعطوفة والجملة المعطوفة عليها، وهذا الشرط أحوجهم إلى التأويل؛ فقد ردّوا بالتأويل ما ظاهره عطف جملة إنشائيّة على جملة خبريّة مستقيما بحسب هذا الشرط الذي وضعوه، وقد خرّج ابن هشام استدلال من استدلّ بجواز عطف الإنشائيّة على الخبريّة بقول امرئ القيس [الطويل]:

وإنّ شفائي عبرة مهراقة   فهل عند رسم دارس من محوّل؟

خرّجه على أنّ هل نافية[٢٣]، وعليه فالتناسب حاصل بين الجملتين فجملة (وإنّ شفائي عبرة مهراقة) جملة خبريّة عطف عليها جملة (ليس عند رسم دارس من محوّل) وهي خبريّة بحسب ابن هشام، وبذلك حافظ ابن هشام بهذا التأويل على شرط التناسب بين جملتي العطف[٢٤]، بل إنّ ابن هشام خطّأ من نقل الجواز عن سيبويه؛ حيث قال: "وأمّا ما نقله ابن حيّان عن سيبويه فغلط عليه"[٢٥]. ولعلماء العربيّة أشكال من التناسب يرونها واجبة التحقّق غير ما ذكرنا، وليس مرامنا استقصاءها، بل ننتقي منها ما نؤسّس عليه وجهة بحثنا ومرامه.

- **مفهوم عطف المجموع:**

ناقش النحاة باب العطف من زاويتين: الإعراب والمعنى؛ فيشترك المتعاطفان في الحكم الإعرابي والمعنى[٢٦]، ونظروا إلى مستوياته من حيث الكم فجعلوا منه عطف المفردات وعطف

العاتب على أبي تمام بأبعاد شعريّة كامنة في اختيار أبي تمام، ولسنا بصدد تتبع هذه المسألة. انظر على سبيل التمثيل: الشرقاوي عفّت، بلاغة العطف، ص١٢١ وما بعدها.

[٢٢] هذا الكلام ليس على إطلاقه، فعلماء العربيّة على رأيين في ذلك؛ فمنهم من يمنعه ومنهم من يجيزه، وقد نقل ابن هشام ذلك حيث قال: "منعه البيانيون وابن مالك في شرح باب المفعول معه من كتاب التسهيل وابن عصفور في شرح الإيضاح ونقله عن الأكثرين، وأجازه الصفّار بالفاء تلميذ ابن عصفور وجماعة ... قال أبو حيّان وأجاز سيبويه جاءني زيد ومن عمرو؟ العاقلان على أن يكون العاقلان خبرا لمحذوف" ابن هشام، مغني اللبيب ص٦٢٧.

[٢٣] ابن هشام، مغني اللبيب، ص٦٢٩.

[٢٤] وقد اجتهد ابن هشام في تخريج ما استدلّ به من أجاز عطف الخبريّة على الإنشائيّة أو الإنشائيّة على الخبريّة. راجع: ابن هشام، مغني اللبيب، ص٦٢٧ إلى ص٦٣٠.

[٢٥] السابق، ص٦٣٠.

[٢٦] هذا وإن كان هو الغالب في العطف؛ لكنه ليس على إطلاقه، فحروف العطف متباينة في هذه الوظيفة، فـ"ليس في حروف العطف ما يوقع المشاركة بين الثاني والأول سوى هذه الثلاثة أعني الواو، الفاء، ثمّ، وأنها كالأصول، وسوى وحتى وسائرها توقع الشراكة في اللفظ دون المعنى" الخوارزمي، التخمير، ج٢، ص٢٩٤.

الجمل، ولم يفِ هذان النوعان بما يقع عليه العطف من سعة المتعاطفين؛ فألجأهم ذلك إلى أن يجعلوا من العطف ما هو أوسع من الجمل، فاستعملوا عطف القصة وعطف الحاصل وعطف المجموع، وهم يريدون به عطف ما فوق الجملة والجملتين.

استعمل عبد القاهر الجرجاني عطف مجموع على آخر في أكثر من موضع، وعمد إلى تأصيله قياسا على الوظائف النحوية التي تحصل من مجموع، وتكون في حيّز المفرد كجملة الخبر والصفة، وكذلك الشرط الذي لا يحصل إلا من مجموع طرفيه: جملة الشرط، وجملة الجواب، وجعل العطف مثله؛ حيث يقول: "فكما يكون الخبر والصفة والحال لا محالة في مجموع الجزأين لا في أحدهما، كذلك يكون في الشرط في مجموع الجملتين لا في أحدهما، وإذا علمت ذلك في الشرط فاحتذه في العطف، فإنّك تجده سواء"[٢٧]، وهذا القياس لتأكيد مشروعية وجود العطف بين مجموعين يحصلان من متعدّد، وقد تفطن الجرجاني إلى منازل العطف، وهي منازل الوصل في الكلام، فيكون في مستويات متباينة كمّا، "فأمر العطف إذن موضوع على أنّك تعطف تارة جملة على جملة، وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضا على بعض، ثمّ تعطف مجموع هذا على مجموع تلك"[٢٨]، وحاصل المتعاطفين يكون من مجموع الجمل التي تكونا منها، وقد وصل الجرجاني إلى هذه الفائدة التي يراها دقيقة في شأن العطف بعد أن نظر إلى مستويات العطف تنمو من المفرد إلى الجملة إلى ما بين المتعدد من الجمل، مع وجود فاصل بينها[٢٩].

ويرى عبد القاهر الجرجاني أنّ من العطف ما لا يمكن حمله إلا على المجموع، فـ" مما لا يكون العطف فيه إلّا على هذا الحدّ قوله تعالى:(وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) (القصص: ٤٤ – ٤٥) لو جريتَ على الظاهر فجعلتَ كلّ جملة معطوفة على ما يليها منع منه المعنى"[٣٠]. ففي هاتين الآيتين عُطف مجموع على مجموع، ويرى عبد القاهر أن حمله على العطف بين الجمل ولو آحادا غير مستقيم معنى، فـ"ينبغي أن يكون قد عطف مجموع (وما كنت ثاويا في أهل مدين) إلى (مرسلين) على مجموع قوله: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى قوله: العمر"[٣١]، وقد أطلق

---

[٢٧] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٢٤٧.

[٢٨] السابق، ٢٤٥.

[٢٩] انظر السابق، ص٢٤٣-٢٤٨.

[٣٠] السابق، ص٢٤٧.

[٣١] السابق.

عبد القاهر مصطلح المجموع على الحاصل من أحد المتعاطفين.

واستخدم الزمخشري للدلالة على هذا النوع من العطف مصطلحات مختلفة، فقد سمّاه عطف القصة على القصة في أكثر من موضع، منها قوله: "وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة"[٣٢]، والمتعاطفان في هذا الموضع مجموع من آيات اشتمل على جمل كثيرة، واستخدامه عطف القصة هو الأكثر، ولكنه يستخدم في مواضع أخرى عطف جملة، ويريد به المجموع الحاصل من جمل متعددة، كما في قوله: "إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين"[٣٣]، والمقصود بالجملة في كلامه هذا ليس الجملة بمعناها الاصطلاحي وإنما المعنى المجموع من متعدد الجمل، كما يعضده استخدامه مجموع المعطوف مشيرا به إلى هذا المجموع في قوله في موضع آخر: "عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه"[٣٤]، وقد كرّس المفسرون توظيف ما استخدمه الزمخشري للإشارة إلى هذا النوع من العطف، فهم يستخدمون ذات الألفاظ الدالة على عطف المجموع.

ورد في بعض كتب التعريفات المتأخرة ككليات الكفوي وكشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي مصطلح عطف القصة على القصة بعدّه نوعا من أنواع العطف، وعدّوه مصطلحا؛ إذ جرى استخدامه، واستقر مفهومه موظفا في أبعاد مخصوصة، ولا سيما عند البلاغيين والمفسرين، وقد أشار إليه الكفوي بقوله: "وفي عطف القصة لا يطلب التناسب في الخبرية والإنشائية، ولا المشاركة في الفاعل المخاطب"[٣٥]، ولكن التهانوي جمع إشارات من سبقه، ووضع المصطلح وقد حدّه بحد جامع في قوله: "عطف القصة على القصة هو أن يُعطَف جملٌ مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر لمناسبة بين الغرضين"[٣٦]، وهي إشارة صريحة في كون هذا المصطلح غدا من مصطلحات الفنون بمفهوم مستقر متواضع عليه عند أهل العربية.

ومع وجود مصطلحات متعددة استخدمت لتشير إلى هذا النوع من العطف النصي؛ فقد جنحنا إلى جمعها في واحد منها رأينها أجدر بالجمع، ومنه يمكن أن نتبين أنواعا يمكن أن تندرج تحته، وزعمنا أن مصطلح "عطف المجموع" جامع لعطف القصة على القصة، وعطف الحاصل على الحاصل، وعطف جملة كذا على جملة كذا، وعطف مضمون على مضمون آخر، وهو

---

[٣٢] الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٢.

[٣٣] السابق، ج١، ص١٠٩.

[٣٤] السابق، ج١، ٥٧٤.

[٣٥] الكفوي، الكليات، ص٦٠٩، ٦١٠.

[٣٦] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١١٨٩.

اختيار رأينا وجاهته معتضدين في ذلك باستخدام المحققين من العلماء له ومنهم: عبد القاهر الجرجاني، وكذا الزمخشري في بعض مواضع له في تفسيره، وهو يدل دلالة مباشرة على كون المتعاطفين مجموعا من جمل عديدة، ويحمل معنى مجموعا من جمل ظاهرة وأخرى مقدّرة، وعليه نرى أن عطف القصة على القصة يدخل في عطف المجموع؛ حتى لكأنه فرع من أصل.

واختار الشاوش مصطلح عطف المتعدد على المتعدد[٣٧]؛ ليشير إلى هذا النوع من العطف، وجعله مفهوما جامعا يدخل فيه "عطف الغرض من الجمل على الغرض من جمل أخرى، وعطف حاصل مضمون جملة على مضمون أخرى، وعطف القصة الحاصلة من الجملة أو الجمل على أختها"[٣٨]، وكل هذه الأقسام أشار إليها العلماء، وعدُّوها من قبيل عطف المجموع على المجموع، فهي واحدة في الحدود وإن اختلفت بعض الشيء في الوظائف وطبيعة المتعاطفين.

وقد تبلور مفهوم عطف المجموع في التراث، وجرى توظيفه في المواضع التي تعالج النصوص لا الكتب التي عنيت بالقواعد، ويدلّ على ذلك ندرة وروده في كتب النحو المختصة بنحو الجملة والإعراب، ووروده في كتب البلاغة والتفاسير؛ لأنها تعنى بالمستوى النصي والمعنى الكلي، وهي تنزع إلى التأويل ومعرفة ارتباط الكلام بعضه ببعض، وقد نظّم عبد القاهر الجرجاني القول والبرهان على هذا العطف في باب الفصل والوصل، فعطف المجموع من أوسع استراتيجيات الوصل؛ إذ يصل بين مجاميع متقاربة ومتباعدة كبيرة وصغيرة.

ويبدو لنا أن تبلور مفهوم عطف المجموع كان استجابة لدواعٍ ترتدّ إلى اللغة والكلام؛ أي النظام والاستعمال، فمما يرتدّ إلى النظام ورود بعض مواضع العطف وقد عُطف فيها الجمل الإنشائية على الخبرية؛ فحملوه على عطف المجموع لعدم جواز ذلك في عطف الجملة، ومجال عطف المجموع أرحب، وهو أكثر مرونة، ومما يرتد إلى الاستعمال فقد ورد العطف في الكلام مبثوثا في جمل كثيرة، ومنه ما كان مجموعا حاصلا من تضافر معاني مجموعة جمل؛ فكان حمله على عطف المجموع حتما؛ إذ عطف الجملة لا يسعه ولا يحتمله.

- **ما يخرج فيه عطف المجموع عن شروط عطف الجمل:**

رأى النحاة نظام العطف في العربيّة أوسع مّما يمكن أن ينضبط تحت شروطهم العامّة في عطف الجمل، فوضعوا مصطلحا أوسع من عطف الجمل ليدلّوا به على مستوى أوسع من

---

(٣٧) الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية اللغوية العربية، ج١، ص٤٤١.

(٣٨) السابق، ص٤٤٢.

العطف، وهو مستوى نصيّ يتجاوز حدود الجملة، إلى بنية نصية تنتظم في حدود أوسع من الجملة.

وهناك من يرى أنّ "الأصول المتحكّمة في بنية العطف فيما دون الجمل تصدق أيضا على العطف بين الجمل"[٣٩]؛ لكن الحال ليست كذلك في العطف المجموع؛ فلا تتحكم كل ضوابط العطف فيه، ولئن أمكن للنحاة أن يُسقطوا ضوابط عطف المفردات على عطف الجمل؛ لم يمكنهم أن يسقطوا ذلك على عطف المجموع؛ لأنّ ما ورد من عطف المجموع لم يكن مطواعا للأصول المتحكمة في عطف المفردات والجمل، بل قل بلغة أخرى: راوغ عطف المجموع على ضوابط عطف الجمل؛ فأحوج النحاة إلى خرق أصولهم واستحدثوا عطفا أوسع في المجال وأوسع في القانون والضوابط، فكان عطف المجموع مخرجا لهم لما حدّوا به العطف من حدود.

- سقوط شرط التناسب في الآحاد:

شرط النحاة التناسب لعطف جملة على أخرى، وهو أساس دلاليّ تكون فيه الجملة المعطوفة مناسبة منطقا مع الجملة المعطوفة عليها، والحال ليس كذلك في تحقيقهم عطف المجموع، ويقع هذا الشرط على المجموع إجمالا لا أفرادا، فشرط التناسب قائم في المجموع لا الآحاد، فإذا عطف مجموع جمل متعددة مسوقة لغرض على مجموع جمل أخرى مسوقة لغرض آخر؛ فيشترط فيه التناسب بين الغرضين دون آحاد الجمل الواقعة في المجموعين"[٤٠]، فلو قلت:

- زيد كاتب، وله إسهامات في الحركة العلمية مع ما يقوم به من خدمة لمجتمعه وأهله، وعمرو مسافر لا يفتأ عن البحث عن فرصة الاستثمار والربح مع ما لديه من ثروة.

فلا مناسبة بين: زيد كاتب وعمرو مسافر، وكذا الشأن في سائر آحاد المجموعين المعطوفين، ولكن المناسبة حاصلة بين المجموعين؛ إذ ناسب عطف مجموع أحوال عمرو على مجموع أحوال زيد. وعلى هذا يكون التناسب بين المجموعين الحاصلين من تعاضد الآحاد، وهذا يهيئ عطف المجموع لمستوى من المرونة يستقيم فيه بحسب بنية عميقة متأوَّلة.

- سقوط شرط الاتفاق في الإنشاء أو الخبر:

الأصل في العطف عند النحاة أن تتفق الجمل المعطوفة في الإنشاء أو الخبر؛ فتُعطف الخبرية على الخبرية وكذا الإنشائية على الإنشائية، وعندهم في الأصل ألّا يصح التغاير، ولكنّ هذا الأصل غير معتبر في عطف المجموع.

---

[٣٩] السابق، ص٤٢٣.

[٤٠] الكفوي، الكليات، ص١٠١٦.

وقد تساءل الزمخشري عن العطف في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ "علام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟"(٤١) ومنطلق هذا العطف وجوب اتفاق جملتي العطف في الإنشاء أو الخبر، وجملة (بشّر) جملة إنشائية؛ فوجب عطفها على إنشائية، وهي مسبوقة بجمل خبرية؛ ولذلك لم ير الزمخشري هذا العطف عطفا بين جمل حتى تلزم المشاكلة، فـ"ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهى يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين"(٤٢)، وقد عدّ الزمخشري هذا العطف من عطف المجموع الذي لا يقتضي تشاكلا بين المعطوفين في الخبر والإنشاء، وتوظيف الزمخشري كلمة (جملة) لا يريد به المعنى الاصطلاحي بها، لكنّه يريد بها المجموع الدلالي الحاصل من الجملة، وهو ما نقصده بالمجموع في مصطلح عطف المجموع.

وهذا ما رآه التهانوي في تخريجه العطف بين جملة (وبشر) في آية البقرة؛ حيث قال: ليس من باب عطف الجملة على الجملة، بل من باب ضمّ جمل مسوقة لغرض إلى جمل أخرى مسوقة لغرض آخر. والمقصودُ بالعطف المجموعُ"(٤٣) أي المقصود بهذا النوع من العطف عطف المجموع الحاصل من الجمل لا عطف الجمل نفسها.

ومثّل الزمخشري على هذا العطف بقوله: "زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشرْ عمرا بالعفو والإطلاق" فهو عطف إنشاء على خبر، وقد خرّج التهانوي هذا العطف على عطف قصّة على قصّة، فـ"هذا المثال يمكن أن يجعل من عطف قصة على قصة ... بأن يقال فيه عطف قصة عمرو الدالة على أحسن حاله على قصة زيد الدالة على أسوأ حاله"(٤٤)، وهذه المعالجات التي عالج بها النحاة عطف المجموع تشير صراحة إلى عدم اشتراط التشاكل بين المعطوفين في الخبر أو الإنشاء في عطف المجموع، وربما كان عطف المجموع في هذه المواضع تخريجا لما ظاهره مخالفة العطف للأصل الموضوع فيه وهو التشاكل في الخبر أو الإنشاء. وقد صرّح الكفوي بسقوط شرط التناسب في عطف المجموع بقوله: "وفي عطف القصة لا يطلب التناسب في الخبرية والإنشائية"(٤٥)

---

(٤١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٠٩.

(٤٢) السابق.

(٤٣) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١١٨٩.

(٤٤) السابق.

(٤٥) الكفوي، الكليات، ص٦٠٩، ٦١٠.

- **الأصول المتحكمة في عطف المجموع:**

تحّدث التهانوي عن عطف المجموع؛ حيث عرّف عطف القصة على القصة بقوله: "هو أن يعطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر لمناسبة بين الغرضين"[٤٦]، وهذا التعريف يتفق مع تحشية الشريف الجرجاني على تفسير الكشاف في قول الزمخشري: "وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة"[٤٧] ، وقد علّق الشريف الجرجاني على الزمخشري قائلا: "قوله وقصة المنافقين عن آخرها؛ أي ليس هذا من عطف جملة على جملة لتطلب بينهما المناسبة المصححة لعطف الثانية على الأولى، بل من عطف مجموع جمل متعددة مسوقة لغرض على مجموع جمل أخرى مسوقة لغرض آخر، فيشترط فيه التناسب بين الغرضين دون آحاد الجمل الواقعة في المجموعين، وهذا أصل عظيم في باب العطف لم يتنبه له كثيرون؛ فاستشكل عليهم الأمر في مواضع شتى"[٤٨].

وهذان النصان يجملان خصائص عطف المجموع وأبعاده، ومنهما أمكننا أن نتبيّن الأصول المتحكمة في هذا النوع من العطف، وهي أصول ترتدّ في أغلبها إلى الخصائص النصيّة التي تتجاوز مقتضيات نحو الجملة إلى ميدان من قوانين البنى أرحب، وواقع من الاستعمال أوسع.

- الأصل الكميّ: لزوم تعدد الجمل في مجموع المعطوف ومجموع المعطوف عليه:

وهذا الأصل نتيجة طبيعية لامتداد النصّ أفقا باستراتيجيات متعددة، فيربو العطف كمّاً على نحو أفقي، بين المفردات إلى أن يقع بين الجمل، ويتجاوز مستوى الجمل إلى ما فوقها، فيعطف مجموعا من الجمل على مجموع آخر، أو نصّ على نص آخر، ولم يأتِ عطف المجموع إلا تلبية لوصف العطف الحاصل بين ما فوق الجملة.

والأصل الكمي هو باب هويّة عطف المجموع، كما ميّز الكم كذلك بين عطف المفردات وعطف الجمل، وقد استخدم التهانوي صيغة الجمع في حدّه عطف القصة على القصة فهو: "أن يُعطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر لمناسبة بين الغرضين"[٤٩]، والقصة هنا يراد بها مجموع دلالي يحصل من مجموعة من الجمل، أو في الأقل من أكثر من جملة، وقد صرّح التهانوي بالشرط الكمي حيث قال: "فعلى هذا يشترط أن يكون المعطوف والمعطوف عليه جملا متعددة"[٥٠]، وكل ما ورد من العطف معدودا في عطف المجموع كعطف القصة على

[٤٦] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١١٨٩.

[٤٧] الزمخشري، ج١، ص٦٢.

[٤٨] الشريف الجرجاني، حاشية الشريف على تفسير الكشاف، ص١٦٥، ١٦٦.

[٤٩] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١١٨٩.

[٥٠] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ١١٨٩.

القصة عندهم قد جاوز حدّ العطف بين جملتين، والجامع بين هذه الجمل أن تكون في غرض واحد.

وعلى هذا الأساس عدّ الزمخشري العطف في الآيتين السادسة والسابعة من سورة البقرة، من قبيل العطف المجموع[٥١]، حيث عطف مجموع حال المنافقين على مجموع حال الكافرين، وكان المجموع حاصلا من مجموع آيات بها جمل كثيرة.

وقد أشكل تمثيل الزمخشري على العطف بين مجموعين في الآيتين ٢٤، و٢٥ من سورة البقرة، حين مثّل له بقوله: "زيد يعاقب بالقيد والإرهاق، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق"[٥٢]، وهذا المثال وإن أراد به الزمخشري البرهان على إمكان عطف الإنشاء على الخبر في عطف المجموع؛ فقد أوقعنا في لبس من حقيقة الأصل الكميّ، فمع تقريرهم أنه يلزم أن يقع بين مجموعين من الجمل؛ ترى الزمخشري يمثل له بعطف وقع بين جملتين، وهو ما أحوج التهانوي إلى تأويل هذا المثال؛ إذ قال: "ثم هذا المثال يمكن أن يجعل من عطف قصة على قصة ... وإن لم يكن فيه جمل بل جملتان بأن يقال فيه عطف قصة عمرو الدالة على أحسن حاله على قصة زيد الدالة على أسوأ حاله، لكنه اقتصر من القصتين على ما هو العمدة فيهما؛ إذ يفهم منه الباقي منهما، فكأنّه قال: زيد يعاقب بالقيد والإزهاق فما أسوأ حاله وما أخسره إلى غير ذلك، وبشر عمروا بالعفو والإطلاق فما أحسن حاله وما أربحه"[٥٣]، فكأن الكلام له بنيتان سطحية وعميقة، فالعميقة منبنية من مجموع جمل، واقتصر منها المتكلم في البنية السطحية على ما يدلّ عليها، والعطف في الأصل حاصل في البنية العميقة بين مجموع من الجمل؛ وإن ظهر في السطح أنّه عطف بين جملتين.

وما ذهب إليه الزمخشري والتهانوي من تمثيل وتأويل نتيجة لعدم جواز عطف الجملة الإنشائية على الخبرية؛ فأحوجهم ذلك إلى عِّدهِ من عطف القصة على القصة؛ أي عطف المجموع بحسب زعمنا. ولم يقبل بعض من نظر في العطف في آية البقرة السابقة وفي مثال الزمخشري ردّه إلى عطف الجمل، ورأوا من الحسن والدقة في تحليل الكلام جعله عطف مجموع على مجموع وعطف قصة على قصة، كما فعل الزمخشري، حيث ردّه إلى عطف المجموع ولم يتأوّل تقديرات ليست في محلها؛ ليحافظ على كونه عطف جمل، وقد أعجب الشريف الجرجاني بصنيع الزمخشري في هذا الموضع؛ فقال: "لله در جار الله، ما أدق نظره في أساليب الكلام،

---

[٥١] الزمخشري، الكشاف، ج١، ص٦٢.

[٥٢] السابق، ج١، ص١٠٩.

[٥٣] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١١٨٩.

وما أعرفه بأحوال أفانينه، مهّد لمن بعده موائد فوائده، يأكلون منها ولا يحيطون بها"[٥٤].

- أصل المناسبة بين الغرضين المعطوفين:

وشرط المناسبة أصل يتحكم في العطف سواء كان بين المفردات أو الجمل أو المجموع، وبه يقوم العطف بوظيفة النسق المعقودة عليه، والترابط بين المتجانسات بشكل من أشكال التجانس يجب أن يكون دون التطابق؛ حتى لا يعطف الشيء على نفسه، والتضاد من أشكال التجانس، فيقع عليه العطف، وقد صرّحوا بشرط التناسب في عطف المجموع؛ وإن كان حاصلا من المجموع لا من آحاد هذا المجموع، في مثل قولهم: "يشترط فيه [أي في عطف المجموع] التناسب بين الغرضين دون آحاد الجمل الواقعة في المجموعين[٥٥]، ولا يلزم أن تكون الجمل في المجموع المعطوف متناسبة مع الجمل في المجموع المعطوف عليه؛ بل يلزم هذا التناسب في المجموع الحاصل من هذه الجمل ولو كان بطريق التأويل أو في المستوى العميق من أصل بناء هذا المجموع. وللمناسبة في تحققها بعدان: بنيوي، وتداولي، فالبنيوي ما حصل بطريق مقتضى سياق القول وتركب الكلام من جمله المنجزة فيه، والتداولي ما كان مرتدا إلى ظروف إنتاج القول.

ولم يعزب عن نظر علماء العربية أن المناسبة درجات متباينة بين جمل مجموع المعطوف والمعطوف عليه، وقد مالوا إلى اعتبار مدى تحقق المناسبة أساسا في نجاح هذا العطف، ولو خالف اتساق الصيغ وأنماط الكلام بين الخبر والإنشاء، فلا نظر بين الخبر والإنشاء حيث حصلت المناسبة بين معنى المجموعين المتعاطفين، "فكلّما كانت المناسبة أشدّ كان العطف أحسن من غير نظر إلى كون تلك الجمل خبرية أو إنشائية"[٥٦]، والعلاقة طردية بين حسن العطف والمناسبة، فإن بعدت المناسبة كان العطف أقل نجاحا، لحاجته إلى التأويل؛ حتى يحمل عطف المجموع، وكلّما قلّ الحساب التأويلي في الكلام كان أدعى إلى الاستقامة.

- التناسب بالشبيه والنظير:

رأى الزمخشري أن العطف في الآية ١٠٧ إلى الآية ١١٠ من سورة التوبة من قبيل عطف المجموع؛ إذ جرى فيها "عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم"[٥٧]، وقصة الضرار من قصص المنافقين كما ساقتها الآية، فهي معطوفة على سائر أحوالهم المتقدمة في السورة، وهذا العطف عطف مجموع على مجموع، مع ما بين المجموعين

---

[٥٤] شيخ زاده، حاشية شيخ زاده على المطول، ص٢٦٤.

[٥٥] الكفوي، الكليات، ص١٠١٦.

[٥٦] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ص١١٨٩.

[٥٧] الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٢٩٨.

المتعاطفين من بعد بالفاصل من الآية ٩٦ إلى الآية ١٠٦. والذي أباح للزمخشري عدّ هذا العطف من عطف المجموع كونه واقعاً بين مجموعين من الجمل مختلفي الغرض متناسبين، والتناسب هنا تناسب تشابه؛ إذ كلاهما ساق أحوال المنافقين.

- التناسب بالضد والنقيض:

قد يكون التناسب بالنقيض في العطف، وهو إمكان أشار إليه الجرجاني[٥٨]، وهذه السعة في إمكان التناسب بالضد والنقيض، كما يكون بالشبيه والنظير تشمل كل مستويات العطف، ومنها عطف المجموع، فقد يكون المجموعان المتعاطفان ضدين متناقضين، ومنه ما عدّه الزمخشري من عطف المجموع في سورة البقرة؛ حيث عدّ "جملة وصف ثواب المؤمنين، معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين[٥٩]، ولا يخفى ما بين ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين من النقيض، وقد حصل التناسب بين غرضي المتعاطفين بالضد والنقيض في هذا الموضع.

- أصل التغاير بين الغرضين في المجموع المعطوف والمجموع المعطوف عليه:

يلزم أن يتغاير غرض المجموع المعطوف وغرض المجموع المعطوف عليه، وهذا الأصل مرتبط بأصل عامّ في العطف؛ إذ لا يعطف الشيء على نفسه، فيجب أن يتغاير المتعاطفان مضمونا، وعطف المجموع يحصل من "عطف مجموع جمل متعددة مسوقة لغرض على مجموع جمل أخرى مسوقة لغرض آخر"[٦٠]، والتغاير بين المجموعين المعطوف أحدهما على الآخر حاصل في المجموع، فالمجموع الدلالي الناتج عن جمل متعدّدة هو الذي يجب أن يتغاير، وتعبيرهم بـ "مجموع جمل متعددة" أي المجموع الحاصل من هذه الجمل، وليس إشارة إلى ضرورة تعدد الجمل في صيغة الجمع، بل هو المعنى المجتمع من تضافرها كلها، وهذا المجموع يلزم أن يكون متغايرا؛ حتى يستقيم هذا العطف.

وقد أشار الألوسي إلى بعد في التغاير، فقد يكون تغايرا في الذات أو تغايرا في الصفات، ففي تفسيره لقوله تعالى: وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (غافر: ٥٨) يقول: "والموصول مع ما عطف عليه معطوف على الأعمى مع ما عطف عليه عطف المجموع على المجموع ... لأن كلا من الوصفين الأولين مغاير لكل من الوصفين الأخيرين، وتغاير الصفات كتغاير الذوات في صحة التعاطف، ووجه التغاير أن الغافل والمستبصر والمحسن والمسيء صفات متغايرة المفهوم بقطع النظر عن اتحاد ما صدقهما

---

[٥٨] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٢٢٥.

[٥٩] الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٠٩.

[٦٠] الجرجاني الشريف، حاشية الشريف على تفسير الكشاف، ص١٦٥، ١٦٦.

وعدمه"[٦١] فالتغاير قد يكون في الذوات التي يحيل عليها العطف، أو في الصفات والمضامين التي يحملها العطف، وكل هذا البحث والتدليل على كون التغاير حاصلا بوجهٍ من الوجوه يشي بأن التغاير أصل في عطف المجموع، كما هو أصل في سائر وجوه العطف.

المصادر:

- ابن جني (عثمان بن فتح) سر صناعة الإعراب، تحقيق أحمد فريد، المكتبة التوقيفية، د ت.
- ابن هشام (جمال الدين ابن الأنصاري)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك و محمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٩٧٩.
- الأخفش (سعيد بن مسعدة) معاني القرآن، تقديم إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.
- الآلوسي (شهاب الدين)، روح المعاني، تحقيق علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.
- الأنباري (أبو البركات)، أسرار العربية، تحقيق بركات يوسف، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- الأنباري (أبو بكر)، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ضبطه بركات يوسف، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٥.
- برقان (رشيد)، آليات الترابط النص القرآني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٥.
- التهانوي (محمد علي)، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ١٩٩٦.
- الجرجاني (الشريف) حاشية الشريف على تفسير الكشاف، ضمن تفسير الكشاف، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٧.
- الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢.
- خطّابي (محمد) ، لسانيّات النصّ مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢.
- الخوارزمي (القسم بن الحسين)، التخمير، تحقيق محمد السيد عثمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١١.
- الزمخشريّ (جار الله)" تفسير الكشّاف، ضبطه محمد عبدالسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
- السكّاكي (أبو يعقوب)، مفتاح العلوم، ضبطه ووضع هوامشه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٢، ١٩٨٧.
- الشاوش (محمد)، أصول تحليل الخطاب، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ٢٠٠١.
- الفارسي (أبو علي)، التعليقة على كتاب سيبويه، تحقيق عوض حمد القوزي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٩٩١.
- الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)، الكلّيّات، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨.

[٦١] الألوسي، روح المعاني، ج١٢، ص٣٣٣.

- المبرد (محمد بن يزيد) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤.
- مير شريف (السيد)، حاشية السيد مير شريف على المطول، قم، د. ت.

المراجع الأجنبية:

- Haliday, M. A. K. and Hasan, Ruqaiya. Cohesion in English. Longman Group Limited. 1976. Print.

تدريس العربية للناطقين بغيرها
في عصر "ما بعد الطرائق"

الدكتور خالد حسين ابو عمشة
أستاذ اللسانيات التطبيقية المشارك
عمان – الأردن

الملخص:

تروم هذه الدراسة تقديم بعض المقترحات العملية في تدريس مهارات العربية وعناصرها على وفق مفهوم يتجاوز ما هو معروف ومتداول بين الباحثين من طرائق التدريس ونظريات اكتساب اللغة التي حاولت جاهدة تقديم الكيفية التي ينبغي أن يتم فيها اكتساب اللغة وتعلمها، ولما تنجح جميعها في الإجابة عن التساؤلات الحيوية التي تطرحها عملية تعلم اللغة واكتسابها؛ الأمر الذي دفع باتجاه تدريس اللغة وتعلمها على وفق ما تم الاصطلاح عليه بعصر "ما بعد الطرائق" منطلقين من قاعدة عريضة مفادها أنه لا يوجد طريقة واحدة أو مذهب بعينه استطاع إلى اللحظة أن يفسر كيفية اكتساب اللغة؛ لكي تعكس الاحتياجات والخبرات المحلية، وعليه يتغيا هذا البحث أن يقدم بعض الرؤى العملية والواقعية التي ساهمت في تيسيير اكتساب العربية وتعلمها متجاوزين بوتقات طرائق التدريس المشهورة في الميدان إلى تمكين المعلمين من أن يختاروا الإجراءات البديلة المناسبة المتماسكة التي تجيب عن كل التساؤلات التي تتفتق في ذهنهم في أثناء عملية التدريس متحركة جنباً إلى جنب مع اتجاهات أخرى في مهارات التفكير المعرفية وما فوق المعرفية والتفكير الناقد والعولمة والحداثة وما بعدها جميعاً.

مشكلة الدراسة

تتمثل مشكلة هذه الدراسة في جانبين: الأول ندرة الدراسات التي غطّت هذا الموضوع: موضوع تعليم العربية للناطقين بغيرها في عصر ما بعد الطرائق، والثاني غياب الوعي في مفهوم تعليم العربية في عصر ما بعد الطرائق ومبادئه الأساسية وجوانبه النظرية، وتطبيقاته العملية، وتحدياته الواقعية. لذلك ارتأى الباحث أن يكرس هذه الدراسة للتعريف بعصر ما بعد الطرائق في تعليمية العربية للناطقين بغيرها، ولعلها ستكون الدراسة الأولى في اللغة العربية في حدود علم الباحث.

أسئلة الدراسة

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ما المقصود بعصر ما بعد الطرائق؟
- كيف تكتسب اللغة العربية في ضوء مذهب ما بعد الطرائق؟
- ما تحديات تعليم العربية في عصر ما بعد الطرائق؟
- ما دور المعلم في تعليمية العربية في عصر ما بعد الطرائق؟
- ما دور المتعلم في عصر ما بعد الطرائق؟
- ما التوجهات المستقبلية في عصر ما بعد الطرائق في تعليمية العربية للناطقين بغيرها؟
- ما التطبيقات العملية في ضوء التعليم ما بعد الطرائق؟

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها الدراسة الأولى في مجال تعليمية العربية للناطقين بغيرها – في حدود علم الباحث– لذلك فإنّها تكتسي أهميتها في التعريف بهذا المذهب الجديد لعلّ وعسى أن يسهم في تطوير مجال تعليمية العربية للناطقين بغيرها، ويعيد النظر في مؤهلات المدرسين وآليات تدريبهم في ضوء هذا المذهب الذي تشير الدراسات الأجنبية إلى أهميته ودوره في تعظيم الكفاية اللغوية المنشودة في فصول تعليم اللغات الأجنبية.

حدود الدراسة

تتمثل حدود هذه الدراسة بالعصر الذي ظهرت فيه طريقة التدريس على وفق عصر ما بعد الطرائق حين أعلن بعض اللسانيين والباحثين في مجال تعلّم اللغات الأجنبية وتعليمها عن موت عصر الطرائق والمذاهب وولادة عصر ما بعد الطرائق، وذلك مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

منهجية الدراسة

يعتمد البحث الحالي الموسوم بتعليمية العربية للناطقين بغيرها في عصر ما بعد الطرائق على المنهج الوصفي الذي يقوم على جمع المعلومات ووصف الظاهرة وتحديد مشكلاتها وتحليل بياناتها في مجال تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها.

الدراسات السابقة

أشرت في متن البحث بأنه على الرغم من جهودي الحثيثة للعثور على دراسات باللغة العربية حول تعليمها في ضوء عصر ما بعد الطرائق فإنني لم أعثر على دراسة واحدة، وبالتالي

أظن أنها – وإن بعض الظن إثم– إنها الدراسة الأولى التي تتناول هذا الموضوع باللغة العربية، وبناءً على ذلك واستكمالا لعناصر البحث العلمية سوف أعرض بعض الدراسات الأجنبية التي كتبت حول تعليم اللغة الإنجليزية في ضوء عصر ما بعد الطرائق لكي نلقي بعض الأضواء حول ما يجري في عالم تعليم اللغات الأجنبية:

Galante, Angelica (2014). English Language Teaching in the post method era: TESL Ontario.

- من الناحية التاريخية، تطورت منهجيات تدريس اللغة الإنجليزية من عصر الطرائق إلى عصر ما بعد الطرائق. وتم تصميم وتطبيق العديد من المنهجيات في تدريس اللغة الإنجليزية في فصول تعليم اللغة في جميع أنحاء العالم، وعلى الرغم من نجاحها في كثير من الأحيان، فقد ظهرت العديد من التحديات، من وجهة نظري الشخصية بوصفي مدرساً للغة الإنجليزية، لا تزال منهجيات تدريس اللغة الإنجليزية لها مكانتها في فصول تدريس اللغة، وفي هذه المقالة، سأقدم موجزًا لقضايا تعليم اللغة الإنجليزية كتمهيد لمناقشة الجوانب الأكثر أهمية لتدريس اللغة في عصر ما بعد الطرائق. وسأحاول أن أعرض الحجة القائلة بأن معرفة منهجيات التدريس المختلفة مع الوعي بالجوانب التي تمت مناقشتها أمر حيوي لأي شخص يرغب في أن يصبح مدرسًا للغة الإنجليزية في عصر ما بعد الطرائق.
- Soto, María (2014). Post-method pedagogy: Towards enhanced context-situated teaching methodologies: in English language teaching in the post-methods era: Selected papers from the 39th FAAPI Conference: Edited by Darío Luis Banegas Mario López-Barrios Melina Porto María Alejandra Soto.
- إن تاريخ تطور منهجية تدريس اللغة الإنجليزية موثق جيدًا بلا شك لعقود حتى الآن، حدد الباحثون ووصفوا تلك الأساليب والإجراءات والتقنيات التي تدعم التدريس الفعّال والناجح، وأنتجت هذه المحاولات قائمة طويلة من الأساليب التي كانت موجودة في وقت سابق أو لاحق وإن تنفيذ أي طريقة تدريس مبتكرة أدى بشكل عام إلى زوال الأساليب السابقة. يبدو أن هذا الوضع المتغير دائمًا قد وصل إلى مرحلة الاستقرار ، أولاً مع ظهور المنهج التواصلي، وتدريس اللغة القائمة على المهام (TBLT) أو التعلم المتكامل للغة والمحتوى (CLIL)، ومع ذلك، فقد اعتُبرت فكرة أسلوب مقاس واحد يناسب الجميع غير قابلة للتطبيق نظرًا للعلاقة المعقدة بين الأسلوب والسياق، وهكذا ظهر عصر ما بعد الطريقة، إذ تم اقتراح وتبني نهج مستنير أو مبدئي للتدريس كبديل جّذاب للطريقة، وعليه تبحث هذه الورقة في

المبادئ الرئيسة التي تقوم عليها فكرة عصر ما بعد الطريقة، وتم تناولها في ضوء نتائج دراسة استقصائية من خلال التفكير في البيانات التي تم جمعها من خلال استبانة عبر الإنترنت، شملت محاور مختلفة أهمها حالة المدرسين بصفتهم مبتكرين لسياقاتهم الخاصة، ومنهجياتهم الخاصة، واستراتيجيات خاصة.

- B. KUMARAVADIVELU (2001). Toward a Postmethod Pedagogy, TESOL QUARTERLY Vol. 35, No. 4, Winter.

- نتيجة لعدم الرضا المتكرر بسبب قيود مفهوم الطريقة وأسلوب تعليم المعلمين، تواجه مهنة تدريس اللغة الثانية حاجة ماسة لبناء منهجية تربوية جديدة. في هذه المقالة، أقوم بتصور معايير أصول التدريس في عصر ما بعد الطريقة وتقديم اقتراحات لتنفيذها، ثم طرح الأسئلة والمخاوف التي قد تطرأ عند تنفيذها. يقوم تصورنا على نظام ثلاثي الأبعاد يتألف من معايير الخصوصية والتطبيق العملي والإمكانية ، فأنا أزعم أن عصر ما بعد الطرائق يجب أن (أ) يسهل النهوض بتعليم لغوي حساس للسياق على أساس فهم حقيقي للغة المحلية والاجتماعية والثقافية والخصوصيات السياسية (ب) زعزعة علاقة الدور الثابت بين المنظرين والممارسين من خلال تمكين المعلمين من بناء نظريتهم الخاصة في الممارسة؛ و(ج) الاستفادة من الوعي الاجتماعي السياسي الذي يجلبه المشاركون معهم من أجل المساعدة في سعيهم إلى تشكيل الهوية والتحول الاجتماعي عبر معاملة المتعلمين والمعلمين على أنهم باحثون في الاستكشاف، وناقش في الدراسة أدوارهم ووظائفهم في علم أصول التدريس في عصر ما بعد الطرائق. واختتم الدراسة بإثارة احتمالية استبدال المفهوم المحدود للطريقة بالمعايير التربوية الثلاثة للخصوصية والتطبيق العملي والإمكانية كمبادئ تنظيمية لتدريس اللغة الثانية وتدريب المعلمين.

Kumaravadivelu, B. (1994). “The postmethod condition: Emerging strategies for second/foreign language teaching”. In: TESOL Quarterly 28, 27–47.

- تشير الاكتشافات الأخيرة في علم أصول التدريس إلى تحول المفهوم التقليدي للطريقة تجاه "عصر ما بعد الطريقة" التي يمكن أن تعيد تشكيل العلاقة بين المنظرين والمعلمين من خلال تمكين المعلمين بالمعرفة والمهارة والاستقلالية. يمكن للمدرسين، الذين يتمتعون بالتمكين الشديد، أن يبتكروا لأنفسهم بديلًا منهجيًا ومتماسكًا، بديلاً مستنيراً بمبادئ البراغماتية. ويمكن لعصر ما بعد الطريقة أيضًا إعادة تشكيل طابع ومحتوى تدريس اللغة الثانية، وتدريب المعلمين، والبحث في الفصول الدراسية، فمن الناحية العملية، فإنه يحفز

البحث عن إطار عمل متماسك مفتوح النهاية قائم على الرؤى النظرية والتجريبية والتربوية الحالية التي ستمكن المعلمين من التنظير من الممارسة إلى الممارسة لما ينظروه. تستكشف هذه الورقة أحد هذه الأطر التي تتكون من ١٠ استراتيجيات كلية، استنادًا إلى يمكن للمدرسين تصميم استراتيجيات دقيقة متنوعة ومحددة الموقف أو تقنيات الفصل الدراسي لإحداث نتائج التعلم المرغوبة. وتؤكد الورقة أنه يمكن استخدام إطار العمل لتحويل ممارسي الفصل إلى معلمين استراتيجيين زيادة على باحثين استراتيجيين.

التعليق على الدراسات السابقة:

تشير الدراسات السابقة الى أمرين: قلة الدراسات التي أجريت على هذا الموضوع بعامة، وفي اللغة العربية بخاصة، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجدها نادرة في مجال تعليم العربية للناطقين بغيرها؛ لذلك فإن تقديم هذه الدراسةُ يعدّ مستساغاً بل ومطلوبا بشدة حتى يواكب مجال غير الناطقين الدرسات اللغوية في مجال تعليمية العربية لغة ثانية أو أجنبية.

تمهيد

تتمحور هذه الدراسة في موضوع واحد وسؤال واحد، وهو كيف نعلِّم اللغة؟ خاصة في ضوء غياب إجماع بحثي كافٍ في الوقت الحالي قائم على كيفية تعلّم المتعلمين للغة، ويرى بعض أصحاب النظريات أن قدرات معالجة المعلومات عند الإنسان قوية بما يكفي لتعرض متعلم اللغة للغة مفهومة له أو لها يكتسب بها اللغة، ويتمكن من استخدامها فهماً وإنتاجاً. ويعتقدون أن عملية الاكتساب تكون غير متيسرة الإدراك بالملاحظة أو الحدس ولا يمكن تيسيرها بالمعالجة البارعة سواء بالتدريس أو طرائق الدراسة، وبالنسبة لهم فإن أهم شيء يمكن أن يفعله المعلم هو إيجاد أغنى بيئة ممكنة يتم فيها التعلّم/ دون تدريس رسمي. (الإطار، ٢١١).

وقد طرحت (دايان لارسن فريمان، ١٩٩٧) عشرة أسئلة تمثل الإجابة عنها إطاراً مرجعياً للطريقة وتبين حدودها ومفاصلها الأساسية، وتفسر كيفية اكتساب اللغة على وفق طريقة بعينها:

١. ما أهداف المعلّم الذي يتبع هذه الطريقة؟
٢. ما دور المعلّم؟ وما دور الطالب؟
٣. ما مميزات عملية التدريس والتعلّم؟
٤. ما نوع التفاعل اللغوي بين المتعلم والمعلم والمتعلم وزميله؟
٥. كيف يتم التعامل مع مشاعر الطلبة؟
٦. ما الجوانب والمهارات اللغوية التي ينبغي التركيز عليها؟
٧. ما دور لغة الطلبة الأصلية؟

٨. كيف كان رد فعل المعلم على أخطاء المتعلمين؟
٩. كيف يتم التقويم؟

أمّا (هُوات وويدوصن، ٢٠٠٤) فقد طرحا الأسئلة الآتية التي ينبغي أن تجيب عنها طرائق التدريس:

١. ما هدف تعليم اللغة الأجنبية أو تعلمها؟؟

٢. ما طبيعة اللغة؟ وكيف تؤثر طبيعتها في طريقة التدريس؟

٣. ما أسس اختيار المحتوى اللغوي/ المضمون في تعليم اللغة الأجنبية؟

٤. ما أسس تنظيم المحتوى وتتابعه وطرائق تقديمه تيسيراً لعملية تعلم اللغة؟

٥. ما دور اللغة الأم في عملية تعلّم اللغة الأجنبية؟

٦. ما العمليات العقلية والمعرفية التي يمر بها المتعلم حتى يكتسب اللغة الأجنبية؟

٧. ما الأساليب والنشاطات التي تسهل عملية تعلم اللغة الأجنبية، وما متطلبات استخدامها؟

وينبغي لنظرية اللغة أن تجيب عن سؤالين، لكي تكون أساساً لمذهب أو طريقة، وهما:

- ما العمليات اللغوية والنفسية والمعرفية التي يتضمنها تعلّم اللغة؟
- ما الشروط الواجب توافرها؛ لكي تنشط عمليات التعليم هذه؟

وقد حاول (Brown, 2020) وضع اثني عشر أساساً أو مبدأً في اكتساب اللغة الثانية أو الأجنبية تكاد تكون مقبولة من جل لسانيي اللغات الثانية أو الأجنبية، على الرغم مما قد يشوبها بعض الخلاف في التطبيقات الصفيّة بين الباحثين، وهي تمثل سياق نظريات اكتساب اللغات الثانية والأجنبية في جل سياقاتها المختلفة، وهي:

١. التلقائية
٢. التعلم ذو المعنى
٣. توقع المكافأة
٤. الدافعية الذاتية
٥. الاستثمار الاستراتيجي
٦. الأنا اللغوية
٧. الثقة الذاتية
٨. المخاطرة

٩. العلاقة بين اللغة والثقافة
١٠. تأثير اللغة الأم
١١. اللغة البينية/ المرحلية
١٢. الكفاية التواصلية

وقبل أن نخوض في محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات في عصر ما بعد الطرائق ينبغي علينا الوقوف عند مصطلحات الدراسة الأساسية الثلاث، ألا وهي: المذهب، والطريقة، والأسلوب.

المذهب: يعرّف (ريتشارد وثيودور، ١٩٩٠) المذهب بأنه مجموعة من الافتراضات المتعلق بعضها ببعض وتعالج طبيعة تعليم اللغة وتعلمها، والمذهب بدهي يصف طبيعة المادة التي ندرسها على حين يراه (Antony, 1963) بالمستوى الذي نحدد فيه الافتراضات والمعتقدات الخاصة باللغة.

الطريقة: يعرّف (Prabhu, 1990) الطريقة بنشاطات الفصل والنظريات الكامنة وراءها، وهو ما وضحه (ريتشارد وثيودور ، ١٩٩٠) بقوله الطريقة: هي الخطة العامة لعرض المادة اللغوية بصورة منظمة وبشكل لا يناقض فيه جزء من هذه الخطة أي جزء آخر، ويكون ذلك كله مبنّياً على المذهب الذي نختاره، فالمذهب بدهي أما الطريقة: فإجرائية، فنجد في إطار مذهب ما عدداً من الطرائق، ويعِّرفها أنطوني بالمستوى الذي نطبق فيه النظرية الذي نختار فيه المهارات المحددة التي نريد تعليمها والمحتوى المطلوب تدريسه وكذلك الترتيب الذي نقدم بهذ لك المحتوى، وترى (فريمان، ١٩٩٧) أن الطريقة هي مصطلح شمولي يشمل المبادئ والأساليب، والمبادئ تشمل خمسة مناحٍ في تدريس اللغة الثانية أو الأجنبية، هي: المعلّم، والدارس، وعمليتي التعلّم والتعليم، واللغة أو الثقافة المُتعلّمة. أمّا (Kumaravadivelu, 2006) فيرى أن الطريقة مصطلح يشير إلى ما يقترحه المنظرون وإلى ما يمارسه المعلمون في آن.

الأسلوب يعرّف (ريتشارد وثيودور، ١٩٩٠) الأسلوب بأنه شيء تطبيقي وهو ما يحدث فعلاً في حجة الدراسة، ويمثل خدعة معينة أو إستراتيجية أو وسيلة نستخدمها لتحقيق غاية مباشرة، ويجب أن يكون الأسلوب مطرداً مع طريقة معينة، ومن ثم متفقة مع مذهب معين كذلك، على حين يراه (Antony, 1963) بالمستوى الذي نصف فيه الإجراءات الصفّية، وترى (فريمان، ١٩٩٧) أنّ الأسلوب هو العرض السلوكي للمبادئ المذكورة آنفاً في الطريقة. وهذا ما أكده (أبو عمشة، ٢٠١٥) بقوله: الأسلوب مجموعة من الإجراءات والخطوات التعليمية – التعلّمية التي يقوم بها المعلم والتلاميذ، وتحدث بشكلٍ منتظم ومتسلسل، ويكون التلميذ إيجابياً ونشطاً

وفعالاً في بناء معرفته وأفكاره وتصوراته بنفسه، وتصويبها وتطويرها عن المفاهيم والأحداث والظواهر العلمية والطبيعية.

تعليم العربية في عصر ما بعد الطرائق

مّر تعليم اللغة العربية وسائر اللغات الأجنبية بمراحل كثيرة بدءاً من تدريسها على وفق اللامذهب مروراً بطريقة القواعد والترجمة وصولاً إلى عصر ما بعد الطرائق. كلها حاولت أن تجيب عن الاسئلة السابقة التي يمكن اختصارها في سؤال واحد كيف يتعلم الإنسان اللغة؟ ولعلّ مسحاً سريعاً للمناهج والأساليب الممارسة في التدريس ترينا أن تاريخ تدريس اللغة في المئة عام الماضية قد امتازت بالبحث عن أكثر الطرائق فعالية لتدريس اللغات الثانية أو الأجنبية، إذ كان الحلّ الأكثر شيوعًا لمشكلة تدريس اللغة على أنه يكمن في اعتماد منهج أو طريقة تدريس جديدة. فظهر عصر ما يُسمّى بأساليب التصميم ومسميات الطرائق المختلفة، وهكذا تم تبني الطريقة المباشرة بحماس في الجزء الأول من القرن العشرين كتحسين على طريقة النحو والترجمة في خمسينيات القرن الماضي، ثم التحول إلى أن الطريقة السمعية اللغوية توفر طريقًا للمضي قدمًا، حيث تضم أحدث الأفكار من علوم اللسانيات وعلم النفس. عندما بدأت الطريقة السمعية اللغوية تتلاشى في السبعينيات، ولا سيما في الولايات المتحدة، فظهرت في أعقابها مجموعة متنوعة من الأساليب التي يقودها المعلمون لملء الفراغ مثل الطريقة الصامتة، والاستجابة الجسدية الكاملة، في حين أن هذه الاختراقات قد تراجعت بشكل كبير بحلول التسعينيات، وتستمر الاتجاهات الحديثة بالظهور من وقت إلى آخر، مثل التعليم القائم على المهام، والبرمجة اللغوية العصبية، والذكاء المتعدد، ولا شك أن هذه الاتجاهات تجذب مستويات مختلفة من الدعم. ويرى (Galante، ٢٠١٤) أن تعليم اللغات الأجنبية إلى وقت قريب كان يسير على وفق منهجيات ومفاهيم مخطوءة ناهيك عن أنها سيئة السمعة، إذ كانت تنفذ على وفق سياسة "حجم واحد للجميع" في الفصول الدراسية في جميع أنحاء العالم، وكان من المتوقع لها النجاح، بين متعلمي اللغة الأجنبية في بلدان مختلفة، ولم تأخذ بالحسبان المتغيرات العاطفية أو المعرفية، فهل المتعلمون الذين لديهم معرفة ضئيلة باللغة يشعرون بالقلق عند تقديمهم الشفوي أمام الفصل على حدٍّ سواء؟ هل جميع المتعلمين لديهم القدرة ذاتها في التعرف على التراكيب النحوية للغة وتطبيق بعض الفرضيات عند تعلّم تراكيب أخرى؟ مما دفع بعض الباحثين إلى إعلان وفاة مصطلح "طريقة التدريس" في أوائل التسعينات من القرن الماضي، وظهر مصطلح جديد بدأ يهيمن على ساحة البحث العلمي في مجال تدريس اللغات الأجنبية، وهو مصطلح "عصر ما بعد الطرائق"، ومن أوائل المشككين في طرائق التدريس (كومارافاديفيلو، ١٩٩٤) الذي عدّ طريقة التدريس تقيد من حرية المدرس والدارس، وقد حدّت من إبداعية المعلم والمتعلم في

تعليم اللغة وتعلمها، ومنعتهما من استغلال وتحقيق إمكاناتهم الكاملة؛ وعليه تم تقديم مصطلح ما بعد الطرائق لكي يكون بديلاً لطريقة التدريس، وقد لاقى قبولا ورواجاً في المجال من لدن الباحثين والدارسين على حدٍّ سواء. ولهذه الفكرة كما هو حال غيرها إيجابيات وأنصار، ولها سلبيات وأنداد، وسأحاول أن أتوقف عند كليهما قدر المستطاع.

عصر ما بعد الطرائق

أشار (2001:247) Richards and Rodgers بأن الطرائق لم تعد عاملا حيوياً ومهماً في تقرير النجاح والفشل في تدريس اللغات الأجنبية، وبناًء على ذلك ظهر مفهوم موت الطرائق ومقارباتها، وشهدنا ميلاد عصر ما بعد الطرائق الذي يرتبط بشكل أو بآخر بعصر ما بعد الحداثة وفلسفتها في مجالات الفن والموسيقى والأفلام والأدب والهندسة المعمارية وحتى التكنولوجيا. وتعود الأعمال الحقيقة إلى تأسيس أدبيات عصر ما بعد الطرائق إلى Kumaravadivelu الذي فنّد عصر الطرائق ومهّد الطريق لعصر ما بعد الطرائق. فنظراً لعدم الرضا واسع النطاق عن المفهوم التقليدي للطريقة قدم مفهوم عصر ما بعد الطرائق الذي يقوم المعلمون فيه بتكييف نهجهم وفقًا للعوامل السياقية المحلية، ثم يتم توجيههم في نفس الوقت بعدد من "الاستراتيجيات الكلية" من أبرزها استراتيجية "تعظيم فرص التعلم" واستراتيجية "تعزيز استقلالية المتعلم". وقد وضع (Kumaravadivelu, 1994) عشر استراتيجيات كلية مهمة تتساوق جنباً إلى جنب مع الاستراتيجيات الصغرى في تطبيقات عصر ما بعد الطرائق، هي:

- تعظيم فرص التعلم: هذه الاستراتيجية الكلية تدور في التدريس بوصفهِ عمليه، واستخدام فرص التعلم، وهي عملية يجد فيها المعلمون التوازن بين دورهم كمديرين للتدريس ودورهم كوسيط للتعلم.
- تسهيل التفاعل التفاوضي: هذه الاستراتيجية الكلية تدور في ضمان تفاعل هادف بين المتعلم والمتعلم، والمتعلم والمعلم في الفصل الدراسي الذي يشجع المتعلمين على بدء موضوع والتحدث، وليس مجرد الردّ.
- تقليل حالات عدم التطابق الإدراكي: هذه الإستراتيجية الكلية تدور في التعرف على التطابقات المخطوءة المحتملة بين نية المعلم وتفسير المتعلم، وماذا تفعل حيال ذلك.
- تنشيط الاستدلال البديهي: هذه الاستراتيجية الكلية تدور في توفير بيانات سياقية غنية بحيث يمكن للمتعلمين الاستدلال واستيعاب القواعد الأساسية التي تحكم الاستخدام النحوي والاستخدام التواصلي ؛ كما أنها تساعدهم في عملية بناء القواعد.
- تعزيز الوعي اللغوي: هذه الاستراتيجية الكلية هي في خلق الوعي اللغوي العام وكذلك

النقـدي؛ إلـى جانـب ذلـك، فإنهـا تجـذب انتبـاه المتعلمـين إلـى الخصـائص الرسـمية والوظيفية للغة.

- تحديد سياق المدخلات اللغوية: هذه الاستراتيجية الكلية هي في كيفية تشكيل استخدام اللغة من السياقات اللغوية والاجتماعية والثقافية.
- دمج المهارات اللغوية: هذه الاستراتيجية الكلية تدور في تكامل شامل للمهارات اللغوية التي تم فصلها: الاستماع والمحادثة والقراءة والكتابة؛ علاوة على ذلك، إنها تتعلق بفهم أثر اللغة عبر المناهج الدراسية.
- تعزيز استقلالية المتعلم: هذه الاستراتيجية الكلية تدور في مساعدة المتعلمين على التعلم؛ وتسليحهم بالأدوات المناسبة للتوجيه الذاتي والمراقبة الذاتية لتعلمهم.
- رفع الوعي الثقافي: هذه الاستراتيجية الكلية تؤكد الحاجة إلى معاملة المتعلمين كمخبرين ثقافيين ليتم تشجيعهم على الانخراط والمشاركة في الفصول الدراسية التي تضيف علاوة على القوة/المعرفة بذاتيتهم وهويتهم.
- ضمان الملاءمة الاجتماعية: هذه الاستراتيجية الكلية تدور في حاجة المعلمين إلى أن يكونوا حساسين للبيئة المجتمعية والسياسية والاقتصادية والتعليمية التي سجري فيها التعلم والتدريس.

ويمكن تعريف عصر ما بعد الطرائق بالخطوات والإجراءات والمبادئ التي يقوم بها معلم اللغة في الفصل الدراسي بناء على معارفه النظرية وتطبيقاته السابقة واستراتيجياته المدروسة. ويتطلب التدريس وفقها وعيًا أكبر بقضايا مثل: معتقدات المعلم واستدلالاته وإدراكاته ومعارفه، وتحويل المدرسين من مستهلكين في الفصول الدراسية إلى مدرسين استراتيجيين أو باحثين استراتيجيين لاستعادة الاستقلالية التي تمكن من التنظير حول ممارساتهم الخاصة وممارسة ما لديهم من نظريات. ومن الأسباب الموجبة للانتقال من عصر الطرائق والتحول إلى ما بعد الطرائق ما ذكره (Kumaravadivelu,2006) ، أن الطريقة تحمل الأساطير الآتية:

- إنّ هناك طريقة فضلى جاهزة وتنتظر من يكتشفها.
- إن الطريقة تشكل المبدأ التنظيمي لتدريس اللغة.
- إن الطريقة لها قيمة عالمية وتاريخية.
- إن المنظرين يتصورون المعرفة، والمدرسين يستهلكون المعرفة.
- إن الطريقة محايدة وليس لها دافع أيديولوجي.

وقد أضاف (Richard and Renandya, 2002) جملة أخرى من الأسباب، هي:

- تُعدّ الطرائق إلزامية نوعاً ما، ويتم إعمامها بشكل مفرط في تطبيقاتها المحتملة على

المواقف العملية.

- تكون الطرائق مميزة تمامًا في المراحل الأولى من دورات التدريس، ثم يصبح تمييزها صعباً في مراحل لاحقة.
- كان يعتقد بأن الطرائق يمكن اختبارها تجريبيا بالدراسة الكمية أيها أفضل. وفي الحقيقة لا يمكن التحقق في علم أصول التدريس بشكل واضح من ذلك تجريبياً.
- تعكس طرائق التدريس قوة سياسية وعولمة لغوية لبعض الدول تستهدف المستضعفين.

أمّا عن الأسباب المفضية لتبني عصر ما بعد الطرائق، فيمكن أن أسرد الأسباب الآتية:

- الطلبة ليسوا حجماً واحداً وبالتالي لا تناسبهم طريقة واحدة.
- اختلاف أساليب تعلم الدارسين التي تحتاج تنوعاً في منظومة التدريس.
- توفر فرصا غير متناهية للخروج من الصندوق في خلق إبداعات تعليمية تحقق مكتسبات لغوية عالية المستوى.
- تحلل المدرسين من القيود التي فرضتها الطرائق على المعلمين بحيث صاروا أسرى لها مما أفرزرت مدرسين تقليديين.
- إعادة هيكلة لوجهة نظرنا في تدريس اللغة وتدريب المعلمين.
- تثقيف المعلمين ليكونوا منظِّرين لممارستهم التدريسية ومدافعين عنها.
- تشجع على مفهوم استقلالية المعلم والمتعلم على حدٍ سواء.

الفرق بين عصر ما بعد الطرائق والطريقة الانتقائية

يقوم النهج الانتقائي على توفير مجموعة من البدائل والخيارات للمعلمين في عملية التعلم والتعليم، وبخاصةٍ أنه كلما ارتقى الإنسان في مستوى الكفاية زادت المعرفة التي يفترض أن يعرفها المرء. فهذه قد تسهل عملية الاختيار للمعلم لكنها غير ثابتة علمياً بأنها أكثر الأساليب فعّالية. ينص (AsStern, 1992) على أن ضعف الموقف الانتقائي يتمثل في أنه لا يقدم أي معايير يمكننا بموجبها تحديد أفضل نظرية ... وبالتالي، فهي واسعة جدًا وغامضة للغاية. وهو ما دفع المعلمون للشعور بأنهم أسرى لهذه الطرائق والأساليب التي رُبّما لا تكون مناسبة لتحقيق أغراض الدارسين وحاجاتهم، ومن ثَمَّ فهم يرغبون في الانعتاق منها سعياً نحو تطبيق استراتيجيات عصر ما بعد الطرائق الذي يسمح لهم بالابتكار، وليس بالاختيار مستفيدين من خبراتهم وتجاربهم في ماذا يستخدمون ومتى ولماذا؟ أي أن التدريس على وفق الطريقة الانتقائية يستند إلى أسس نظرية تبرها نظريات التدريس الكامنة خلف الطرائق كالسلوكية والمعرفية والثقافية الاجتماعية ونظريات كراشن وغيرها أمّا التدريس على وفق عصر ما بعد الطرائق فهو يستند إلى خلق بيئة داعمة لعملية اكتساب اللغة وتعلمها قد تجري على وفق ما يراه المعلم

مناسباً بناًء على خبراته السابقة وتجاربه الحالية وتصوراته لما ينبغي عليه أن يكون. أي أنه مدفوع بالوعي واللاوعي في آنٍ في تشكيل تصور نظري مشفوع بخطوات إجرائية في اتخاذ القرارات التدريسية المناسبة والفعالة. أي أنهم موجهين ذاتيًا في بناء نظريتهم الخاصة في خلق الإجراءات التدريسية المناسبة.

عصر ما بعد الطرائق: حاله وأركانه

عصر ما بعد الطرائق هو ردة فعلٍ على مصطلح الطرائق أنفسها، والتخلص من فكرة الطريقة المثلى أو الأنسب أو الأفضل في تدريس اللغة، إنها عدوة نحو إعادة هيكلة نظرتنا نحو تدريس اللغة الثانية أو الأجنبية، يقول (كومارافاديفيلو، ١٩٩٤) إن عصر ما بعد الطرائق هو عصر تثقيف المعلمين؛ ليكونوا منظرين لممارساتهم، وينبغي تأهيل المعلمين وإعدادهم عبر تطوير معارفهم ومهاراتهم واستقلاليتهم في التفكير. إنّ أهم ما يميز تعليم اللغات الأجنبية في عصر ما بعد الطرائق هو التحوّل من استعمال الطرائق ذات الحجم الواحد إلى الاعتراف بأن تعليم اللغات الأجنبية وتعلمها أمر معقد وغير مباشر أي الافتراض بأن طريقة واحدة يمكن أن تكون فعّالة مع كل المتعلمين أمر غير متوقع. و وترى (فريمان، ٢٠١١) أن فهم طرائق تدريس اللغات الأجنبية أمر لا يقدر بثمن حيث يسلح المعلمين بأدوات مختلفة يمكن تطبيقها في دروسهم عبر دمج المعرفة بمناهج وطرائق والتدريس بمفاهيم غير لغوية بطبيعتها ويؤدي إلى تعزيز تعليم اللغات الأجنبية عموماً.

وقد وضع (كومارافاديفيلو، ٢٠٠٦) ثلاثة مبادئ للتعليم في ضوء ما بعد الطرائق، هي: التخصصية والعملية والإمكانية.

التخصصية أو الخصوصية: يذكر (Rashidi and Khajavi، ٢٠١٤) أن الخصوصية هي العمود الفقري لعصر ما بعد الطرائق انطلاقاً من أهمية وأولوية السياق أو الحالة لفن التدريس بصفتها أمراً أساسياً. وهي تركز على المقتضيات المحلية والخبرات الحيّة، يقول (Kumaravadivelu، ٢٠٠٦) يجب أن نكون حساسين إتجاه مجموعة معينة من المعلمين الذين يقومون بتدريس مجموعة معينة من المتعلمين الذين يسعون إلى تحقيق مجموعة معينة من الأهداف في سياق مؤسسي معين في بيئة اجتماعية ثقافية معينة. أي أن السياق هو أساس التدريس على وفق عصر ما بعد الطرائق.

العملية: يشير هذا البعد إلى العلاقة بين النظرية والتطبيق. لقد كانت إحدى عيوب تدريس اللغة هي الفجوة بين نظريات اكتساب اللغة وطرائق تدريسها وأصحابها من جهة والنظريات الشخصية للمعلمين الممارسين لعمية التدريس من جهة أخرى. وفكرة العملية تقوم على الربط بين

هذين البعدين قدر الإمكان. وعلى سبيل المثال، تم اقتراح البحث العملي كواحدة من التقنيات التي يمكن أن تسهم في سد الفجوة بين هذين النقيضين. بالطبع ، هناك حاجة ماسة إلى البحث لمعرفة إلى أي مدى يمكن الربط بين البعدين.

الإمكانية: إنها تشير إلى مدى تأثير فهمنا لأنفسنا ومجتمعنا والعالم الذي نعيش فيه على اللغة التي نتحدث بها أو نتعلمها.

دور المعلم في عصر ما بعد الطرائق

للمعلم في كل طريقة تدريسية دور مخصوص يُتوقع منه، فما هو متوقع منه في طريقة النحو والترجمة يختلف تماماً عن أدواره في الطريقة السمعية الصفوية أو المذهب الاتصالي؛ لذلك يقوم المعلمون بأدوار مختلفة تباعاً للطريقة التدريسية وفلسفتها ورؤيتها.

يُنظر إلى دور المعلمين في عصر ما بعد الطرائق على أنه دور مركزي من جهة ومستقل من جهة أخرى بحيث أطلق (Kumaravadivelu, 2006) عليها قلب علم أصول التدريس في عصر ما بعد الطرائق، بحيث تحول من موجه للمعلومات إلى موجه نحو الاستفسار. إذ لا يُنظر إليهم كممارسين فحسب، بل أيضًا كمنظرين موجهين ذاتيًا يبنون نظريتهم الخاصة في الممارسة. ويمكن لمعلمي ما بعد الطرائق الفعالين تحليل إجراءات الفصل الدراسي لمعرفة ما ينجح وما لا ينفع حتى يتمكنوا من تقييم تعليماتهم بشكل فعال لإحداث التغييرات اللازمة لتحقيق الهدف المنشود. هدفهم التعليمي ليس فقط نقل مجموعة من المعارف المختارة مسبقًا، ولكن معتقداتهم ومعرفتهم تُعدُّ جزءًا لا يتجزأ من عملية التدريس الخاصة بهم. هذا النوع من العمليات هو بالتأكيد هو عملية انعكاسية وليس ميكانيكية.

وقد أشار (Kumaravadivelu, 2006) مجموعة من المبادئ يمكن أن توجه معلمي اللغة في عصر ما بعد الطريقة. أبرزها:

١. التلقائية

٢. التعلم الهادف

٣. توقع المكافأة

٤. الدافع الذاتي

٥. الاستثمار الاستراتيجي

٦. الأنا اللغوية

٧. الثقة بالنفس

٨. المخاطرة

٩. العلاقة بين اللغة والثقافة

١٠. اللغة البينية

١١. الكفاية الاتصالية.

ويذكر (Kumaravadivelu, 2006) أن هذه المبادئ ليست شاملة، وليس لها نفس الوزن في منهجه في تدريس اللغة. ويقول (Tasnimi) على أن معلم اللغة في عصر ما بعد الطرائق يجب أن يثق بمعرفته وقدرته على تطوير منهج تأملي، والتأمل هنا يعني أكثر من مجرد التفكير. بهدف دفعهم إلى النظر إلى الداخل، داخل أنفسهم، وداخل الدورات التي يقدمونها؛ للوصول إلى المعلومات والإلهام في جهودهم في فصل اللغة".

وعّد اللسانيون البحث الإجرائي (Action research) من سمات معلمي عصر ما بعد الطرائق وجزءاً من المنهج التأملي، ويعرف (Richards &Farrell, 2005) البحث الإجرائي بقولهما: اتخاذ إجراءات عملية لحل مشكلات الفصل الدراسي. التي يمكن أن تتمثل في تحديد المشكلة ووضع سيناريوهات لحلها واستراتيجيات تطبيقها ومراقبة تقييمها.

وقد أطلق (Kumaravadivelu, 2001) على معلم اللغة في عصر ما بعد الطرائق بالمعلم الباحث، وقد أوصى بهذه الخطوات لاستفساراتهم:

- استخدام أساليب التحقيق مثل الاستبيانات والاستطلاعات والمقابلات لتجميع ملفات تعريف المتعلم التي تتضمن معلومات في استراتيجيات وأنماط التعلم، والهويات الشخصية، والمواقف النفسية والقلق، والمخاوف والصراعات الاجتماعية.
- تحديد الأسئلة القابلة للبحث التي تنبثق من ملفات تعريف المتعلم وملاحظة الفصل الدراسي – والأسئلة التي تهم المتعلمين أو المعلمين أو كليهما التي تتراوح من إدارة الفصل إلى المؤشرات التربوية إلى المشكلات الاجتماعية.
- تجميع الأسئلة المحددة القابلة للبحث من حيث الموضوعات والأنماط، وتحديد الأسئلة التي يمكن استكشافها بشكل فردي وأيها بشكل جماعي مع المتعلمين أو الأقران أو كليهما.
- استكشاف أي من الموارد التي يجلبها المتعلمون معهم بشكل مربح لأغراض التعلم والتعليم والبحث، بما في ذلك المعرفة الاجتماعية والثقافية واللغوية للمتعلمين (على سبيل المثال، استكشاف عدد المرات وتحت أي ظروف يمكن استخدام اللغة الأولى المشتركة التي تم

تجاهلها كثيرًا التي تم إهمالها كثيرًا كوسيلة فعّالة للتعلم والتدريس على الرغم من أن الأساليب والمواد المطلوبة قد تحظر استخدامها.

- معرفة إلى أي مدى في تنفيذ أنشطتهم الاستقصائية، يمكنهم المشاركة في حوار إلكتروني قائم على الإنترنت مع أقرانهم المحليين والبعيدين والباحثين الذين قد يكون لديهم مخاوف مماثلة والحصول على تعليقات مفيدة في مشاكلهم ومشاريعهم.
- تطوير استراتيجيات تفسيرية لمراقبة وتحليل وتقييم أعمال التدريس الخاصة بهم من خلال استخدام إطار عمل مناسب للملاحظة في الفصل الدراسي يقوم على إدراك عدم التوافق المحتمل بين نية المعلم وتفسير المتعلم.
- تحديد الافتراضات الأساسية حول اللغة والتعلم والتدريس في صيغتها التربوية الأصلية، وما هي الافتراضات الحالية التي يجب تعديلها في ضوء نتائج البحث، وما التغييرات في الصياغات التربوية التي تبررها هذه التعديلات.

ويؤكد (Ghaemi and Salehi , 2014) بأنه صحيح أن عصر ما بعد الطرائق يحررنا من القيود التي تفرضها طرائق التدريس، ويكون المعلمون أحرارًا في اختيار الأسلوب وتطبيق خبراتهم الخاصة، ولكن هذا لا يعني أنهم أحرار تمامًا في اتخاذ القرار لأنهم بحاجة إلى وضع بعض المبادئ في الاعتبار من أجل إجراء درس فعال. وينقل (Ghaemi and Salehi , 2014) عن فريمان أن هناك ثلاثة مناهج رئيسة لتعليم التدريس يمكن ملاحظتها في تعليم اللغات الأجنبية تشمل: مفاهيم البحث العلمي، ومفاهيم النظرية والفلسفة، ومفاهيم الفن والحرفية. في حالة عصر ما بعد الطرائق، وسار المجال نحو اتجاه التحول في تعليم اللغات الأجنبية من مفاهيم البحث العلمي نحو مفاهيم الفن والحرفية في التعليم، إذ إن الالتزام بطريقة واحدة قد يؤدي إلى إعاقة إمكانات المعلم الكلية. ومن ثَمَّ فإن المبادئ الإستراتيجية الكلية للتدريس هو أساس عمل المعلمين، ويمكن للمعلمين تطبيق خبراتهم على هذه المبادئ للحصول على أفضل ناتج من التدريس.

دور المتعلم في طريقة عصر ما بعد الطرائق

يعزز مذهب التعليم على وفق عصر ما بعد الطرائق مفهوم المتعلم المستقل، ويحدد (Toofal and Barjasteh, 2018) الاستقلالية بنوعين؛ الاستقلالية الأكاديمية والاستقلالية الاجتماعية. ويقوم مبدأ الاستقلالية على منح المتعلم استعداد لتولي مسؤولية تعلمه ليصبح مستقلاً ذاتيًا، عبر منحه مجموعة من التقنيات المعرفية وما وراء المعرفية والعاطفية لقيادتها تحقيقاً لمفهوم التعلم الناجح. وهي طريقة توفر للمتعلم فرصة تحديد استراتيجيات وأساليب التعلم من خلال إدارة تدريس اللغة الخاص به. كما يمكنه تقييم نتائج التعلم المستمر. إنها طريقة توفر

للمتعلمين فرصًا لاستقبال لغة إضافية و إنتاجها. على عكس الاستقلالية الأكاديمية في حين أن الاستقلال الاجتماعي يرتبط بقدرة المتعلم واستعداده للعمل بفعالية كعضو تعاوني في مجتمع الفصل الدراسي حين يزود المعلم ملاحظات كافية في مجالات الصعوبة لحل المشكلة. وهذه توفر ميزة التواصل مع المتحدثين الأكفاء باللغة يمكنهم نمن خلالها التحقق من الفهم، وفهم كيفية تنظيم قواعد اللغة واستخدام اللغة اجتماعيًا. إنها فلسفة تساعد المتعلم على توفير فرص لاستكشاف إمكانات غير محدودة لاكتساب اللغة وتعلمها.

مبادئ تطبيق طريقة عصر ما بعد الطرائق

يظهر مما سبق أن تطبيق هذه الطريقة يتطلب وعيا كبيراً وأدوراً مختلفة من المعلم ومن ثَمَّ بأن نجاحها يتطلب مجموعة من المعايير، لعلّ من أبرزها وأهمها:

- إعادة النظر في منظومة التدريب والتأهيل للمعلمين وإكسابهم مجموعة واسعة من المهارات والمعارف والاستراتيجيات والطرائق نظرية وتطبيقاً.
- منح المعلمين ثقة كبيرة وحرية واسعة من أجل القيام بالخيارات المناسبة (وهذا يحتاج إلى انتقاء شديد واصطفاء كبير).
- بناء نماذج متعددة من المذهب التأملي القبلي وفي أثناء والبعدي.
- إعادة بناء أدوار المتعلمين في عملية المتعلم عبر استراتيجيات مختلفة.

تحديات عصر ما بعد الطرائق

بعد كثير من التغيرات في طرائق تدريس اللغات الأجنبية جاءت فكرة طريقة ما بعد عصر الطرائق وهي تطرح نفسها بديلاً للطرائق السابقة، وفي الحقيقة تعد شهرة هذا المصطلح في الأدبيات الإنجليزية أكثر بكثير من الأبجديات في اللغة العربية، حيث لم يجد الباحث من ذكر هذا المصطلح في الأدبيات العربية إلا لدى باحثين، الذكر الأول جاء لدى (الصاوي، ٢٠١١) في فقرة واحدة من مقالته التي ضمت عشرين مبدأً في مناهج تعليم اللغة وتعلمها، والثاني لدى (عبد الله، ٢٠١٨) في دراسته الموسومة بملامح المدخل بعد التواصلي في تعليم اللغات للناطقين بغيرها المنشور في مجلة الجامعة الإسلامية بمنيسوتا. وقد عالج بعضاً من أجزاء هذا الموضوع.

ويقف الباحثون موقفين مختلفين أمام هذا التيار، موقف ينتقد بشدة الطرائق السابقة التي لم تستطع أن تفرض وجودها وتحقق التوقعات المرجوة منها في تعليم اللغات الأجنبية، وآخر متحمس لها ويكأنها الإكسير السحري الذي سوف يجد المعلمون والدارسون ضالتهم فيها، وحقيقة الأمر أن الدراسات التي أجريت حولها ومدى نجاحها في تعليم اللغات الأجنبية لا تزال نادرة

وقليلة ولا تسعفنا في الجزم بأنها نجحت في التخفيف من المعضلات التي نواجهها في تعليم اللغات واكتسابها.

فمن التحديات التي يواجهها معلمو اللغات الأجنبية وفقاً لعصر ما بعد الطرائق هو دور المعلم في العملية التعليمية، فمن الواضح أن منظري هذه الطريقة يضعون المعلمين على رأس الهرم في العملية التعليمية لتحديد طريقة تدريسهم المناسبة وطرائقهم الخاصة، ومع ذلك ينبغي أخذ مجموعة من المتغيرات بالحسبان، قبل تمكنهم من ممارسة هذا الدور ومن ذلك، تزويدهم بمعارف متعددة الجوانب في مجال التعلّم والتعليم كالجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية واللغوية والإستراتيجية قبل منحهم فرصة الاستقلال الذاتي في اتخاذ أو اتباع طريقة معينة في تدريس اللغة، ونتيجة لضعف هذا الجانب لدى بعض المدرسين فقد نتوقع نتائج مغايرة للفكرة التي وضعت من أجل طريقة ما بعد الطرائق التي قد تعرض كفاءة المتعلم للخطر، لذلك طرح (أكبري، ٢٠٠٦) سؤاله الوجودي، الآن وبعد اختفاء طريقة التدريس، كيف سيقوم المعملون بتطوير الكفاية المطلوبة منهم للتعامل مع المسؤوليات التربوية التدريسية والاجتماعية الموكلة إليهم.

وإن المتابع لميدان تعليم اللغات الأجنبية يلاحظ أن تطبيق هذا الاتجاه على الرغم من بدايته المبكرة في تسعينيات القرن الماضي إلا أنه لا يزال يسير ببطء شديد، وقليلة هي الجامعات والمؤسسات الأكاديمية التي تبنت هذا الاتجاه وتدرس في ضوئه، ويمكن أن يعزى ذلك إلى بنية العقل العربي الثقافية والاجتماعية والتربوية والسياسية التي لا تميل إلى التغيير والمجازفة بتطبيق اتجاهات جديدة وأفكار مختلفة، فلا الخوف يسيطر على المعلمين من الخروج من الصندوق والتفكير من خارجه، ناهيك عن أن المعلمين لا يملكون خيارات كبيرة في بعض الأحيان في تطبيق النظريات والأفكار الجديدة، بسبب تثبيط قوى الشد العكس للتطور التربوي المنشود ناهيك عن غياب النية أو البنية التحتية لدى المؤسسات في تأهيل المعلمين لهذه المرحلة. من هنا يمكن القول بأنه ينبغي أن تمهد الطريق أمام المعلمين لتطبيق هذه الأفكار الحداثية في تعليم العربية من أن يكونوا في الموضع الذي يمكنهم من تطبيقها وحصاد نتائجها. ومن صعوبات تطبيق ما بعد الطرائق أن الأهداف والتوقعات من الطرائق التقليدية محددة ومعروفة مسبقاً، فيما تعد الأهداف والتوقعات غير محددة سلفاً في طريقة ما بعد الطرائق مما يشكل صعوبة في قياس درجة النجاح والفشل.

مفاهيم حيوية في تعليم العربية في عصر ما بعد الطرائق

يشيع في أدبيات تعليم اللغات الأجنبية أن تعليم اللغة الأجنبية أو الثانية في عصر ما بعد الطرائق يشبه الرحلة مع معرفة واضحة للوجهة النهائية (تعلّم اللغة) مع توقع مسار رحلة معقد،

فعلى الرغم من افتراض معرفة المعلمين بالطريق الذي يجب أن يسيرون فيه خاصة مع وجود نظام التموضع العالمي (GBS) أي المعرفة بالنظريات والطرائق، سيواجهون بعض المطبات والمسارات وإشارات الطرائق المختلفة التي توفر اختيارات متعددة عليهم الاختيار من بينها لبلوغ الوجهة. ويكون المعلم أمام خيارين إما أن يعود أدراجه سالماً إذا يخشى من الضياع، أو يغامر ويتخذ قراراً باختيار الطريق الأنسب لبلوغ الوجهة. ولا شك أن معرفة المعلم لسبب تعلّم المتعلم للغة يساعده في اختيار هذا المسار ناهيك عن كيف يستطيع أن يرشده أو يوصله إلى تلك الوجهة.

المتغيرات المعرفية والفعّالة

أكد (دوجلاس براون، ٢٠١٤) على ضرورة إيلاء المتغيرات المعرفية وفوق المعرفية اهتماماً كبيراً لدى المتعلمين في رحلة اكتساب أو تعلم اللغة الثانية، بشكل يتجاوز الطريقة والأسلوب الذي يتم فيه تدريس اللغة، إذ يبنغي تطبيق الإستراتيجيات المعرفية وفوق المعرفية في التدريس بجعل المتعلمين يعبرون عن تجربتهم في عملية تعلّم اللغة، كيف يتعلمون بشكل مثالي يناسب قدراتهم وعقولهم؟ فلدى كل متعلم طريقته في تعلم المفردات الجديدة كما هو حال سائر المهارات الأخرى؟ فمن الجميل أن نعرف كيف يتعلم أو يحفظ كل متعلم الكلمات الجديدة أو التراكيب الجديدة ليصار بعد ذلك إلى إدماجها في عملية التعليم والتعلّم. وبهذه الطريقة نقلل من دخول المتعلمين في ظروف قد تكون صعبة وتشعرهم باليأس والإحباط. فقد يشعر أحد المتعلمين بخجل كبير من إجراء تقديم شفوي أمام زملائه وعليه من الضروري العمل على زرع الثقة بطرق تدريجية كأن تكون في تقديم فردي بينه وبين المعلم، تسجيل لزميله، وآخر للمعلم وهكذا دواليك.

إضاءات عملية في تدريس مهارات اللغة وعناصرها في ضوء طريقة عصر ما بعد الطرائق

اقترح (Sukarno, w/d) مجموعة من المبادئ المهمة قبل الشروع في تدريس مهارات اللغة وعناصرها، وهي:

- التعرف على الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية واللغوية والثقافية للطلاب.
- تحديد خصائص الطلاب.
- اعتماد أو تكييف أو اختيار أو تطوير أو إنشاء مواد مناسبة لتدريس اللغة العربية.
- تطبيق طرق معينة في تقديم مواد عربية معينة بناءً على خلفيات الطلاب وخصائصهم.
- التأمل في ما يفعله المعلمون لتخطيط وتنفيذ التدريس المستقبلي.
- ثم يكون الشروع في تنفيذ التدريس على وفق الرؤى النظرية والعملية السابقة لعصر ما بعد الطرائق.

توجهات مستقبلية في عصر ما بعد الطرائق

- لعلّه من الأنسب ألا نعد كل قديم في ظل تقديم الأفكار الجديدة كله شر والتخلي عنه مرة واحدة، خاصة أن البنية التحتية للأفكار الجديدة ومنها ما بعد الطرائق لم يشتد عودها بعد ولم تتشكل أركانها بشكل قوي بعد، إذ ينبغي أن يكون الانتقال والتحول تدريجياً، وعليه، ينبغي التحضير والإعداد للأرضية التي ستقف عليها ما بعد الطرائق في عملية التعلم والتعليم لأن أي محاولة في تجديد عملية التعلم والتعليم قد يحفها الخطر والمعضلات وبالتالي خلل كبير في المخرجات، وأضعف الإيمان في حالى ما بعد الطرائق أن يتم تحديد دور المعلم بشكل واضح وجلي من بداية الطريق إلى منتهاه، ويبقى السؤال المحوري والجوهري في هذا السياق: كيف سيطور المعلمون الكفاية المطلوبة منهم في التعامل مع المسؤوليات التربوية والاجتماعية الموكلة إليهم في ظل عصر ما بعد الطرائق؟!
- قد يكون من الحكمة النظر إلى ما بعد الطرائق بوصفه اتجاهاً حديثاً وجديداً في تدريس اللغات الأجنبية ينبغي اختباره وتجربته وألا نأخذ مواقف متطرفة تجاهه من حيث القبول والرفض (Khajavi and Rashidi)، وعليه يمكن النظر إلى ما بعد الطرائق بوصفه خروجاً عن المألوف والمتوقع، والطريق الحتمي، والأفكار الثابتة في تعليم العربية للناطقين بغيرها، لكي نكون أكثر مرونة وطواعية في ضوء المتغيرات التي تحيط بعملية التعلم والتعليم، هذه الطريقة الجديدة من المقاربة تساهم في إحداث التغيير المنشود وتحقيق الابتكارات في عملية التعلم والتعليم.
- لا توجد صورة واضحة حتى اللحظة حول نتائج وفعالية ما بعد الطرائق، لكن الإرهاصات التي ظهرت هنا وهناك قد تبشر بوجود اتجاه جديد في تعليم اللغات الأجنبية يبنغي تشجيعه وبناء البنية التحية التي يحتاجها خاصة فيما يتعلّق بأهيل المعلم وتدريبه لكي بواكب أفكار الحداثة والعولمة وما بعدهما في تدريس العربية للناطقين بغيرها كونها جسر حضاري نحو الآخر.
- ينبغي تشجيع الدراسات النظرية والتطبيقات العملية لاتجاه ما بعد الطرائق، لكي تنير لنا الطريق في مضمار تعليم العربية للناطقين بغيرها استجابة للأصوات العالية التي تطالب بمزيد من المعلومات في هذا المصطلح.

المصادر:

- أبو عمشة، خالد (٢٠١٥). مصطلحات الاستراتيجية – المدخل – الطريقة – الأسلوب والتخطيط التربوي: مفهومه ومتطلباته وعناصره وأشكاله ومستوياته ونماذج مقترحة لتدريسه: https://www.alukah.net/social/0/81066/
- فريمان، دايان لارسن (١٩٩٧). أساليب ومبادئ في تدريس اللغة، ترجمة: عائشة السعيد، منشورات جامعة الملك سعود،
- ريتشارد، جاك، وروجرز، ثيودور (١٩٩٠). مذاهب وطرائق في تعليم اللغات، ترجمة: محمود إسماعيل صيني، منشورات دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية.

المراجع الأجنبية:

- Akbari, R. (2008). Post-method discourse and practice. TESOL Quarterly, 42(4), 641-652.
- Antony, M (1963). Approch, method and technique, English language teaching.
- Broun, Douglas (2020). English language teaching in the post-method Era: towards Better Diagnosis, Treatment, and Assessment in J. C Richards and Renanyda: Methodology in Language teaching, New York, Cambridge.
- Galante, Angelica (2014). English Language Teaching in the post method era. TESL Ontario | CONTACT Magazine | AUGUST.
- Ghaemi, Farid & Salehi, Naser (2014). The Study of Post-Method Application in English Language Teaching to Children, Vol. 2, No. 2; June 2014, pp. 23- 29.
- Howatt, A. P. R & Widdoson, H. G. (2004). A History of English Language Teaching. Oxford: Oxford University Press. Second Edition.
- KUMARAVADIVELU, B (2003). Beyond Methods: Macrostrategies for Language Teaching, Yale University Press New Haven and London.
- Kumaravadivelu, B. (1994). "The post-method condition: Emerging strategies for second/foreign language teaching". TESOL Quarterly, 28, 27-48.
- Kumaravadivelu, B. (1994). "The postmethod condition: Emerging strategies for second/foreign language teaching". In: TESOL Quarterly 28, 27–47.
- Kumaravadivelu, B. (2006). "TESOL methods: Changing tracks, challenging trends", TESOL Quarterly 40(1), 59-81.
- Prabhu, N. S. (1990). There is no best method-why. TESOL Quarterly, 24 (2), 161-176.
- Rashidi, Naser and Khajavi, Yaser,(2014). The Post Method Era: Opportunities and Challenges. Issue 3; June.
- Richards, J. C., & Rodgers, T. 2001. Approaches and Methods in Language Teaching (2nd Ed.). New York: Cambridge University Press.
- Richards, J.C., Renandya, W.A. 2002. Methodology in Language Teaching: An Anthology of Current Practice. Cambridge: CUP.
- Richards, Jack & Rodgers, Theodores (2001). Approaches and Methods in Language Teaching. Second Edition, Cambridge University Press.
- Sukarno (W/D). Applying Post-Method in Teaching English to Young Learners, T E Y L I N 2 : f r o m P o l i c y t o C l a s s r o o m.
- Tasnimi, Mahshad (2014). The Role of Teacher in the Postmethod Era, Express, an International Journal of Multi Disciplinary Research, Vol. 1, Issue 3.
- Toofal, Zohreh and Barjasteh, Hamed (2018). Post method Era in Education, Research Highlights in Education and Science, ISRES Publishing.

الترتيب النُّزوليّ القُرآنيّ
مقاربات تحليليَّة في المعايير والقوائم والأهداف

الأستاذ المساعد الدكتور
مُحمَّد جعفر العارضي
جامعة القادسيَّة/كلية التربية/قسم اللغة العربية

الملخَّص:

في نسق هذه الدراسة مجموعة من المطالب التحليليَّة التي بدا أنَّها بواعث مركزيَّة مؤثِّرة تأثيرًا كبيرًا في إنتاج فهم شامل للخطاب القرآنيّ؛ ذلك بأنَّني كرَّست العمل على جعل هذه البواعث مسارًا منهجيًّا لازمًا لقراءة الخطاب القرآنيّ على نحو من النظر الكلِّيّ، وهذه هي العلامة على منهجيَّة هذه المطالب وصوغها صوغًا أدواتيًّا فاعلًا في طريق قراءة الخطاب القرآنيّ في ضوء المفاهيم والمعايير والأهداف والإجراء الذي تجلَّى في مجموعة من القوائم النزوليَّة التي أنتجها غير واحد من الصحابة، فضلًا عن القوائم التي أنتجها الدارسون المحدثون من الإسلاميين والمستشرقين.

أظهرت إعادة القراءة في هذا السياق ضرورة تأكيد التأسيس لفهم جديد يغادر ما استقرَّت عليه المدوَّنة التفسيريَّة من مظاهر الترتيب المصحفيّ لسور الخطاب القرآنيّ وآيه، والعدول عنه إلى الترتيب النزوليّ المستغرق في المظاهر المضمونيَّة التكوينيَّة؛ ذلك بأنَّها تعود على العمليَّة التفسيريَّة بفوائد جمَّة على المستوى المنهجيّ والمستوى المضمونيّ، ولا سيَّما آثارها في رصد القرآنيَّة المواكبة للحدث المجتمعيّ، والقرآنيَّة المواكبة لبناء الذات الإنسانيَّة وتسجيل محطَّات تدرُّجها الكماليّ والتنمويّ، فضلًا عن أثرها في تقديم الذات النبويَّة والتعريف بها تعريفًا قرآنيًّا يلحظ مسارات الدعوة وتحدِّياتها، وما كان عليه النبيّ الأكرم مُحمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من استعداد كماليّ يجعله وحده القادر على التلقِّي أحسن والتبليغ أحسن التبليغ.

وكانت الفكرة المركزيَّة التي تنطلق منها الأفكار الجزئيَّة في هذه الدراسة، وتقوم عليها الفرضيَّات الممهِّدة للنتائج المتوخَّاة تتمثَّل في حواريَّة فكريَّة منهجيَّة بين ثنائيَّة الترتيب المصحفيّ والترتيب النزوليّ لسور الخطاب القرآنيّ، وما آلت إليه الحال من تغليب – خارج هذه الدراسة – للترتيب المصحفيّ بملامحه المستغرقة في الشكليَّة على الترتيب النزوليّ ذي الملامح المضمونيَّة التكوينيَّة الكبرى التي تقود إلى التفكير التفسيريّ الذي يشتغل على تلمُّس الخطوات الفاعلة في إعادة النظر في الأدوات المنهجيَّة التي يحتكم إليها المفسِّر لغرض إنتاج فهم للخطاب القرآنيّ؛ في ظلِّ استلهام قيم المشروع القرآنيّ المجتمعيَّة والفكريَّة والدينيَّة. ولعلَّ

ذلك يكون منوطًا بإجراء ترتيب النُّزول ومتطلَّبات مبدأ السُّلَّم النزوليّ للخطاب القرآنيّ، وتوظيفها منهجيًّا بغية إنتاج مقولات تفسيريَّة كلِّيَّة تؤسِّس لأدوات جديدة مؤثِّرة في الفهم القرآنيّ. وكانت في سياق هذه القراءة المنهجيَّة وقفات متتبِّعة قرأت مقولات التراثيين والحداثيين؛ بغية أن يكون أمام الدارسين خيارات تنظِّم الركون إلى لائحة نزوليَّة توافقيَّة تظهر أثناء العمل التطبيقيّ.

المقدِّمــة:

تتعاطى هذه المقاربة مع ترتيب السور القرآنيَّة المباركة في ضوء ثنائيَّة الترتيب المصحفيّ والترتيب النزوليّ تعاطيًا نوعيًّا مختلفًا يكسبها أثرًا بالغًا في فهم المشروع القرآنيّ المجتمعيّ والفكريّ، فضلًا عن المشروع الدينيّ. وبدا أنَّه لا يليق في هذا السياق الاكتفاء بالوصف للقضايا التي يكتنفها الترتيبان، بل ينبغي التطلُّع إلى قراءة تحليليَّة ناقدة ذات سبر عموديّ لآفاق هذين الترتيبين. مع لحاظ ضرورة التوسُّع في قضاياهما؛ وصولًا إلى الأهداف والضرورات مرورًا بالمعايير. وما يترتَّب على ذلك من متطلَّبات إنتاج فهم نوعيّ للقرآن العظيم في ضوء ترتيب النزول ومظاهر السُّلَّم النزوليّ.

وهذا ما دعا إلى ضرورة إعادة القراءة في ضوء النظر التحليليّ لمجموعة من المطالب المهمَّة التي تلامس منهج التفسير القرآنيّ، وإن كانت ذات انتماء إلى المطالب القرآنيَّة العامَّة، غير أنَّني أقف عليها لدمجها في المهمَّة التفسيريَّة، من خلال ما تؤسِّس له من آليَّات داخلة في التمهيد لفهم الخطاب القرآنيّ، والمساعدة على إنتاج فهم ذي أهداف تنمويَّة كبرى.

تأتي هنا نظرات منهجيَّة في القوائم النُّزوليَّة ذات البواعث المختلفة؛ بغية أن تظهر آثارها في رصد الفهم القرآنيّ على نحو تكوينيّ كلِّيّ؛ فتتحقَّق القراءة المنهجيَّة التي تتطلَّع إلى التأسيس النوعيّ ذي الأهداف القرآنيَّة الكلِّيَّة التي تعمل على استلهام قيم المشروع القرآنيّ المجتمعيَّة والفكريَّة والدينيَّة. وتظهر في هذا السياق قراءة تحليليَّة ناقدة منهجيًّا تقود لإنتاج مقولات تفسيريَّة كلِّيَّة تؤسِّس لأدوات جديدة مؤثِّرة في الفهم القرآنيّ المحقِّق لأهداف تنمويَّة كبرى في نسق التطبيق التحليليّ لواحدة من هذه القوائم النُّزوليَّة.

وكانت المحاور التفصيليَّة في هذه المقاربة المنهجيَّة الفكريَّة تتمثَّل في: بيان معايير الترتيب المصحفيّ ونقدها، وبيان معايير الترتيب النزوليّ، وتحديد معالم الترتيب النُّزوليّ وقوائمه المشهورة في ضوء مقولات العلماء من التراثيين والمحدثين من الإسلاميين والمستشرقين؛ انتهاءً إلى الدعوة الواعية إلى تغليب هذا الترتيب لما له من آثار فكريَّة كبرى في إنتاج الفهم القرآنيّ الكلِّيّ على أسس نزوليَّة تبقي النسق القرآنيّ كلًّا متَّصلًا يؤثِّر بعضه في بعض؛ فيكون مهيمنًا

تفسيريًّا تظهر معارفه مترابطة آخذة من منهج النظر التفسيريّ الموضوعيّ من جهة، ومكرِّسة لأهمِّيَّة هذا النظر وحيويَّته وضرورته التنظيميَّة والدلاليَّة.

معنى هذا أنَّ المطالب التي أجريت عليها هذا الفحص المنهجيّ الكلِّي المؤسِّس لوعي المشروع القرآنيّ الإنسانيّ أو التكوينيّ تتمثَّل في محور نظريّ عام يتكلَّم على الترتيب القرآنيّ بلحاظيه المصحفيّ والنزوليّ، ويدفع نحو تكريس الترتيب النزوليّ بوصفه أداة تحليليَّة ومنهجًا للفهم جديدًا. لقد كان هذا المحور يشتغل على استعراض مظاهر الترتيبين المصحفيّ والنزوليّ لسور الخطاب القرآنيّ ومعاييرهما الشكليَّة والمضمونيَّة؛ بغية الانتهاء إلى إخراج ذلك إخراجًا جديدًا يدلُّ على فقدان التفسير لشيء كثير مع الترتيب المصحفيّ، على خلاف الترتيب النزوليّ الذي تحقَّق مزاولته كثيرًا للتفسير.

وفي سبيل إحكام الموضوع وتكثيفه جاءت مجموعة مطالب: مطلب "في ترتيب السور القرآنيَّة"؛ ومطلب "في معايير الترتيب المصحفيّ"؛ ومطلب "في معايير الترتيب النُّزوليّ وصوره"، وقفت فيه على: الترتيب النُّزوليّ التفصيليّ الروائيّ؛ الترتيب النُّزوليّ التحليليّ الاستشراقيّ؛ الترتيب النُّزوليّ الرياضيّ الأسمائيّ؛ الترتيب النُّزوليّ التفسيريّ وفوائده.

الأوَّل- في ترتيب السور القرآنيَّة:

يظلُّ ترتيب السور القرآنيَّة المباركة مظنَّة لاختلاف العلماء، إذ تختلف مقولاتهم في هذا المضمار بين مقولة الترتيب الإلهيّ التوقيفيّ والترتيب الاجتهاديّ، أو الترتيب التوقيفيّ الجزئيّ والترتيب الاجتهاديّ الجزئيّ[1] أيضًا. ولكلِّ مقولة من هذه المقولات أدلَّتها التي تنهض بها وتقف خلفها؛ إذ يجد القائلون بالترتيب التوقيفيّ أدلَّتهم في ارتباط هذا الترتيب بالعرضة الأخيرة التي عرضها جبرائيل عليه السلام على النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من جهة، وفي الموالاة في ترتيب الحواميم، والفصل بين المسبِّحات والطواسين. مع عدم رعاية التناسب في الطول والقصر بين السور من جهة ثانية[2]. أمَّا القائلون بالترتيب الاجتهاديّ فيجدون أدلَّتهم في ظهور غلبة اعتماد ضابط الطول والقصر في ترتيب السور القرآنيَّة؛ إذ يظهر أنَّ تدرُّجًا ترتيبيًّا هبوطيًّا في الطول، وهو منسجم مع بعض عادات الساميين [3]، واختلاف ترتيب مصاحف الصحابة

---

[1] ينظر . مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ط ١٠، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧، ص ٧٠ – ٧٣ .

[2] ينظر. ترتيب سور القرآن الكريم – دراسة تحليليَّة لأقوال العلماء، الدكتور طه عابدين طه، مجلَّة البحوث والدراسات القرآنيَّة، العدد التاسع، المملكة العربيَّة السعوديَّة، ص ٣٧ – ٣٨ .

[3] ينظر. القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، بلاشير، ترجمة: رضا سعادة، ط ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤، ص ٣٧، في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم

وبعض الروايات التي تشير إلى عدم التزام ترتيب بعينه. ويجد القائلون بالترتيب المزدوج أدلَّتهم في غير رواية تشير إلى أنَّ النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد قام بترتيب مجموعة من السور القرآنيَّة المباركة وترك أمر ترتيب غيرها إلى الأمَّة (٤).

وقيل إنَّ مقولة التوقيف الترتيبيّ كانت بسبب من التخُّوف من اتساع الاختلاف بين المصاحف، إذ وجدت المؤسَّسة الدينيَّة التي أنتجت المصحف الموحَّد في مقولة التوقيف ما يمثِّل إقناعًا بوجوب توحيد المصاحف ونظام سوره وترتيبها الترتيب المصحفيّ المعروف. ومن جهة أخرى تخلق مقولة التوقيف حالة من التقبُّل للعمل التوحيديّ وتعزيز هذا التقبُّل بربطه بالإعجاز والتناسق وتقديم هذا الترتيب على أساس من أنَّه الترتيب المطابق للمكتوب في اللوح المحفوظ (٥). والغريب أنَّ هذه النظرة قد سرت إلى الدارسين الناظرين في آثار الترتيب النزوليّ وفوائده (٦). وهذا قد يكون مؤشِّرًا إلى حالة التناقض، أوعدم التبنِّي الصميميّ لهذا الترتيب ووعي آثاره التنمويَّة. وقد يكون العذر في مثل هذه المواقف المتناقضة أنَّ الترتيب المصحفيّ ترتيب مهيمن على العقل الإسلامي وأرواح المسلمين ومشاعرهم.

الثاني – في معايير الترتيب المصحفيّ:

قد قيل إنَّ الترتيب المصحفيّ يعتمد الترابط الموضوعيّ وأسرار الإعجاز والمناسبات البلاغيَّة وروابطها المتناسقة تناسقًا عجيبًا ذا سلاسة أخَّاذة (٧). ويمكن أن يعود الترتيب المصحفيّ إلى الرغبة في صدارة السور المدنيَّة الطويلة ذات الطابع القانونيّ، وبما يتماشى مع حاجة الدولة الإسلاميَّة لها لتسيير شؤونها (٨) التنظيميَّة والإداريَّة.

وفي معرض مناقشة المسائل التي اعتمدت في الترتيب المصحفيّ يظهر أنَّنا أمام مجموعة

أنموذجًا، فتيحة ذيب، أطروحة دكتوراه، كلِّيَّة الآداب واللغات، جامعة محمَّد لمين دباغين، الجزائر ٢٠١٨، ص ١٩٣ – ١٩٤ .

(٤) ينظر. الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، الدكتور سامي عطا حسن، جامعة آل البيت، الأردن ٢٠١٢، ص ٩ – ١٣ .

(٥) ينظر. في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه)، ص ١٩٦.

(٦) أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للأمَّة الإسلاميَّة، علي عبد العزيز عدلاوي، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، كلِّيَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٨٥ – ٨٩ .

(٧) ينظر. الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، ص ٨، ١٤ – ١٥ .

(٨) ينظر. القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، الدكتور سامي عوض الذيب أبو ساحلية، ط ٣، مركز القانون العربي والإسلامي، سويسرا، ص٢٢ .

معايير، وهـذه المعايير هي معايير تبدو – عندي – موغلة في الشكليَّة. وإيغالها الشكليّ يمثِّل بحدِّ ذاتـه مشكلة كبـرى؛ ذلك بأنَّها لا تخدم بشيء العمل التفسيريّ الكاشف عن المضـامين القرآنيَّة. معنى هذا أنَّ الترتيب المصحفيّ ذا المعايير الشكليَّة لا يقدِّم للعمليَّة التفسيريَّة ما يدفعها إلى الأمام نحو المضامين والمغازي، فلا يأتي منسجمًا بطبيعة الحال مع الأجواء القرآنيَّة التي هي أجواء مضمونيَّة.

ما يمكن أن ينظر إلى تقريره على نحو من اليقين كبير أنَّ الترتيب المصحفيّ لسور الخطاب القرآنيّ هو ترتيب تعارفت عليه الأمَّة في وقت من الأوقات [٩]، واتَّخذ هذا الترتيب طابعًا رسميًّا جمعيًّا. ومعايير الترتيب المصحفيّ هي: [١٠]

١ – معيار الطول والقصر:

ما يلاحظ من النظر في الترتيب المصحفيّ للسور القرآنيَّة أنَّه اعتمد – نوعًا ما – معيار التدرُّج من السور الطوال إلى السور القصار. بمعنى أنَّ هذا الترتيب بلحاظ حجوم السور القرآنيَّة المباركة يظهر أنَّه المنحى المهيمن، ما يضمن بطبيعة الحال وجود استثناءات ما.

وفي هذا السياق يلاحظ الدكتور مُحمَّد عابد الجابريّ أنَّ سورة الفاتحة المباركة قد خرجت على هذا الترتيب الكمِّيّ الطوليّ؛ ذلك بأنَّ حالة مخصوصة قد دعت إلى أن تكون هذه السورة المباركة مطلعًا للخطاب القرآنيّ المصحفيّ لاعتبارات ذات صبغة مضمونيَّة مقاميَّة. مع لحاظ عدم اقتصار استثناءات الترتيب الكمِّيّ المصحفيّ على سورة الفاتحة المباركة؛ إذ إنَّ هنالك سورًا قد أخذت مكانًا في الجسد المصحفيّ مع عدم انسجامها الكمِّي في ضوء ما قبلها وما بعدها. معنى هذا أنَّ الدكتور الجابريّ يعي وعلى نحو دقيق أنَّ استثناءات ترتيبيَّة خرقت معيار الطول والقصر. على أنَّه يذكر جملة من مصاديق التصنيفات للسور القرآنيَّة في ضوء الطول والقصر:

أ – السور الطوال: البقرة، آل عِمْرَان، النِّسَاء، المَائِدة، الأعْرَاف، الأنْعَام، الأنْفَال، التَّوبَة.

ب – السور المئين: وهذه تلي السور الطوال طولًا. ولها من الآيات ما يربو المئة: يُونِس، هود، يُوسِف، النَّحل، الإسْرَاء، الكَهْف، طَه، الأنبِيَاء، المُؤمِنون، الشُّعراء، السَّجدة.

ج – السور المثاني: النَّمل، القَصَص، العَنْكَبُوت، الرُّوم، لُقمَان، الأحزَاب، سَبَأ، فَاطِر، يس، الصَّافَّات، ص، الزُّمَر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحقَاف، مُحمَّد، الفَتْح، الحُجُرات. ومعنى المثاني أنَّها قد تكرَّرت القصص فيها.

---

[٩] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، الدكتور مُحمَّد عابد الجابريّ، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦، ص٢٣٣ .

[١٠] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص٢٣٣ – ٢٣٩ .

د- السور المفصَّلة: ق، الذَّاريات، الطُّور، النَّجْم، القَمَر، الرَّحمن، الواقِعَة، الحديد، المُجَادَلَة، الحَشْر، المُمتَحَنَة، الصَّف، الجُمُعة، المُنافِقون، التَّغابن، الطَّلاق، التَّحريم، المُلك، القَلَم، الحَاقَّة، المَعَارِج، نُوح، الجِن، المُزَّمِّل، المُدَّثِّر، القِيَامَة، الإنسان، المُرسَلَات، النَّبأ، النَّازعات، عَبَسَ، التَّكوير، الانفِطَار، المُطفِّفِين، الانشقاق، البُروج، الطَّارق، الأعلى، الغَاشِيَة، الفَجْر، البَلَد، الشَّمس، اللَّيل، الضُّحى، الشَّرح، التِّين، العَلَق، القَدْر، البيِّنة، الزَلْزَلَة، العَادِيَات، القَارِعَة، التَّكاثر، العَصْر، الهُمَزَة، الفيل، قُريش، المَاعُون، الكوثر، الكَافِرون، النَّصْر، المَسَد، الإخلاص، الفَلَق، النَّاس. وسمِّيت بهذا الاسم لقصرها، وللفصل بينها بالبسملة.

ولا يخفى أنَّ هذا المعيار قد وجد فيه المستشرقون ما يدعو إلى إعادة النظر في الترتيب المصحفيّ والتفكير في ترتيب آخر. وقريب من هذا ما يراه المستشرقون من أنَّ تقسيم القرآن العظيم على أجزاء متساوية إنَّما جاء لبواعث عمليَّة أقلُّها تسهيل تلاوته في المناسبات الدينيَّة[١١]، ولا سيَّما تقسيمه على ثلاثين جزءًا تتلاءم مع عدد أيَّام شهر رمضان [١٢] المبارك. فضلًا عن أنَّ منهم من يرى أنَّه ((يجب علينا ألَّا نأخذ المصحف كلًّا غير مجزًّأ تساق قراءته من البداية إلى النهاية بلا وقفات وتحديد معالم. إنَّ كلَّ اتصال بالمصحف يتطلَّب احتياطًا. وعلينا في المقدِّمة أن نكرِّر القول بأنَّ المصحف في حالته القانونيَّة الحاضرة لا يسمح بمتابعة رسالة محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في توسُّعها))[١٣].

٢- معيار المكِّيّ والمدنيّ:

وهو معيار اختلفوا في ضابطه بين المكان والزمان في توزيع السور القرآنيَّة المباركة[١٤]. غير أنَّ الأظهر فيه النظر إلى ما نزل قبل الهجرة فهو مكِّي وإن نزل بغير مكَّة. أمَّا ما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ وإن نزل بغير المدينة [١٥]. معنى هذا أنَّه معيار يراعي الترتيب الزمانيّ في حقيقة الأمر غير أنَّ الاسم الجامع فيه اسم مكانيّ.

وممَّا يتَّصل بهذه المسألة وعدم دقَّة التراثيين في نتائجهم التي انتبهوا إليها في تقسيم السور القرآنيَّة المباركة على المكِّيّ والمدنيّ أنَّهم اهتمُّوا بهذا التقسيم لأغراض فقهيَّة تتمثَّل في ضرورة

---

[١١] ينظر . القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص٣٨ .

[١٢] ينظر . الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، ص١٥ .

[١٣] القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص٤٢ .

[١٤] ينظر. في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه)، ص ١٨١.

[١٥] ينظر. تاريخ القرآن، الدكتور مُحمَّد حسين علي الصغير، ط ١، دار المؤرِّخ العربي، لبنان ١٩٩٩، ص٤٧.

التفريق بين الناسخ والمنسوخ والعامِّ والمقيَّد. معنى هذا أنَّهم كانوا ينطلقون من منطلقات دلاليَّة ذات ارتباط باستنباط الأحكام. وهذا ما قاد إلى الوقوع في مجموعة من الاضطرابات المفهوميَّة الخاصَّة بالحدود الفاصلة بين المكِّيّ والمدنيّ بناءً ومضمونًا[١٦]. ومن الدارسين المحدثين من يذهب متأثِّرًا بآراء المستشرقين إلى أنَّ نتائج المسلمين التقسيميَّة للسور القرآنيَّة مكِّيَّة ومدنيَّة تدخل في باب الظنِّ والتخمين؛ ذلك بأنَّها لا تعدو الوقائع الخارجيَّة والعلامات الاستعراضيَّة[١٧].

ومهما يكن من شيء فإنَّ النظر في آي الخطاب القرآنيّ وسوره المباركة في ضوء المكِّيّ والمدنيّ يعتمد مجموعة من اللحاظات؛ فهو((ترتيب زمانيّ، وتحديد مكانيّ، وتبويب موضوعيّ، وتعيين شخصيّ))[١٨]. فمن لحظ المكان فقط أسقط الزمان وعدَّ ما نزل بمكَّة مكِّيًّا وإن نزل بعد الهجرة. وما نزل بالمدينة فهو مدنيّ. أمَّا من لحظ الخطاب فعدَّ ما خوطب به أهل مكَّة مكِّيًّا وإن نزل في غيرها. أمَّا من اعتمد الموضوع فيرى النازل بالمدينة مكِّيًّا إذا ما كان موضوعه يدخل في نسق الدعوة. ومع ذلك فإنَّ مسألة الترتيب الزمنيّ هي الراجحة هنا؛ ذلك بأنَّ تعيين الأشخاص والوقوف على خاصَّة الموضوعات واقعان في أجواء الترتيب الزمنيّ[١٩] هنا أيضًا.

وممَّا يعزِّز الزمنيَّة في المكِّيّ والمدنيّ ما وقف عليه الدكتور صبحي الصالح من تطبيقات مهمَّة أظهرت نظره القرآنيّ النزوليّ على أساس من إنتاج مقولات تحليليَّة حيويَّة تنطلق من قراءته للسور القرآنيَّة في ضوء توزيعها المرحليّ التفصيليّ؛ فيعمد إلى السور القرآنيَّة المباركة فيقسِّمها في ضوء المكِّيّ والمدنيّ تقسيمًا مرحليًّا دقيقًا، إذ يجنح إلى تقسيم السور المكِّيَّة على ثلاث مراحل، هي سور المرحلة المكِّيَّة الأولى، وسور المرحلة المكِّيَّة الثانية، وسور المرحلة المكِّيَّة الثالثة. وكذلك يفعل مع السور المدنيَّة. ويأتي ذلك في سياق محاولة هادفة غرضها ((تقصِّي أطوار التنزيل لتعيين السابق منها والمسبوق، وإبراز الملامح الصريحة التي تعيننا على ترجيح الإطار الزمنيّ المتنزِّلة فيه طائفة من السور والآيات))[٢٠]. والملاحظ أنَّ الدكتور الصالح لم يتقصَّ السور القرآنيَّة المباركة كلَّها في المراحل التي انتهى إليها[٢١]. غير أنَّه أراد الدلالة على أنَّ هذا التوزيع يضعنا غير بعيد عن أنَّ السور القرآنيَّة ومراحلها قد حقَّقت ما يشبه ((منظومة

---

[١٦] ينظر. مفهوم النص – دراسة ففي العربي، علوم القرآن، الدكتور نصر حامد أبوزيد، ط ٦، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٥، ص٧٦ .

[١٧] ينظر. في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه)، ص١٨٣ .

[١٨] مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص١٦٧ .

[١٩] ينظر. مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٦٧ – ١٦٩ .

[٢٠] مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ٢٣٠ .

[٢١] ينظر. مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٨٥ – ٢٣٣ .

علويَّة تملأ القلوب والآذان))[٢٢] بتماسكها النسقيّ ووحدتها الموضوعيَّة غير المتغافلة عن التمهيد لبعضها[٢٣].

ولا ينبغي أن يأخذنا تقسيم السور القرآنيَّة المباركة على سور مكِّيَّة وأخر مدنيَّة إلى أنَّ الخطاب القرآنيّ ((مرتبط بشخصيَّة محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ومرحلتي حياته في مكَّة قبل الهجرة التي يمكن وصفها نوعًا ما بالمسالمة وذات طابع أخلاقيّ، وحياته بعد الهجرة في المدينة التي يمكن وصفها بالعنيفة وذات طابع تشريعيّ، ولذا لا بدَّ أن يعكس القرآن التحوّلات التي عاشها في المرحلتين))[٢٤]. ولا يمكن قبول مقولات تأتي في سياق هذا التقسيم أيضًا تقطع بأنَّ ((القرآن تطوّر من نصٍّ أخلاقيّ إلى نصٍّ حربيّ عنيف، يسنُّ على التمييز ضدِّ المرأة وغير المسلمين. وهذا التطوّر غير واضح البتَّة في الطبعة المعتادة للقرآن التي ترتِّب السور بصورة تقريبًا تنازليَّة وفقًا لطولها))[٢٥]. ومثل هذا الرفض ينبغي أن يطال أفكارًا يبني صاحبها ((إصلاح المجتمع الإسلاميّ وإخراجه من الورطة الحاليَّة على تقسيم القرآن على قسم مكِّيّ وقسم مدنيّ، مطالبًا بالرجوع لقرآن مكَّة المسالم وترك قرآن المدينة العنيف الذي يخالف حقوق الإنسان))[٢٦].

ولم يسلم الضابط التقسيميّ على المكِّيّ والمدنيّ من الاختلاف؛ فلقد اختلفوا في ثلاثين سورة من سور القرآن الكريم بين المكِّيَّة والمدنيَّة هي: [٢٧]

الفَاتِحَة، النِّسَاء، يونِس، الرَّعد، الحَج، الفُرقَان، يس، ص، مُحمَّد، الحُجُرات، الرَّحمن، الحديد، الصَّف، الجُمُعة، التَّغابن، المُلك، الإنسان، المُطفِّفِين، الفَجْر، البَلَد، اللَّيل، القَدْر، الزَّلزلة، العَادِيَات، التَّكاثر، المَاعون، الكَوثَر، الإخلاص، الفَلَق، النَّاس.

والملاحظ أنَّ الاختلاف هنا قد جعل هذا المعيار ليس دقيقًا، على الرغم من أنَّه معيار يراعي النزول بنسبة ما ولا يحتكم إلى الشكل مطلقًا.

وواحد من أسباب الاختلاف هنا أنَّ النبيّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يرد عنه شيء في ترتيب المكِّيّ والمدنيّ؛ لأنَّه ليس من الفرائض، ولم يؤمر به. ومن جهة أخرى يظهر أنَّه على الرغم من أنَّ المكِّيّ والمدنيّ موضوع روائيّ غير أنَّ فيه بابًا كبيرًا للاجتهاد والرأي. ولعلَّ هذا

---

[٢٢] مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٩٥ .

[٢٣] ينظر. مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ .

[٢٤] القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، ص ٢٤ .

[٢٥] القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، ص ٥ .

[٢٦] القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر ص ٢٤ . وهذه الفكرة كان يتبنَّها المفكِّر السودانيّ محمود محمَّد طه في ثمانينيَّات القرن العشرين.

[٢٧] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص ٢٣٥ – ٢٣٧ .

ما دعا غير واحد من المستشرقين أن يرى فيه رأيًا مغايرًا لما عليه علماء التراث من المشتغلين بعلوم القرآن [٢٨].

الثالث – في معايير الترتيب النزوليّ وصوره:

بدا أنَّ الترتيب المصحفيّ قد فكَّك الجسد اللسانيّ للخطاب القرآنيّ، حتَّى كأنَّه قد وضع العوائق أمام النظام القرآنيّ التسلسليّ؛ ما دعا غير واحد من المفسِّرين والمشتغلين بعلوم القرآن إلى أن يجتهدوا ويجهدوا أنفسهم في إيجاد المناسبات الرابطة بين السور القرآنيَّة المصحفيَّة المباركة. وفي هذا مسألتان: الأولى أنَّ إحساسًا كبيرًا من هؤلاء أنَّ إيجاد مثل هذه المناسبات الرابطة والوصلات الدلاليَّة والمضمونيَّة يمثِّل تعويضًا عن حالة التفكُّك التي أنتجها الترتيب المصحفيّ الشكليّ من جهة، ويمثِّل من جهة ثانية عملًا خادمًا للعمليَّة التفسيريَّة التي يتوخَّى أثرها التكوينيّ والوجوديّ بمعونة الترتيب التسلسليّ النزوليّ. والثانية أنَّ إحساسًا كبيرًا منهم أيضًا بأنَّ الترتيب التسلسليّ النزوليّ يحفظ على نحو أكيد التماسك المضمونيّ بين السور القرآنيَّة المباركة.

وعلى الرغم من أنَّ مسألة الترتيب النزوليّ لسور القرآن الكريم قيل فيها إنَّها مسألة ليست ذات طائل، وتفتقر إلى الدقَّة، وقد تبدو غير مهمَّة، وغير منضبطة[٢٩]؛ فضلًا عن صعوبتها الكبرى، إذ إنَّها تبدو غير مستطاعة لأحد من البشر[٣٠]. غير أنَّها تظلُّ حاجة لم تحظ باهتمام يليق بها[٣١]، وتظلُّ مقاربتها لا تخلو من فائدة، وهي ليست ممنوعة؛ ذلك بأنَّها تعود على العمليَّة التفسيريَّة بفوائد جمَّة على المستوى المنهجيّ والمستوى المضمونيّ، ولا سيَّما آثارها في رصد القرآنيَّة المواكبة للحدث المجتمعيّ، والقرآنيَّة المواكبة لبناء الذات الإنسانيَّة وتسجيل محطَّات تدرُّجها الكماليّ والتنمويّ، فضلًا عن أثرها في مظاهر السيرة النبويَّة وتسجيل مواقف المواكبة القرآنيَّة في هذا الميدان والرصد القرآنيّ لحوادثها.

ومن الجميل أن ننفتح في هذا السياق على الترتيبين القرآنيين النزوليّ والمصحفيّ بلحاظ أهدافهما، فللخطاب القرآنيّ ((في ترتيبه النزوليّ منهج لتأسيس دعوة، وأسلوب إقناع بعقيدة، وطريقة تبشير وإنذار، ودحض كامل لمنطق الإلحاد، وهو في ترتيبه المصحفيّ أسلوب حياة،

---

[٢٨] ينظر. مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٧٨ – ١٨١ .

[٢٩] ينظر. منَّة المنَّان في الدفاع عن القرآن، مُحمَّد مُحمَّد صادق الصدر، ط ١، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠١٢، ج ١، ص ٤٥ – ٤٦.

[٣٠] ينظر. الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، ص ٩ .

[٣١] ينظر. القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، مهدي بزركان، ترجمة : كمال السيِّد، ط ١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت ٢٠١٥، ص ٣٣ .

وبناء حضارة، ودستور للعالم كلِّه، محيط بكلِّ صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه))[٣٢]. مع الإشارة إلى أنَّ الكلام المتقدِّم ينظر في الترتيب النزوليّ في ضوء التنجيم القرآنيّ، ونحن هنا نتطلَّع إلى صياغة التفسير القرآنيّ في ضوء معطيات الترتيب النزوليّ؛ لكي ينتهي البون بين واقع السُّلَّم النزوليّ القرآنيّ وواقع التفسير القرآنيّ بأهدافه التنمويَّة والحضاريَّة، فضلًا عن أهدافه الدلاليَّة واللسانيَّة.

يمكن أن نقف هنا وقفة فاحصة بإزاء مقولات الترتيب النزوليّ؛ لإنتاج مواقف نظريَّة وإجرائيَّة مهمَّة. وهذه الوقفة ينبغي أن تكون موازنة بين الترتيب المصحفيّ والترتيب النزوليّ؛ وصولًا إلى نظرات نقديَّة تفسيريَّة .

ويمكن النظر في سُلَّم الترتيب النزوليّ لسور الخطاب القرآنيّ باعتماد الإشارة إلى منطلقات هذا الترتيب ومعاييره وأسسه الإجرائيَّة التي تتمثَّل في تصوّرات عن أوائل ما نزل وأواخر ما نزل من سور قرآنيَّة مباركة من جهة، وتصوّرات عن النازل بمكَّة وبالمدينة من هذه السور من جهة ثانية، وتصوّرات عن السور القرآنيَّة ووقائع السيرة النبويَّة، ومراحل الدعوة بلحاظها السريّ والعلنيّ من جهة ثالثة، ومظاهر المواجهة وبداية الصراع مع قريش، والتعرُّض لأصنامهم من جهة رابعة [٣٣]. مع لحاظ عدم سلامة هذه المعايير والمنطلقات من الاختلاف[٣٤].

١ – الترتيب النُّزوليّ التفصيليّ الروائيّ:

من الأمور المهمَّة التي ينبغي ذكرها في هذا المضمار أنَّ العلماء قد اعتنوا عناية فائقة بمطالب الترتيب الزمنيّ، وخصُّوها بمقولات تفصيليَّة مهمَّة تدلُّ على وعيهم بأثره وأهمِّيَّته؛ فقد تتبَّعوا النازل من الخطاب القرآنيّ أبليل نزل أم بنهار؟ في حضر أم في سفر؟ في وقت سلم أم في غزوة من الغزوات؟ ولم يكتفوا بذلك بل يظهر أنَّهم بالغوا في عنايتهم تلك فراحوا إلى أجزاء الليل فذكروا أنَّ هذه الآية نزلت في أوَّله وهزيعه، وتلك نزلت في وسطه، وأخرى نزلت في آخره. وأشاروا إلى ما نزل بعد ذهاب ثلثيه. وذكروا أنَّ آية قد نزلت في الركعة الأخيرة من صلاة الصبح. ومن الطريف أيضًا أنَّهم ذكروا ما نزل في ليلة شاتية، وما نزل في ليلة أخرى ذات حرٍّ شديد. وتكريسًا لاهتمامهم واستقصائهم الدقيق لمحطَّات النُّزول ذكروا ما نزل بمواقع بعينها، من قبيل نزول خاتمة سورة النَّحل المباركة والنبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقف على حمزة عليه

---

[٣٢] المناسبات بين الآيات والسور – فوائدها وأنواعها وموقف العلماء منها، الدكتور سامي عطا حسن، مجلَّة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، العدد الثالث والخمسون، جامعة الكويت ٢٠٠٣، ص ٣ .

[٣٣] ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص٢٣٩ – ٢٤٠، ٢٤٥ – ٥٤ .

[٣٤] ينظر. تاريخ القرآن، الدكتور محمَّد حسين علي الصغير، ص ٥٣، مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

السلام حينما استشهد. وذكروا آية مباركة نزلت عشيَّة عرفة، وأخرى نزلت في الفضاء بين السماء والأرض ساعة المعراج. ولم يغفلوا عن آية نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء، أو آية نزلت والناس يقيمون، وأخرى نزلت وهم يسيرون[٣٥].

ويأتي في هذا السياق ما كان يعتمده الصحابة في مصاحفهم، إذ يروى أنَّ عبد الله بن عبَّاس تـ ٦٨هـ يرتِّب مصحفه ترتيبًا نزوليًّا. وترتيب مصحف عبد الله بن عبَّاس: [٣٦]

العَلَق، القَلَم، الضُّحَى، المُزَّمِّل، المُدَّثِّر، الفَاتِحَة، المَسَد، التَّكوير، الأعْلَى، اللَّيل، الفَجْر، الشَّرح، الرَّحمن، العَصْر، الكَوثر، التَّكاثر، المَاعُون، الفِيل، الكَافِرُون، الإخْلَاص، النَّجم، عَبَسَ، القَدْر، الشَّمس، البُروج، التِّين، قُرَيش، القَارِعَة، القِيَامَة، الهُمَزة، المُرسَلَات، ق، البَلَد، الطَّارق، القَمَر، ص، الأعْرَاف، الجِن، يَس، الفُرقان، فَاطِر، مَرْيَم، طَه، الشُّعراء، النَّمل، القَصَص، الإسْرَاء، يُونس، هُود، يُوسف، الحِجْر، الأنْعَام، الصَّافَّات، لُقمان، سَبَأ، الزُّمر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحْقَاف، الذَّارِيَات، الغَاشِيَة، الكَهْف، النَّحْل، نُوح، إبْرَاهِيم، الأنْبِيَاء، المُؤمِنُون، الرَّعد، الطُّور، المُلك، الحَاقَّة، المَعَارِج، النَّبَأ، النَّازِعَات، الانفِطَار، الانشِقَاق، الرُّوم، العَنْكَبوت، المُطَفِّفِين، البَقَرَة (أوَّل ما نزل بالمدينة)، الأنْفَال، آل عِمْرَان، الحَشْر، الأحْزَاب، النُّور، المُمْتَحَنَة، الفَتْح، النِّسَاء، الزَّلزلة، الحَج، الحَدِيد، مُحمَّد، الإنْسَان، الطَّلَاق، البيِّنة، الجُمُعَة، السَّجْدَة، المُنَافِقُون، المُجَادَلَة، الحُجُرَات، التَّحريم، التَّغابن، الصَّف، المَائِدَة، التَّوبَة، النَّصْر، الوَاقِعَة، العَادِيَات، الفَلَق، النَّاس.

ومثل ذلك كان يفعله الإمام جعفر الصادق تـ ١٤٨ هـ، إذ يحتفظ بمصحف مرتَّب ترتيبًا نزوليًّا لم تكتب فيه سورة الفَاتِحَة المباركة. وترتيبه النزوليّ: [٣٧]

العَلَق، القَلَم، المُزَّمِّل، المُدَّثِّر، المَسَد، التَّكوير، الأعلَى، اللَّيل، الفَجْر، الضُّحَى، الشَّرح، العَصْر، العَادِيَات، الكَوثَر، التَّكَاثُر، المَاعُون، الكَافِرون، الفِيل، الفَلَق، النَّاس، الإخْلَاص، النَّجم، عَبَسَ، القَدْر، الشَّمس، البُروج، التِّين، قُرَيش، القَارِعة، القِيَامَة، الهُمَزة، المُرسَلَات، ق، البَلَد، الطَّارق، القَمَر، ص، الأعْرَاف، الجِن، يَس، الفُرقَان، فَاطِر، مَرْيَم، طَه، الوَاقِعَة، الشُّعراء، النَّمل، القَصَص، الإسْرَاء، يُونس، هُود، يُوسف، الحِجْر، الأنْعَام، الصَّافَّات، لُقمَان، سَبَأ، الزُّمَر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحقاف، الذَّاريات، الغَاشِيَة، الكَهْف، النَّحل، نُوح،

---

[٣٥] ينظر . مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص١٧١ – ١٧٣ .

[٣٦] ينظر . الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، المكتبة العصريَّة، القاهرة ١٩٧٨، ج ١، ص ٣٠ – ٣٢، تاريخ القرآن، أبوعبد الله الزنجاني، ط ١، مؤسَّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهر ٢٠١٢، ص ٩٢ – ٩٦ .

[٣٧] ينظر . تاريخ القرآن، أبوعبد الله الزنجاني، ص ٩٧ – ١٠١ .

إبْرَاهِيم، الأنْبِيَاء، المُؤمِنُون، السَّجدة، الطُّور، المُلك، الحاقَّة، المَعَارِج، النَّبأ، النَّازعات، الانفِطَار، الانشِقَاق، الرُّوم، العَنْكَبوت، المُطففين، البَقَرَة (أوَّل ما نزل بالمدينة)، الأنفال، آل عِمْرَان، الأحْزَاب، المُمتَحَنَة، النِّسَاء، الزَّلزلة، الحَدِيد، مُحمَّد، الرَّعد، الرَّحمن، الإنْسَان، الطَّلاق، البيِّنة، الحَشْر، النَّصْر، النُّور، الحَج، المُنافِقُون، المُجَادَلَة، الحُجُرات، التَّحريم، الصَّف، الجُمُعة، التَّغَابُن، الفَتْح، التَّوبَة، المَائِدَة.

ناهيك عن أنَّ كثيرًا من المصادر تقف على الترتيب النزوليّ القرآنيّ وتذكر فيه مجموعة من القوائم الترتيبيَّة المتنوّعة [٣٨]؛ ما يعني أنَّ اهتمامًا كبيرًا يظهر من هؤلاء العلماء بهذا الترتيب الذي يظلُّ قائمًا على الترجيح والنظر واختلاف الأدوات والآليَّات والأهداف؛ ليكون تطلُّعًا علميًّا ودينيًّا كبيرًا له مشروعه التأسيسيّ الرائد.

ومن الباحثين من يعتمد مجموعة كثيرة من الروايات فيتكلَّم على أرشيف تركه النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم رتَّب فيه السور القرآنيَّة المباركة ترتيبًا زمنيًّا، كان مشفوعًا بتحديد أماكن نزول الآيات والسور، كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تـ ٤٠ هـ يحتفظ به وقد عرضه على المسلمين بعد وفاة النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم غير أنَّهم لم يأخذوا به من بعده، ليظلَّ مسكوتًا عنه إلى أن يظهره إمام آخر الزمان، فيكون تطبيقه على يده [٣٩].

ولعلَّ الترتيب القرآنيّ النزوليّ الغالب في ظلِّ المتون الروائيَّة، وسعي المؤسَّسات الدينيَّة هو:[٤٠]

العَلَق، القَلَم، المُزَّمِّل، المُدَّثِّر، الفَاتِحَة، المَسَد، التَّكوير، الأعْلَى، اللَّيل، الفَجْر، الضُّحَى، الشَّرْح، العَصْر، العَادِيَات، الكَوْثَر، التَّكاثر، المَاعون، الكَافِرون، الفِيل، الفَلَق، النَّاس، الإخلاص، النَّجْم، عَبَسَ، القَدْر، الشَّمس، البُروج، التِّين، قُرَيش، القَارِعَة، القِيَامَة، الهُمَزة، المُرسَلَات، ق، البَلَد، الطَّارِق، القَمَر، ص، الأعْرَاف، الجِن، يَس، الفُرقَان، فَاطِر، مَرْيَم، طَه، الوَاقِعَة، الشُّعراء، النَّمل، القَصَص، الإسْرَاء، يُونس، هُود، يُوسف، الحِجْر، الأنْعَام، الصَّافَّات،

---

[٣٨] ينظر. البرهان في علوم القرآن، أبوعبد الله محمَّد بدر الدين الزركشي، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط١، المكتبة العصريَّة، القاهرة ١٩٧٨، ج ١، ص ٢٧٥ – ٢٨٠، الفهرست، ابن النديم، دار الكتب العلميَّة، بيروت ٢٠٠٢، ص٤٠، قراءة نقديَّة في تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، ص ٣٠٥ – ٣٠٩ .

[٣٩] ينظر. قراءة نقديَّة في تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، ص ٣٧٠ – ٣٨١ .

[٤٠] ينظر. تاريخ القرآن، الدكتور محمَّد حسين علي الصغير، ص ٥٦ – ٦٢، مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص٢٤٠، القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، ص٢٥–٢٧. وما يميِّز ترتيب الأزهر أنَّه ترتيب تفصيليّ يوازن بترتيبي نولدكه Noldeke وبلاشير Blachere؛ فتظهر بعض الاختلافات بينهما. ويذكر أرقام الترتيب المصحفيّ للسور القرآنيَّة المباركة أيضًا. ويحدِّد ما كان مكِّيًّا ومدنيًّا منها.

لُقْمَان، سَبَأ، الزُّمر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحْقَاف، الذَّاريات، الغَاشِيَة، الكَهْف، النَّحل، نُوح، إبْرَاهِيم، الأنْبِيَاء، المُؤمِنُون، السَّجدة، الطُّور، المُلك، الحَاقَّة، المَعَارِج، النَّبأ، النَّازِعَات، الانفِطَار، الانشِقَاق، الرُّوم، العَنْكَبوت، المُطَفِّفِين، البَقَرَة (أوَّل ما نزل بالمدينة)، الأنْفَال، آل عِمْرَان، الأحْزَاب، المُمتَحَنَة، النِّسَاء، الزَّلزلة، الحَدِيد، مُحمَّد، الرَّعد، الرَّحمن، الإنسَان، الطَّلاق، البيِّنة، الحَشْر، النُّور، الحَج، المُنافِقُون، المُجادَلَة، الحُجُرات، التَّحريم، التَّغابن، الصَّف، الجُمُعة، الفَتْح، المَائِدَة، التَّوبة، النَّصْر.

ومن الباحثين من زاد على هذا الترتيب النزوليّ كلامًا فصَّل فيه محاور كلِّ سورة ومضامينها العامَّة، مع الإشارة إلى ما كان مدنيًّا من الآيات في السور المكِّيَّة المباركة، وما كان مكِّيًّا منها في السور المدنيَّة المباركة [٤١].

٢ – الترتيب النُّزوليّ التحليليّ الاستشراقيّ:

يأتي ترتيب المستشرقين للسور القرآنيَّة بوصفه واحدًا من صور الترتيب النزوليّ الذي علَّقوا عليه أهمِّيَّة كبرى[٤٢]. وهو يقوم عندهم على إنتاج قراءة موضوعيَّة لمراحل الوحي، وتصاعد الخطاب القرآنيّ، واستشعار الجانب الروحيّ للسيرة النبويَّة[٤٣] وتصاعد أحداثها[٤٤]، ومحطَّات الرسالة القرآنيَّة في مكَّة والمدينة بما تمثِّله من مقولات جيِّدة كاشفة عن الآثار الحضاريَّة والقيم التراثيَّة[٤٥]. على أنَّهم انتهجوا في عملهم هذا نهجًا مخصوصًا أبعدهم عن ضابط الرواية التي تعدُّ معينًا مهمًّا في هذا الباب[٤٦]، إذ يظهر التساهل في تعاطيهم مع الروايات وتحليلها وتصنيفها وتصنيفها قوَّة وضعفًا من جهة، وإصرارهم على ترتيب للنزول خارج الاعتبارات الإسلاميَّة من جهة ثانية.

وتأتي في هذا السياق أيضًا تقسيمات المستشرقين للمراحل القرآنيَّة على أربع مراحل أو طبقات محدَّدة، فجعلوا ثلاثًا في مكَّة وواحدة في المدينة [٤٧]. أوست مراحل، جعلوا خمسًا منها منها

---

[٤١] أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للأمَّة الإسلاميَّة، (أطروحة دكتوراه)، ص٤٣١ – ٤٦٨ .

[٤٢] ينظر . تاريخ القرآن، الدكتور محمَّد حسين علي الصغير، ص٤٨ .

[٤٣] ينظر . مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

[٤٤] ينظر . القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص٤٢ .

[٤٥] ينظر . القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص ٤٥ – ٨٩، المستشرقون والدراسات القرآنيَّة، الدكتور محمَّد حسين علي الصغير، ط ١، دار المؤرِّخ العربي، بيروت ١٩٩٩، ص ٣٠ – ٣١ .

[٤٦] ينظر . تاريخ القرآن، الدكتور محمَّد حسين علي الصغير، ص٤٩ .

[٤٧] ينظر . تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة : الدكتور جورج تامر، ط ١، مؤسَّسة كونراد – أدناور، بيروت

في مكَّة وواحدة في المدينة [٤٨]. والملاحظ أنَّ تقسيماتهم الطبقيَّة هذه كانت قائمة في أغلبها على جملة آليَّات تتمثَّل في النظر إلى شروح الوقائع التاريخيَّة التي يوظِّفها الخطاب القرآنيّ، وذلك باستقاء هذه الشروح من مصادرها التاريخيَّة المعتبرة. والنظر إلى المضامين التي يشير إليها الوحي القرآنيّ وما يربطها بوظائف النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم. والنظر ثالثة في نظام الوحي وسياقه النغميّ والأسلوبيّ واختياراته اللفظيَّة [٤٩].

ومن جهة أخرى فإنَّ تقسيماتهم قادتهم إلى بيان خصائص كلِّ طبقة على نحو تفصيليّ. وهذه الخصائص ذات جنبة تغليبيَّة ذوقيَّة. ومن خصائص سور الطبقات المكِّيَّة ابتداء أغلبها بالقسم، وقصر آياتها، ووحدة نسقها النغميّ الجميل، ونصوصها الموسَّعة ذات العناصر المختلفة، وتشابهها مع أقوال الكهنة، واهتمامها بالتصوير والتمثيل الشاعريّ الجاذب، وتضمُّنها الوعظ والشروع في العبادات وإحياء الليل والدعاء، واعتماد التعاليم القرآنيَّة مرجعيَّة فكريَّة في مواجهة المشركين، والإجابة عن إهانات الكافرين بالدليل والبرهان، والإشارة إلى الصفات الإلهيَّة، وصفات الجنَّة والنار، والعقاب الأخرويّ، وآيات الله تعالى في الطبيعة والخلق، وتعرُّضها لقصص الأنبياء عليهم السلام، ووصفها حال النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بالاضطراب والانفعال الشديد عند تلقِّي الوحي. أمَّا خصائص سور الطبقة المدنيَّة فتتمثَّل في طولها وطول آياتها، وتضمُّنها الصور الباهرة والجذَّابة في خطابها المؤمنين والمجاهدين، مع الإشارة إلى سير أحداث ما بعد الهجرة، وإظهار التحوّل الأساس في حياة المسلمين المرتبط بالهجرة اجتماعيًّا ودينيًّا، وبيان مظاهر قوَّة النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وقيادته الاجتماعيَّة والسياسيَّة وتشكيله النطاق الإداريّ للأمَّة ومجابهته الصعوبات، وبروز التشريع والأحكام والقوانين التنظيميَّة للأحوال الشخصيَّة، والكشف عن الموقف الإسلاميّ من الآخر الدينيّ، والارتباط الدائم بالاحتياجات الواقعيَّة للناس. والملاحظ هنا أنَّ غير واحدة من هذه الخصائص تقتضي النظر والنقاش إن قبولًا وإن رفضًا، ومن ذلك اضطراب النبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وانفعاله عندما يتلقَّى الوحي، والحقُّ أنَّه كان يكرِّر بسرعة ما يتلقَّاه خشية نسيانه [٥٠]. ويظهر أنَّ هذه الخصائص التي تلحظ الأسلوب تارة، والمضمون تارة أخرى تمثِّل ثمرة من ثمار النظر النزوليّ القرآنيّ ومظهرًا من مظاهره المهمَّة.

٢٠٠٤، ص ٦٦، تاريخ الآيات والسور القرآنيَّة في دراسات المستشرقين – نقد وتحليل، الدكتور محمَّد جواد اسكندرلو، مجلَّة دراسات استشراقيَّة، العدد الثالث، العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، العراق، ٢٠١٥، ص ١٢ – ٢٨ .

[٤٨] ينظر . مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

[٤٩] ينظر . تاريخ الآيات والسور القرآنيَّة في دراسات المستشرقين – نقد وتحليل، (بحث)، ص ١١ .

[٥٠] ينظر . المستشرقون والدراسات القرآنيَّة، ص٢٩ – ٣١، تاريخ الآيات والسور القرآنيَّة في دراسات المستشرقين – نقد وتحليل، (بحث)، ص ١٢ – ٢٨ .

وقد يرتبط ترتيب المستشرقين وميلهم إلى ترتيب النزول بمقولات ((التشكيك والطعن في ترابط النص القرآنيّ، ووحدته وأسلوبه، ومن ثمَّ ادِّعاء تعرُّضه للتصرف البشريّ، الذي هوفي حقيقة الأمر نوع من التحريف والتبديل))[٥١].

وممَّا تجدر العناية به أنَّ من المستشرقين من خلص إلى أنَّ ((القرآن وحده نقطة الانطلاق في تعاقب المراحل الإسلاميَّة، وترتيب السور، وتدرُّج التعاليم، وأنَّ سيرة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلَّم والأخبار التي يرويها الصحابة عنه لا يمكن أن تستقل وحدها بإيضاح شيء سكت عنه القرآن، وإنَّما نكمل تكميلًا ثانويًّا ما جاء في نص القرآن))[٥٢]؛ ذلك بأنَّ الترتيب النزوليّ ((يلقي على المصحف أضواء مطمئنة ويردُّ وضع النصوص إلى آفاق سهلة الإدراك، لكونها مقرونة إلى السياق التاريخي المعقول))[٥٣]. وهذا الضابط الترتيبيّ الحاسم يعبِّر عن موقف فكريّ نوعيّ دقيق. على الرغم من أنَّه قد قيل إنَّهم ((قد اعتمدوا في الغالب لحن الآيات والسور وأسلوبها ملاكًا لمعرفة ذلك، واستندوا أحيانًا إلى الروايات الضعيفة. ومن ثمَّ فقد توصَّلوا من خلال ذلك إلى نتائج متناقضة لا تمتلك أساسًا من الصحَّة، فمضافًا إلى ما يلحظ من اختلاف نتائج دراساتهم في ترتيب السور مع الترتيب الروائيّ المشهور، نرى التناقض والاختلاف القائم فيما بينهم أيضًا، وهذه الملاحظة كافية بنفسها للإشارة إلى أنَّ المعايير والمباني المتعدِّدة لدى كلِّ واحد منهم ليست سوى معايير ذوقيَّة ومجرَّد تخيُّلات وهميَّة))[٥٤]. ومن جهة أخرى جاءت مقولاتهم الترتيبيَّة النزوليَّة بدوافع تخطِّي القلق الذي ينتاب القارئ غير العربيّ للخطاب القرآنيّ بسبب من التداخل الموضوعاتيّ الذي يستشعره هذا القارئ؛ وصولًا إلى أن تتكرَّس في النصِّ مظاهر التغيُّر في جوِّه وفي آثار المجابهة بين المؤمنين والوثنيين؛ فتتعزَّز الوحدة النفسيَّة والتاريخيَّة بين القارئ والنصِّ[٥٥].

وكان ترتيبهم تفصيليًّا يعتمد تقسيم الآيات في السورة الواحدة على نحو زمنيّ تقسيميّ؛ لهذا يتكرَّر لديهم موضع السورة الواحدة بلحاظ أقسامها النزوليَّة.

وترتيب عامَّة المستشرقين النزوليّ: [٥٦]

العَلَق (قسمها الأوَّل)، المُدَّثِّر (قسمها الأوَّل)، قُرَيش، الضُّحَى، الشَّرح، العَصْر، الشَّمس،

---

[٥١] الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، ص١٤ .

[٥٢] مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ص ١٧٧ .

[٥٣] القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص٤٣ .

[٥٤] تاريخ الآيات والسور القرآنيَّة في دراسات المستشرقين – نقد وتحليل، (بحث)، ص ٩ .

[٥٥] ينظر . القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص٤٣، المستشرقون والدراسات القرآنيَّة، ص٢٣ .

[٥٦] ينظر . مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص٢٤١ .

المَاعُون، الطَّارِق، التِّين، الزَّلزلة، القَارِعَة، العَادِيَات، اللَّيل، الانفِطَار، الأَعْلَى، عَبَسَ، التَّكوير، الانشِقَاق، النَّازِعَات، الغَاشِيَة، الطُّور، الوَاقِعَة، الحَاقَّة، المُرسَلَات، النَّبأ، القِيَامَة، الرَّحمن، القَدْر، النَّجم، التَّكاثر، العَلَق (قسمها الثاني)، المَعَارِج، المُزَّمِّل، الإنْسَان، المُطَفِّفِين، المُدَّثِّر (قسمها الثاني)، المَسَد، الكَوثَر، الهُمَزَة، البَلَد، الفِيل، الفَجْر، البُروج، الإخلاص، الكَافِرون، الفَاتِحَة، الفَلَق، النَّاس، الذَّاريات، القَمَر، القَلَم، الصَّافَّات، نُوح، الدُّخان، ق، طه، الشُّعراء، الحِجْر، مَرْيَم، ص، يَس، الزُّخرُف، الجِن، المُلك، المؤمِنُون، الأنبِيَاء، الفُرقان، النَّمل، الكَهْف، السَّجدة، فُصِّلت، الجاثية، الإسرَاء، النَّحل، الرُّوم، هُود، إبْرَاهِيم، يُوسِف، غَافِر، القَصَص، الزُّمر، العَنْكَبُوت، لُقمان، الشُّورى، يُونس، سَبَأ، فَاطِر، الأعْرَاف، الأحْقَاف، الأنْعَام، الرَّعد، البَقَرَة، البيِّنة، التَّغابن، الجُمُعة، الأنفَال، مُحمَّد، آل عِمْرَان، الصَّف، الحَدِيد، النِّسَاء، الطَّلَاق، الحَشْر، الأحزاب، المُنافقون، النُّور، المُجَادَلَة، الحَج، الفَتْح، التَّحريم، المُمتَحَنَة، النَّصْر، الحُجُرات، التَّوبة، المَائِدَة.

وسأقف على ترتيب السور القرآنيَّة المباركة الذي أنتجه مستشرقان بارزان قد خصَّا القرآن العظيم بدراسات نوعيَّة مؤثِّرة في نسق التفكير الاستشراقيّ القرآنيّ من جهة، ومؤثِّرة في نسق التفكير القرآنيّ الحداثيّ العربيّ من جهة ثانية.

يظهر هنا المستشرق الألمانيّ تيودور نولدكه (١٨٣٦ – ١٩٣٠م) الذي أنتج دراسات قرآنيَّة تاريخيَّة عميقة تتمثَّل في كتابه الرائد تاريخ القرآن، إذ عالج فيه بمنهج علميّ دقيق مسألة الترتيب النزوليّ للسور القرآنيَّة المباركة فأنتج مقولات مهمَّة في سياق النظر إلى مضامين السور القرآنيَّة المباركة مكِّيَّة ومدنيَّة. ويظهر أيضًا المستشرق الفرنسيّ ريجي بلاشير (١٩٠٠ – ١٩٧٣م) الذي تختتم به الدراسة الاستشراقيَّة الرصينة لتاريخ القرآن العظيم، إذ يكرِّس في كتابه القرآن مقولات كاشفة عن الرسالة القرآنيَّة المكِّيَّة والرسالة القرآنيَّة المدنيَّة؛ ويؤكِّد ضرورة التقيُّد بالمراحل الزمنيَّة لفهم القرآن الكريم متوخيًا وصف هذه المراحل وصفًا تفصيليًّا يقود إلى الإحاطة بالمناخ الأدبي للخطاب القرآنيّ فضلًا عن استشعار الآثار الحضاريَّة [٥٧] والعقديَّة في هذه السياقات المرحليَّة.

يستعرض تيودور نولدكه اللوائح الترتيبيَّة الزمنيَّة التي يذكرها التراثيُّون، وهي كثيرة وتختلف من عالم إلى آخر؛ لذلك يعمد نولدكه إلى نقدها واكتشاف اختلافها وتداخلها وضعف آليَّاتها ومعاييرها واضطراب تسلسلها الزمنيّ، وينتهي إلى أنَّ النظر فيها لن يقود إلى التوصُّل إلى نتائج مهمَّة [٥٨]؛ لذلك كلِّه يسعى إلى اعتماد وسيلة ترتيبيَّة مغايرة ((تستحقُّ قدرًا أكبر من الثقة، وهي

---

[٥٧] ينظر. المستشرقون والدراسات القرآنيَّة، ص ٢٢ – ٢٥، ٢٧ – ٣١ .

[٥٨] ينظر. تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص ٥٣ – ٦٥ .

وحدها تجعل استعمال التراث بالنسبة لنـا مثمرًا. وهذه الوسيلة هي المراقبة الدقيقة لمعنى القرآن ولغته))[٥٩]. ويقوم نولدكه بتقسيم الخطاب القرآنيّ على أربع مراحل، هي: [٦٠]

أ- المرحلة المكِّيَّة الأولى (١ – ٥ للبعثة). وسورها: العَلَق، المُدَّثِّر، المَسَد، قُرِيش، الكَوثَر، الهُمَزَة، المَاعون، التَّكَاثُر، الفِيل، اللَّيل، البَلَد، الشَّرح، الضُّحَى، القَدْر، الطَّارق، الشَّمْس، عَبَس، القَلَم، الأعْلَى، التِّين، العَصْر، البُروج، المُزَّمِّل، القَارِعَة، الزَّلْزَلَة، الانفطار، التَّكوير، النَّجم، الانشقاق، العَاديَات، النَّازِعَات، المُرْسَلَات، النَّبَأ، الغَاشِيَة، الفَجر، القِيامَة، المُطِففين، الحَاقَّة، الذَّارِيَات، الطُّور، الوَاقِعَة، المَعَارِج، الرَّحمن، الإخلاص، الكَافِرون، الفَلَق، النَّاس، الفَاتِحة.

ب- المرحلة المكِّيَّة الثانية (٥، ٦ للبعثة). وسورها: القَمَر، الصَّافَّات، نُوح، الإنْسَان، الدُّخَان، ق، طَه، الشُّعَرَاء، الحِجْر، مَريم، ص، يَس، الزُّخْرُف، الجِن، المُلْك، المؤمِنُون، الأنبِيَاء، الفُرْقَان، الإسرَاء، النَّمْل، الكَهْف.

ج- المرحلة المكِّيَّة الثالثة (٧ – ١٣ للبعثة). وسورها: السَّجْدة، فُصِّلت، الجَاثِيَة، النَّحْل، الرُّوم، هُود، إبْرَاهِيم، يُوسِف، غَافِر، القَصَص، الزُّمَر، العَنْكَبُوت، لُقْمَان، الشُّورَى، يونس، سَبَأ، فَاطِر، الأعْرَاف، الأحْقَاف، الأنْعَام، الرَّعْد.

د- المرحلة المدنيَّة. وسورها: البَقَرَة، البيِّنة، التَّغابن، الجُمُعة، الأنفال، مُحمَّد، آل عِمْرَان، الصَّف، الحَدِيد، النِّسَاء، الطَّلاق، الحَشْر، الأحزَاب، المُنافِقون، النُّور، المُجَادَلَة، الحَج، الفَتْح، التَّحريم، المُمتَحَنَة، النَّصْر، الحُجُرات، التَّوبة، المَائِدَة.

معنى هذا أنَّ ترتيب المستشرق الألمانيّ نولدكه النزوليّ الكلِّيّ يتمثَّل في:

العَلَق، المُدَّثِّر، المَسَد، قُرِيش، الكَوثَر، الهُمَزَة، المَاعون، التَّكَاثُر، الفِيل، اللَّيل، البَلَد، الشَّرح، الضُّحَى، القَدْر، الطَّارق، الشَّمْس، عَبَس، القَلَم، الأعْلَى، التِّين، العَصْر، البُروج، المُزَّمِّل، القَارِعَة، الزَّلْزَلَة، الانفطار، التَّكوير، النَّجم، الانشقاق، العَاديَات، النَّازِعَات، المُرْسَلَات، النَّبَأ، الغَاشِيَة، الفَجر، القِيامَة، المُطِففين، الحَاقَّة، الذَّارِيَات، الطُّور، الوَاقِعَة، المَعَارِج، الرَّحمن، الإخلاص، الكَافِرون، الفَلَق، النَّاس، الفَاتِحة، القَمَر، الصَّافَّات، نُوح، الإنْسَان، الدُّخَان، ق، طَه، الشُّعَرَاء، الحِجْر، مَريم، ص، يَس، الزُّخْرُف، الجِن، المُلْك، المؤمِنُون، الأنبِيَاء، الفُرْقَان، الإسرَاء،

---

[٥٩] تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص ٥٨ .

[٦٠] ينظر . تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص ٣٦، كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه – ترجمة وقراءة نقديَّة، الدكتور رضا محمَّد الدقيقي، ط ١، دار الميمان للنشر والتوزيع، قطر ٢٠٠٩، ص ٣١٣، في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه)، ص ٢٠١ – ٢٠٤ .

النَّمْل، الكَهْف، السَّجْدة، فُصِّلت، الجَاثِيَة، النَّحْل، الرُّوم، هُود، إِبْرَاهِيم، يُوسِف، غَافِر، القَصَص، الزُّمَر، العَنْكَبُوت، لُقْمَان، الشُّورَى، يونِس، سَبَأ، فَاطِر، الأعْرَاف، الأحْقَاف، الأنْعَام، الرَّعْد، البَقَرَة، البيِّنة، التَّغابن، الجُمُعة، الأنفال، مُحمَّد، آل عِمْرَان، التَّحريم، المُمتَحَنَة، النَّصْر، الحُجُرات، التَّوبة، المَائِدَة.

أمَّا بلاشير فيقيم مقولاته في الترتيب النزوليّ على الإشادة بصنيع نولدكه وترتيبه الزمنيّ، ووصف الترتيب المصحفيّ بأنَّه ترتيب أحدث خللًا في الترتيب التاريخيّ؛ إذ إنَّ السور الطوال الموافقة للدعوة في المدينة تأتي في بداية المصحف، في حين تأتي السور القصيرة والمتوسُّطة الممثِّلة للمرحلة المكِّيَّة في نهاية المصحف[٦١]. وينتهي في ضوء ذلك إلى النظر النزوليّ القائم على الفصل بين سور الرسالة القرآنيَّة المكِّيَّة وسور الرسالة القرآنيَّة المدنيَّة، مستغرقًا في الدلالة على مضامينهما التفصيليَّة في الفصلين الثاني والثالث من كتابه، متوخيًا ((التنبيه إلى قدر التغيُّر الحاصل في أسلوب السور))[٦٢]. ويعمد بلاشير إلى تقسيم الخطاب القرآني على رسالتين:

أ- الرِّسالة القرآنيَّة المكِّيَّة. وسورها: العَلَق، المُدَّثِّر، قُريش، الضُّحَى، الشَّرْح، العَصْر، الشَّمس، المَاعُون، الطَّارق، التِّين، الزَّلزلة، القَارِعَة، العَادِيَات، اللَّيل، الانفطَار، الأعلَى، عَبَسَ، التَّكوير، الانشِقَاق، النَّازِعَات، الغَاشِيَة، الطُّور، الوَاقِعَة، الحَاقَّة، المُرسَلَات، النَّبأ، القِيَامَة، الرَّحمن، القَدْر، النَّجم، التَّكاثر، المَعَارِج، المُزَّمِّل، الإنْسَان، المُطَّففين، المَسَد، الكَوْثَر، الهُمَزة، البَلَد، الفِيل، الفَجْر، البُروج، الإخلاص، الكَافِرون، الفَاتِحَة، الفَلَق، النَّاس، الجِن، الذَّاريات، القَمَر، القَلَم، الصَّافَّات، نُوح، الدُّخان، ق، طَه، الشُّعراء، الحِجْر، مَرْيَم، ص، يَس، الزُّخرُف، الجِن، المُلك، المُؤمِنُون، الأنبِيَاء، الفُرقَان، النَّمل، الكَهْف، السَّجدة، فُصِّلت، الجَاثِيَة، الإسرَاء، النَّحل، الرُّوم، هُود، إبْرَاهِيم، يُوسِف، غَافِر، القَصَص، الزُّمر، العَنْكَبوت، لُقمان، الشُّورى، يُونِس، سَبَأ، فَاطِر، الأعرَاف، الأحقَاف، الأنعَام، الرَّعد.

ب- الرِّسالة القرآنيَّة المدنيَّة. وسورها: البَقَرة، البيِّنة، التَّغابن، الجُمُعة، الأنفَال، مُحمَّد، آل عِمْرَان، الصَّف، الحَدِيد، النِّسَاء، الطَّلاق، الحَشْر، الأحْزَاب، المُنافِقون، النُّور، المُجَادَلَة، الحَج، الفَتْح، التَّحريم، المُمتَحَنَة، النَّصْر، الحُجُرات، التَّوبَة، المَائِدَة.

وترتيب المستشرق الفرنسيّ بلاشير النزوليّ الكلِّيّ: [٦٣]

العَلَق (قسمها الأوَّل)، المُدَّثِّر (قسمها الأوَّل)، قُريش، الضُّحَى، الشَّرْح، العَصْر، الشَّمس،

---

[٦١] ينظر . القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص ٣٨ – ٤٣ .

[٦٢] القرآن – نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ص٦٥ .

[٦٣] ينظر . في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه)، ص٢٠٤ – ٢٠٧ .

المَاعُون، الطَّارِق، التِّين، الزَّلزلة، القَارِعَة، العَادِيَات، اللَّيل، الانفِطَار، الأعلَى، عَبَسَ، التَّكوير، الانشِقَاق، النَّازِعَات، الغَاشِيَة، الطُّور، الوَاقِعَة، الحَاقَّة، المُرسَلَات، النَّبأ، القِيَامَة، الرَّحمن، القَدْر، النَّجم، التَّكاثر، العَلَق (قسمها الثاني)، المَعَارِج، المُزَّمِّل، الإنْسَان، المُطَّففين، المُدَّثِّر (قسمها الثاني)، المَسَد، الكَوْثَر، الهُمَزة، البَلَد، الفِيل، الفَجْر، البُروج، الإخلاص، الكَافِرون، الفَاتِحَة، الفَلَق، النَّاس، الجِن، الذَّاريات، القَمَر، القَلَم، الصَّافَّات، نُوح، الدُّخان، ق، طَه، الشُّعراء، الحِجْر، مَرْيَم، ص، يَس، الزُّخرُف، الجِن، المُلك، المُؤمِنُون، الأنبِيَاء، الفُرقَان، النَّمل، الكَهْف، السَّجدة، فُصِّلت، الجَاثِيَة، الإسرَاء، النَّحل، الرُّوم، هُود، إبْرَاهِيم، يُوسِف، غَافِر، القَصَص، الزُّمر، العَنْكَبوت، لُقمان، الشُّورى، يُونس، سَبَأ، فَاطِر، الأعرَاف، الأحقَاف، الأنعَام، الرَّعد، البَقَرة، البيِّنة، التَّغابن، الجُمُعة، الأنفَال، مُحمَّد، آل عِمْرَان، الصَّف، الحَدِيد، النِّسَاء، الطَّلاق، الحَشْر، الأحْزَاب، المُنافِقون، النُّور، المُجَادَلَة، الحَج، الفَتْح، التَّحريم، المُمتَحَنَة، النَّصْر، الحُجُرات، التَّوبَة، المَائِدَة.

ومن غريب آراء المستشرقين في ترتيب النزول القرآنيّ ما ينقله نولدكه عن المستشرق الانكليزي وليم موير (١٨١٩ – ١٩٠٥) من أنَّ بعضًا من السور القرآنيَّة المباركة نزلت قبل البعثة وضمَّت لاحقًا إلى القرآن العظيم. وهذه السور في ضوء رأي موير هي من الإنتاج الشخصيّ للنبيّ محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ولم تكن ممَّا أنزله الله تعالى. ويأتي رأيه هذا في سياق ميله إلى تبرئة النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم من تهمة انتحال اسم الله تعالى في كلامه [٦٤]. ويتولَّى نولدكه نفسه الردَّ التفصيليّ على هذا الرأي بقوله: ((هذا الرأي يخلو من الأسباب الإيجابيَّة ويناقض الروايات، لا بل يمكن دحضه من خلال بعض السور. فالسور التي يتكلَّم فيها محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ضدَّ أعداء الدين والخصوم الذين يكذِّبون به، رافعًا بالمقابل من شأن المؤمنين، لا يمكن أن تكون قد نشأت في وقت لم يكن فيه على بيِّنة من أمره، ولم يتأكَّد بعد من أنَّه نبيّ الله، ويدع إلى الدين الجديد. حتَّى سورة العصر التي يعتبرها موير أقدم السور، لأنَّها بشكلها الحالي أقصرها، تتناول أعداء محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم (الآية٢) وأتباعه المؤمنين الذين يدعو بعضهم بعضًا إلى الصبر تجاه الاضطهادات (الآية٣). هذه السورة لا يمكن، إذًا، أن تكون قد نشأت إلَّا من بعد أن جهر محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بدعوته، فاتَّضحت الأضداد)) [٦٥]. ويقرأ نولدكه المسألة قراءة موازنة،[٦٦] يوازن فيها بين

---

[٦٤] ينظر. تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص ٧٠ .

[٦٥] تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص٧٠ – ٧١ .

[٦٦] ينظر. تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص٣٦، في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري – مدخل إلى القرآن الكريم أنموذجًا، (أطروحة دكتوراه)، ص ٢٠١ – ٢٠٤ .

سورة العصر المباركة والسور القرآنيَّة الأخر. مع تحليله أسلوب التعبير عن الذات، فإنَّه ((كثيرًا ما توجد مواضع مماثلة لها في السور التي يسمِّيها موير مثل سورة الانفطار؛ سورة الليل إلخ. تضاف إلى ذلك المواضع التي يتكلَّم فيها محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن اندثار أعداء الله في الأزمنة الغابرة كمثل ينذر به خصومه (سورة الفجر؛ وسورة الشمس؛ وسورة الفيل). وليس صحيحًا أنَّ الله لا يظهر أبدًا في هذه السور متكلِّمًا. فحتَّى لو وافقنا موير على أنَّ المواضع التي يخاطَب فيها محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لا تحمل إلَّا مناجاته لنفسه، ولم نهتم لصيغ الأفعال التي تتحوَّل بوساطة تغيير التنقيط من صيغة المتكلِّم إلى صيغة أخرى (مثلًا "تفعل" بدل "نفعل" إلخ)، لتبقَّت لدينا المواضع التالية: سورة البَلَد؛ الشَّرْح؛ الكَوثَر؛ التِّين. يعلن موير أنَّ الله في هذه المواضع ليس إلَّا وهمًا شعريًّا... لا يجوز لنا أن ننجرَّ إلى طروحات لا يمكن تقديم برهان عليها، وذلك فقط بسبب الميل إلى فرضيَّة، لا يدعمها أيُّ سبب راسخ))[٦٧]. ويكرِّس نولدكه ردَّه بقوله ((لهذا السبب لا نجد، في رأي موير على الأقلِّ، ما قد يدفعنا إلى التخلِّي عن الرواية المتعارف عليها لدى المسلمين. ومفادها أنَّ سورة العلق: ١–٥ أقدم ما في القرآن وأنَّها تتضمَّن أوَّل دعوة تلقَّاها محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم للنبوَّة))[٦٨].

يظهر على نحو جليّ أنَّ المستشرقين قد اختلفوا في الترتيب النزوليّ للسور القرآنيَّة، واختلافهم لا يقتصر على المراحل التي قسَّموا عليها السور القرآنيَّة بل يتعدَّاه إلى السور داخل كلِّ مرحلة، وإلى المبادئ التي يتمُّ في ضوئها تقسيم السور، فضلًا عن اختلافهم في تسمية المراحل [٦٩].

٣– الترتيب النُّزوليّ الرياضيّ:

يقترح الباحث الإيرانيّ المهندس مهدي بازركان (١٩٠٨ – ١٩٩٥) طريقة رياضيَّة يطلق عليها اصطلاح "طول الآية". تقوم هذه الطريقة على حساب متوسُّط طول الآيات القرآنيَّة المباركة وقصرها الناتج عن قسمة عدد كلمات كلِّ سورة على عدد آياتها؛ فينتهي إلى موضع كلِّ سورة وترتيبها النزوليّ المرتبط بمتوسُّط طول آياتها. ويظهر في هذا السياق أنَّ لكلِّ سورة شاخصها العدديّ الذي تختلف به عن غيرها. وغاية ما يمكن بلوغه في ضوء هذا الحساب أنَّ متوسُّط طول آيات السور القرآنيَّة المباركة كان ذا مسار زمنيّ تصاعديّ عبر البعثة وتقدُّمها وتتابع نزول الوحي؛ فتكون السور ذات متوسُّط طول الآيات الأقل هي السور الأولى في النزول[٧٠].

---

[٦٧] تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص٧١ .

[٦٨] تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص٧١ .

[٦٩] ينظر. تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ص٧١ .

[٧٠] ينظر . القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص ٣٧ – ٣٩ .

ويطبِّق مهدي بزركان معيار المتوسُّط الطوليّ على سور منتقاة معلومة التوقيت النزوليّ: الهُمَزَة التي هي من أوائل السور نزولًا، وطَه التي نزلت أواسط المرحلة المكِّيَّة، والمَائِدَة التي هي من أواخر سور المرحلة المدنيَّة؛ فيجد أنَّ معيار المتوسُّط الطوليّ لسورة الهُمَزَة المباركة يساوي ٣.٧٨ بقسمة عدد الكلمات ٣٤ على عدد الآيات ٩، في حين أنَّ متوسُّط الطول لسورة طَه المباركة يساوي ٩.١٥ بقسمة عدد الكلمات ١٣٠٨ على عدد الآيات ١٤٣. أمَّا متوسُّط طول سورة المَائِدَة المباركة فيساوي ٢٢.٩١ بقسمة عدد الكلمات ٢٧٤٩ على عدد الآيات ١٢٠. ويعزِّز ذلك بالتطبيق على سور: الأعْرَاف، والأنْفَال، والحَشْر، والنُّور، التي كان نزولها بين سورتي طَه والمَائِدَة المباركتين؛ فيجد أنَّ متوسُّط طول آياتها يكون بين ٩.١٥ (متوسُّط طول آيات سورة طَه المباركة) و ٢٢.٩١ (متوسُّط طول آيات سورة المائدة المباركة). معنى هذا أنَّنا أمام قاعدة تتمثَّل في أنَّ متوسُّط طول آيات السور يتصاعد مع التقدُّم الزمنيّ النزوليّ. وفي ضوء هذا يمكن أن يتجلَّى في هذا السياق الحدس بأنَّ هذه القاعدة الطوليَّة التصاعديَّة تعمُّ سور الخطاب القرآنيّ كلَّها. ومن جهة أخرى لا يمكن القطع بتفسير هذا التصاعد المنتظم[٧١].

ويرتبط التفكير بالترتيب النزوليّ لدى بزركان بمسألة تكوين تصوّر قرآنيّ شموليّ عن موضوع بعينه؛ توخيًا لقراءة منحى التغييرات السنويَّة، إذ يذكر أنَّه لجأ إلى ((هذا العمل بهدف تفسير سورة العنكبوت. ففي وسط سورة العنكبوت، من الآية ١٣ إلى ٣٩، تتحدَّث السورة بشكل مفهرس عن عدد من الأنبياء وعلاقتهم بالأمم التي بعثوا إليها وتمرُّد تلك الأمم وهلاكها. ومن أجل إتمام هذا الموضوع وفهرسته كان لا بدَّ من الرجوع إلى آيات آخر من سور عدَّة تتحدَّث عن الموضوع نفسه. وقد أثير في ذهني هذا السؤال أثناء جمع الآيات وهو: كيف نرتِّب الآيات التي تتحدَّث عن النبيّ نوح عليه السلام؟ وكان لا بدَّ من اعتماد معيار هو مبدئيًّا تاريخ نزول السور التي وردت فيها تلك الآيات))[٧٢]. وقادته هذه الحاجة إلى الإفادة من جدول لترتيب السور ترتيبًا نزوليًّا وجده على هامش مصحف مطبوع في العهد القاجاريّ (١٧٩٦ – ١٩٢٥)، وينسب هذا الجدول إلى عالم مغربيّ لم يذكر اسمه، أو هو منسوب إلى اعتماد السلطنة القاجاريَّة. وهذا الجدول الزمنيّ يتضمَّن تقسيمًا نزوليًّا سنويًّا، إذ تذكر فيه سور كلِّ سنة. وهو يلحظ السور التي نزلت بمكَّة وأسماء سنواتها، والسور التي نزلت بالمدينة وأسماء سنواتها أيضًا: [٧٣]

---

(٧١) ينظر . القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص ٣٨ – ٣٩ .

(٧٢) القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص ٤٠ .

(٧٣) ينظر. القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٠ – ٤٣، قراءة نقديَّة في تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، حسن علي حسن مطر الهاشمي، ط ١، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، العراق ٢٠١٤، ص ٣٥٧ – ٣٦٥ .

أ- أسماء السنوات المكِّيَّة والسور التسعين التي نزلت بمكَّة:

السنة الأولى (الافتتاحيَّة). وفيها ست وعشرون سورة، هي: الفَاتِحَة، النَّاس، الفَلَق، الإخْلَاص، المَسَد، النَّصْر، الكَافِرون، الكَوثَر، المَاعُون، قُرَيش، الفِيل، الهُمَزَة، العَصْر، التَّكَاثُر، القَارِعَة، العَادِيَات، الزَّلزَلَة، العَلَق، التِّين، الشَّرح، المَسَد، النَّصْر، الكَافِرون، الكَوثَر، المَاعُون، قُرَيش، الفِيل، الهُمَزَة، العَصْر، التَّكَاثُر، القَارِعَة، العَادِيَات، الزَّلزَلَة، العَلَق، التِّين، الشَّرْح، الضُّحَى، اللَّيل، الشَّمْس، البَلَد، الفَجْر، الغَاشِيَة.

السنة الثانية (الاستعلائيَّة). وفيها ثلاث عشرة سورة، هي: الأعْلَى، الطَّار الأعْلَى، الطَّارِق، البُرُوج، الانشِقَاق، المُطَفِّفِين، الانفِطَار، التَّكْوير، عَبَس، النَّازِعَات، النَّبَأ، المُقَاق، المُطَفِّفِين، الانفِطَار، التَّكْوير، عَبَس، النَّازِعَات، النَّبَأ، المُرْسَلَات، الإنسَان، القِيَامَة.

السنة الثالثة (الدثاريَّة). وفيها ثمان سور، هي: المُدَّثِّر، المُزَّمِّل، الجِن، نُوح، المَعَارِج، الحَاقَّة، القَلَم، المُلْك.

السنة الرابعة (الواقعيَّة). وفيها سبع سور، وهي: الواقِعَة، الرَّحمن، القَمَر، النَّجْم، الطُّور، الذَّارِيَات، ق.

السنة الخامسة (الأحقافيَّة). وفيها أربع سور، وهي: الأحقَاف، الجَاثِيَة، الدُّخَان، الزُّخرُف.

السنة السادسة (الشورائيَّة). وفيها أربع سور، وهي: الشُّورَى، فُصِّلَت، غَافِر، الزُّمَر.

السنة السابعة (الداووديَّة). وفيها خمس سور، وهي: ص، الصَّافَّات، يَس، فَاطِر، سَبَأ.

السنة الثامنة (اللاميَّة). وفيها أربع سور، وهي: السَّجدَة، لُقْمَان، الرُّوم، العَنْكَبُوت.

السنة التاسعة (الطائيَّة). وفيها ثلاث سور، وهي: القَصَص، النَّمْل، الشُّعَرَاء.

السنة العاشرة (الفرقانيَّة). وفيها ثلاث سور، وهي: الفُرْقَان، المُؤمِنُون، الأنْبِيَاء.

السنة الحادية عشرة (السامريَّة). وفيها أربع سور، وهي: طَه، مَرْيَم، الكَهْف، الإسْرَاء.

السنة الثانية عشرة (النحليَّة). وفيها خمس سور، وهي: النَّحْل، الحِجْر، إبْرَاهِيم، الرَّعْد، يُوسِف.

السنة الثالثة عشرة (الهوديَّة). وفيها أربع سور، وهي: هُود، يُونِس، الأعْرَاف، الأنْعَام.

ب- أسماء السنوات المدنيَّة والسور الأربعة والعشرين التي نزلت بالمدينة:

السنة الأولى (الهجريَّة). وفيها أربع سور، وهي: القَدْر، التَّغَابُن، المُنَافِقُون، الجُمُعَة.

السنة الثانية (البدريَّة). وفيها ثلاث سور، وهي: البَيِّنَة، الصَّف، الحَدِد.

السنة الثالثة (الأحديَّة). وفيها سورتان، وهما: مُحمَّد، المُجَادَلَة.

السنة الرابعة (النظيريَّة). وفيها سورتان، وهما: الحَشْر، المُمْتَحَنَة.

السنة الخامسة (الخندقيَّة). وفيها سورتان، وهما: الحُجُرَات، الحَج.

السنة السادسة (الحديبيَّة). وفيها سورتان، وهما: النِّسَاء، النُّور.

السنة السابعة (الخيبريَّة). وفيها ثلاث سور، وهي: الطَّلَاق، التَّحْريم، الأحْزَاب.

السنة الثامنة (الفتحيَّة). وفيها سورتان، وهما: الفَتْح، الأنْفَال.

السنة التاسعة (التبوكيَّة). وفيها سورتان، وهما: التَّوبَة، البَقَرَة.

السنة العاشرة (الوداعيَّة). وفيها سورتان، وهما: آل عِمْرَان، المَائِدَة.

ويقوده النظر الرياضيّ إلى فحص هذا الجدول التقسيميّ النزوليّ السنويّ؛ فيخلص بزركان بعد الفحص وتطبيق طريقته الرياضيَّة على هذا الجدول إلى أنَّ متوسُّط الطول في السنوات الأولى هو الأقلُّ، في حين أنَّ متوسُّط الطول في السنة الأخيرة كان هو الأعلى. وممَّا لا شكَّ في أنَّه ((كان العثور على جدول كهذا أمرًا جيِّدًا للغاية؛ إذ كان سببًا لمزيد من الدراسات والتأمُّل وبابًا لمزيد من الاستنتاجات. وأوَّل ما أخطره هذا الجدول في ذهننا هو التساؤل حول عدد الآيات والكلمات التي نزلت على النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في السنة، ثمَّ البحث في تطوّر متوسُّط طول الآيات النازلة على مدى سنوات الرسالة الثلاث والعشرين))[٧٤]. والحصيلة أنَّ بيانًا إحصائيًّا شاملًا لما نزل في سنوات الدعوة يتمثَّل في الجدول الإحصائيّ التفصيليّ:[٧٥]

مكان النزول	سنة النزول	عدد السور	عدد الآيات	عدد الكلمات	متوسُّط الطول
	١	٢٦	٢٦٢	١٠٢٣	٣.٩١
	٢	١٣	٤١٥	١٧٧٣	٤.٢٧
	٣	٨	٣٠٩	٢٠٤٠	٦.٦٠
	٤	٧	٤٤٥	٢٤٧٨	٥.٥٦
	٥	٤	٢١٧	٢٣١١	١٠.٦٤
	٦	٤	٢٦٦	٤٠٢٨	١٥.١٤
مكَّة	٧	٥	٤٥٢	٣٩٧٩	٨.٨
	٨	٤	١٩٣	٣٧٣٢	١٤.١٥

(٧٤) القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٣ .

(٧٥) القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٣ – ٤٤ .

	٩	٣	٤١٠	٣٨٧٧	٩.٤٥
	١٠	٣	٣٠٧	٣١٠٥	١٠.١٠
	١١	٤	٤٥١	٥٣٩٣	١١.١٥
	١٢	٥	٤٣٣	٥٨١٧	١٣.٤٣
	١٣	٤	٦٠٣	١٠١٢٥	١٦.٧٩
المدينة	١٤	٤	٤٥	٦٢٦	١٣.٩٠
	١٥	٣	٥١	٨٥٩	١٦.٨٤
	١٦	٢	٦٠	١٠١٢	١٦.٨٦
	١٧	٢	٣٧	٧٧٥	٢٠.٩٤
	١٨	٢	٩٦	١٦٣٤	١٧
	١٩	٢	٢٤٠	٤٨٥٦	٢٠.٢٣
	٢٠	٣	٩٧	١٨١٢	١٨.٦٥
	٢١	٢	١٠٤	١٧٩١	١٧.٢٢
	٢٢	٢	٤١٥	٨٦١٨	٢٠.٧٦
	٢٣	٢	٣٢٠	٧٢٨٤	٢٢.٧٦

ولا يخفى أنَّ هذا الجدول يكشف عن ((أنَّ منحى التطوّر لمتوسُّط الطول هو تصاعديّ؛ ولكن على نحو غير منتظم إذ يمرُّ بحالات من الارتفاع والانخفاض، فقد بدأ مساره من الحدِّ الأدنى٣.٩ في السنة الأولى من نزول القرآن وتصاعد في السنتين الخامسة والسادسة، ثمَّ انخفض بعد ذلك ليعود إلى الارتفاع في السنة الثامنة، ثمَّ انحدر مرَّة أخرى في السنة التاسعة، تم اتَّخذ بعد ذلك وحتَّى السنة السادسة عشرة مسارًا تصاعديًّا منتظمًا نسبيًّا، ونشهد في السنوات بين السابعة عشرة وحتَّى الحادية والعشرين حراكًا شديدًا، ليصل في النهاية في السنة الأخيرة إلى ٢٢.٧٦))[٧٦].

ولا يخفى أيضًا أنَّ مجموعة من الاستثناءات تظهر هنا، ويحاول بزركان أن يجد لها ما يفسِّرها؛ فيذهب إلى أنَّ ((هذه الاستثناءات إمَّا لها ما يبرِّرها وإمَّا أنَّ سببها هو عدم الدقَّة في تحديد تاريخ النزول. فقد لوحظ مثلًا أنَّ سورة الأنْفَال التي أثبتها الجدول في السنة الثامنة للهجرة تسبَّبت بآياتها القصار نسبيًّا في هبوط المنحنى في هذا العام، في حين أنَّ معظم آيات سورة

[٧٦] القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٦ .

الأنْفَال على ارتباط بمعركتي أحد وبدر، وآياتها تشير إلى هاتين الواقعتين من وقائع السنتين الأولى والثانية للهجرة، بحيث إذا أعدنا تاريخ نزول سورة الأنْفَال إلى الوراء فسوف يعتدل الهبوط في طول الآيات في السنتين الرابعة عشرة والحادية والعشرين. والأمر نفسه يقال في شأن الآيات الطويلة في سورتي المُمْتَحَنَة والنِّسَاء، التي يضعها الجدول المذكور في السنتين الرابعة والسادسة أو السابعة عشرة والتاسعة عشرة للرسالة، وترتبط نصوصها ومواضيعها بقضايا سنوات أقدم وأسبق، فقد تسبَّبت في ارتفاع وتصاعد غير متوازن لمتوسُّط الطول في تلك المدَّة الزمنيَّة، وهذا يكشف عن أنَّها ليست في محلِّها بحسب ترتيب النزول المفترض في الجدول)) [٧٧].

ولا تقتصر الاستثناءات على سور المرحلة المدنيَّة بل تظهر قبل ذلك في سور المرحلة المكِّيَّة، فيعمد مهدي بزركان إلى محاولة التفسير أيضًا، فإنَّ ((في السور المكِّيَّة أيضًا تجد للانحدارات والارتفاعات الخارجة عن قاعدة المنحنى تبريرًا مقنعًا تمامًا، فمثلًا سورتا نُوح والجِن اللتان وضعتا في السنة الثالثة للرسالة لا تشبهان من حيث سياق العبارة، والطول، والتفصيل الموضوعيّ، السور قصيرة الآيات كالمُدَّثِّر، والمَعَارِج، والحَاقَّة، التي وضعت في العام نفسه، ولو أعدنا النظر في الترتيب التاريخي للسور وقدَّمنا مثلًا سورتي الجِن ونُوح ثلاث سنوات إلى الأمام، وأرجعنا سورتي الشُّعَرَاء والحِجْر بالمقدار نفسه تقريبًا، فإنَّ مسار المنحنى في سنوات قبل الهجرة سيقترب من الخطِّ المستقيم وبدرجة انحدار ثابتة))[٧٨].

أمَّا ترتيب مهدي بزركان الذي انتهى إليه في ضوء النظر الرياضيّ ومتوسُّط طول الآيات فهو: [٧٩]

الإخْلَاص ٣، عَبَس ٣.١١، الأعْلَى ٣.١٢، القَارِعَة ٣.٢٧، الشَّمْس ٣.٣١، النَّاس ٣.٣٣، الكَوْثَر ٣.٣٣، الشَّرْح ٣.٣٧، اللَّيل ٣.٣٨، الغَاشِيَة ٣.٣٨، المَاعُون ٣.٤٢، الضُّحَى ٣.٤٥، التَّكَاثُر ٣.٥٠، المُرْسَلَات ٣.٥٤، التَّكْوير ٣.٥٥، التِّين ٣.٥٧، قُرَيش ٣.٦٠، العَادِيَات ٣.٦٣، الطَّارِق ٣.٦٤، العَلَق ٣.٧٣، الهُمَزَة ٣.٧٧، النَّازِعَات ٣.٨٤، الوَاقِعَة ٣.٨٨، الانشِقَاق ٣.٩٥، البَلَد ٤، الكَافِرون ٤، القِيَامَة ٤.٠٧، الفَاتِحَة ٤.١٤، النَّبَأ ٤.١٤، الانفِطَار ٤.١٥، الفَجْر ٤.٢٢، المَسَد ٤.٤٠، المُدَّثِّر ٤.٤٣، الزَّلْزَلَة ٤.٥٠، الفَلَق ٤.٦٠، الفِيل ٤.٦٠، المُطَفِّفِين ٤.٦٣، العَصْر ٤.٦٤، الصَّافَّات ٤.٧٠، الحَاقَّة ٤.٨٠، البُرُوج ٤.٨٦، المَعَارِج ٤.٩٠، الرَّحمَن ٤.٩٦، الشُّعَرَاء ٥.٦٥، النَّجْم ٥.٧١، القَلَم ٥.٧٧، الدُّخَان ٥.٨١، الذَّارِيَات ٥.٨٥، الحِجْر ٥.٨٩، القَدْر ٦، الطُّور ٦.٢٠، القَمَر ٦.٢٦، المُزَّمِّل ٦.٣٦، نُوح ٦.٥٠، الإنسَان ٧.٦٤، ق

[٧٧] القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٧ .

[٧٨] القرآن في مسار تطوّره – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٧ .

[٧٩] ينظر . القرآن في مسار التطوّر – في تحليل البنية اللفظيَّة والموضوعيَّة، ص٤٩ .

٨.١٥، ص٨.٢١، يَس ٨.٣٠، المُؤمِنُون ٨.٥٥، طَه ٩.١٤، مَرْيَم ٩.٢٢، الزُّخْرُف ٩.٤٣، الجِن ٩.٨١، البَيِّنَة ١٠، الأنْبِيَاء ١٠.١٣، المُلْك ١١، الفُرْقَان ١١.١٥، النَّمْل ١١.٩٦، السَّجْدَة ١٢.١٦، الرُّوم ١٣.٣٥، الجَاثِيَة ١٣.٦٠، الإسْرَاء ١١.٦٢، التَّغَابُن ١٣.٨٠، النَّحْل ١٣.٩٦، مُحمَّد ١٤.١٦، العَنْكَبُوت ١٤.١٧، فُصِّلَت ١٤.٤٨، الكَهْف ١٤.٥٩، غَافِر ١٤.٦٩، هُود ١٤.٨٦، إبْرَاهِيم ١٤.٩٢، الزُّمَر ١٥.٤٠، المُنَافِقُون ١٥.٤٥، الأعْرَاف ١٥.٥٧، سَبَأ ١٥.٦٠، يُوسِف ١٥.٦١، الجُمُعَة ١٥.٦٣، الأنْفَال ١٥.٦٤، الشُّورَى ١٥.٦٤، الصَّف ١٥.٦٤، القَصَص ١٥.٧٥، لُقْمَان ١٥.٨٢، الأحْقَاف ١٦، الحَج ١٦.١٥، يُونِس ١٦.٣١، فَاطِر ١٦.٤٨، الأحْزَاب ١٦.٦٦، آل عِمْرَان ١٧، الحَشْر ١٧، الأنْعَام ١٧.٩٦، الحُجُرَات ١٨.٤٦، التَّوبَة ١٨.٨٣، النَّصْر ١٩، الحَدِيد ١٩.٠٢، الفَتْح ١٩.٠٣، الرَّعْد ١٩.٥٨، النُّور ١٩.٦٩، البَقَرَة ٢٠.٣٧، النِّسَاء ٢١.٠٦، المُجَادَلَة ٢٢.١٩، التَّحْرِيم ٢٢.٦٠، المَائِدَة ٢٢.٩٠، الطَّلَاق ٢٣.٥٨، المُمْتَحَنَة ٢٣.٩٢.

الترتيب النُّزوليّ التفسيريّ وفوائده:

السُّلَّم النزوليّ لسور الخطاب القرآنيّ هو الترتيب الذي يطابقه الوصف بأنَّه ترتيب قرآنيّ؛ ذلك بأنَّه ترتيب يتوخَّى إنتاج تصوّر منطقيّ عن المسار التكوينيّ للنص القرآنيّ بلحاظ نزوله، فضلًا عن تقديم بيان قريب يراقب وقائع السيرة النبويَّة، وبما يحقِّق علاقة حميميَّة بين الخطاب القرآنيّ والنبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم [٨٠]؛ وصولًا إلى أنَّ ذلك يقود إلى أن ((يندمج القارئ في جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته، ومداه، ومفهوماته، وتتجلَّى له حكمة التنزيل))[٨١]؛ لذلك يمكن التعويض عن عدم اعتماد هذا السُّلَّم في تسلسل السور القرآنيَّة المباركة باعتماد قراءة التفسير في ضوء التسلسل النزوليّ؛ ذلك بأنَّ هذه القراءة تضعنا في أجواء الحدث القرآنيّ التصاعديّ الذي يراعي البناء الإنسانيّ، والكاشف عن عظيم الجهد الذي بذله النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم في إحداث التغيير وإنتاج الإصلاح في ظلِّ الهداية القرآنيَّة المتسلسلة. والكاشف قبل ذلك أيضًا عن الروح الكبرى وعظيم الاستعداد المُحمَّديّ لإحداث هذا التغيير، وتحمُّل أعبائه.

---

(٨٠) ينظر. مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، ص٢٤٣ – ٢٤٤، فهم القرآن الحكيم – التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأوَّل، ط٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٠، ص١٧–١٨، ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، الدكتور إحسان طه ياسين، مجلَّة الأطروحة للعلوم الإنسانيَّة، العدد الثامن، دار الأطروحة العلميَّة، بغداد ٢٠١٧، ص١٥٦ .

(٨١) التفسير الحديث – ترتيب السور حسب النُّزول، ج١، ص٩ . وينظر. ترتيب النُّزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، (بحث)، ص١٥٦ .

ومن الباحثين من أجده متحفِّظًا في الدعوة للتفسير في ضوء الترتيب النزوليّ خشية أن يذهب الظنُّ بأحدهم إلى أنَّ الحلول التي يقدِّمها الخطاب القرآنيّ حلول وقتيَّة للمشكلات التي كانت في عصر نزوله[٨٢] فقط ، أوأن ((يوحي للبعض أنَّ آياته خاصَّة بتلك الوقائع والحوادث التي وقعت في زمنه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ثم زالت، فضلًا عن كونه مخالفًا لما أُجمع عليه، والقرآن الكريم كتاب الله الخالد للبشريَّة جميعًا لا يختص بعصر من العصور دون عصر)) [٨٣].

ويأتي باحثون آخرون يرون ضرورة الإعراض عن التفكير في الترتيب النزوليّ، ويعدُّونه من الدعوات المشبوهة ذات المفاسد العظيمة التي تجرُّ إلى الفتنة والاضطراب[٨٤]. وهذه المقولات المتحفِّظة والرافضة كلُّها لا تصمد أمام فوائد الترتيب النزوليّ، ولا سيَّما ما يتعلَّق منها بمسألة ((تدبُّر النصوص التربويَّة والحركيَّة في طريق الإصلاح وأساليب الدعوة وألوان الجهاد التي تكشف عن التدرُّج في الخطوات التربويَّة، والتكرير في استعمال العلاج التربويّ بغية تأثيره والحصول على الفائدة منه))[٨٥]. ومن هنا جاءت الرغبة في إنتاج طبعة قرآنيَّة خاصَّة بالباحثين تعتمد ترتيب النزول، ولا سيَّما أنَّ ذلك لا يمنعه مانع عقائديّ[٨٦]؛ ذلك بأنَّ إحساسًا دقيقًا يتمثَّل في خلق الحراك العلميّ في ضوء هذه الطبعة النزوليَّة. فضلًا عن أنَّ التفسير في ضوء المنهج التاريخي النزوليّ ((هو أفضل منهج يمكن اعتماده في سبيل تقديم التفسير الصحيح والواضح للقرآن الكريم))[٨٧]، فيوفِّر ((حماية للمفسِّر والمتدبِّر من أخطاء تفسيريَّة))[٨٨]، إذ يحقِّق ذلك ((اجتنابًا للمعنى البعيد وطلبًا للصواب في فهم النص القرآنيّ))[٨٩]؛ فلا شكَّ في ((أنَّه الأفضل لفهم القرآن وخدمته))[٩٠].

---

[٨٢] ينظر . الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، ص٩ .

[٨٣] ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، (بحث)، ص ١٥٤ . وينظر . المناسبات بين الآيات والسور – فوائدها وأنواعها وموقف العلماء منها، الدكتور سامي عطا حسن، مجلَّة الشريعة والدراسات الإسلاميَّة، العدد الثالث والخمسون، جامعة الكويت ٢٠٠٣، ص ٣ – ٤ .

[٨٤] ينظر . ترتيب سور القرآن الكريم – دراسة تحليليَّة لأقوال العلماء، الدكتور طه عابدين طه، مجلَّة البحوث والدراسات القرآنيَّة، العدد التاسع، المملكة العربيَّة السعوديَّة، ص ٢٤، الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ إنموذجًا، ص ١٣ – ١٤ .

[٨٥] ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، (بحث)، ص ١٥٥ – ١٥٦ .

[٨٦] ينظر . القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، ص ٥، ٢٢ .

[٨٧] تاريخ الآيات والسور القرآنيَّة في دراسات المستشرقين – نقد وتحليل، الدكتور محمَّد جواد اسكندر لو، مجلَّة دراسات استشراقيَّة، العدد الثالث، العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، العراق، ٢٠١٥، ص ٩ .

[٨٨] ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، (بحث)، ص ١٥٦ .

[٨٩] ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، (بحث)، ص ١٥٧ .

[٩٠] التفسير الحديث – ترتيب السور حسب النُّزول، ج ١، ص ٩ .

ومن المظاهر المهمَّة في هذا السياق أنَّه ((يمكن استثمار ذلكم الترتيب الكريم في عمليَّة استنهاض القوى المركوزة في نفوس المسلمين اليوم، فينطلقوا في ميادين الحياة الدينيَّة والدنيويَّة لاستئناف المدِّ الحضاريّ))(٩١)، ويظهر بشكل جليّ أنَّه ((على كلِّ ما في محاولة تتبُّع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمنيّ من قيمة ومن مساعدة على تصوّر منهج الحركة الإسلاميَّة ومراحلها وخطواتها، فإنَّ قلَّة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقًّا، كما أنَّها تجعل النتائج التي توصَّل إليها تقريبيَّة ظنيَّة وليست نهائيَّة يقينيَّة))(٩٢). معنى ذلك أنَّه ((يعين كثيرًا في فهم الأحداث القرآنيَّة، كما يعين في تتبُّع المراحل الزمنيَّة للدعوة الإسلاميَّة))(٩٣). وبالمقابل فإنَّ الترتيب المصحفيّ قد ((يفسد نظام التسلسل الطبيعيّ للفكرة، لأنَّ القارئ إذا انتقل من سورة مكِّيَّة إلى سورة مدنيَّة، اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيد، إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه))(٩٤).

ومن الضرورة بمكان أن يذكر في هذا السياق المنجز التفسيريّ النزوليّ الرائد في العصر الحديث من قبيل "بيان المعاني" للشيخ عبد القادر الملَّا حويش، و"التفسير الحديث" للشيخ مُحمَّد عزَّة دروزة، و"معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر" للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، و"فهم القرآن الحكيم" للدكتور مُحمَّد عابد الجابريّ. فضلًا عن الطبعة الرائدة "القرآن الكريم بالتسلسل التاريخي وفقًا للأزهر" المشفوعة بالحواشي التفسيريَّة، ووجوه القراءات القرآنيَّة، وبعض التعليقات العلميَّة النافعة.

والظاهر أنَّ أغلب أصحاب هذه التفاسير التي تبنَّت الترتيب النزوليّ قد ((لاحظوا فيه فلسفة البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للفرد والمجتمع المسلم. ويعدُّ هذا أمرًا مستحدثًا في علم التفسير، وقصدهم وضع القارئ في الإطار التاريخيّ للتنزُّل الكريم من جهة، ومن جهة أخرى استثمار خطَّة ترتيب النزول وحكمته وبركته في تربية الأمَّة روحيًّا وسلوكيًّا. وليس القصد معارضة الترتيب التوقيفيّ للقرآن الكريم، الذي يعدُّه العلماء أمرًا تعبُّديًّا يجب الالتزام به))(٩٥).

---

(٩١) أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للأمَّة الإسلاميَّة، (أطروحة دكتوراه)، ص ت .

(٩٢) في ظلال القرآن، سيِّد قطب، ط ١١، دار الشروق، بيروت ١٩٨٥، ج ٣، ص ١٤٢٩.

(٩٣) أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للأمَّة الإسلاميَّة، (أطروحة دكتوراه)، ص١٢٠ .

(٩٤) القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، ص٢٣ .

(٩٥) أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للأمَّة الإسلاميَّة، (أطروحة دكتوراه)، ص ث .

والظاهر أيضًا أنَّ أصحاب المشاريع الفكريَّة والسياسيَّة والإصلاحيَّة يجدون في التفسير في ضوء منهج الترتيب النزوليّ أفقًا نافعًا يلامس أهدافهم وأدواتهم في التغيير والدعوة.

على الرغم من إشارته إلى عدم استقرار الترتيب القرآنيّ في ظلِّ النُّزول، غير أنَّ المفسِّر الشيخ محمَّد عزة دروزة يعتمد ترتيبًا بعينه في تفسيره "التفسير الحديث" يراه الأقرب إلى أجواء النُّزول وعصره. وترتيبه النُّزوليّ:[٩٦]

العَلَق، القَلَم، المُزَّمِّل، المُدَّثِّر، الفَاتِحَة، المَسَد، التَّكوير، الأعْلَى، اللَّيل، الفَجْر، الضُّحَى، الشَّرح، العَصْر، العَادِيَات، الكَوثَر، التَّكاثر، المَاعُون، الكَافِرون، الفِيل، الفَلَق، النَّاس، الإخْلَاص، النَّجْم، عَبَسَ، القَدْر، الشَّمس، البُروج، التِّين، قُريش، القَارِعَة، القِيَامَة، الهُمَزة، المُرسَلَات، ق، البَلَد، الطَّارق، القَمَر، ص، الأعْرَاف، الجِن، يَس، الفُرقَان، فَاطِر، مَرْيَم، طَه، الوَاقِعَة، الشُّعراء، النَّمل، القَصَص، الإسْرَاء، يُونس، هُود، يُوسف، الحِجْر، الأنْعَام، الصَّافَّات، لُقمان، سَبَأ، الزُّمَر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحْقَاف، الذَّارِيَات، الغَاشِيَة، الكَهْف، النَّحل، نُوح، إبْرَاهِيم، الأنْبِيَاء، المُؤمِنُون، السَّجدة، الطُّور، المُلك، الحاقَّة، المَعَارِج، النَّبأ، النَّازِعَات، الانفِطَار، الانشِقَاق، الرُّوم، العَنْكَبُوت، المُطَفِّفين، البَقَرَة (أوَّل ما نزل بالمدينة)، الأنْفَال، آل عِمْرَان، الأحزَاب، المُمتَحَنَة، النِّسَاء، الزَّلْزَلَة، الحَدِيد، مُحمَّد، الرَّعْد، الرَّحْمَن، الإنْسَان، الطَّلَاق، البيِّنة، الحَشْر، النُّور، الحَجّ، المُنافِقُون، المُجَادَلَة، الحُجُرات، التَّحريم، التَّغابن، الصَّف، الجُمُعة، الفَتْح، المَائِدَة، التَّوبة، النَّصْر.

ويعود الشيخ دروزة فيعدِّل هذا الترتيب في ظلِّ ما بدا له من مرجِّحات قويَّة، ولحاظ المضمون والأسلوب اللذين يلهمان بترتيب طائفة من السور المباركة ضمن النسق المكِّي أوالمدنيّ. فيكون ترتيبه الجديد: [٩٧]

العَلَق، القَلَم، المُزَّمِّل، المُدَّثِّر، الفَاتِحَة، المَسَد، التَّكوير، الأعْلَى، اللَّيل، الفَجْر، الضُّحَى، الشَّرح، العَصْر، العَادِيَات، الكَوثَر، التَّكاثر، المَاعُون، الكَافِرون، الفِيل، الفَلَق، النَّاس، الإخْلَاص، النَّجْم، عَبَسَ، القَدْر، الشَّمس، البُروج، التِّين، قُريش، القَارِعَة، القِيَامَة، الهُمَزة، المُرسَلَات، ق، البَلَد، الطَّارق، القَمَر، ص، الأعْرَاف، الجِن، يَس، الفُرقَان، فَاطِر، مَرْيَم، طَه، الوَاقِعَة، الشُّعراء، النَّمل، القَصَص، الإسْرَاء، يُونس، هُود، يُوسف، الحِجْر، الأنْعَام، الصَّافَّات، لُقمان، سَبَأ، الزُّمَر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحْقَاف، الذَّارِيَات، الغَاشِيَة، الكَهْف، النَّحل، نُوح، إبْرَاهِيم، الأنْبِيَاء، المُؤمِنُون، السَّجدة، الطُّور، المُلك، الحاقَّة، المَعَارِج، النَّبأ،

---

[٩٦] ينظر . التفسير الحديث – ترتيب السور حسب النُّزول، محمَّد عزة دروزة، ط ٢، دار الغرب الإسلاميّ، القاهرة ٢٠٠٠، ج ١، ص ١٣ – ١٦ .

[٩٧] ينظر . التفسير الحديث – ترتيب السور حسب النُّزول، ج١، ص ١٧ – ٢٠ .

النَّازِعَات، الانفِطَار، الانشِقَاق، الرُّوم، العَنْكَبُوت، المُطَفِّفِين، الرَّعْد، الحَجّ، الرَّحْمَن، الإنْسَان، الزَّلْزَلَة، البَقَرَة (أوَّل ما نزل بالمدينة)، الأنْفَال، آل عِمْرَان، الحَشْر، الجُمُعَة، الأحزَاب، النِّسَاء، مُحَمَّد، الزَّلْزَلَة، الحَدِيد، مُحمَّد، الطَّلاق، البيِّنة، النُّور، المُنافِقُون، المُجَادَلَة، الحُجُرات، التَّحريم، التَّغابن، الصَّف، الفَتْح، المَائِدَة، المُمتَحَنَة، الحَدِيد، التَّوبة، النَّصْر.

ويقترح الدكتور مُحمَّد عابد الجابريّ ترتيبًا نزوليًّا جديدًا، يضع له مجموعة من الأسس التي يرى أنَّها تعزِّزه. وترتيبه المقترح هذا يتبنَّاه في كتابه "فهم القرآن الحكيم"، ويقيم الكتاب كلَّه على أساس منه:

العَلَق (قسمها الأوَّل)، المُدَّثِّر (قسمها الأوَّل)، المَسَد، التَّكوير، الأعْلَى، اللَّيل، الفَجْر، الضُّحَى، الشَّرح، العَصْر، العَادِيَات، الكَوثَر، التَّكاثر، المَاعُون، الكَافِرون، الفِيل، الفَلَق، النَّاس، الإخْلَاص، الفَاتِحَة، الرَّحمن، النَّجْم، عَبَسَ، الشَّمس، البُروج، التِّين، قُريش، القَارِعَة، الزَّلزلة، القِيَامَة، الهُمَزة، المُرسَلَات، ق، البَلَد، العَلَق (قسمها الثاني)، المُدَّثِّر (قسمها الثاني)، القَلَم، الطَّارق، القَمَر، ص، الأعْرَاف، الجن، يَس، الفُرقَان، فَاطِر، مَرْيَم، طَه، الوَاقِعَة، الشُّعراء، النَّمل، القَصَص، يُونس، هُود، يُوسف، الحِجْر، الأنْعَام، الصَّافَّات، لُقمان، سَبَأ، الزُّمَر، غَافِر، فُصِّلت، الشُّورى، الزُّخرُف، الدُّخان، الجَاثِيَة، الأحْقَاف، نُوح، الذَّارِيَات، الغَاشِيَة، الإنْسَان، الكَهْف، النَّحل، إبْرَاهِيم، الأنْبِيَاء، المُؤمِنُون، السَّجدة، الطُّور، المُلك، الحاقَّة، المَعَارِج، النَّبأ، النَّازِعَات، الانفِطَار، الانشِقَاق، المُزَّمِّل، الرَّعد، الإسْرَاء، الرُّوم، العَنْكَبُوت، المُطَفِّفِين، الحج، البَقَرَة (أوَّل ما نزل بالمدينة)، القَدْر، الأنْفَال، آل عِمْرَان، الأحزَاب، المُمتَحَنَة، النِّسَاء، الحَدِيد، مُحمَّد، الطَّلاق، البيِّنة، الحَشْر، النُّور، المُنافِقُون، المُجَادَلَة، الحُجُرات، التَّحريم، التَّغابن، الصَّف، الجُمُعة، الفَتْح، المَائِدَة، التَّوبة، النَّصْر.

وتتعزَّز فوائد الترتيب النزوليّ بأنَّه يشتغل على اللفت إلى القيم الحضاريَّة الداخلة في بناء المنظومة المجتمعيَّة وأفرادها ودمجها بالقيم العقائديَّة من قبيل إعلاء مقام القراءة والكتابة وتمجيد العلماء، وتطهير الروح والسرائر وتنقيتها من نجاستها المعنويَّة ونبذ الحسد والحقد والنفاق، والتحذير من الطمع والانغماس الدنيويّ، وتكريس الصبر على ظلم أولي القربى؛ بغية جذبهم ودرء عداوتهم على نحو تدريجيّ، وتأكيد روح الإيمان بالغيب ومواجهة الدعوات الماديَّة بما يوقظ الضمير وينمِّي المدارك ويعمِّق الوعي والفكر، وضرورة تكريم الإنسان ونشر العدالة الاجتماعيَّة، والحثّ على العمل والكسب والتنمية الاقتصاديَّة. ناهيك عن إبراز مظاهر السلوك الحضاريّ من نزاهة وحسن جوار وتواصل إيجابيّ والتدرُّج فيه، وصدق محبَّة، واهتمام بالفنون والبناء والعمران[٩٨].

---

[٩٨] ينظر . أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائديّ والسلوك الحضاريّ للأمَّة الإسلاميَّة، (أطروحة

ولهذا الترتيب مجموعة فوائد أخر منها ما يتَّصل بعلوم القرآن من قبيل معرفة الناسخ والمنسوخ، وتقدُّم المنسوخ في هذا السياق؛ وصولًا إلى دقَّة النظر في تحديد ذلك. ومنها ما يتَّصل بأبرز حوادث الإسلام وعقائده، مثل حادثة الإسراء التي نزلت آياتها بمكَّة؛ ما يستلزم أنَّ الإسراء بالنبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كان إسراء روحانيًّا جسديًّا؛ ذلك بأنَّ رأي الإسراء الروحانيّ فقط يرتبط برواية عائشة زوج النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم التي تشير إلى أنَّه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم لم يفارقها بجسده، ومن المعروف أنَّه تزوَّج بها في المدينة. ومنها ما يتَّصل بإثبات فضيلة لأهل بيت النبيّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أو لواحد من الصحابة في ضوء تحديد مكِّيَّة هذه السورة أو مدنيَّتها ما يجعلها تنصرف إليه بلحاظ مكانيّ محدَّد. ومنها ما يتَّصل بمعرفة التسلسل التاريخيّ الدقيق لحوادث الإسلام[٩٩]. فضلًا عن أنَّ هذا الترتيب يخلق حراكًا فكريًّا نافعًا، إذ يدفع التفكير في هذا الترتيب ومحاولة التطلُّع إليه نحو إعادة النظر في الروايات وما يكتنفها من مقولات نزوليَّة، مرورًا بضرورة التدقيق في مراحل النزول القرآنيّ، وانتهاءً بدمج عمليَّة الترتيب النزوليّ بالعمليَّة الرياضيَّة الإحصائيَّة وما يمكن أن ينتجه هذا الدمج من مبادرات علميَّة تعزِّز المقولات في السياق من جهة، وتعزِّز محاولة التحوّل بهذه المسألة من النظر الفكريّ الظنيّ إلى النظر العلميّ النسبيّ أو القطعيّ.

وهذه الفوائد كلُّها تأتي في ضوء الترتيب النزوليّ القرآنيّ في نظام دقيق، وهي تتوالى، وتأخذ بأطراف بعض. وهذا ما يميِّز النظر النزوليّ، ويجعله محورًا تدور حوله تلكم الفوائد والخصائص التنمويَّة البنَّاءة ذات المشروع الفكريّ التكامليّ الذي ينبغي أن يأتي في سياق التغيير والإصلاح.

وأجد أنَّ من الأدلَّة على أهمِّيَّة الترتيب النزوليّ القرآنيّ ما كان يعتمده بعض الصحابة في مصاحفهم، إذ يروى أنَّ عبد الله بن عبَّاس تـ ٦٨ هـ يرتِّب مصحفه ترتيبًا نزوليًّا، في حين كان غيره من الصحابة يعتمد الترتيب المصحفيّ المعروف أو ما هو قريب منه كثيرًا.

المصادر:

١- القرآن الكريم .

٢- الاتجاه العلمانيّ المعاصر في علوم القرآن الكريم – الجابريّ أنموذجًا، الدكتور سامي عطا حسن، جامعة آل البيت، الأردن ٢٠١٢ .

٣- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق : مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، المكتبة العصريَّة، بيروت ١٩٧٨ .

دكتوراه)، ص ١٦١ – ١٦٤، ١٧١، ٢٢٦، ٢٦٤، ٢٧٣ – ٢٧٤، ٢٧٧، ٣٠٦، ٣٢٢، ٣٢٨ – ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٦٦.

[٩٩] ينظر. قراءة نقديَّة في تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، ص٣٠١ – ٣٠٤ .

٤- أثر ترتيب نزول القرآن الكريم في البناء العقائدي والسلوك الحضاري للأمَّة الإسلاميَّة، علي عدلاوي، أطروحة دكتوراه، كليَّة العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة، جامعة تلمسان، الجزائر ٢٠١٣ .

٥- الأسس اللغويَّة لعلم المصطلح، الدكتور محمود فهمي حجازي، مكتبة غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ١٩٩٥ .

٦- أسماء القرآن الكريم وصفاته وأسماء سوره وآياته –معجم موسوعيّ ميسَّر، الدكتور آدم بمبا، ط١، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي ٢٠٠٩، ص ١٣ – ٤٢ .

٧- إسهامات الدراسة المصطلحيَّة في ترجمة التراث –دراسة تطبيقيَّة، بن صالح فتيحة، رسالة ماجستير، كليَّة الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بالقايد، الجزائر ٢٠١٧ .

٨- ألفاظ الحضارة في الشعر العربي في القرن الثاني الهجري –دراسة ومعجم، الدكتور علي زوين، المجمع الثقافي، الإمارات العربيَّة المتَّحدة ٢٠٠٦ .

٩- الله والإنسان في القرآن، توشيهيكو إيزوتسو، ترجمة: الدكتور هلال مُحمَّد الجهاد، ط ١، الطبعة العربيَّة للترجمة، بيروت ٢٠٠٧ .

١٠- البرهان في علوم القرآن، أبوعبد الله مُحمَّد الزركشي، تحقيق : مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، المكتبة العصريَّة، القاهرة ١٩٧٨ .

١١- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين مُحمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق : مُحمَّد علي النجَّار، ط ١، المكتبة العلميَّة، بيروت .

١٢- تاريخ الآيات والسور القرآنيَّة في دراسات المستشرقين –نقد وتحليل، الدكتور محمَّد جواد اسكندرلو، مجلَّة دراسات استشراقيَّة، العدد الثالث، العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة، العراق، ٢٠١٥ .

١٣- تاريخ القرآن، أبوعبد الله الزنجاني، ط ١، مؤسَّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهر ٢٠١٢ .

١٤- تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة : الدكتور جورج تامر، ط ١، مؤسَّسة كونراد –أدناور، بيروت ٢٠٠٤ .

١٥- تاريخ القرآن، الدكتور مُحمَّد حسين علي الصغير، ط ١، دار المؤرِّخ العربي، لبنان ١٩٩٩ .

١٦- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر مُحمَّد بن الحسن الطوسي، تحقيق : أحمد حبيب قصير العاملي، ط ١، دار إحياء التراث العربي، مكتب الإعلام الإسلامي، إيران ١٩٨٩ .

١٧- التحقيق في كلمات القرآن الكريم، العلَّامة المصطفوي، ط ١، مركز نشر آثار العلَّامة المصطفوي، إيران .

١٨- ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم، الدكتور إحسان طه ياسين، مجلَّة الأطروحة للعلوم الإنسانيَّة، العدد الثامن، دار الأطروحة العلميَّة، بغداد ٢٠١٧ .

١٩- تفسير أبي السعود، القاضي أبوالسعود العمادي، وضع حواشيه : عبد اللطيف عبد الرحمن، ط ١، دار الكتب العلميَّة، بيروت ١٩٩٩ .

٢٠- التفسير البنائي للقرآن الكريم، الدكتور محمود البستانيّ، مجمع البحوث الإسلامية، إيران ١٤٢٤ .

٢١- التفسير البياني للقرآن الكريم، الدكتور عائشة عبد الرحمن، ط ٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٩ .

٢٢- التفسير الحديث –ترتيب السور حسب النُّزول، محمَّد عزة دروزة، ط٢، دار الغرب الإسلاميّ، القاهرة ٢٠٠٠ .

٢٢- الجهود اللغويَّة في المصطلح العلميّ الحديث، الدكتور مُحمَّد علي الزركان، منشورات اتِّحاد الكتَّاب العرب، دمشق ١٩٩٨ .

٢٣- الرسالة التامَّة في فروق اللغة العامَّة، مُحمَّد جعفر الكرباسيّ، ط١، دار الشؤون الثقافية العامَّة، بغداد ٢٠٠٩ .

٢٤- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود شهاب الدين الآلوسيّ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت .

٢٥- الظاهرة القرآنيَّة، مالك بن نبي، ترجمة : عبد الصبور شاهين، ط ١٠، دار الفكر، دمشق ٢٠١٢ .

٢٦- عتبات جيرار جينيت من النصِّ إلى المناص، عبد الحق بلعابد، تقديم : الدكتور سعيد يقطين، ط ١، منشورات الاختلاف، الجزائر ٢٠٠٨ .

٢٧- عتبة البياض في النظريَّة والتطبيق –قراءة سيميائيَّة في مدوَّنة سلمان داود مُحمَّد الشعريَّة، الدكتور رحمن غركان، ط ١، دار تمُّوز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ٢٠١٨ .

٢٨- علم المصطلح – أسسه النظريَّة وتطبيقاته العلميَّة، الدكتور علي القاسمي، ط ١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ٢٠٠٨ .

٢٩- الفروق الدلالية في الأسلوب القرآني، الدكتور حسين عودة هاشم، ط ١، دار ومكتبة البصائر، لبنان ٢٠١٣ .

٣٠- الفروق اللغويَّة، أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، علَّق عليه ووضع حواشيه : مُحمَّد باسل عيون السود، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٠ .

٣١- الفهرست، ابن النديم، دار الكتب العلميَّة، بيروت ٢٠٠٢ .

٣٢- فهم القرآن الحكيم – التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأوَّل، ط ٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠١٠ .

٣٣- في آليَّات فهم الخطاب الديني عند محمَّد عابد الجابري –مدخل ' إلى القرآن الكريم أنموذجًا، فتيحة ذيب، أطروحة دكتوراه، كليَّة الآداب واللغات، جامعة محمَّد لمين دباغين، الجزائر ٢٠١٨ .

٣٤- في ظلال القرآن، سيِّد قطب، ط ١١، دار الشروق، بيروت ١٩٨٥ .

٣٥- القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، الدكتور خالد إسماعيل علي، مكتب سناريا، بغداد ٢٠٠٤ .

٣٦- القرآن الكريم بالتسلسل التاريخيّ وفقًا للأزهر، الدكتور سامي عوض الذيب أبو ساحلية، ط ٣، مركز القانون العربي والإسلامي، سويسرا ٢٠١٦ .

٣٧- القرآن –نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، بلاشير، ترجمة: رضا سعادة، ط ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤ .

٣٨- قراءة نقديَّة في تاريخ القرآن للمستشرق ثيودور نولدكه، حسن علي حسن مطر الهاشمي، ط ١، دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع، العراق ٢٠١٤ .

٣٩- كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني تيودور نولدكه –ترجمة وقراءة نقديَّة، الدكتور رضا محمَّد الدقيقي، ط ١، دار الميمان للنشر والتوزيع، قطر ٢٠٠٩ .

٤٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله الزمخشريّ، دار الفكر بيروت.

٤١- لسان العرب، ابن منظور، تصحيح : أمين مُحمَّد عبد الوهاب، مُحمَّد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠١٠ .

٤٢- مباحث في علوم القرآن، الدكتور صبحي الصالح، ط ١٠، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧ .

٤٣- مباحث في علوم القرآن، منَّاع القطَّان، ط ٧، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٩٥ .

٤٤- مدخل إلى عتبات النصِّ –دراسة في مقدِّمات النقد العربي القديم، عبد الرزاق بلال، تقديم : إدريس نقوري، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ٢٠٠٠ .

٤٥- مدخل إلى القرآن الكريم – الجزء الأوَّل في التعريف بالقرآن، الدكتور مُحمَّد عابد الجابريّ، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦ .

٤٦- المستشرقون والدراسات القرآنيَّة، الدكتور محمَّد حسين علي الصغير، ط ١، دار المؤرِّخ العربي، بيروت ١٩٩٩ .

٤٧- المستشرقون والمصطلح، الدكتور عقيد خالد العزاوي، والدكتور مصطفى عبد الستَّار مول، وقائع الدورة الخامسة والعشرين لمؤتمر بغداد السنوي، جامعة بغداد، كليَّة التربية للبنات، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، بغداد ٢٠١٧ .

٤٨- المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، الدكتور خليفة الميساوي، ط ١، منشورات ضفاف، دار الأمان، الرباط ٢٠١٣ .

٤٩- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق : صفوان عدنان داوودي، ط ١، دار القلم، دمشق ١٩٩٦ .

٥٠- المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم، الدكتور مُحمَّد حسن حسن جبل، ط ٢، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠١٢ .

٥١- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، الدكتور مُحمَّد مُحمَّد داوود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٨ .

٥٢- معجم القاموس المحيط، مجد الدين مُحمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي، رتَّبه ووثَّقه : خليل مأمون شيحا، ط ٤، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠٤ .

٥٣- معجم مفاهيم القرآن وألفاظه، الدكتور مُحمَّد بيستوني، ط ١، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت ٢٠١٥ .

٥٤- مفاهيم القرآن، جعفر السبحانيّ، ط ١، مؤسَّسة الإمام الصادق، إيران .

٥٦- الميزان في تفسير القرآن، مُحمَّد حسين الطباطبائيّ، ط ١، مؤسَّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩٧ .

٥٧- نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، تحقيق : هاشم الميلانيّ، العتبة العلويَّة المقدَّسة، النجف الأشرف ٢٠١٠ .

آليات التوقع في النص
الكلمة والسياق

الأستاذة الدكتورة نصيرة أحمد
كلية الاداب/ جامعة بغداد

الملخص:

هذا بحثٌ في (آليات التوقع) وأزعم انه جديد في مجال النقد النّصي وقد تناوله البحث في السياق اللغوي ثم السياق الشعري من خلال تحليل بعض النصوص الشعرية التي تقدم كشفا عن آليات استعمال مصطلح (التوقّع) الذي يأتي بمعية مصطلح اخر هو (التنبؤ) ويكون أخصّ في الاستعمال العام من مصطلح (التوقع) وينشط في المواد العلمية والبحوث النفسية والتنمية البشرية وأحيانا يجمع الباحثون بينهما فقد ورد في الويكيبيديا ان التنبؤ هو عملية الإدلاء بتوقّعات لاحداث يُنتظر حدوثها. والتوقّع مصطلح مماثل، ولكنه اكثر عمومية وقد يشيران على حدٍّ سواء الى الطرق الإحصائية، وأما (نظرية التوقع) فقد ذاعت كثيرا لدرجة انها أصبحت مقبولة علميا كإحدى نظريات الدافعية والأداء المعروفة، ويعرّف التوقّع في علم النفس بأنه التفكير في حدوث أمرٍ ما في المستقبل بناء على شواهد وأدلة في الحاضر فإن لم يكن هناك دليل فهو (حدس). وفي القواميس الإنكليزية يستعمل نظيره لفظ expectıon او foreseeing وهذا يقابل Discovery of the unknown of future by supernatural means clever guss of porecast. وفي هذا البحث سنستعمل (آليات التوقع) بطريقة الكشف النّصي عن آفاق الحدس التي تجمعُ بين المبدع والمتلقي في أنساق معينة في البيت الشعري العربي الكلاسيكي والحديث. وأما (أفق التوقع) فقد كان مستوى مبكرا من مستويات نظرية التلقي وهذا الأمر يدخلنا في نظريات القراءة والتأويل، فمثلا يكشف (ياوس) عن أُفق التوقعات بأنها المقاييس التي يستعملها القرّاء في الحكم على النصوص الأدبية في أي عصر، وهذا المصطلح يتداخل في آراء بعض النُّقاد ويختلف فيما بينهم، فهانز. جادامير يشير الى مدى الرؤية الذي يشمل كل شيء يمكن رؤيته من موقع محدد مناسب، وأما الأستاذ جمبرش فيعرِّفَهُ بأنّهُ جهاز عقلي يسجّل الانحراف والتحويرات بحساسية مفرطة، وهذا يمضي بنا الى النظريات الظاهراتية الألمانية، وقد اعتمد ياوس في الكشف عن أُفق التوقع على نظرية التأويل (الهرمينوطيقيا) عند جادامير الذي يرى ان كل تفسير لأدب الماضي انما ينبع من حوار بين الماضي والحاضر. في هذا البحث سنخصص الحديث عن (آليات التوقع) في النص لدى القارىء بطريقة الكشف عن الانساق المصغرة في

النص الشعري انطلاقا من الكلمات الموحية وما يرتبط بها من سياقات في الجمل الشعرية علما أن هذا التوقّع للانساق قد يصحّ أو لايصحّ وأطلقنا مصطلح (التوقع المماثل) على التناغم في التوقع بين المبدع والمتلقي وأما الاختلاف في ذلك فقد أطلقنا عليه (توقع السلب).

المقدمة:

يتّفق أهل النقد على أنّ الكلمة في السياق الشعري هي كلمةٌ موحية بذاتها بنسبة معينة، لكنها تستظل بقدرة السياق والكلمات المجاورة، لتقديم مستويات أرفع من الدلالات التي يقع عليها الاختيار، وهذا يحيلنا إلى سلسلة من الافتراضات في حدود التأويل الأدنى أو التأويل العميق الذي من شأنه أن يُمسك حدود الانفعال المؤقت لمعدّل التأثير الإيجابي أو السلبي لوقع الكلمة بافتراض القبول المستسلم لموقعها في سياق معين.

وبعيدا عن دلالة (الكلمة) في معناها اللغوي الذي يضعنا في حرج اقناعي بيّن فإن مدلولها الاصطلاحي يبقى في دائرة التركيز والاختصار، إنما يعوّل الأمر على التأويل والشرح الذي تقُدّمه جمهرةٌ من علماء النحو واللغة، والوضع لايسلم من إبداء مقولات مقنّنة لأساليب أهل المنطق الذي يرقى الى التلاعب بالألفاظ ومناقلة المفردات ومحاولة سدّ الثغرات الدلالية فيما تخلفه (الحدود) المطروحة والمقترحة أحيانا، وبحسب بنية الثقافة والمستويات الفكرية التي تتوالى زمنيا لتعود وتلتقي بحدّ بيّن لاصطلاح الكلمة يبدأ بالإطلاق الأول تقريبا الذي قدّمه الزمخشري(٥٣٨هـ) بأن الكلمة هي " اللفظ الدالة على معنى بالوضع" وهذا الحدّ مشابه لما بعده من التعريفات التالية حتى نصل الى الاطلاق الثاني الذي يُجري تعديلا فارقا في الاصطلاح ويعود لأبي حيّان الاندلسي(٧٤٥هـ) بذات التركيز والاختصار بقوله: الكلمة " قول موضوعٌ لمعنى مفرد " الى أن يأتي الاطلاق الثالث لحدّ الكلمة قبل أن يقدِّمه ابن هشام الذي يعمد الى تهذيب التعريف واختصاره بحدّ مقترح يظنّ أن فيه تكاملا في الدلالة بقوله: إنّ "الكلمة قولٌ مفردٌ"، ولا يختلف حدّ ابن الحاجب (٦٤٦هـ) للكلمة عمّا قدمه الزمخشري، إذ يعرّف الكلمة بقوله: " الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد".

ومن الطريف ان شروح علماء النحو واللغة للتعريفات السابقة تغني دلالة الحدّ كثيرا وتكشف عن تأويلات مُقنِعة لسدّ ثغرات التعريف بهذا المصطلح، وهنا يتبادر السؤال الآتي: فلِمَ كان الاختصار والتركيز في تقديم الحدّ الى الاختزال الذي يصل الى تقديم مفردتين فقط في تعريف ابن هشام للكلمة على أنها (قول مفرد) فلا داع للتفصيل أكثر برأيه؛ لأن المفردتين مكتفيتان بدلالتيهما القطعية ولا احتمال عقلي يتراءى في الانحاء! وهنا يحلو للمطّلع أن يتحرّى بعضا من هذه التعليقات والشروح ونبدأ بابن يعيش في شرح المفصل، إذ يعمد الى شرح تعريف الزمخشري الذي نوهنا به سابقا الكلمة هي "اللفظة الدالة على معنى بالوضع" اذ يقول: " فاللفظةُ جنسٌ

للكلمة، وذلك لأنها تشمل المهمل والمستعمل، وقوله الدالة على معنى فصله من المهمل الذي لايدلّ على معنى، وقوله بالوضع فصل ثالث احترز به عن أمور منها ما قد يدلّ بالطبع وذلك كقول النائم: أخخ.. فانه يُفهم منه استغراقه في النوم " وأمّا الرضيّ فيشرح تعريف ابن الحاجب ٦٤٦هـ بقوله: " الكلمة لفظ وُضعَ لمعنىً مفرد: ويقول: " إنّ اللفظَ المأخوذ جنسا فيه هو قيدٌ احترازيّ على نحو الخطّ والعَقْد والإشارة فانها ربمّا دلّتْ بالوضع على معنًى مفرد، وليست بكلمات ويجوز الإحتراز بالجنس أيضا اذا كان أخصّ من الفصل بوجه وهو هنا كذلك؛ لأن الموضوع للمعنى المفرد قد يكون لفظا وقد لايكون"[١] ثم يعقّب بملاحظتين أُولاهما: إنّ المقصود من قولهم: (وُضِعَ اللفظ) جعْله أولا لمعنى من المعاني مع قصد ان يصير متواطئا عليه بين قوم ... فلم يكنْ محتاجا الى قوله (لمعنى)؛ لأن الوضع لايكون الا لمعنى"[٢]. والثانية " قوله: (لمعنى مفرد) يعني المعنى الذي لايدلّ جُزء لفظه على جزئه.. والمشهور في اصطلاح أهل المنطق جعل المفرد والمركّب صفة اللفظ فيقال اللفظ المفرد واللفظ المركّب، ولا ينبغي ان يُخترعَ في الحدود ألفاظ، بل الواجب استعمال المشهور المتعارف منها فيها؛ لان الحدَّ للتبيين، وليس له أن يقول : إني اردت بالمعنى المفرد المعنى الذي لا تركيب فيه، لان جميع الأفعال، تخرج عن حدّ الكلمة ولو قال : الكلمة لفظٌ مفردٌ موضوع سلم من هذا " [٣].

ويعقّب ابن هشام على تعريف ابن حيّان الذي نوهّنا به (الكلمةُ قولٌ أو منويّ معه دالّ على مفرد) والتعريف الثاني المختصر له: (الكلمةُ قولٌ موضوعٌ لمعنى مفرد) بقوله: " انه لو عرّف الكلمة بأنها: (قول مفرد) لكان أولى من وجهين أحدهما أنه أحضر مع تحصيله للمعنى المقصود، والثاني: انه لا يُوهم غير الواقع، فان كلامه ربّما أوهم قولين باطلين: أحدهما: إنّ القول غير موضوع، والثاني: إنّ المركب معناه بالوضع وإنما هذا شأن المفردات التي يتولّى بيانها اللّغوي فأما المركبات فدلالتها على معناها التركيبي دلالةٌ عقلية لا وضعية "[٤].

وهنا ننوّه بأمر أن الزمخشري استعمل اصطلاح (اللفظ) في حدّه وفيه احتراز من ذهاب الذهن الى دلالات أخرى كالخَط والعقْد والنَصبة والإشارة التي نوّه بها الرضيّ فإنها رُبّما تدلّ بالوَضع على معنى مُفرد وليستْ بالكلمات وهذا أمرٌ مهمّ يَغلقُ الحدّ على الأداء الصوتي الملفوظ الموضوع متواطئا عليه بين جماعة من الناس. فلا يمكن ان يدخل فعل أداء الحيوان الصوتي مثلا؛ لأنه يخرج عن هذا فهي ممارسة بشرية؛ لانها موضوعة متواطأ عليها... وهذا يؤكّده

---

[١] شرح الرضي ج١/٢٢-٢٣.

[٢] م.ن.

[٣] م.ن.ج١/٢١/٢٢.

[٤] شرح اللمحة البدرية ج١/٢٠٧/٢٠٨.

التعريف الأول للزمخشري (اللّفظة الدّالة على معنًى بالوَضع)، والتحوّل المهم في تعريف أبي حيّان أنه أستبدل (اللّفظ) بـ(القول) بحدّه المعرّف للكلمة بأنها: "موضوعٌ لمعنًى مفرد"، وللعلماء كلامٌ كثيرٌ في هذا الاستبدال لا نُريد الخوض فيه الآن، والذي يُهمّنا ان مفردة (لفظ) تدلّ على إيحاء صوتيّ ومنطوق بشريّ فيه دلالةٌ وضعيةٌ لقوم تواطئوا عليها، وفيها احتراز كبير من تشتّت الدلالة الذي تُوحي به مفردة (قول)، على ان المفردة الأخيرة ترتكز على الأداء الصوتي أيضا، فالشرط الأول في حدّ الكلمة بحسب تعريفاتهم ان تكون أداءً صوتيا، فلا تُطلق على كيانٍ صامتٍ لا ينطق، وأما الإشكال الذي يخصّ مفردة (القول) بحسب آراء علماء اللغة فإن (القول) ليس فيه احتراز من معنى الدلالة الى مفهوم الحديث والكلام أو العبارة الواسعة على الرغم من تلافي المعرّف ذلك باستكمال جملة الحّد بأن الكلمة قولٌ موضوعٌ لمعنى مفرد فبذلك يقطع آنصراف الذهن الى تداخل الدلالة في قضية الوضع والتركيب، إذ يَفرض ابن هشام حدّه المختصر الذي يسدّ منافذ التأويل عن حدّ الكلمة بكونها "قول مفرد" فليس بنا حاجة برأيه أن نقول: قولٌ موضوعٌ؛ لان القول هو موضوعٌ بذاته لمعنى معين فلا نحتاجُ الا للإفراد فكانت لفظة (مفرد).

الذي يُهمنا هنا هو القضية الصوتية فالعلماء العرب بتعريفهم للكلمة في الاختيارين الذين نوّهنا بهما " اللّفظ والقول" اشترطوا ان يكون التعريف مرتبطا بالقضية الصوتية والنُطق لا ان تكون رموزا تواطأ عليها الناس، وهذا يُوصلنا الى الحدود التي مضى عليها كَثيرٌ من العلماء الغربيين في تعريف اللّغة ومنهم سوسير من ان "اللغة نظام من الرموز التي يستدعيها حدوث الكلام الفعلي"[٥]. وهنا ننوّه بلفظة (الرموز) ونرى انه مصطلح عائم يحتاج لألفاظ أخرى ليتمّ الحدّ، فاحتاجَ الى لفظة (نظام) فضلاً عن (الإستدعاء) كذلك (الحدوث) والمصطلح الأهم هو (الكلام الفعلي).

وقبل ان نقرّر شيئا نُثبت أن سوسير صاحب المدرسة التي تفرّق بين اللغة والكلام أي بين النطق والنظام، ولا يتفق معه أصحاب المدرسة الإنكليزية الحديثة وعلى رأسها العالم اللغوي (فيرث) يقول الدكتور كمال بشر: " ولكن أكثر اللغويين المعاصرين وفي مقدمتهم أتباع المدرسة الإنكليزية الحديثة بريادة فيرث لا يرون هذا الرأي ولا يأخذون به، فالتفريق بين اللغة (أي اللّغة المعيّنة) والكلام عندهم ليس له [مايسوّغه] من حديث المنطق والواقع، إذ هما جانبان لشيءٍ واحدٍ، أوأنهما مصطلحان يطلقان على مسمّى واحد، وكل منهما اجتماعي فردي وكل منهما عقلي ومادي وهما متداخلان الى درجة يصعب التفريق بينهما"[٦].

---

(٥) الكلمة .. اولمان / ٣٢.

(٦) م.ن./٣٦.

ولسنا في مجال إعادة البحث في هذه القضية التي طال الكلام فيها الى درجة كبيرة، ولكن الإشكال في ربط الصوت بالرمز، أو تفريقه عنه والواضح ان الرمز مرحلة تالية للصوت المنطوق فاجتمع الاثنان لاحقا تحت مسمّى واحد هو اللغة، وهذا يؤكّده تعريف سوسير في عبارته الآتية: (التي يستدعيها)، إذ إن هذه العبارة تؤكد على كون الرموز هي مرحلة تالية للكلام المنطوق فضلا عن أن هذه الرموز اجتمعت تحت نظام معين تواطأ عليه الناس، والا ستخرجُ من كونها سياقا اجتماعيا وُضعتْ لتفاهم الافراد او للتعبير عن حاجاتهم.

يبدو ان هذا يُحيلنا على تعريف الكلمة، فالكلمة أيضا نظام من الرموز فكلمة (كَتَب) مجموعة من الرموز تحت نظام معين مُقنع، ولو أحدثنا تغييرا في الترتيب لكانت كلمة أخرى لها دلالات أخرى كأن تكون (بكت) ولو أبدلنا بعض الحروف كأن نقول (كتم) أو (كتع) سنخرج الى دلالات أخرى، والأمر يحدث في الجملة أيضا فلو قلنا: (كتب الطالب) او (كتب البحر) أو (كتبت الشجرة) فهذا تغييرٌ في نظام الرموز التي لا تُقنع المجموعة البشرية التي تواطأتْ على ان الكتابة من فعل البشر، الا ان نُدخل الدلالة الى المستويات التعبيرية المتعدّدة التي يَنطق بها الشعر وهنا يكون للتأويل فعله لتحقيق مفترضات إقناعية للمجموعة البشرية؛ لإفهامها بأن الشجرة يمكنها أن تكتبَ في زمن ما او في إحساس ما؛ لإعادة نظام الرموز الى مستواه الأول، والامر ينطبق على المفردة أو الكلمة... ان قلنا (قمر) ونقصدُ بذلك فتاة جميلة ولم تُحقَق الفعلية لحدوث (الفاعل) كأن تكون جاءتْ او ذهبتْ او وقفتْ... فهنا يكون استدعاء الرموز (المفردة) مخيّبا للآمال؛ لأننا عدنا الى المستوى الانفعالي الذي ربّما يكون هو المستوى المبكر لنشأة اللغة، والأمر يخصّ (الفردية) التي هي صفة للكلمة كما قال أبو حيان في تعريفه الذي نوّهنا به للكلمة بأنّها (قولٌ موضوعٌ لمعنًى مفرد)، وقضية (حدوث الكلام) في تعريف سوسير تُشبه الى حدّ ما لفظة (موضوعٌ) في تعريف ابي حيّان التي اعترض عليها أبن هشام من ان القول موضوعٌ بحدّ ذاته فليست بنا حاجة الى تأكيد (الوضع) بلفظة لاحقة كذلك الحدوث بالنسبة للكلام، فالكلام يشير الى معنى التحقّق والحدوث. هنا يُمكن ان نؤشر تداخلا يحدث في حدّ الكلمة او اللغة الاّ ان نُدخل مفهوم الفردية او الافراد لنخرج مدلول الكلمة وحدها، ولكن مدلول الكلمة يُحيلنا دائما الى سياق معين: "ولكن الأصوات والكلمات ليست هي الوحدات الوحيدة للكلام اننا لا نتّكلم كلمات مفردة ولكننا نكوّن منها تراكيب.. عبارات او جملا ووحدات اكبر من ذلك ووظائف هذه الوحدات هي بيان الارتباطات والعلاقات بين الأشياء، اما الأشياء أنفسها فيرمز اليها بالكلمات المفردة وقد تقوم الكلمة الواحدة في الحالات القصوى مقام النطق الكامل.." [٧] وهذه الحالة القصوى تشبه الى حدّ ما منطوقنا للفظة (القمر) ونحن نريد فتاة، او نرى طفلا يبحث في

---

[٧] دور الكلمة في اللغة/ستيفن اولمان/ ٣٤.

الازبال عن لقمة فنقول كلمة واحدة: (بؤس)، ولسنا مضطرّين الى نشرح ونقول : إنّ هذا الطفل فقيرٌ، ويشعر بالجوع فاضطرّ الى أن يبحث في الأزبال عن لقمة تسدّ جُوعه، والأمر لايمكن ان يتعدّى الى الكناية في البلاغة: لان الكناية تتطلب سياقا حتى لو كان مختصرا (جملة مصغّرة) مثل قولنا: (كثيرُ الرماد) كناية عن إنسان كريم، وفي هذا يقول كاردنر "إنّ الكلمة ليست دائماً وحدة صوتية للكلام المتصل، ولكنها مع ذلك تحتفظ بذاتيتها الصوتية في ذهن السامع ضمن الاطار العام لنظام اللغة"[٨]، وهنا يمضي تعريف اللغة وتعريف الكلمة باتجاه واحد هو المستوى الصوتي. فأغلب تعريفات اللغويين تشير الى ان اللغة تستدعي مفهوم (الصوت) حتى في تعريف سوسير الذي نوّهنا به (حدوث الكلام) هو عبارة عن أصوات، أما تعريف ابن جني وهو رائدٌ في تعريف اللغة "أصوات يعبّر بهاكلّ قومٍ عن أغراضهم.."على الرغم من اقتصاره على مفهوم الكلام واستبعاده للرموز ونظامها المتواطأ عليه بين مجموعة بشرية، ولكن الامر الواضح ان احدهما يؤدي الى الآخر. فعندما ننطق لفظة (بحر) فاننا نستدعي الأصوات الثلاثة (ب، ح، ر) في اذهاننا، ولتحقيق الامر اكثر فإننا نكتبها كتابة (بحر) بالأصوات الثلاثة التي تواطأ عليها الناس في رقعة معينة من الأرض. والكلام يُحيلنا على قضيتين: الأولى اسم الذات، والمعنى، والثانية قضية السياق، ففي تعريف الاسم يورد العلماء ان اسم الذات هو مادلّ على شيء ثابت معين، واما مادلّ على صفة فهو اسم معنى، وفي بعض الأحيان يُمكن ان يكون الاسم اسم ذات ويمكن ان يكون اسم معنى فاذا قلنا: علي شجاع، هنا تكون كلمة شجاع اسم معنى لكنها يمكن ان تتحول الى اسم ذات في قولنا: الشجاعة عظيمة. فالسياق يلعب دوره في تحديد نوع الاسم، ولكن خصوصية الكلمة، وانفرادها تحيل على مستوى معين في الذهن لا يُحقّق التجوّز الذي يمنحه السياق وتناقلاته الدلالية. فلو قلنا: سيارة، شجرة، سماء.. فلا يذهب الذهن بعيدا عن المعنى الفعلي المتحقق في هذه الألفاظ (تقريبا) كونها أسماء ذوات جاءت مفردة، فذهاب الذهن الى مستويات دلالية أخرى لا يتحقّق في افرادية هذه الأسماء انما يمكن ان يتحقق في سياقات معينة، ولكن لوقلنا براءة، فالذهن يمكن ان يمضي الى مستويات دلالية أخرى فهو اسم معنى كما صنّفه العلماء، من غير حاجة الى سياق معين، وكما يقول اهل المنطق فان اسم المعنى هو الذي يحيل على صفة اتصف بها اسم الذات كالسرعة والمهارة والخوف... ويبدو أن المستوى الوضعي الأول للكلمة هو اسم الذات؛ لان الذوات هي الأشياء الأولى التي وقعت عليها عين الانسان التي لم تكن دائما بها حاجة الى سياق لتنهض بقنوات التواصل الأول، ولكن أسماء المعنى تلت الوضع الأول للكلمة فهي تابع للذات فضلا عن كونها بها حاجة دائما الى سياق معين لتوثيق التعبير الإنساني، أي ان تعريف اسم الذات أقرب الى تعريف الاسم في النحو

---

[٨] دور الكلمة في اللغة/٥٢.

أي انه لفظ يدل على معنى بنفسه.

وهنا نصل الى الامر الثاني الذي نوهنا به وهو (إشكالية السياق) وعلاقته بالكلمة المفردة، وبحسب أولمان اننا لانتكلم كلمات مفردة ويقول أيضا: "إنّ الصوت والكلمة والتركيب النحوي هي الوحدات الثلاث للكلام المتصل وهذه الوحدات تدخل في النظام اللغوي الخاص بكل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية بعد ان تستخلص من احداث كلامية لا حصر لها سواء اكانت هذه الوحدات مسموعة ام منطوقة "[٩]. وبهذا يكون مفهوم السياق اللغوي هو (حصيلة استعمال الكلمات داخل نظام الجملة عندما تتساوق مع كلمات أخرى مما يكسبها معنًى خاصّا محدّدا)، فالاحتمال لايدخل مفرداته التي دخلتْ على وفق نظام معين وبعبارة أخرى يقول اولمان " السياق هو "النظم" اللفظي للكلمة وموقعها من ذلك النظم"[١٠] وبأوسع معاني هذه العبارة فإن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللّاحقة فحسب بل والقطعة كلها والكتاب كله. وينبغي ان يشمل بوجهٍ من الوجوه كل ما يتصّل بالكلمة من ظروف وملابسات... وكثيرا ما يردّدون القول بأن الكلمات لامعنى لها على الاطلاق خارج مكانها في النظم، يقول القائل: "عندما استعملُ كلمةً يكون معناها هو المعنى الذي اختاره لها فقط لا أكثر ولا أقل" ويوضّح أولمان: "ان الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفرق بين الكلام واللغة وهذا الفرق يتمثّل في ان السياقات إنّما تكون في المواقف الفعلية للكلام... وان معاني الكلمات المخزونة في أذهان المتكلمين والسامعين لا تحظى بالدّقة والتحّديد إلاّ حين تضمّها التراكيب الحقيقية المنطوقة، ولكن هل هذا يعني ان الكلمات المفردة لامعنى لها على الاطلاق؟ كيف نصنّف المعاجم اذا لم يكن لهذه الكلمات معانٍ؟ إن عدم وضوح الفرق بين الكلام واللغة قد عاق كثير من العلماء عن منح الكلمات المفردة نصيبها من الاستقلال الذي تستحقّه"[١١].

هنا نودّ أن نشير الى أمرٍ هو ان الكلمة لها ايحاؤها الخاص المفترض الأول وفيها تكمن الطاقة الموحية ضمن خاصية محدّدة، فإن دخلت ضمن تركيب معين ستنتقل بالفعل الادائي الفردي المستخلص من تواطؤ متعارف عليه الى طاقات ايحائية لامتناهية بحسب النظام التركيبي الذي دخلت فيه ويكون للحدث الكلامي الفعلي دور مهم في الانتقاء والاحالة والتنسيق يحكمه الانفعال بالحدث فضلا عن تعلقه بالزمان والمكان وكذلك تنظمّ اليه خصوصية المجموعة الإنسانية التي تتحكم بخصوصية التعبير .هنا سنعارض حتما أصحاب النظرية السياقية برائدها (فيرث) الذين يعدمون كل فعل لكل مفردة، إذ تظلّ بها حاجة دوما الى سياق معين يمنحها قيمة

---

[٩] دور الكلمة في اللغة/ ستيفن أولمان/ ٣٣.

[١٠] دور الكلمة /٦٢.

[١١] م.ن.

دلالية، فمعنى الكلمة لديهم "يكمنُ في استعمالها في اللّغة والدور الذي تؤدّيه وبهذا يُكشف المعنى من خلال السياق الذي تردُ فيه الوحدة اللّغوية فضلا عن الى اعتماد معنى الكلمة على ما يجاورها من الفاظ أخرى"(١٢). ويرى هؤلاء ان تَحقّق المعنى يتمّ "بالسياق والتركيب اللّغوي (السنتاكس) وانهم رفضوا ان يكون سبيل الوصول الى المعنى هو وجود المسمّى أو الإشارة اليه بالتعريف او بالوصف، بل يكون بالسياق فحسب.." (١٣).

ونرى ان الإشكال في قضية (الكلمة) لايكمن في الحدث الكلامي وضرورة فصله عن اللغة كما يرى سوسير ومن تبِعه من علماء اللغة، انما يكمن في المستوى الايحائي المعين الذي يرغب المتكلم في وصوله والانتقاء الخاص الذي يبلغه، فلا يمكن ان نعدمَ فعل الكلمة قطعا الا من خلال السياق، ولا يمكن أيضا ان تجعل الامر خاضعا لمفترضات الحدث الكلامي بطريق لامتناه. وفي هذا يقول أولمان الذي يُعدُّ من تلاميذ سوسير ممّن فرّقوا بين اللغة والكلام، وهو يردّ على أصحاب المدرسة السياقية :" إنّ الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفرق بين الكلام واللغة، وهذا الفرق يتمثّل في ان السياقات انما تكون في المواقف الفعلية للكلام وان معاني الكلمات المخزونة في اذهان المتكلمين والسامعين لاتحظى بالدقة والتحديد الا حين تضمّها التراكيب الحقيقية المنطوقة .." (١٤). وقد يقنع كثير بردود المدرسة الإنكليزية الحديثة بريادة (فيرث) الذين يعارضون هذا الرأي ولا يأخذون به، ففصل الكلام عن اللغة (المعيّنة) ليس له ما يسوغه من حيث المنطق والواقع اذ هما جانبان لشيء واحد او هما مصطلحان يطلقان على مسمى واحد وكل منهما اجتماعي وفردي وكل منهما عقلي ومادي وهما متداخلان الى درجة يصعب التفريق بينهما. (١٥)

ولا أريد للأفكار ان تمضي باتجاه مصطلحي اللغة والكلام وأيهما أسبق وأيهما أولى بالعناية والاهتمام، انما سأوجّه الرأي أن يمضي نحو القضية الصوتية، وأعود الى تعريف ابن جنّي للغة كونها (أصوات يعبّر بها كل قوم) عن أغراضهم، ولا أراني هنا أمضي على رأي الذين يفرّقون بين اللغة والكلام . بما ان الكلام صوت بدرجة كبيرة . انما أثبت هنا **ان الصوت مرحلة من مراحل (التجمّع اللغوي) في مستويات النشوء والمثول الأول للغة**، ولهذا سيكون حدّ ابن جني قاصرا عن التعريف بهذا المصطلح؛ لانه يخلو من رموز اللغة كذلك ستكون التعريفات التي نوّهت بأن اللغة مجموعة من الرموز قاصرة أيضا فهي لم تُشر الى الأداء الصوتي للفرد ضمن

---

(١٢) دراسة في فلسفة اللغة والمعنى/ فينغشتاين/ ٥٦.

(١٣) م.ن/٥٦.

(١٤) دور الكلمة/ اولمان/٦٢.

(١٥) ينظر: كلام الدكتور كمال بشر في هامش الصفحة ٣٦ لكتاب دور الكلمة، أولمان .

المجموعة البشرية. المهم لدينا ان اللغة هي نظام من رموز صوتية تواطأت عليها مجموعة بشرية، والكلمة وحدة صوتية مصغرّة لها دلالة ومعنى بمستوًى معيّن فان دخلت في تركيب أو سياق ارتقت الى مستويات دلالية أخرى بحسب ما يبتغي المتكلم، أي ان أداء المتكلم ضمن تركيب مختار هو الذي يحيلها الى مستويات دلالية متنوعة متعدّدة ضمن الإطار العام للنظام اللغوي الخاص بمجموعة بشرية معينة، وهنا لاتفقد (الكلمة) خصوصيّتها او أهميتها، بل تكون هي المفتاح الأول لانطلاق مستويات المعنى في التراكيب المختلفة المختارة للمثول، وبهذا نقترب من قول كاردنر من ان "الكلمة ليست دائما وحدة صوتية للكلام المتصل ولكنها مع ذلك تحتفظ بذاتيتها الصوتية في ذهن السامع ضمن الاطار العام لنظام اللغة "[١٦].

الكلمة في الشعر:

يمكن أن نبدأ ممّا انتهينا اليه من ان (الكلمة) صوتٌ ومعنًى ورمز تتشكّل ضمن نظام افهامي اقناعي لمجموعة بشرية تعايشت لزمن طويل، وهنا يكون الحدث الكلامي متعارف عليه مقنعٌ لطرفي عملية التبادل(الكلام/اللغة) بين المتكلم والسامع، وان أسماء الذوات هي المستويات الأولى لأوليات التفاهم الإنساني تليها أسماء المعاني التي تتطلّب مستوىً حضارياً معينا ينسّق المشاعر والمعاني الأولى للمجموعة البشرية، وان اختيار المفردة والرموز (الحروف) التي تمثّلها صوتيا وكتابيا يخضعُ لمقوّمات كثيرة منها ما يناسب أولا الاشكال البشرية الخاصة بكل أُمة التي أثبت العلم الحديث ان هنالك فروقا تكوينية خلقية تزداد هوّتها بين الأمم مع مرور الوقت، والامر الاخر الموقع الجغرافي الذي تسكنُهُ هذه المجموعة، الذي يؤثر بشكل او بآخر في اختيار نمط معيّن من الرموز الممثلة للصوت المعبّر يناسب البيئة، ويماثل احتياجهم لمفردات ولنمط مفرداتي رمزي دون آخر، والأمر الذي تحتاجه اللغة والكلمة أولا الذي نؤكد عليه هنا، الاستغراق الزمني للتعايش لإنتاج مفردات ونظام يجمعها، والتماسك الجماعي بين افراد هذه المجموعة إن فُرض عليهم الارتحال والتنقل، هنا يمكن أن تُولد لغتهم التي تحمل مفرداتها سماتهم في التكوين والخلق والحياة والتعايش. والكلمة في الشعر لها طريقٌ خاصٌ مُحايثٌ للّغة الاعتيادية، وللعلماء آراء متضاربة في لُغة الشعر والفروق بينها وبين اللغة الاعتيادي الى الدرجة التي تحيلنا الى سؤال مبهم تتماهى إجابته بافتراضات مختلفة: لماذا الشعر أصلا ؟ ولماذا نحتاجه للدرجة التي تضطرّنا الى خلْق لغة معيّنة خاصّة به..؟ ولا نكاد نُدلي بهذا السؤال حتى تتداعى امامنا آلاف الأجوبة من النقاد وعلماء اللغة وغيرهم. انّ بعضا من هذه الآراء تصل لحدّ المغالاة في تحديد مكانة الشعر ولغته، وفي هذا يرى هايدجر ان لغة الشعر هي الأسبق في المقول البشري من اللغة الاعتيادية، فالشعر بحسب ما يقول: "لا يتلقّى اللّغة قط مادة يتصرف فيها كأنها معطاة

---

(١٦) دور الكلمة/ اولمان/٥٢.

له من قبل، بل الشعر هو الذي يبدأ بجعل اللغة ممكنة ...... واذا فيجب ـ خلافا لما قد يُتوهّم ـ ان نفهم اللغة من خلال ماهية الشعر.." [١٧] وقد كان فيكو اول من استحدث هذه الثورة في التطور اللغوي، اذ دحض القول بأن اللغة كانت اول أمرها مجرّدة عقلية كالتي يتعاطاها المتحضّرون فيما بينهم للفهم والافهام ثم جاء الشعراء فاستخرجوا منها العناصر اللاّزمة لصياغة صور البيان في العبارة الأدبية "[١٨]، وعلى هذا فإن الشعر هو الذي يقدم المقول بأرقى مستوياته الاستعمالية فينتقي منه الناسماينفعهم في حاجاتهم اليومية، وهكذا فان العبارات الشعرية التي وُجدت في الكهوف كانت في زمن ما لغة التعاطي والتبادل المنفعي بين أفراد المجموعات البشرية ثم استقلت اللغة الاعتيادية لتعبّر عن حاجات الناس وأغراضهم. وان مضينا مع هذا الغلو سيكون " المستوى الفني ـ ان صحّ الترتيب ـ هو الأسبق او هو الوجود اللغوي الحقيقي وان ماعداه من مستويات الاستخدام اللغوي فيما وصفها بأنها (عوادم) او مخلفات الاستخدام الفني او اللغة الفنية اذا استعرنا تشبيها من كولنجوود وهذا نفسه يؤكده فندريس من زاويته حين يقرر ـ خلافا للغويين العرب ـ ان الاستعمال النحوي هو الذي تطور عن الاستخدام الانفعالي "[١٩].

وهنا أرغب في سؤال هؤلاء العلماء: لماذا لم تتوحّد لغة الشعر مع اللغة الاعتيادية ويكون التعبير عن الحاجات المختلفة والاغراض بلغة موحّدة ولو في زمن معين بافتراض تراتب تاريخي يجمع بين المفردات في بقعة معينة لمجموعة بشرية محددة؟! وهنا سيكون السؤال... كيف سيقضي الناس حاجاتهم في تعاملهم اليومي ولاسيّما ان حياة الناس تتضمّن مستوًى معيّنا من الاعتيادية خارج الإطار الفني في زمن محدد؟ لابأس ان يستعملوا لغة تُعينهم على قضاء حاجاتهم في الأكل والشرب والاستيطان والترحّل والحرب والسلم والتعامل اليومي، وهنا نعود ثانية للغة الاعتيادية ولماذا كانت أصلا تسمية (الشعراء) إلاّ لكونهم صنفا من الناس وليس الناس جميعا حتى وان كانوا الطبقة الرفيعة العالية من المجموعة البشرية! يرد في الذهن تعليق ساندريس عن نظرية بوفون في الأسلوب الذي يرى بأن (الأسلوب هو الشخص نفسه). إنّ هذه القضية "ليست عامة، بل خاصة بالشخصيات الشاعرية الكبيرة وهي سمة للمستوى الرفيع من الفن والادب ولا يقتصر الأسلوب في فرضيتنا على اللغة الفنية لان كل مقولة لغوية لها اسلوبها... ولان الأسلوب الشخصي يجب ان يُفهم فهما عامّا، فالهوية الاسلوبية اللغوية لكتاب معيّن تتجلّى في قدرة القرّاء المثقفين على تمييز هذه الهوية من خلال نصوص لا يُعرف كتّابها

---

[١٧] نظرية اللغة / الدكتور عبد الحكيم راضي/٥١٥.

[١٨] م.ن.

[١٩] م.ن.

الا بالنظر الى طريقة الكتابة المميزة فيها "[٢٠]..

وهنا اقتطع موضوع الشخصيات الشاعرية الكبيرة والمستوى الرفيع من الادب الذي يعالج عبارة بوفون عن الأسلوب وأقصد ان للشعراء كلماتهم ولغتهم التي يستعملونها في حياتهم، فضلا عن كلام هايدجر عن لغة الشعر ومكانة الشعراء، وتحقيقا للكلام السابق عن أولية لغة الشعر فان الشعراء كانوا في زمن ما طبقة لها لغتها الخاصة وحياتها المميزة التي تفرقها عن الطبقات العامة من الناس، وعلى الاقوال السابقة فان الناس الاعتياديين اما ان يكونوا صامتين او ان الشعراء يتفضّلون عليهم بعبارات وكلمات وأساليب من فضالة تعبيراتهم العالية ليقضوا شؤونهم، وهذا كلام فيه خطل ومغالاة على الرغم من اعتماده من بعض علماء اللغة في عباراتهم الانفعالية.

وقد يسأل بعضهم هل هناك خصوصية في استعمال المفردة الشعرية عنها في اللغة الاعتيادية؟ وبعبارة أخرى هل المفردات التي يستعملها الشاعر لا يحق للإنسان الاعتيادي استعمالها؟ اظن ان الإجابة ستكون بالنفي فكل المفردات مباحة للجميع، والإشكال قد يكمن في الاستعمال وفي الموقع الذي يختاره الشاعر لمفردةٍ ما في سياق ما، ولكن يمكننا ان نحدّد كثيرا من المفردات التي تليق بالسياق الشعري دون الكلام الاعتيادي وبالإجمال فانّ بعضا من هذه المفردات يتسلّط فيها الإيحاء والدلالة العاطفية دون مفردات أخرى، وهذا سيعيدنا الى السياق وموقع المفردة في الجملة الشعرية، ومع هذا فان بالإمكان استعمالها في اللّغة الاعتيادية لمعان كثيرة تحقّق الافهام وتبني المقنع والمفهوم من المعاني، وهنا يمكننا ان نقول بأن الكلمة تستمدّ شاعريتها من سياقات محدّدة تُحيلها الى مستويات جديدة من المعاني لا تحققها في الوضع الافرادي، وما يعنينا هنا ان الكلمة لو جاءت اسما او فعلا ذلك لا ينال من شاعريتها بشيءٍ فالكلمة ان جاءت اسما يمكن ان تحقّق مستوًى معينا من الأداء الشعري كذلك ان جاءت فعلا او جاءت ضمن شبه جملة. ولكننا نؤكّد على ان الكلمة بأمكانها ان تحقّق مستوًى عاليا من الشعرية ان جاءت اسما في سياق ويمكن ان تهبط في شعريتها في سياق آخر، والامر سيان بالنسبة للفعل كذلك ان جاءت جزءا من شبه الجملة أو جاءت حتى حرفا. هنا بإمكاننا ان نؤكد ان الكلمة المفردة ليس بإمكانها ان تحقق شيئا من الشاعرية او تبلغ المستوى العاطفي في التعبير فهي تعجز عن تحقيق ذلك الا ان يختار لها الشاعر موقعا معينا مقصودا في الأداء الشعري . وهنا يحقّ لنا **ان نقول: إنّ اللغة الشعرية هي لُغةٌ مؤقّتةٌ رديفة الاستعمال الخاص لشاعر معين في لغة معينة؛ لان المفردات الخاصة بها سرعان ما تتناثر وتعود الى هيأتها الأولى في الاستعمال الاعتيادي، الثابت الأول.**

---

[٢٠] نحو نظرية اسلوبية لسانية / ١٦٦.

تجريب١:

عندما يتساءلُ البحر عن سبب خصام المدينة له

سترتسمُ في ذهنه إجابات من أمس مجهول

يتدثّر بأحلام مؤلمة.

لا يمكن لقارئ ان يتأمل هذه الجمل فلا يقطع بكونها جملا شعرية ـ على الرغم من تأليفي لها حاليا ـ ومن المؤكد ان مفردات هذه الجمل أصبحت شعرية بالاستعمال الخاص والاحالات المفترضة للمعاني المتوصل اليها. ولو عمدنا الى نثر الكلمات عشوائيا بعيدا عن سياقاتها كالاتي:

عندما . البحر . سبب . مجهول . خصام . احداث . يتدثر . ذهنه . يتساءل . امس . سترتسم . المدينة . إجابات . امس . مؤلمة . .

ولنختر بعض هذه المفردات لإدخالها في صيغ من المستوى الاعتيادي:

ـ (عندما) كنت في البيت، مطرت الدنيا.

ـ (يتساءل) المدير عن سبب غياب الطلبة .

ـ مرّ العراق بأحداث (مؤلمة) في ٢٠١٤.

ـ (تدثّر) الرجل ببطانيته.

ـ لقد طال (الخصام) بين الرجل وزوجته.

ـ وصلت الى (المدينة) مبكرًا.

ـ كانت (إجابات) التلاميذ مخطوءة.

ـ ولد الطفل لأب (مجهول).

ـ ما (سبب) بكاء البنت؟

ـ (ارتسمت) على وجهه ابتسامة.

تكشف لنا هذه السياقات ان بإمكان المفردات التي كانت في نص شعري قبل قليل ان تعود الى سياقاتها الاعتيادية بكل سهولة أي انها استعملت لسياق شعري للغة (شعرية مؤقتة) وبالامكان اعادتها الى السياق الاعتيادي واللغة الاعتيادية، بإجراء مبسّط يحيلها الى معان ثابتة في الذهن ومتواطأ عليها في لغة معينة، ومن المتعارف عليه ان السياق الأول هو سياق

استعاري عمد الى تفعيل الكلمة واستخراج طاقاتها الموحية بمجاورة سياقية مع مفردات أخرى، بعضهم أطلق على ذلك عليه كسر الاسناد الاعتيادي وبعضهم يرى انه إعادة الاسناد الى وضعه الطبيعي، ولا يُهمّنا الآن الأولوية في الريادة ولكن تهمنا الكيفية الادائية التي تُحيل المفردة الى نمطين استعماليين مختلفين تتسّع بينهما هوّة التأويل بأحالات مكثفة وبمحايثة التقعيد النحوي. وهنا نشير الى مصطلح **الملاءمة** في النقد فضلا عن مصطلح **المبدأ الحواري** لباختين فطبقا لما يقول فإن أي خطاب يتحدّد في مقابلة الخطابات الأخرى انه ثمرة (العملية الحوارية). كذلك أشارك. ستزل الى مشكلة الهويّة الخاصة بالخطاب، وأكّد أنها لا ترتبط بنماذج شكلية.. وبقدر ما ترتبط بعملية تحقيق فعل لغوي يشير الى فاعل متكلّم.. ويسمّي هذا الفعل اللغوي (خطابا) وفي مقابل النص (اللغة)... ان الذي يمنح هوية ما للخطاب ليس هو التناسق الداخلي فقط وانما هو العلاقة التي يؤسسها مع انموذج خطابي سابق يمتدّ الى أبعد من الخطاب الفردي والمعيّن الذي هو قادر على ان يوجّه الإنتاج كما يوجّه استقبال الخطاب.. [٢١]

هنالك لعبة طفولية كنّا نُمارسها وهي أحجار أو قطع بلاستيك متّصلة ببعضها بطريقة ما ونعمد الى خلطها وخلخلة نظامها، ثم نحاول هزّها لعدة مرات لإعادتها الى الوضع الأول، ولكن هل تعود الى حالتها الاولى ونظامها الأول؟ أشك في ذلك. فكأن الشاعر يعمد الى هزّ الكلمات وإرباك تغيير نظامها الأول ليُشاع نظام جديد، بل أنظمة متتالية، لهزّات متتالية. ولكن هل يستطيع الناقد إعادة انتظام الكلمات بفكرة التأويل المتعدد أم انه يمضي مع الأنظمة الجديدة للكلمات، ليُنشئ عوالم جديدة مفترضة لا نهائية؟.

تجريب ٢:

أكاد أسمعُ النخيل يشربُ المَطرْ

وأسمعُ القرى تئّن والمهاجرين

يُصارعون بالمجاذيف وبالقلوع

عواصف الخليج، والرعود، مُنشدين:

مطر مطر مطر وفي العراق جوع

وينثرُ الغلال فيه موسم الحصادْ

لتشبعَ الغربان والجرادْ

---

[٢١] نظرية اللغة الأدبية/ ٢٣٤.

لا يُخطئ متلقّ في نسبة النص الى السيّاب الذي ساهمت نهايته المأساوية وحياته الصعبة في اشهار نصّه المتألق والتعريف به عالميا، وهنا قد يكون الأمر مملّا ان أعدنا موضعة (الكلمات) في نصه الى المستوى الاعتيادي الاستعمالي فمن ذا الذي لا يعرف بأن الاذن البشرية تقوم بالسماع، والسماع يتحقّق بوجود أصوات لحركة ذواتٍ مُقنعة بجهد ذاتي او بجهد خارجي، ولكن ان يُصدر النخيل أصواتا عند شربه لماء المطر فهذا شيءٌ مفتعلٌ يريد منه الشاعر معنى آخر:

أكاد أسمع النخيل يشربُ المطر.

وليس عجيبا ان يكتشف المتلقي ان (المطر) أصبح الكلمة النواة * التي حرّكت النص بآتجاهات انفعالية بحسب مفترضات الإيحاء التي تتضمّنها هذه الكلمة، ولكن هنا دخلت في ايحاء الاشتغال المتتالي المخصوص (بالسمع) وهي مفردة تُدير الكلام وتتسلّط عليه لانه يُكرّرها في ذات المقطع: وأسمع القرى تئنُ ..(ثيمة صوتية).

ويُنشدون (ثيمة صوتية)..... مطر مطر مطر..(ثيمة صوتية) .

هو يقول: أسمعُ ...المطر

أسمعُ ...القرى تئنّ.

سماع المطر شيء مقنع، لكن سماعَ النخيل يُصدر أصواتا عندما يشرب المطر، شيء لنقل عنه متخيّل او مفترض ولربّما احترز الشاعر بلفظة (أكاد) التي تُضفي معنى الشك؛ لئلا يُبهت القارىء في حين انه عندما قال (اسمع القرى تئن) لم يحترز لانها لاتُحيل الى مستوى اعلى من التخيّل، أو الافتراض لكنها تبقى مفترضة؛ لان القرى لاتئن ولكن المريض يئنّ والجائع يئنّ وهؤلاء يمثّلون أنينا جماعيا في قرى العراق المملوء (بالجوع) المفردة التي ستتسلّط على السطر الخامس، بل انها متسلّطة في أجزاء كثيرة من النص الكامل.

سؤال: هل النخيل يشرب المطر؟ الجواب نعم... بافتراض اختزال عمليات طبيعية يقوم بها النبات لامتصاص الماء، لكننا لا نقول عن الزرع بأنه يشرب الماء، انما نقول: نسقي الزرع لانه ذات غير عاقلة (مع الاحتراز)؛ لانها لاتقوم بالافعال (ولو بالعين المجردة) بنفسها ومنها فعل الشرب او التناول او التغذي... فضلا عن ان النخيل لايسقى بالمطر إنّما بالسقي ولكن تسلّط ثيمة (المطر) وهي في النهاية كلمة موحية فاعلة في النص كله، أحالت النخيل الى شارب للماء وقد تضافرت مع كلمة (الجوع) لبناء ثنائية متضادة متتالية مستمرة لتنتج لنا معان أخرى او معنىً مركزيا متسلّطا: ان قرى العراق تئن من الجوع بسبب الفقر على الرغم من أن المطر كثير، وان النخيل يشرب بشراهة يكاد الشاعر يسمع صوتها فالخير كثير والجوع كثير... لماذا؟

وفي العراق جوع.... وينثر الغلال فيه موسم الحصاد ← لتشبع الغربان والجراد..

اذاً هناك من يأكل هذا الخير ولا يُعطيه لأهل العراق: (الغربان + الجراد)... هم مصاصو دماء الناس في كل زمن مظلم. **جملتي هذه شعرية أيضا للتعبير عن الظلم وانعدام العدل في توزيع الثروات ليحيا الناس بسعادة.**

في كل نص شعري هنالك كلمات تشتغل بآجتهاد، وهنالك كلمات أعلى وكلمات أوطأ في الفعل، والامر سيّان ان كانت اسما ام فعلا، وأرشح في هذا النص المقتطع كلمات (المطر، أسمع، جوع)؛ لانها كانت تعمل على إحالة المعاني الى مستويات وأنظمة سياقية جديدة قابلة للتمدد، والعجيب ان المتلقي عندما يقرأ النص او يسمعه لا يقابله بالرفض، فالأمر لديه سيّان في التقبّل إن قال له الشاعر: أكاد اسمع المطر.. او .. اكاد اسمع النخيل يشرب المطر.. **فلماذا نثق بالشاعر؟.. لماذا نثقُ بأحالته (الكلمات) الى سياقات وأنظمة متتالية تنتج معاني تدهشنا في كل مقطع وكل قصيدة؟ ولماذا وثقنا بالسياب عندما قال لنا بانّ النخيل يُصدر أصواتا عندما يشرب المطر يكاد يسمعها؟ او انه يسمع أنين القرى؟ او ان الناس يزرعون لتشبعَ الغربان والجراد؟. اننا نثق بكلماته وسياقاته وأنظمته الدلالية لأنه مُقنع لنا، ولأنه يقدّم سياقات لا نستطيع ان نقولها؛ لانه يشعر أكثر منّا بالإنتاج والفعل. ان السيّاب والشعراء المدهشين بعامة يعلمونّنا استعمال الكلمات بطرق جديدة وتراكيب مميّزة نعجزُ عن ان نأتي بمثلها او نفهمها أحيانا، لكننا نقنعُ بها مُجملا ونقلدّها ونشيعُ تأويلاتها ...انهم يعلمونّنا اللغة التي اسميتها مؤقتة؛ لأنهم يأملون ان تشيعَ في عالمنا، ولكنه عالم آخر يسكنهم ويسكنونه، يتفاهمون فيما بينهم بلغتهم المؤقتة، لأننا نَسحقهم بآليتنا ونُعيد نصوصهم وكلماتهم الى لغتنا الاعتيادية بالقوة لنفهم شيئا من كلماتهم التي أوجدت نظاما أرقى للمثول وللفعل.**

آليات التوقع:

يمكن ان نبدأ ممّا انتهينا اليه بخصوص لغة الشعر بافتراض **ان نظام هذه اللغة نظام خاص لايُجازف أيّاً كان باستعماله، فهي لغة عالية مهذّبة وأحيانا رقيقة،** وتعريفها مشابه لتعريف اللغة الاعتيادية؛ هي رموز وأصوات تعبّر بها مجموعة بشرية عن أغراضهم. فمن يشك في هذا الحدّ انه لايلائم لغة الشعر؟ ولكن الامر لايكون بهذه السهولة والاّ لِم يعمدُ الافٌ من علماء البحث اللغوي في التأليف للإحاطة بمفهومها؟.

تكمن المشكلة في أننا عندما نُثبّتُ لفظة (نظام) في تعريف اللّغة أية لغة فاننا نُجري تنظيما محدّدا لكل ما أنتجه الأفراد في سياقات لغوية في مجموعة بشرية ما، وقد ينطبق هذا التنظيم على لغة أمةٍ ما، ولكنها لا تنطبق بالكامل على لغة أخرى. يقول فندريس في هذا المقام: "تبلغ

الصعوبة في تصنيف أجزاء الكلم حدّا يعوقُنا حتى الان عن الوصول الى تصنيف مرضٍ، ومازال نحونا التقليدي يعلمنا ان نقسّمها الى عشرة اقسام تبعا لتقليد قديم يرجع الى مناطقة الأغريق، ولكن هذا التصنيف لايَثبت امام الامتحان، فان تسويغ تطبيقه على اللغة التي خُلق من أجلها لايخلو من عناء فمن باب أولى ان توجد لغات كثيرة لاينسجم معها هذا التقسيم اطلاقا"[٢٢]، ولهذا يستبعد بعض الأدوات من أصناف الكلام فضلا عن بعض حروف الجر والوصل ومنها اختفاء فعل الكينونة في العربية عنها في اللغات الهندواوربية التي تحرص على وجوده في الجمل (is,are...) وربما تعمد في زمن ما على اخفائه، بل ان في اللغة الواحدة يمكن إن لاتسعفنا القواعد لترتيب حدّ معقول من أنظمة متكاملة، ففي العربية واجهَ التقسيم العقلي لوحدات الكلم إشكالات التأويل عند البحث في علاقات الكلم ومعانيها ودلالاتها، ولهذا " كان على العقل اللغوي ان يفرّق بين الدراسة النحوية ودراسة الدلالات، ومن ثمة ابدعوا (علم المعاني) على تفاوت كبير بين رجل مثل عبد القاهر الجرجاني يحرصُ على ابراز معاني النحو في النظم، ورجل مثل السكّاكي يحرص على القول بأن علم النحو هو ان تنحوَ معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم "[٢٣].

إنّ صنيع النحاة صنيع عقلية منطقية مولعةٌ بالتقسيم الشكلي أكثر من علاقات المعنى، والسياق المهم في العربية الذي تقومُ به الجملة هو الاسناد وهو الأصل في العربية وفي اكثر اللغات، ولكنه يقيس الألفاظ وعلاقاتها بمقياس عقلي وقانون لاينتبه لدلالات المعنى وتأويلاته، "فمثلا لو قلنا: الحق ظاهر، فاننا نُسند فكرة الظهور الى مسند اليه هو الحق، وحين نقول (ظهر الحق) فاننا نسند الظهور الى الحق .. والمسند اليه هو الاسم الأول . المبتدأ . في الحال الأولى وهو اسم الفاعل في الجملة الفعلية الثانية "[٢٤] ولكن التقسيم النحوي تقسيم عقلي حدّي لايأخذ بمستويات المعنى وفروعه. وأما " مانلمسهُ من عجز في اللغة يكاد ينتسب أغلبه الى السمات النحوية التي صنعها منطق النحو"[٢٥].

ان النحوي في النهاية لابد ان يجدَ تخريجا عقليا للسياقات المتنوّعة، والسياق الشعري داخل في هذا طبعا؛ لان الامر في النهاية عبارة عن كلمات متّصلة مع بعض بعلاقات يُسمح بها في الغالب، فالأمر غير داخل في المعنى الذي يُمكن اقناع المتلقي به حتى لو كانت الجملة على النحو الاتي: (ضحكَ الكلب في باحة الصف) فمن ذا الذي لا يعرف انّ ضحِك فعلٌ والكلب

---

[٢٢] اللغة بين العقل والمغامرة/ الدكتور مصطفى مندور/ ١٥.

[٢٣] اللغة بين العقل والمغامرة /١٦.

[٢٤] م.ن /١٧.

[٢٥] م.ن /١٤.

فاعل والباقي فضلة؟ المهم ان يكون الفعل ضحكَ مبنيّ على الفتح والكلب مرفوعٌ بالضمة والباقي جار ومجرور واضافة كلها مجرورة بالكسر، وهذه الجملة سهلة طبعا و الامر لايختلف كثيرا في غير ذلك، فالإسناد متوفّر ان كانت الجملة فعلية أو كانت جملة اسمية أو مركّبة، ولكن النحاة متفقون على ان الجملة لابد ان تُفيد معنًى ما، والا كانت عبثا فلو رتّبت كلمات ليس بينها ترابط يؤدي الى إفادة معنى ما، لم يكن ذلك كلاما فلو قلتَ (سوف محمد حضر) او (سمع نام لمْ) لَمْ يفد ذلك شيئا وفي هذا يقول سيبويه " ألا ترى انك لو قلت: (ان يضرب يأتينا) وأشباه هذا لم يكن كلاما"[٢٦]، وواضح أنهم يبحثون عن المستوى المتدنّي في الاقناع ولا يتأملون مستويات أعلى في المعنى؛ لان ذلك أبعد من مهمتّهم. ويمكن ان نقول في النهاية: إنّ المنطق النحوي أنجز مهمّته بنجاح في الجملة في أعلاه ولكن المستوى الدلالي او المعنوي ظلّ عاجزا عن تحقيق نظام ولو ممهّد لافتراضات الدلالة، **لأنه يخضعُ دوما لإدارة الفعل الادائي الفردي بالنسبة للكلمة وعلاقاتها السياقية الدلالية حتى وان تعارفَ الناس على مستوياتٍ معيّنة من المعاني** لا يفاجئُون بها دوما؛ لانها شائعة معرّفة يتوقّعها الناس وان أدهشتهم، ويبقى "التأويل محكوماً بمرجعياته وحدوده وقوانينه وضوابطه الذاتية فالتأويل على وفق هذه الصياغة يتشكّل من سلسلة قد تبدو من خلال المنطق الخارجي للاحالات، انها لامتناهية فكلّ علامة تُحيل على علامة أخرى على وفق مبدأ المتصل الذي يحكم الكون الإنساني"[٢٧] كما ان التأويل " ليس فعلا مطلقا بل هو رسم لخارطة تتحكّم فيها الفرضيات الخاصة بالقراءة، وهي فرضيات تُسقط، انطلاقا من معطيات النص مسيرات تأويلية تطمئن اليها الذات المتلقية"[٢٨] وهنا تفتح **النظرية الذرائعية** يديها للمثول في هذا المستوى من التفكير في مفترضات النص الظاهر والنص المولّد مثلما تقول جوليا كريستيفا. وبتعبير اكثر وضوحا فان الذرائعية الأدبية تُحيل الى مستوى "أعلى من الفردية (فهي) تسبق النص وتُوجد قبله فضلا عن انه يصوّر مُسبقا ردود الفعل للمستقبِل إتجاه النص، صحيح ان النص أثر وحيد لكنه خطّط ونظّم وركّب لحظة وحيدة في جزء منها ومشتركة في جُزء آخر مع كل النصوص الأدبية الأخرى. وعندما نبدأ في قراءة كتاب اشعار... نعرفُ قبل ان نفتح الصفحة الأولى كمّا كبيرا من الأشياء حول هذا النص فتبُنى أزاءه استراتيجية قراءة ونرى مسبقا في المرسل بعض ظروف الابداع ونحتفظ بحالة توقع لا توجد عندما يتعلّق الامر برواية او تصفح جريدة... فكل هذه المؤشرات ذات طابع ذرائعي بعضها يعمل فقط في حقب تاريخية معينة وبعضها الاخر مثل التخييل او الطابع المؤجل في غياب الاتصال بين المرسل والمستقبل

---

[٢٦] الجملة العربية والمعنى/ الدكتور فاضل السامرائي /٧.

[٢٧] التأويل بين السيميائية والتفكيكية / ايكو/١١.

[٢٨] م.ن/١١.

يتحوّل الى ملامح لازمة وذات صلاحية عامة لكل النصوص الأدبية المكتوبة "[٢٩]. **هذا التوقّع الذي تأمله الذرائعية هو هروب من فردية النص وفردية الكلمات ولأنهم فشلوا في بناء نظام دلالي مقنع يجمع رموزها على وفق انساق خاصة معترف بها، ويوحّد اتجاهات الاتصال مع التلقي المأسور بالزمن والتطور والتحضّر في الفكر ومستقبلات الذهن والتفاعل مع إشارات النصوص وعلاماتها اللامتناهية.**

ولم تفعل البلاغة القديمة شيئا مهما مع النص الشعري ولغته سوى ان حدّدت التعبير بثلاثة اتجاهات رئيسة في علم البيان (التشبيه والاستعارة والكناية) ولكن سرعان ما انفلت الشاعر منها وبدأ بإدهاش المتلقي بمستويات جديدة من الأداء ممّا اضطر البلاغيون الى إعداد تفريعات جديدة ثم أخرى ولكن يبدو ان الأمر غيُر مسيطر عليه؛ لان المعنى لا يخضع لمنطق محدّد ولا قياس منظّم ابدا. هل يمكن لشخص مثلا لايمتلك الموهبة الشعرية ان يُنظم قصيدةً مبهرةً واحدة بعد ان يحفظ كل تفريعات الاستعارة والتشبيه والكناية ثم يطّلع على كل كتب البلاغيين والنقاد المعاصرين وعلماء اللغة؟ الإجابة ستكون بالنفي طبعا. فنحن لانعكس القضية لنجد حلاً اشكالية الشعر واللغة الشعرية واشكالية التوقع، فضلا عن ان بحوث العلماء تتضاعف في لغة الشعر والدلالة ومستوياتها والتواصل والتلقّي ولكنهم لم يُنتجوا نظاما مُقنعا لمفترضات التأويل المتوالدة لأنها بلا نهاية.

التوقع المتماثل:

من المؤكد اننا هنا ندخل التلقي في موضوع البحث ضمن المنظومة الكاملة للإنتاج الادبي ولكن الامر فيه خُصوصية معيّنة تتعلّق بترابط الحدس بين المنتج والمستقبل والامر لايأتي عبثا انما **يخصّ المتتالية الموسيقية كثيرا واحيانا يخصّ الكلمة المفردة في موقعها المؤثر في السياقات المصغرة في السطر الشعري ان صحّ تعبيرنا، وهذا يحقق علاقة سيميائية يتدخّل فيها التوقّع بين الطرفين، ولن يكون التوقع مكتملا دائما ولكن موسيقى الأداء تُحيلنا دائما الى (كلمة ما) كان السياق السابق لها سببا في انتاجها يحقّقها تتالي الإيقاع الداخلي للسطر الشعري فضلا عن الوزن الشعري الواحد وذلك متحقّق في القصيدة العربية الكلاسيكية كثيرا.** فالمتلقي من البيت الأول انتظمت في ذهنه مُتتالية موسيقية تحقّق التوقع للسيأق الآتي ثم الاتي. ولكن **الامر لايخصّ الموسيقى وحدها، انما يُمكن للمعاني المتناسقة مع الوزن والايقاع ان تكشف عن الكلمات (المتوقّعة) التي ستحلّ لاحقا**، ولهذا لا نُدهش كثيرا عندما يُنشد الشاعر قصيدته امام جمع من الناس المفترقين ثقافة ان يُردّدوا معه بشكل مُبهر الكلمة التي يصمتُ

[٢٩] نظرية اللغة الأدبية / ٩٢.

عنها الشاعر في اخر البيت التي تُشكّل جزءا من القافية بتضافر مع الروي (الحرف الذي بُنيت عليه القافية) الذي كُشف عنه في البيت الأول من القصيدة. اذاً **فالتوّقع المتماثل** علاقة مُفترضة بين المرسل والمستقبل لإنشاء مادّة متّفق عليها في الذوق والاحالة اللغوية والمستوى الموسيقي المتعالي سمعياً، فالشاعر يُنتج هذا النوع من السياق؛ لانه مريح بالنسبة للسامع، مُتعارف عليه أحيانا، ذلك هو الذي يُحقّق الدهشة بالنسبة للمتلقي ويُحيله الى سؤال متكرر لديه ولدى الناقد أيضا؛ وهو انه كيف استطاع الشاعر ان يقول ما يُريده وما يقنع به وما يُبهره في المفردة وفي السياق وفي الموسيقى. ويقتربُ من هذا الكلام تعريف ريفاتير للأُسلوبية: " علمٌ يهدف الى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيعُ المؤلّف /الباث مراقبة حرية الإدراك لدى القارىء المتقبّل، التي بها يستطيع أيضا ان يفرضَ على المستقبِل وجهة نظره في الفهم والادراك"[٣٠]، والجميل في هذا التعريف **ان المبدع يراقب حرية الادراك لدى السامع او المستقبِل، وهذا يأتي من ثقافة وإلمام شامل بسامعه وتاريخه فنيّا، ليحقّق له شيئا من اللذة والانبهار، ولم أقنع بفرض المبدع شيئا ما على السامع، انما هو يختار له مايرغبُ فيه ويجعله يشعر بالعذوبة والدهشة.** ويرى عبد السلام المسدّي ان أدبية النص في حد ذاتها تصبح دالاّ يستندُ الى نظام إبلاغي متصّل بدلالات السياق في الوجهة العلامية، اما مدلول ذلك الدال فهو ما يحدث لدى القارئ من انفعالات مجالية تصحب ادراكه للرسالة [٣١]. والامر يمكن ان يتحقّق بالثقافة الشعرية للجمهور المستمع وهي ثقافة سمعية إنشادية في المتلقّي العربي او من باب الفطرة التي تمضي نحو التناسق بين الأشياء والتآلف في نظام متواز متقابل أحيانا، يقوي درجات "التوقع المتقبَّل" الذي تريده الروح ويتآلف السمع معه فتتعمّق اللّذة ويتحقّق الانتعاش بالنص المُبهر.

وقد يتم الأمر(التوقّع المتماثل) في القصيدة العربية الكلاسيكية بأغلب أبواب البديع التي شاعتْ في القرن الثاني الهجرة وما بعده والشاعر الذي نجحَ بإشاعته مسلم بن الوليد بكثافة واضحة في ديوانه، اذ يكشف ابن المعتز في كتاب البديع ان هذا الفن كان يأتي على سبيل الصدفة الرشيقة في الشعر الجاهلي الى ان جاء مسلم فأغرقَ قصيدته بهذا الفن الذي وَجد أذنا صاغية وتقبّلا محمودا من جمهور السامعين فضلا عن نقاد الشعر.

اذا **الجمهور مولعٌ بـ "التوقع" الذي تحققه أساليب البديع** من جناس واقتباس وطباق ومقابلة وردّ الإعجاز على الصدور والمشاكلة وحسن التعليل فضلا عن التكرار وما الى ذلك من فنون البديع، واذاً تتضافرُ ثقافة السمع مع ثقافة اللغة مع ثقافة الدلالة واحالاتها وافتراضاتها في تشكيل مستويات "التوقّع الإيجابي" او المتماثل والغالب ان هذا النظام المتناسق يتحقق في ايحاء

---

[٣٠] عصر البنيوية / ٢٦٩.

[٣١] النقد والحداثة /٣٨.

الكلمة المفردة في كثير من مستويات الإبلاغ، ولا نقطع بذلك حتى لانبعد او نمنع فاعلية التوقّع عن التراكيب المصغرة في سياق البيت الشعري .

وهنا لانريد توجيه الكلام نحو المادة البلاغية المكثّفة والمتفرّعة التي تمضي نحو تصنيفات شتى ولكننا نجتزئ منها مايخصّ السياق المتوقع الذي تُديمه ثقافة البديع في الإنتاج البلاغي العربي بمعيّة الثقافة الموسيقية المتكاملة .

تجريب ١:

نشير الى بعض أوجه "التوقع المتماثل" في بعض أبيات قصيدة للشاعر بشار على الرغم من ان فنّ البديع لم يتكثف بعد في الاستعمال في زمن بشار وقد أشرنا الى هذه القصيدة في دراستنا عنه "الخطاب الشعري في شعر بشار بن برد"[٣٢] في الحديث عن نسق بنائي جديد استحدثه بشار هو (النسيب. الهجاء) وقد اخترنا بعض الابيات من هذه القصيدة بما يكشف آلية "التوقع المتماثل" في هذا النص :

بأم سعيد جفوةٌ عن لقائهِ وإن كانت البَلوى بأم سعيد

فالشاعر يفتتح البيت باسم المرأة التي يتغزل بها (أُم سعيد) التي تجفوهُ وتمتنعُ عن لقائه هذا في الشطر الأول، وفي الشطر الثاني كأنما يعمد الشاعر الى الاستدراك لبدء جملة جديدة لكنها متعلّقة بما سبق فالجفاء والامتناع أنتج (البلوى) والأذى الذي جاءتْ به (ام سعيد)، ومادام المتلقي ملمّا بالقافية ورويهّا (حرف الدال) من افتتاح القصيدة وما تبعها من أبيات:

ألا من لمطروب الفؤاد عميد ومن لسقيمٍ باتَ غير معودِ

فليس من الصعب عليه ان يكتشف القافية بكلمتها الأخيرة (أم سعيد)؛ اذا فالبلوى أين تكمن؟ تكمن بأم سعيد ... وان كانت البلوى -----> بأم سعيدِ. فلو صمتَ الشاعر بعد كلمة (البلوى) لأجابهُ الناس بقوّة (بأم سعيد)..

وفي البيت الثامن من قصيدته يعمد الشاعر الى سياق ردّ الإعجاز على الصدور فضلا عن التكرار الذي سيكتشفه المتلقي لاحقا ..

أعدّ سجودي بالحصى وتلومني ولولا الهوى اتممت بعض سجودي

هنا الشاعر يعمد الى اختيار نسيان عدد السجدات بسبب الهوى وعذابهِ فيبدأ البيت بالشطر الذي يكشفُ عن ذلك (أعدّ سجودي بالحصى.. وتلومُني..) هي المرأة المعشوقة.. والجواب الذي سيُقنعها والمتلقي أيضا، انه لولا الهوى كان سجوده تاما (متذكّرا لعدد السجدات) فليس صعباً

[٣٢] الخطاب الشعري في شعر بشار بن برد /٤١.

على المتلقي ان يُتمّ له قافيته لأنه مُلمّ بالقافية ومُلمّ بالإجابة ومساندة الشاعر في عذابه ونسيانه لعدد سجداته:

ولولا الهوى اتممت بعض ⟵ سجودي

وأما الطباق فيعمّق من مستوى "**التوقع المتماثل**" فالشاعر يختاره لأن المتلقي يستعذبُ كثيرا بالثنائيات المتضادة في النص ويكتشفها بسرعة وذلك واضح في الشطر الثاني من البيت التالي لبشار بين لفظتي (دان) و (بعيد):

شغلت بها نفسي فلست بفارغ   لدانٍ يُرجّيني ولا لبعيدِ

تجريب ٢:

والامر لايخصّ التوقّع في القافية فحسب ولو انه يُشكّل الجزء الأكبر في النص العربي الكلاسيكي، ففي قصيدة لأبي تمام يمدح فيها محمد بن الهيثم يظهرُ التوقع في شكل نمط آخر مستفيدا من تكرار الكلمة، ولكن في بداية الشطر وليس في القافية.

يقول الشاعر:

ديمةٌ سمحةُ القياد سكوبُ   مُستغيثٌ بها الثرى المكروبُ

لو سعتْ بقعة لاعظام نعمى   لسعى نحوها المكان الجديبُ

يشبّه الشاعر ممدوحه بالديمة السمحة السكوب التي يستغيثُ بها الثرى الجاف العطشان، وفي البيت الثاني يستعمل حرف الشرط الأول (لو) وهو حرف شرط غير جازم امتناع لامتناع، (لو سعت) والامر من باب التمني او التخيّل فلو حدث ان تسعى البقاع لتقديم الشكر وإعظام النّعم لمكان معينّ، لسعت الأمكنة الجديبة لها لفعل ذلك على الرغم من عمق المستوى الدلالي لهذه العبارة او لهذه الفكرة الا ان الشاعر يُرشّح (السعي) للأمكنة الأخرى الجديبة لتحقيق الاستجابة، فمثول التوقع هنا من باب الإقرار بالنتيجة فمادام سعي البُقع تحقّق في الشطر الأول (لإعظام نعمى) سيكون الامر طبيعيا ومقنعا للبقع الأخرى، وتحديدا (المكان الجديب) وليس صعبا على المتلقي ان يسبق الشاعر في اكتشاف السياق الذي سيبدأ في الشطر الثاني (لسعى) او لربما سيتوقع ان الفعل (سعت) بالقياس الى مابدأ به في الشطر الأول وهو الفعل الماضي المؤنث (سعت) (لو سعت) ولكن الامر قريب في تحقيق الدلالة النهائية على الرغم من ان البيت مصوغٌ صياغة دلالية جديدة لبيت الفرزدق في قصيدته المعروفة في مدح الامام علي زين العابدين (عليه السلام):

يكادُ يُمسكه عرفانَ راحته   رُكنُ الحطيم اذا ماجاء يستلمُ

فضلا عن ان "**التوقع المتماثل**" ظاهرٌ في بيت الفرزدق فكلّ مسلم يدرك معنى الفعل (يستلم) بالنسبة لركن الكعبة الذي يحققه الشطر الثاني، فليس صعبا ان يتم المتلقي سياق الشطر الثاني (ركن الحطيم اذا ماجاء ـ يستلم) ولاسيما انه عالم قبلا بالقافية ورويّها.

تجريب٣ :

ويتعالى التوقع في نص مهم لأبي تمام من قصيدة في مدح الحسن بن وهب، ويرفد ذلك الجناس والتقسيم والترشيح ببراعة في الأداء تدهش الاسماع مطلعها:

ليس الوقوفُ بكفء شوقك فانزلِ   تبللْ غليلا بالدموع فتبللِ

يقول أبو تمام في مقطع المدح:

قد أثقب الحسنُ بن وهب في الندى   نارا جلتْ انسان عين المجتلي

مأدومة للمجتدي، موسومة   للمهتدي، مظلومة للمصطلي

مأنت حين تعد نارا مثلها   إلاّ كتالي سورة لم تنزلِ

فعلى الرغم من استغراق أبي تمام كثيرا في الاستعارة وتغريبه، إلّا أنه يساهم في التوقّع باستعمال الجناس الاشتقاقي في (جلت ـ المجتلي) كذلك في استعمال التقسيم لتكثيف صورة النار باستعمال الاسم المشتق المتكرر على مدى البيت كله:

(مأدومة ــ موسومة ــ مظلومة) .... فليس صعبا ان يكتشف المتلقي الإجابات المقنعة بصيغة الجار والجرور التي تكمل الاسناد وتحقق واقعيته (للمجتدي ـ للمهتدي ـ للمصطلي) ولكن "التوقع المتماثل" يقوى كثيرا ويتعالى في الشطر الثاني من البيت الثالث: ما أنت حين تعد نارا مثلها ...

ما انت أيها الممدوح حينما تعد نارا بمثل المواصفات التي ذكرنا ...

الاّ كتالي سورة ←—— لم تنزل.. فليس خافيا على المتلقي (على الرغم من صعوبة إحالة الدلالات في شعر أبي تمام) ان يحقق اكتشافا للفعل الذي يختم به البيت بجزم ونفي قوي (لم تنزلِ) فالمسلمُ يعرف معنى السورة القرآنية حتما، والفعل الذي يليق بها او الذي ارتبطت به (معرفيا) هو النزول، ولكنها سورة لم تنزلِ.. وهو من باب المبالغة والايغال المعروف به الشاعر.

تجريب ٤:

ان الشعر العربي الحديث من النمط الكلاسيكي يضج بأنماط "التوقع المتماثل"، واذكر هنا نصوص الجواهري الذي يرتقي في "**التوقع المتماثل**" بفاعلية الأداء المبهر الذي تقدمّه الموسيقى

المتألقة مع مستويات الخطاب المختلفة، ولهذا تشهد الكثير من قصائده انفعالا شديدا من قبل الجمهور الذي لا يمتنع عن الاستجابة السريعة لاقتراح المقول الذي يقدمه غالبا في القوافي، فقبل ان يصل الشاعر للقافية ينفعل الجمهور بقوة ويرفع صوته بالسياق او اللفظة المختارة من الشاعر. والامثلة اكثر من أن تُحصى، ومثلما قلنا فان "التوقّع المتماثل" لايخص القافية وحدها وهو مشاع في كثير من بنى النص الشعري ولكن الناس مولعون بالقوافي لاسباب كثيرة أهمها انها ترنيمات متتالية كقرع الطبل تجذب الاسماع وتحقق الشعور بالنظام الصوتي الدلالي الذي يُسقط العذوبة على الروح والمخزون الانشادي في ذهن المتلقي. وسأعمد الى الإشارة الى هذه السياقات التي تُظهر "التوقّع المتماثل" في نصّ معروف للجواهري (وعد بلفور) الذي كرّر الناس سياقاته المتوقّعة مرارا مثل أغلب نصوص الجواهري واختار منها هذا المقطع في حواره مع القدس:

شددت عرى نطاقك فاستمري (ولايثقل) عليك فتستباحي

ولاتغني بنا فالفعل جوّ (مغيمُ) عندنا والقول صاحي

ولن تجدي كإيانا نصيرا يدقّ من الاسى (راحا براحِ)

ولاقوما يردّون الدواهي وقد (خرستْ) بألسنة (فصاحِ)

أعيذك من مصير نحن فيه لقد عوذت من اجل متاح

ووضع امس كلهم لواهٍ به واليوم كلهم لواحي

تنصّل منه زورا صانعوه كمولود تحذر من سفاح

وذمّوا انهم كانوا عكوفا عليه في (الغُدوّ) وفي (الرواح)

(مغيّم . صاحِ) (خرست ـ ألسنة فصاحِ) (في الغدوّ ـ وفي الرواحِ) ....

وغير خافٍ استعمال الشاعر للطباق ولاسيما في الشطر الثاني الذي ينجح كثيرا في تحقيق التوقع الذي يطلبه الجمهور، بل يكتشفه سريعا فضلا عن الترشيح واستعمال المثل المركوز في الأذهان كذلك اختيار الصفات الشائعة التي من السهل على المتلقي تخمينها فتحقق توقعا مثاليا بالموسيقى التي تستجيب لانظمةٍ متناسقة تجتمع في ذهن المتلقي المشبع بها عبر تراكمٍ زمني ليس بالإمكان التخلي عنه ومن الواضح ان الامر سيأن في استعمال الصيغ الصرفية المختلفة .

توقع السلب:

إن عملية تلقي النص **رُبّما لا تُحدث توافقا مع مستقبلات المنظومة الدلالية في ذهن الفرد**

فيعمد الى إحالتها الى مستويات إقناعية أُخرى الى ان يتمّ الاكتفاء الذي يُحقق لذّة معينة او ينشئ مستوى جديدا من الاقناع الذي يبتني قاعدة مناسبة من الذوق العام الذي يتم الاتفاق عليه بالاطلاع والثقافة العامة .

هذه الإشكالية تأتي من تغريب الاستعارات بالاصطلاح البلاغي القديم، يمتاز هذا النوع " باختفاء البنى العلائقية التقارنية عن البنية النصية ظاهريا وهذا الغياب العلائقي يتطلب تحليلا عميقا لمفردات التشكيل المكونة للنص الشعري؛ ليتمكن المتلقي من اكتشاف افتراضي لنسق العلاقات المتبعثرة في الزخم الدلائلي العام لبنية النص"[٣٣]. وقد يكون " التشكيل العلائقي المدرك المدرك لا يرتبط بأي دال نسقي منظور، وانما يكون الوعي بأطراف العلاقات اجراء ذهنيا خالصا (تذكرياً، خبراتيا، افتراضيا..) "[٣٤] وقد اشترط دي مارسيه في التفسير التاريخي للاستعارة ان لا تظهر المقارنة واضحة وانما تؤدي اليها عملية ذهنية (في الدلالة) : "فالاستعارة شكل ينقل من خلاله المدلول الخاص لكلمة ما الى مدلول آخر لايتناسب معه الا بمقتضى المقارنة التي تكمن في الذهن... وتعريف دي مارسيه يشتمل على النظرية الممكنة والمقبولة حاليا: اذ ينتقل مدول كلمة الى مدلول آخر وهذا يساوي صورة شكلية او تغييرا في المعنى. وهذا التغيير في المعنى يناسبه بالمقارنة وهو قائم على المشابهة وهذه المشابهة يُقيمها الذهن وهي نقلٌ يتضمن دلالة و(ليس ظاهرة إشارة فقط)" [٣٥]. وأرى ان تعليق خوسيه على تعريف دي مارسيه فيه شيء من الابتعاد عن الفكرة؛ **لان المقارنة هي غيرها المشابهة والعلاقة بين طرفي الاستعارة هي علاقة (قِران) وليست مشابهة دائما، فالشاعر يقارن بين الصور والذوات وعلينا ان نقتنع به او لانقتنع فإنّا غير مجبرين على شيء، المهم انه يحاول ان يخلق لنا عالما جديدا من السياقات التي يوجهها بحسب ما يريد لأسباب لايمكن الجزم بها الا من خلال عملية التأويل والبحث في المفترض الدلالي فضلا عن الإحالي اللغوي .**

تجريب ١:

يمكن للامر ان يكشف ببيت الشاعر بشار:

أضلّ الصباح المستنير سبيله ؟ أم الدهر ليل كله ليس يبرح ؟

يبني الشاعر في الشطر الثاني صورة ليل لا ينتهي لسبب نفسي خاص يؤرق الشاعر ونفهم من المنظور المعنوي النهائي للقصيدة؛ انه العشق ويُبنى النص بوساطة انحرافات أو إحالات

---

(٣٣) الخطاب الشعري / ٦٥.

(٣٤) م.ن.

(٣٥) نظرية اللغة الأدبية/٢٠٦.

سياقية تعقد في النسق الداخلي لبنية النص. وهنا الانحراف السياقي واقع في إسناد الليل الى الدهر بقوله: الدهر ليل، ولكن هذه العلاقة تستغرق الصباح أيضا فالجملة الشعرية اصلها: (ام الدهر ليل كله) وفي الجملة استفهام غير حقيقي تضمن معنى التعجب والادهاش فالدهر ليل ونهار، ولكن الحال الان جعلت الليل يستغرق الدهر كله، وباستبدال لفظي مؤقت للدهر يمكن تصحيح الانحراف السياقي الذي أصاب سياق النص: (ام اليوم ليل كله ليس يبرح)" [٣٦]. وعلى الرغم من تشكيل الاستفهام الذي أحاط بالاسناد فضلا عن الجملة الأخيرة التي كونت سياقا متوالدا من الاسناد الأول وهذا اضعف التشكيل الاسنادي الاخباري (الدهر ليل) فالاستفهام والشرح يحدّ من قطعيته الدلالية، فالاستفهام (بأم) خفف من حدّة القطع، كذلك الجملة الأخيرة (ام الدهر ليل) يعني يكون ليلا ... هل اصبح ليلا ...(كله).. أيفعل هذا؟ فإذاً هنا يخامره الشك، لان الدهر (ليل ونهار) ... فهل اصبح الدهر كله ليلا... ليس يبرحُ..... لان الليل في الحال اليومي الاعتيادي يَبرح فيأتي الصباح. هنا احتاج النقد الى التأويل لحل المعضلة واكتشاف جمل جديدة متوالدة متتالية لاقناع المتلقي، وهذه سمات الاستعارة العميقة التي تبعد كثيرا عن المستوى الظاهري الاعتيادي للغة الاعتيادية الأولى.

ان "البنية النحوية لأي نص ما تتحول الى بنية بلاغية اذا تعذّر علينا وبدا من المستحيل تحديد أي مستوى من مستويات اللغة هو المهيمن؛ لذا يتمّ التركيز في اللغة على الغياب، اذ ليس هناك شيء قبل اللغة او بعدها. فليست الحقيقة والمعنى في النص الا من نتائج المجاز والاستعارة والاقنعة البلاغية، وهو مايعني فقد اللغة كل سلطة مرجعية تحاول تثبيت دلالة ما داخل النص" [٣٧]، وهكذا فان التأويل" الذي يفترض معنى متجانسا للنص لا أساس له (هنا)؛ لان القراءة تتحرر من أُفق المعنى او حقيقة الكينونة وتتحرر كذلك من قيم انتاج المنتِج، ومن ثم يستحيل بناء أفق دلالي في ضوء قصدية لاوجود لها"[٣٨]. إنّ هذا التقاطع في القصدية يُبنى على "**التوقع السلب**" في ذهن المتلقي يسنده الاحتمال وتواتر جمل للكشف وتعرية الكلمات وفكّ مفاصل الإسناد ثم إعادة ربطها بأسانيد أخرى ليحلّ الافهام، **وهنا تتساقط احتمالات التوقعّ؛ لان السامع فشل ان يدرك الاحتمالات الأولى في الجمل الظاهرة.**

تجريب ٢:

لنلاحظ المقطع الافتتاحي في قصيدة "أختام الدم" لشاعر العرب الأكبر عبد الرزاق عبد الواحد:

---

[٣٦] ينظر الخطاب الشعري / ٦٨/٦٧.

[٣٧] التداوليات، علم استعمال اللغة/ ٢٨٦.

[٣٨] م.ن.

مرةً كنتُ طفلا

وأمسكتُ كفّ أبي

فأرتجفتُ لفرط الاخاديد فيها

....

ومضى ومضيتْ

نصفُ حيّ انا وأبي نصف ميت.

فالكلمة في السطر الافتتاحي "مرة" كلمة غير متوقعة بالنسبة للسياق الذي يتلوها "كنت طفلا"؛ لان الذهن يحيل الكلمة الى سياق اخر.. **مرة هذا الأمر وقع**.. بما انه في الماضي. الكلمة التالية (كنت) لأتحدث خللا في السياق الاعتيادي ويبقى التوقع محققا لامحالة، مثلا: مرة كنت مريضا وحدث شيء ما... ولكن الكلمة التي تختم السياق الأول تقطع الإحالة الاعتيادية وتقطع فضلا عن ذلك " توقع التماثل" في السياق الذي وقع عليه الاختيار ان ينتج به النص (مرة كنت).. طفلا، ولو عزلنا الجملة بالنحو الاتي: مرة ــ (كنت طفلا).. تحقق السياق الاعتيادي في اسناد الكينونة، فمن البديهي ان يكون الانسان طفلا ثم يكبر، لكن الانسان لايكون **مرّة** من المرات طفلا، انما هو جزء من عمره الذي عاشه في بداية حياته، ان يكون طفلا ثم يكبر. وهكذا فان اللفظة (مرّة) التي تشي بزمنٍ وحدثٍ (مرة من المرات حدث شيء ما) لم تحقق أفقا للتوقع المتناقل بين الذهن والكلمة التي ترتمي في السياق، والحدث هو (كنت طفلا) و(أمسكتُ كف أبي) وهنا لابد من تكوين سياقات جديدة لكسر القصدية الظاهرية وإقناع المتلقي بالممكن: عندما كنت طفلا ←——— أمسكت كفّ أبي) هذا سياق ظاهري مُقنعٌ لا يُنصح به في الشعر ولكن ربما في القصة او الرواية؛ لان مستويات القصد فيها نهائية ليست آنية في الجملة والمفردة.

يقول: ... **ومضى ومضيت .. نصف حي انا وابي نصف ميت.**

أين الاشكال في هذا السياق؟ الكلمة التي كسرت القصد والتوقع الاعتيادي(نصف) ولو عزلناها يكون السياق: **حي أنا.. وأبي ميت.** هكذا يكون الاسناد بدونها، ان كسر القصد يكون في الجملة الأولى والجملة الثانية وأما "التوقع" فيكون سلبا في الاسناد الأول، وإيجابا في الاسناد الثاني فلا يمكن للمتلقي بعد ان يطّلع على الجملة الأولى (نصف حي أنا) ان لا يكتشف الاسناد الثاني بالكلمة "النواة": (نصف)..(أبي . . نصف مِيت) كأنها فزورة لغوية، فكيف إذا عدنا الى زمن عبد القاهر الجرجاني الذي يتحدث عن وجوب المحافظة على العلاقة في المجاز والاستعارة بحيث تقع على وجه لا يَعرَى معه من ملاحظة الأصل وهو يقول: " معنى الملاحظة ان الاسم يقع لما تقول انه مجاز فيه بسبب بينه وبين الذي تجعله حقيقة فيه.. لاجل ان الاعتبارات اللغوية

تتبّع أحوال المخلوقين وعاداتهم وما يقتضيه ظاهر البنية وموضوع الجِبلة "[٣٩]. **ان الاسناد المخترع هو الذي يحدد مستوى "التوقع" للمفردة ان وقعت موقعها الذي يتوافق مع اشعارات الاستجابة او وقعت وقعا يختلف معها فلا يقنع التأويل الا بجمل متعددة متتالية لحل الاشتباك، ولافضل لكلمة على أخرى الا بالأداء والفعل** كقول عبد القاهر في دلائله: "ان الكلمتين لاتتفاضلان من غير ان ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم وان أحدا لايصفُ لفظة بانها فصيحة الا وهو يعدُّ مكانها من النظم وحسن ملاءمة ومعناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لاخوانها"[٤٠]. وقد يبدو ان هذا الكلام مضى، فلا ينطبق على نصّ عبد الرزاق عبد الواحد؛ لأننا لانبحث عن تعريف الفصيح من اللفظ هنا، لكننا قد نبحث عن التلاؤم الموسيقي والايقاعي والمعنوي الذي يحقّقه نصه كذلك فضل مؤانسة الالفاظ بعضها للأخريات .

١٣/ كانون الثاني/ ٢٠١٨بغداد

نُورد هنا بعض المقولات لعلماء النحو والبلاغة في تعريف اللّفظ والكلم والكلام والكلمة والقول والمفردة والجملة ليمكن الإفادة منها في ضوء ماورد في البحث.

- الكلمة: يُعرّفها النحويون بأنها قولٌ مفرد أو هي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، وقد تطلق الكلمة ويراد بها الكلام على سبيل المجاز المرسل من باب تسمية الشيء باسم جزئه قال تعالى (وكلمة الله هي العليا) أي لا اله الا الله .
- الكلم: اسم جنس جمعي واحده كلمة ويطلق على ما كان من ثلاث كلمات فأكثر سواء أكان مفيدا أم لم يكن، فقولك: (حضر محمد اليوم) كلام وكلم، وقولك (إن حضر محمد) كلم وليس كلاما. والكلم في التقسيم المشهور: اسم وفعل وحرف وهو التقسيم الذي ذكره سيبويه قال في (هذا باب علم ما الكلم في العربية): فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل، وواضح ان مصطلح الحرف الذي يُعدُّ قسيما للاسم والفعل اجتزىء من عبارة سيبويه.
- القول: هو اللّفظ الدّال على معنى وهو يعمّ الكلام والكلمة فكل ذلك قول، فالكلام قول والكلم قول والكلمة قول، قال ابن مالك: والقول أعم. بل ان القول يطلق على ما هو أعم من ذلك فقد يطلق على حديث النفس، قال تعالى (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) المجادلة ٨. وقد يطلق على الاعتقاد والرأي فيقال: فلان يقول بقول ابي حنيفة وفلان يذهب الى قول مالك أي يعتقد ما كان يريانه ويقولان به. وقد استعملوه بمعنى الحركة والايماء بالشيء.

---

[٣٩] أسرار البلاغة/ ٣٦٥.

[٤٠] دلائل الاعجاز/ ٩٠.

- اللفظ: وهو الصوت المشتمل على بعض الحروف سواء دلّ على معنى ام لمْ يدل نحو: كجق.
- المفردة: ونعني بها الكلمة مثل أسد، سيف، شجرة .
- الكلام والجملة: ذهب قسم من النحاة الى ان الكلام والجملة هما مصطلحان لشيءٍ واحد فالكلام هو الجملة، والجملة هي الكلام، وذلك ماذكره ابن جني في الخصائص وتابعه عليه الزمخشري في المفصل جاء في الخصائص (اما الكلام فكلّ لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل نحو: زيد أخوك وقام محمد). وأما عن الكلام فقال الزمخشري في المفصل (الكلام هو المركّب من كلمتين أسندت إحداهما الى الأخرى، وذلك لايتأتى الا في اسمين كقولك: زيد أخوك وبشر صاحبك أو في فعل نحو: ضرب زيد ويسمى الجملة). الا ان الذي عليه جمهور النحاة ان الكلام والجملة مختلفان فشرط الكلام الإفادة ولا يشترط في الجملة ان تكون مفيدة وانما يشترط اسناد سواء أفاد ام لم يفد فهي أعم من الكلام اذ ان كل كلام مفيد وليس كل جملة مفيدة . جاء في (التعريفات) في تعريف الجملة انها (عبارة عن مركّب من كلمتين أسندت احداهما الى الأخرى سواء أفاد كقولك (زيد قائم) او لم يفد كقولك (ان يُكرمني) فانه جملة لا تفيد الا بعد مجيء جوابه فتكون أعم من الكلام مطلقا.
- الكلام: في دلائل الاعجاز الكلام على ضربين: ضربٌ انت تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده؛ وذلك اذا قصدتَ ان تُخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق. وضربٌ آخر انت لاتصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض. ومدار هذا الامر على الكناية والاستعارة والتمثيل.. او لاترى انك اذا قلت: هو كثير رماد القدر او قلت: طويل النجاد او قلت في المرأة نؤوم الضحى فانك في جميع ذلك لاتفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر انه مضياف.. وكذا اذا قلت رأيت اسدا ودلّك الحال على انه لم يُرد السبع علمت انه أراد التشبيه الا انه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لايتميز عن الأسد في شجاعته... واذا قد عرفت هذه الجملة فهمنا عبارة مختصرة وهي ان تقول: المعنى ومعنى المعنى تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل اليه بغير واسطة وبمعنى المعنى ان تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى الى معنى اخر.

- الدلالة الظاهرة والدلالة الباطنة: ونعني بالدلالة الظاهرة المعنى الذي يُعطيه ظاهر اللفظ مثل سافر محمد، ونام خالد. وأما الدلالة الباطنة فهي الدلالة التي تؤدى عن طريق المجاز والكنايات والملاحن والاشارات وما الى ذلك كقوله (رَمتْني بسهم ريشه الكحل) أي بنظرة من عين مكحولة وقوله (بعيدةُ مهوى القرط) أي طويلة العنق .
- الجمل المقصودة لذاتها والجمل المقصودة لغيرها، فالجمل المقصودة لذاتها هي الجمل المستقلة نحو حضر محمد وليتك معنا .واما المقصودة لغيرها فهي الجمل غير المستقلة وذلك كالجمل الواقعة خبرا او نعتا او حالا او صلة او نحو ذلك وذلك نحو (اقبل اخوك وهو مسرع) فجملة (وهو مسرع) ليست مستقلة بل هي قيد الجملة قبلها.
- النغمة الصوتية: وهي من عناصر الجملة فالجملة الواحدة قد يختلف معناها باختلاف النغمة كأن تقول (زيدٌ عنده مال) وتشدّ على مال وتُفخم الصوت فيه فيكون المعنى انه ذو مال كثير. وتقول عنده مال وترقّق الصوت وتكسره فيكون معناها انه ذو مال قليل لايعتدّ به ونحو ذلك.

المراجع:

. الجملة العربية تأليفها وأقسامها/الدكتور فاضل السامرائي/ منشورات المجمع العلمي ١٩٩٨.

. معاني النحوج١/الدكتور فاضل السامرائي/ طبع جامعة بغداد/١٩٨٦.

. الجملة العربية والمعنى/الدكتور فاضل السامرائي/ دار ابن حزم بيروت لبنان ٢٠٠٠.

....

المصادر :

١. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ.٤٧٤هـ) تحقيق هـ. ريتر، مكتبة المثنى ط٢.
٢. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية/ امبرتو ايكو. ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد/ المركز الثقافي العربي، بغداد ١٩٧٩ .
٣. التداوليات، علم استعمال اللغة/ اعداد وتقديم الدكتور حافظ إسماعيل علوي/ عالم الكتب الحديث، الأردن/ اربد، ٢٠١١ .
٤. الجملة العربية والمعنى/الدكتور فاضل السامرائي/ دار ابن حزم بيروت لبنان ٢٠٠٠.
٥. الخطاب الشعري في شعر بشار بن برد/ الدكتور نصيرة أحمد/ دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد ٢٠١١.
٦. دراسة في فلسفة لودفيج فينغشتاين المتاخرة / أسارى فلاح حسن، دار المأمون، بغداد ٢٠١١.
٧. دلائل الاعجاز/ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت
٨. دور الكلمة في اللغة/ ستيفن أولمان/ ترجمة وتعليق الدكتور كمال بشر ط١٠/ مكتبة الشباب،١٩٨٦ .
٩. عصر البنيوية من ليفي شتراوس الى فوكو، اديث كيرزويل، ت:جابر عصفور، دار افاق عربية، ط١، بغداد،١٩٨٥.
١٠. شرح الرضي لكافية ابن الحاجب / محمد بن الحسن الاستراباذي النجفي الرضي/ تحقيق: حسن إبراهيم الحفظي ويحيى بشير مصطفى/ جامعة محمد بن سعود الإسلامية /١٩٦٦ .

١١. شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربية/ابن هشام الانصاري تحقيق الأستاذ الدكتور هادي نهر/ دار اليازوري، عمان.
١٢. اللغة بين العقل والمغامرة/ الدكتور مصطفى مندور، سلسلة الكتب اللغوية، منشأة المعارف، الإسكندرية .
١٣. نحو نظرية اسلوبية لسانية/ فيلي ساندريس، ت: الدكتور خالد محمود جمعة، المطبعة العلمية، دمشق، ط١،٢٠٠٣.
١٤. نظرية اللغة في النقد الغربي/ الدكتور عبد الحكيم راضي/ مكتبة الخانجي، مصر ١٩٨٠.
١٥. نظرية اللغة الأدبية/ خوسيه ماريا بوثويلو ايفانكوس، ت: الدكتور حامد أبو احمد/ مكتبة غريب، الفجالة، القاهرة.
١٦. النقد والحداثة/ الدكتور عبد السلام المسدي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، بيروت ١٩٨٣.

الكتاب بين الخليل وسيبويه

الأستاذ الدكتور سعيد جاسم الزبيدي
قسم اللغة العربية/جامعة نزوى/سلطنة عمان

الملخص:

يعرض هذا البحث إشكالية المنهج في (الكتاب) الذي اختلف فيه القدامى والمحدثون، فمنهم من عدّه بلا منهج، ومنهم من جعله الكتاب الأول في علوم العربية كلها، ومنهم من أسقط عليه ما وصل إليه البحث اللغوي المعاصر. وذهب آخرون الى أنّه ممليات الخليل مجرداً سيبويه من أي دور فيه.

حاول هذا البحث أن يحيط بما قيل فيه بموضوعية؛ ليخلص إلى أنّ (الكتاب) بين الخليل وسيبويه فضلاً عن إسهام من عاصرهما من شيوخ العربية وبيان المنهج المتفرد فيه.

المقدمة:

إذا ذُكِرَ (الكتاب) ارتسم في الذهن الفكر النحوي المشترك الذي نتج من الحوار المتصل بين الشيخ (الخليل بن أحمد ت١٧٥هـ)، وتلميذه النابه (سيبويه ت١٨٠هـ)، وما نقله التلميذ من شيوخ آخرين، فضلاً عن سماعه من العرب.

لم يضع سيبويه عنواناً لكتابه الذي قيل فيه: " إنّه ألّف كتاباً من ألف ورقة"[١]. و"الذي لم يسبقه إلى مثله أحد، ولم يلحق به من بعده"[٢]. و " أنّه عقد أبوابه بلفظه، ولفظ الخليل"[٣]؛ لأنّ "الأصول والمسائل للخليل"[٤].

إنّ (الكتاب) " أثر من آثار العبقرية التي عُرِفَ بها الخليل... ولسيبويه الفضل في نقل آراء

---

[١] طبقات اللغويين والنحويين: أبو بكر الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف/القاهرة، ط٢، سنة ١٩٧٣م، ص٤٩.

[٢] أخبار النحويين البصريين ومراتبهم، وأخذ بعضهم عن بعض: أبو سعيد السيرافي، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام/القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٥م، ص٦٤.

[٣] مراتب النحويين: أبو الطيّب اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر/القاهرة، د.ط ، د.ت، ص٥٤.

[٤] الفهرست: ابن النديم، تحقيق: محمد عوني عبدالرؤوف، وإيمان السعيد جلال، الهيئة العامة للقصور الثقافية/ القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٦م، ٥١/١.

وينظر: قراءة جديدة في (الكتاب): مهدي المخزومي، مجلة الكاتب العربي/ اتحاد الأدباء والكتّاب العرب، العدد١٥، سنة ١٩٨٥م، ص٧٢.

الخليل، وحفظها، وتصنيفها"[٥]. وأنّه " جمع ما ابتكره الخليل إلى محصول الباحثين السابقين"[٦].

ما ورد في (الكتاب) حمل أبا عثمان المازني(ت٢٤٩هـ) الذي يُعدّ ثاني اثنين قرأه على الأخفش الأوسط(ت٢١٥هـ)[٧]، على أن يقول: " من أراد أن يعمل كتاباً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي"[٨].

ذكرت هذا كلّه لانصرف عمّا قيل في الكتاب من "صعوبة"، و "غموض"، واعتماده على (كتابي عيسى بن عمر الثقفي ت١٤٩هـ) و " الفيصل لأبي جعفر الرؤاسي ت٢٠٦هـ)[٩]، أو اجتمع على صنعته اثنان وأربعون إنساناً منهم سيبويه![١٠] وليس بي حاجة إلى مناقشة ذلك، ولا الردّ، فقد تولّى تفنيد ما ورد باحثون كثر.

ويكفي ذلك جدلاً حين يقول سيبويه: "قال الخليل" أو " زعم الخليل" أو " هكذا مأخذ الخليل" أو " سألت الخليل" أو " سألته"، مما يصعب استقصاؤه [١١]، فأحياناً كثيرة لا يذكر اسمه، ولا ضميراً يعود إليه، وكفى الخليل فخراً قول أبي الطيب اللغوي(ت٣٥١هـ) إنه " مفتاح العلوم، ومُصرّفها"[١٢].

أما الدراسات التي عُقِدَتْ على (الخليل)، و(سيبويه)، و(الكتاب) فكثيرة، يضيق بنا ذكرها، فقد

---

[٥] نفسه، ص٧٥.

[٦] تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمن، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف/القاهرة، ط٤، سنة ١٩٨٣م، ١٣٤/٢.

[٧] أخبار النحويين البصريين، ص٦٦.

[٨] نفسه، ص٦٥.

[٩] ينظر:
- الفهرست: ابن النديم، ٦٤/١.
- عيسى بن عمر الثقفي، نحوه من خلال قراءته: صباح عباس السالم، مؤسسة الأعلمي/ بيروت – دائرة التربية بغداد، ط١، سنة ١٩٧٥م، ص٥١.
- أبو جعفر الرؤاسي نحوي من الكوفة: عبدالله الجبوري، دار الكتب/جامعة الموصل– العراق، ط١، سنة ١٩٨٨م، ص٢١.

[١٠] الفهرست، ٦٤/١.

[١١] الكتاب في التراث النحوي، التطور في المحتوى والأساليب: رمزي بعلبكي، بحث منشور في: الكتاب الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة/الكويت، تحرير: جورج عطية، ترجمة: عبدالستار الحلوجي، مطابع السياسة/الكويت، العدد (٢٩٧)، سنة ٢٠٠٣م، ص١١٠–١١١.

[١٢] مراتب النحويين: أبو الطيب اللغوي، ص٥٤.

أحصى الباحث طارق محمد الهمس الدراسات على (الكتاب)، و (سيبويه) واحداً وخمسين بين بحث، ورسالة، وكتاب[١٣]، وأضيف أنّ هناك كثيراً فاته أن يذكرها!

سأخصّ (الكتاب) بمباحث تبرز تفرده، وتزيل ما علق على أقلام الباحثين من أوهام تداولها القدامى عنه وعن مؤلفه نفاسة وحسداً!

منهجه:

أهمُّ ما يميّز الدرس اللغوي الحديث بحثه عن (المنهج)؛ لذا فالمنهج المتّبع في أيّ فن ينبغي أن تتوافر فيه صفتان، الأولى: أنْ يكون مستمداً من طبيعة اللغة، وألا يكون مفروضاً عليها، والأخرى: أن يكون ملائماً الهدف الذي قصده [١٤].

وفي (الكتاب) تضارب القول في ذلك، فمن قائل إنّه " ليس فيه ترتيب، ولا خطبة، ولا خاتمة"[١٥]، وآخر إنّه " أول وصف متماسك لمنظومة اللغة العربية كاملة... في كتاب له بداية، ونهاية، وفيه إحالات شاملة متداخلة"[١٦].

وعلّق الباحث حسن عون(ت١٩٩٧م) على هذا كلّه، فقال: " تحدّث الباحثون كثيراً عن منهج سيبويه في كتابه، ونكاد نحصل على إجماع منهم أنّ الكتاب خالٍ من منهج، وأنّ ما جاء فيه من فصول وأبواب مضطرب، لا تجمعه وحدة، ولا تربط بين أجزائه رابطة. أمّا رأينا فهو يخالف ذلك... على أن تخطيطاً للعمل اللغوي في هذا الكتاب كان ماثلاً بوضوح في ذهن المؤلف، وأنّ معالم منهج واضح كانت تفرض عليه السير... في طريق التأليف"[١٧]. ووصف الأستاذ الدكتور صاحب أبو جناح –مدَّ الله في عمره– منهج الكتاب فقال: " يدرس أساليب الكلام في الأمثلة والنصوص؛ ليكشف عن الرأي فيها صحة وخطأً، أو حسناً وقبحاً، أو كثرة وقلة، وهو لا يلتزم تعريف باب من أبواب النحو، ولا يلتزم مصطلحاً بعينه... كما أنه لا يلتزم بتفريع الفروع... بل

---

[١٣] كتاب سيبويه وأثره في نحاة الكوفة حتى القرن الرابع الهجري: طارق محمد الهمس، دار النوادر/دمشق، ط١، سنة ٢٠١٤م، ص٤٩-٥٤.

[١٤] مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: نعمة رحيم العزاوي، منشورات المجمع العلمي العراقي/ بغداد، د.ط، سنة٢٠٠١م، ص٧.

[١٥] كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، د.ط ، د.ت، ١٤٢٧/٢.

[١٦] أعلام الفكر اللغوي – التقليد اللغوي العربي: كيس فيرستيج، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة/ بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٧م، ٧٠/٣.

[١٧] تطور الدرس النحوي: حسن عون، معهد البحوث والدراسات العربية/جامعة الدول العربية، د.ط، سنة ١٩٧٠م، ص٣٣-٣٤.

يعرض للموضوعات بكامل عناصرها محللاً وموضحاً"[١٨]. مما حدا زميلنا الكريم محمد كاظم البكّاء – متعه الله بالعافية – أن يسعى إلى " إعادة نشره في تصنيف منهجي"[١٩]. فقال: " اتضح لنا أنه في تصنيف منهجي دقيق، لو قُدّم ثانٍ على أول من أبوابه لاختل نظامه، واضطرب منهجه، فقد بُنِيَ آخره على أوّله"[٢٠]. ثمّ شرع يفصّل ذلك المنهج فقال: " طبّقت التصنيف المنهجي بقسمة الكتاب قسمين رئيسين هما: (المقدمة وأبواب النحو)، و(أبواب الصرف والأصوات)"[٢١]. ولو اطّلع الزميل الكريم على ما كتبه أستاذنا مهدي المخزومي – رحمه الله – الذي قال: " لقد كان للخليل منهج واضح في دراسة العربية، درسَها – أول ما درسَها – أصواتاً، ثمّ درسَها أبنيةً، ثمّ درسَها مؤلفة في جمل، وهو المنهج السليم في دراسة أية لغة"[٢٢]. وأضاف: هذا وما سبق من قرائن يحمل الدارس على ترجيح أن يكون تسلسل الدراسات في الكتاب، والبحث في الأصوات من حيث المخارج ومن حيث الصفات هو أول بحث فيه... وهذه البحوث توطئة لازمة لفهم الدرس النحوي الذي لا يتناول بالدرس إلا الكلم المؤلفة"[٢٣]؛ لأعاد زميلنا الكريم تصنيفه المنهجي على وفق ما رآه شيخنا المخزومي – رحمه الله – ليتحقق منهج البحث اللغوي الحديث بمستوياته المتفق عليها: صوتاً، وصرفاً، ومعجماً، وتركيباً، ودلالة.

عنوانات (الكتاب) في أبوابه:

تجلّت براعة سيبويه في اختيار عنوانات أبوابه، مما يظهر " لنا بوضوح المجهود المبذول في الإعداد، والتصنيف، فهو يكاد يكون نمطاً فريداً في المؤلفات النحوية"[٢٤]. إنّ " الكتاب مقسّم إلى إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة"[٢٥].

سأعرض عنوانات (الكتاب) الداخلية على وفق عباراتها، وسياقها، ودلالاته، وأبيّن ما لها، وما عليها:

---

[١٨] من أعلام البصرة، سيبويه، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، منشورات وزارة الإعلام/ الجمهورية العراقية، كتاب الجماهير(١٦)، د.ط، سنة ١٩٧٤م، ص٩٥-٩٦.

[١٩] مقدمة تحقيق الكتاب: محمد كاظم البكاء، مؤسسة الرسالة- دار البشير/الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٤م، ٣/١.

[٢٠] نفسها، ٢/١.

[٢١] نفسها، ٣/١.

[٢٢] قراءة جديدة في الكتاب: مهدي المخزومي، ص٧٨.

[٢٣] قراءة جديدة في الكتاب، ص٨٠.

[٢٤] تطوّر الدرس اللغوي: حسن عون، ص٤٨.

[٢٥] سيبويه حياته وكتابه: أحمد أحمد بدوي، مؤسسة هنداوي سي آي سي/المملكة المتحدة، سنة ٢٠١٧م، ص٢٨.

عنوانات أبواب الكتاب:

تتجلّى أهمية (العنوان) على وفق النظر السيميائي في قدرته الإيحائية على دلالات متعددة، فهو علامة ثريّة

لها وظائفها[٢٦]. وتأكد لنا أن سيبويه كان مبتكراً عنواناته من غير مثال سابق، ومن ملاحظات شيخه (الخليل)، فكان ما لها وما عليها.

سأورد بدءاً ما لعنواناته من دقة، وبراعة عبارة، ووضوح:

- " هذا باب علم ما الكلم من العربية"[٢٧].

هذا تعبير عالٍ في تألفه، وليس بي حاجة إلى بيان ما يشتمل عليه من دلالة! فهذا يصدر ممن " عمل كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها"[٢٨].

ومثل هذا عنوانات واضحة ودالة، (التوثيق من طبعة هارون):

" هذا باب المسند والمسند إليه". ٢٣/١.

" هذا باب اللفظ للمعاني". ٢٤/١.

" هذا باب ما يحتمل الشعر" ٢٦/١.

" هذا باب ما أجري مجرى ليس" ٥٧/١.

" هذا باب الأمر والنهي" ٢٥٣/١.

" هذا باب من اسم الفاعل" ١٦٤/١.

" هذا باب من المصادر" ١٨٩/١.

" هذا باب ما غلبت فيه المعرفة النكرة" ٨١/٢.

" هذا باب النداء" ١٨٢/١.

وكثيرة أبوابه الواضحة الدقيقة، وإنما سقنا منها تمثيلاً، لا استقراءً.

---

[٢٦] سيمياء العنوان في الدرس اللغوي: عيسى عودة برهومة، بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي/ جامعة الكويت، العدد(٩٧)، السنة (٢٥)، سنة ٢٠٠٧م، ص١١.

[٢٧] كتاب سيبويه(طبعة هارون)، ١٢/١.

[٢٨] خزانة العرب، ولب لباب لسان العرب: عبدالقادر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي/القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩٧م، ٣٧٠/١.

وهناك عنوانات أبواب قد تبدو أنها وصف أقرب منه إلى التحديد؛ لأنّ موضوعات (الكتاب) لم تستقرّ (مصطلحاتها)، مثل:

" باب الفاعل الذي يتعّداه فعله إلى مفعولين، وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر – ٤٣/١"، أي باب الأفعال المتعدية إلى مفعولين.

و " باب المفعول الذي يتعّداه فعله إلى مفعول – ٤١/١" أي باب الفعل الذي لم يسمّ فاعله.

و " باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول ويجري على الاسم كما يجري أجمعون على الاسم وينصب بالفعل لأنه مفعول – ١٥٨/١" أي باب البدل.

وكثير مثل هذا، وقفت عليه أستاذتي خديجة الحديثي – رحمها الله – [٢٩].

ومنها ما كان يستعين بالأمثلة ليوضح مقصوده، أو الباب الذي يندرج فيه مثل:

" باب من الفعل سمي الفعل فيه بأسماء مضافة ليست من أمثلة الفعل الحادث ولكنها بمنزلة الأسماء المفردة التي كانت للفعل نحو (رويد) و (حيهل) ومجراهن واحد–٢٤٨/١" هنا يريد (أسماء الأفعال)! المصطلح المضطرب!

من عباراته:

ذكر سيبويه " باب الاستقامة من الكلام والإحالة فيه–٢٥/١" فأرجع الأمر في ذلك كلّه إلى تأليف العبارة، وصدق المعنى. ومثل هذا في:

" باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى–٢١١/١" " يلمّ بالمجاز المرسل والمجاز بالحذف"[٣٠]. وقال باحث معاصر في مسائل البلاغة: " فقد عددتُ ما تضمنه (الكتاب) من ظواهر نحوية بلاغية رافداً أولياً لتلك الروافد التي استقت منها بلاغتنا العربية طرائقها في البحث والتحليل"[٣١]. وأضاف: " إنّ سيبويه لم يكن يخطر بباله التفريق بين ما هو نحوي وصرفي وبلاغي، وكأنه أدرك أن كل هذه العناصر –مجتمعة– تمثل نظاماً لغوياً متآخذاً"[٣٢]. لأنّ ثمة علاقة تكاملية التي جسدته (نظرية النظم)[٣٣].

---

[٢٩] كتاب سيبويه وشروحه: خديجة الحديثي، دار التضامن/بغداد، د.ط، سنة ١٩٦٧م، ص٧٩–٨٤.

[٣٠] سيبويه إمام النحاة: علي النجدي ناصف، عالم الكتب/القاهرة، د.ط، سنة ١٩٧٩م، ص١٥٤.

[٣١] الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي: أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب/القاهرة، ط٢، سنة ٢٠٠٩م، ص١٠.

[٣٢] الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، ص٣٧.

[٣٣] نفسه، ص٢١٣.

وعدّ الشيخ أحمد مصطفى المراغي(ت١٩٥٢م) سيبويه واضعاً لعلمي المعاني والبيان [٣٤].
وللتفصيل في مسائل البلاغة ينظر:
- أثر النحاة في البحث البلاغي، ص٦٧-١٣١.
- الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي: أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب/القاهرة، ط٢، سنة ٢٠٠٩م.

وأما عبارته في الفعل:

" أما الفعل فأمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبُنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع-١/١٢" فلم أجد في كتب النحو من جعلها منطلقاً لدلالة الفعل على الزمن! ولا أروع من كلام عبدالقاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) في مقولته هذه: " لا نعلم أحداً أتى في معنى هذا الكلام بما يوازيه أو يدانيه، أو يقع قريباً منه، ولا يقع في الوهم أيضاً أن ذلك يستطاع"[٣٥].

ومن عباراته التي صارت منطلقاً للباحثين في الحقول الدلالية: في "باب اللفظ للمعاني": " اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين -١/٢٤" ولو تأملت كلامه في " باب نفي الفعل -٣/١١٧" لوجدت دقة في التعبير، والدلالة، ومثله " باب الجر -١/٤١٩".

وعبارته في التقديم:

" كأنهم يقدمون الذي بيانه أهمّ لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم -١/٣٤" وهذا مثل ذاك.

ومثله في الحذف:

" اعلم أنهم مما يحذفون الكلم، وإن كان أصله في الكلام غير ذلك -١/٢٤"

ذكرت هذه الأمثلة ردّاً على من اتهم سيبويه بأسلوبه، أو بفارسيته ليتخذ ذلك قناعاً للهجوم على عبارة (الخليل) ثمّ (سيبويه)!

---

(٣٤) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: أحمد مصطفى المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/القاهرة، ط١، سنة ١٩٥٠م، ص٤٤.
وينظر للتفصيل:
- أثر النحاة في البحث البلاغي: عبدالقادر حسين، دار غريب/القاهرة، د.ط، سنة ١٩٨٨م، من ص٦٧-١٣٢.
- البلاغة تطوّر وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط٥، سنة ١٩٨١م، ص٢٩.

(٣٥) دلائل الإعجاز: عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/القاهرة – جدة، ط٣، سنة ١٩٩٢م، ص٦٠٥.

مصطلحاته:

أطلق القدامى لفظة (مفاتيح)[٣٦] على ما يُسمّى (المصطلحات)، أو هي (علامات)[٣٧]. " لم تكن للنحو وعلوم العربية في زمن سيبويه، وعند تأليف كتابه مصطلحات ثابتة ترمز إلى الموضوعات أو الأبواب التي يتكلم عليها"[٣٨]. وهذا كلام عام دقيق، لكنّ باحثين كثيرين درسوا مصطلحات (الكتاب) فمنها ما ابتكره الخليل، أو من سبقه، وما أضافه سيبويه، ولمن أراد التفصيل فلينظر في:

- سيبويه إمام النحاة: علي النجدي ناصف، ص١٧١-١٧٥.
- كتاب سيبويه وشروحه: خديجة الحديثي، ص١٠٨-١١٣.
- المصطلح النحوي نشأته وتطوّره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض حمد القوزي، عمادة شؤون المكتبات/جامعة الرياض، ط١، سنة ١٩٨١م.
- المصطلح النحوي البصري من سيبويه حتى الزمخشري: يحيى عطية عبابنة، عالم الكتب الحديثة/إربد – الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٦م.

لمعرفة ما كان لـ (الخليل، وما أضافه سيبويه، وما سار منه، وما اندثر!

أخلص من هذا كلّه، وما وقفت عليه، إلى أن لـ (الكتاب) منهجاً متفرداً جاء على غير مثال؛ لأنه ممليات الخليل أصولاً ومسائل [٣٩]، وضبط سيبويه، وسؤالاته، وجمعه، فهو مشترك بينهما، ولأكسر حاجز الأوهام التي أثارها القدامى والمحدثون على (الكتاب)، فالشجرة المثمرة تسّاقط عليها الحجارة الكثيرة، ليعود الدارسون إليه، ويتخذوه منطلقاً لدراساتهم، فما زال فيه تراث صالح للاستمرار، وأختم هذا بقول صاحب خزانة الأدب: " قد روى في كتابه قطعة من اللغة غريبة لم يدرك أهل اللغة معرفة جميع ما فيها، ولا ردّوا حرفاً منها"[٤٠].

وخلصت أستاذتي خديجة الحديثي –رحمها الله – إلى أنّ: " سيبويه لم يسر في كتابه على مثال سابق، ولم يكن عمله في الكتاب مجرد الجمع، بل كان له فضل الجمع والتبويب والمناقشة والترجيح والتوضيح"[٤١]. وكفى بهذا تقويماً ل (الكتاب) و (سيبويه)!

---

[٣٦] ينظر: مفاتيح العلوم: الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي/بيروت، ط٢، سنة ٢٠١٠م.

[٣٧] ينظر: المتون المصطلحية: محمد امطوّش، دار الحامد/ الأردن، ط١، سنة ٢٠١٥م، ص٨٤.

[٣٨] كتاب سيبويه وشروحه: خديجة الحديثي، ص١٠٨-١٠٩.

[٣٩] ينظر: قراءة جديدة في الكتاب: مهدي المخزومي، ص٧٦.

[٤٠] خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبدالقادر البغدادي، ١/٣٧٠.

[٤١] كتاب سيبويه وشروحه، ص١٠٢.

هذا بيان موجز في (منهج سيبويه المتفرد) في (الكتاب) وإلا فالكلام على هذا كلّه: المنهج – الكتاب – الخليل/سيبويه لا ينتهي؛ لأنه يؤسس الدرس اللغوي ووسائل تحليل العربية في مستويات البحث اللغوي: صوتاً وصرفاً ومعجماً وتركيباً ودلالة. ويبقى في النفس كثير مما لدي في هذا كله أرجو أن تسعف الأيام فأعود لأخصّه ببحث أكثر تفصيلاً.

المصادر:

أبو جعفر الرؤاسي نحوي من الكوفة: عبدالله الجبوري، دار الكتب/جامعة الموصل–العراق، ط١، سنة ١٩٨٨م.

أثر النحاة في البحث البلاغي: عبدالقادر حسين، دار غريب/القاهرة، د.ط، سنة ١٩٨٨م.

أخبار النحويين البصريين ومراتبهم، وأخذ بعضهم عن بعض: أبو سعيد السيرافي، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام/القاهرة، ط١، سنة ١٩٨٥م.

الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي: أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب/القاهرة، ط٢، سنة ٢٠٠٩م.

أعلام الفكر اللغوي – التقليد اللغوي العربي: كيس فيرستيج، ترجمة: أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة/بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٧م.

البلاغة تطوّر وتاريخ: شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة، ط٥، سنة ١٩٨١م.

تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمن، ترجمة: عبدالحليم النجار، دار المعارف/القاهرة، ط٤، سنة ١٩٨٣م.

تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها: أحمد مصطفى المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/القاهرة، ط١، سنة ١٩٥٠م.

تطور الدرس النحوي: حسن عون، معهد البحوث والدراسات العربية/جامعة الدول العربية، د.ط، سنة ١٩٧٠م.

خزانة العرب، ولب لباب لسان العرب: عبدالقادر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي/القاهرة، ط٤، سنة ١٩٩٧م.

دلائل الإعجاز: عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/القاهرة–جدة، ط٣، سنة ١٩٩٢م.

سيبويه إمام النحاة: علي النجدي ناصف، عالم الكتب/القاهرة، د.ط، سنة ١٩٧٩م.

سيبويه حياته وكتابه: أحمد أحمد بدوي، مؤسسة هنداوي سي آي سي/المملكة المتحدة، سنة ٢٠١٧م.

سيمياء العنوان في الدرس اللغوي: عيسى عودة برهومة، بحث منشور في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي/ جامعة الكويت، العدد(٩٧)، السنة (٢٥)، سنة ٢٠٠٧م.

طبقات اللغويين والنحويين: أبو بكر الزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف/القاهرة، ط٢، سنة ١٩٧٣م.

عيسى بن عمر الثقفي، نحوه من خلال قراءته: صباح عباس السالم، مؤسسة الأعلمي /بيروت– دائرة التربية بغداد، ط١، سنة ١٩٧٥م.

الفهرست: ابن النديم، تحقيق: محمد عوني عبدالرؤوف، وإيمان السعيد جلال، الهيئة العامة للقصور الثقافية/ القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٦م.

قراءة جديدة في (الكتاب): مهدي المخزومي، مجلة الكاتب العربي/ اتحاد الأدباء والكتّاب العرب، العدد١٥، سنة ١٩٨٥م.

كتاب سيبويه وأثره في نحاة الكوفة حتى القرن الرابع الهجري: طارق محمد الهمس، دار النوادر/دمشق، ط١، سنة ٢٠١٤م.

كتاب سيبويه وشروحه: خديجة الحديثي، دار التضامن/بغداد، د.ط، سنة ١٩٦٧م.

الكتاب في التراث النحوي، التطور في المحتوى والأساليب: رمزي بعلبكي، بحث منشور في: الكتاب الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة/الكويت، تحرير: جورج عطية، ترجمة: عبدالستار الحلوجي، مطابع السياسة/الكويت، العدد (٢٩٧)، سنة ٢٠٠٣م.

الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي/القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، د.ط، د.ت.

المتون المصطلحية: محمد امطوّش، دار الحامد/ الأردن، ط١، سنة ٢٠١٥م.

مراتب النحويين: أبو الطيّب اللغوي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر/القاهرة، د.ط، د.ت.

مفاتيح العلوم: الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي/بيروت، ط٢، سنة ٢٠١٠م.

مقدمة تحقيق الكتاب: محمد كاظم البكاء، مؤسسة الرسالة– دار البشير/الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٤م.

من أعلام البصرة، سيبويه، هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، منشورات وزارة الإعلام/ الجمهورية العراقية، كتاب الجماهير(١٦)، د.ط، سنة ١٩٧٤م.

مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة: نعمة رحيم العزاوي، منشورات المجمع العلمي العراقي/بغداد، د.ط، سنة ٢٠٠١م.

الانزياح بالحذف
في ضوء كتاب سيبويه
دراسة في الوظائف اللغوية والنحوية

الأستاذ المساعد الدكتور
إبراهيم أحمد عميري علي العميري
وزارة التربية/المديرية العامة لتربية محافظة صلاح الدين
قسم تربية الشرقاط

الملخص:

تُعدُّ ظاهرةُ الانزياحِ قَضيةً من القَضايا اللغويةِ المهمةِ التي تَتَعلقُ بالمعنى وتندرجُ تحتَ مباحث الأَلسنية الحديثةِ ولاسيما الدراسات الأُسلوبية، بل تُعَدُّ مِن أَهم الأَركان التي قامت عليها الأُسلوبية التي تدرسُ النصَّ الأَدبيِّ من جِهَةِ أَنَّه مخالفٌ للمأَلوفِ والعاديِّ، وأُطلقَ الباحثونَ المحدثونَ على ظاهرةِ الانزياحِ مُصطلحاتٍ كثيرةٍ مِنْها: {الجسارةُ الُّلغويةُ، والشذوذُ الُّلغوي، والاتساعُ اللغوي، والابتكارُ والعدولُ، والازورارُ والغَرابةُ}، وغير ذلك، والتفت سيبويه – رحمه الله – إلى مسائِل الانزياحِ؛ وتناولَها كإجراءٍ أَلسُنِيٍّ؛ وتلمَّسَ أَسرارَها الوظيفيةِ ودلالاتَها الُّلغَويةِ والبَلاغِيَةِ والأَدبيةِ التي تَنتِجُ عن الاجراءاتِ الانزياحيةِ المختلفةِ، وحَددَّ مسائلَها بِدقةٍ عاليةٍ ولاسيما مَسائِلُ الانزياحِ المُوضعِيِّ كالتقديمُ والتأَخير، والانزياحُ التَوَسُعي بالإضافةِ والتكرار، والانزياحُ الاختزالي بالحَذفِ والقصرِ، والانزياحُ التناوبي، والانزياحُ الوظيفي، والانزياحُ التنغيمي، فالإمامُ سيبويه بذلك كانَ مُتَقدِمَاً على المُحدثينَ مِن العربِ والغَربِ الذينَ ادركوا – فيما بعد – أنَّ ((نِظامَ الكلماتِ وهندسَتَها شرطٌ أَساسيٌ في الفِهم والإِفهامِ، وأنَّ لكُلِّ لغةٍ نِظاماً مُعيناً لا يَصحُ الإِخلالُ بِهِ أَو الخروجُ عنهُ.

المقدِّمة:

الانزياحُ بابٌ لَغويٌّ يبحثُ النصَّ وبُعْدَهُ عن المطابقةِ اللغوية للحقيقةِ اللفظيةِ في المفرداتِ والتراكيبِ على حدٍّ سواء، وهو يدخُلُ ضِمنَ مباحثِ المَجازِ الُّلغوي إذا صَحَّ التَعبيرِ، ومثلُ هذا الإجراءُ الُّلغويُّ له أَنماطُهُ الأُسلوبيةِ التي تَستعينُ –بدورها– بأَدواتٍ لُغويَّةٍ متعددة أَو أَساليبٍ لُّغويةٍ متميزةٍ؛ مثلُ: **{الاستعارةِ والتشبيهِ، والإيماءِ والتَخييلِ}** وغيرها؛ وتَتَحَدَّدُ هذهِ الإجراءاتُ بأَنَّها أَنماطٌ غيرُ مُباشِرةٍ يُؤَدِّي الانزياحُ – عن طريقها– تنويعاً للمعانِي؛ فَضلاً عَن بيانِ رُؤيةِ الأَديبِ أَو الكاتِبِ أَو الشاعِرِ وتفرُّده فِي اختيارِ البناء الُّلغوي الذي يُميِّزُ معانِيَهُ من معانِيَ غيرِهِ من الكُتَّاب الآخرينَ، وعَليه فإِنَّ النصَّ – استناداً إلى الانزياحِ – لا يُمكِنَهُ أَنْ يكونَ التعبيرَ

الأَمينَ أَو الصادقَ لكونٍ غَيرَ عادٍ، بلْ هو التَعبيرُ غَيرَ الاعتيادي لكَونٍ عَادٍ، لذا عَرَّفَهُ الباحثونَ المُحدثونَ ((بأنَّه استعمالُ المُبدِعِ لِلُّغةِ استعمالاً يخرجُ بهِ عَمَّا هو معتادٌ ومأَلوفٌ بحيثُ يُؤدِّيَ مَعاني تتصفُ بالتَفَرُّدِ والإبداعِ وقُوةِ الجَذبِ الآسِرِ للعقول والمشاعر والأحاسيس)) ووسموه بأنَّه انحرافٌ أُسلوبِيٌ عِن الُّلغةِ المأْلُوفَةِ.

ولابُدَّ من الإشارةِ إلى أَنَّ بحَثَنا هَذا وقف عند تعريف لغويٍّ واصطلاحي للانزياح، فضلاً عن تضُّمنه تمهيداً موجزاً لظاهرة الانزياح التي تنتج عن الحذف اللغوي ولاسيما ودور العلماء القدامى والمحدثينَ ولاسيما سيبويه – رحمه الله – ودورهم في فكِّ رموز هذا النوع من البناء اللغوي؛ وبيان دوره في الخروج عن مطابقة الحقيقة اللفظية للبناء التركيبي اللغوي نحوياً، من ثمَّ جاءتْ خطة البحث بثلاثة مباحث، ثم خلصتُ إلى خاتمةٍ أُوجزت فيها خلاصة للبحث وأهم نتائجه .

الانزياح بالحذف

في ضوء كتاب سيبويه

دراسة في الوظائف اللغوية والنحوية

الانزياح لغةً:

{ زَوُحَ، وزيح }: كُّلها بمعنى واحدٍ تدلُّ على{ زَوَالُ الشَّيْءِ وَتَنَحِّيهِ وذهابه، أو تَنَحِّي الشَّيْءِ وزَوَالِهِ }، يُقال: { زَاحَ عَنْ مَكَانِهِ يَزُوحُ }؛ إِذَا تَنَحَّى هو عن مكانِهِ، وَأَزَحْتُهُ أَنَا، أي: نَحيِّتهُ أَنَا عن مكانِهِ، وَرُبَّمَا قَالُوا: {أَزَاحَ يُزِيحُ }، و{ أَزاحَ الشَّيْءَ }: أَزاغه من مَوْضِعِه ونَحّاه، ويُقَالُ: { زَاحَ الشَّيْءُ، يَزِيحُ }؛ إِذَا ذَهَبَ هو بنفسه؛ وَتقول: {قَدْ أَزَحْتُ عِلَّتَهُ فَزَاحَتْ}، وَهِيَ تَزِيحُ، وتقول: { زاحَ الرجلُ زَيحاً؛ وزُيوحاً }، أي: ذَهَبَ الرجل ومالَ وجارَ، ومنه قولك: { زُحتُه وأزحته }؛ أي: { أَزلتهُ عن موضِعِهِ }[1]، وَمنه قَوْلُ الأَعْشَى:[الطويل] [2]:

هَنَأْنَا فَلَم نَمْنن عَلَيْهَا فأصبحَتْ رَخِيَّةَ بَالٍ قد أَزَحْنَا هُزَالَها

وقد يجيءُ الفعلُ منه على{ أَزحته؛ فانزاحَ }؛ وزنه:{ أَفعلتهُ؛ فانفعلَ }؛ قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) في كتابه أَدب الكاتب من { باب أَفْعَلْته فَفَعَلَ }: ((تقول: { أَدْخَلْتُه؛ فَدَخَلَ، وأَخْرَجْتُه؛ فَخَرَجَ }، ....، هذا القياس، ... **وقد جاء في هذا : { انْفَعَلَ } ... وقالوا: {... وأَطْلَقْتُه فانطلَق، وأَقْحَمْتُه فانقَحَم }**))[3]، وبناءً على ذلك فإنَّنا نقول:{ أَزحته، فانزاحَ }، ووزنه {انفعلَ}؛ وهو فعل خماسي؛ أَيّ: ثُلاثي مزيد بحرفين هما:{ الهمزةُ والنونُ }، والمصدر من

---

(١) ينظر تهذيب اللغة(زيح زوح):١١٧/٥، ومقاييس اللغة؛ لابن فارس(زَوُحَ):٣٥/٣، و(زَيَحَ):٣٩/٣، وكتاب الأفعال؛ لابن القطاع (زيح):١٠٧/٢–١٠٨، وتاج العروس(زوح): ٤٤٢/٦.

(٢) ديوان الأعشى:١٢٢، وتهذيب اللغة(زيح زوح):١١٧/٥.

(٣) أدب الكتاب؛ لابن قتيبة:٤٥٦/١–٤٥٧ .

الفعل الخماسي المطاوع[٤] يأتي على وزن { انفعال } نحو: {انكسرَ = انكسارُ، وانفتحَ = انفتاحُ }[٥]؛ ومثلهما:{ انزاحَ = انزياحُ}، فـ {**انزياحُ** }: مصدرٌ للفعل الخُماسي المُطاوع { انزاحَ }، فنتقول: { انزاحَ = **انزياحُ** } ووزنهما: { انْفَعَلَ = **انفعالُ** }، ومعناه:{ تَحَرَّكَ، وتَباعَدَ، وانْحَرَفَ }.

الانزياحُ اصطلاحاً:

الانزياحُ هو مصدرٌ للفعلِ المطاوعِ {انزاحَ} – كما ذكرناه سلفاً – أيّ: { تَحَرَّكَ، وتَباعَدَ، وانْحَرَفَ }، ومصطلحُ الانزياحِ – في النَقدِ الأَدبيِّ الحديث – : هو((استعمالُ المُبدِعِ لّلغةَ – كمفرداتٍ وتراكيبٍ وصورٍ – استعمالاً يخرج بها عمّا هو مُعتادٌ ومأَلوفٌ بحيثُ يُؤدّي ما ينبغي له أَنْ يتّصفَ به من تَفرُّدٍ وإِبْداعٍ وقُوَّةٍ جَذْبٍ وأَسْرٍ))[٦] في بناء المعاني المتوخاة.

المبحث الأول

الانزياح مفهوماً ووظيفةً

تُعدُّ ظاهرةُ الانزياحِ قَضيةً من القَضايا اللغويةِ المهمةِ التي تَتَعلَّقُ بالمعنى وتندرجُ تحتَ مباحث الأَلسنية الحديثةِ ولاسيما الدراسات الأُسلوبية، بل تُعَدُّ مِن أَهم الأَركان التي قامت عليها الأُسلوبية التي تدرسُ النصَّ الأَدبيِّ من جِهَةِ أَنَّه مخالفٌ للمأَلوفِ والاعتيادي، وأُطلقَ الباحثونَ المحدثونَ على ظاهرةِ الانزياحِ مُصطلحاتٍ كثيرةٍ مِنْها: **{ الجسارةُ الُّلغويةُ، والشذوذُ الُّلغوي، والاتساعُ اللغوي، والابتكارُ والعدولُ، والازورارُ والغَرابةُ }**، وغير ذلك[٧]، واعتنى عُلماءُ الأُسلوبِ من الأَلسنينَ المحدثينَ بظاهرةِ الانزياح هذه عناية كبيرة؛ ومن جُلَّتِهِم (فاليري) الذي عرَّفه ((بأَنَّه انحرافٌ عَن قاعِدةٍ ما))[٨]، فالانزياحُ باب يتناولُ بُعْدَ النصِّ عن مطابقةِ القولِ للحقيقةِ اللفظيةِ للمفرداتِ والتراكيبِ على حدٍّ سواء، ويدخُلُ ضِمنَ مباحثِ المَجازِ الُّلغوي إذا صَّح التعبير، ومثلُ هذا الإجراءُ لهُ الأَسلوبية التي تستعينُ بأَدواتٍ لُغويةٍ متعددة أَو له أَساليبٌ لُّغويةٌ متميزةٌ: مثل:

---

(٤) المطاوعة: هي قبول تأثير الغير؛ ولا يكون إلاَّ في الأفعال العلاجية؛ أي: فيها معالجة ومزاولة؛ كالكسر والقطع والجذب، ينظر كتاب سيبويه: ٦٥/٤، و:٧٧، والشافية في علم التصريف؛ لابن الحاجب:٢١/١.

(٥) ينظر شذا العرف في فن الصرف: ٤١، التطبيق الصرفي؛ للدكتور عبده الراجحي: ٧١ .

(٦) الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، للدكتور أحمد محمد ويس: ٧ .

(٧) ينظر النقد والاسلوبية؛ للدكتور عدنان بن ذريل:٢٥، والانحراف مصطلحاً نقدياً؛ للدكتور موسى ربابعه: ١٤٥–١٤٦، وظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب (بحث منشور)؛ للدكتور صالح علي سليمان الشتيوي:٨٤.

(٨) علم الأسلوب؛ للدكتور صلاح فضل:١٥٤، وينظر الأسلوبية والأسلوب ؛ للدكتور عبدالسلام المسدي: ٩٣–١٠٢، والأسلوبية ؛ لبيير جيرو:١٣٤، وما لا تؤديه الصفة (المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية)، لدكتور حاتم الصكر:٩، والانحراف لغة الشعر والمجاز والاستعارة، للدكتور طراد الكبيسي:٣٦–٤٠، وجماليات الأسلوب والتلقي؛ للدكتور موسى ربابعة: ٤٧–٤٨ .

{الاستعارة والتشبيه، والإيماء والتخييل} وغيرها؛ وتَتَحَدَّدُ هذهِ الإجراءاتِ بأَنَّها أَنماطٌ غَيرُ مُباشِرةٍ يُؤَدِّي الانزياحُ – بواسطتها – تنويعاً للمعانِي؛ فَضلاً عَن بيانِ رُؤيةِ الأَديبِ أَو الكاتِبِ أَو الشاعِرِ وتفرُّده فِي اختيارِ البناء الُّلغوي الذي يُميزُ معانِيَهُ من معانِيَ غيرِهِ من الكُتَّاب الآخرينَ، وعَليه فإِنَّ النصَّ – استناداً إِلى مفهومِ الانزياحِ – لا يُمكِنَهُ أَنْ يكونَ التعبيرَ الأَمينَ أَو الصادقَ لكونِ غَيرَ عادٍ، بلْ هو التَعبيرُ غَيرَ الاعتيادي لكَونِ عَادٍ[٩]، لذا حدَّه بعضُ الباحثينَ المُحدثينَ بأَنَّه: ((استعمالُ المُبدِعِ لِلُّغةِ – مفرداتٍ وتراكيبٍ وصورٍ – استعمالاً يخرجُ بهِ عَمَّا هو معتادٌ ومأَلوفٌ، بحيثُ يُؤدِّي ما ينبغِي له أَنْ يتصَّفَ بهِ مِن تَفَرُّدٍ وإِبداعٍ وقوةٍ وجَذبٍ آسِرٍ))[١٠]، وعَرَّفَ الانزياح آخرونَ بأَنَّهُ: ((انحرافٌ أُسلوبِيٌّ عِن الُّلغةِ المأْلُوفَةِ))[١١] .

واعلم حقاً أَنَّ البحثَ فِي عِلمٍ – أَيُّ علمٍ – يَسْتَدْعِيَ الإِحاطةَ بمصطلحاتِهِ ومفاتيحِهِ؛ فهي التي، تُعَلِمُكَ طُرَقَ الإبحارِ في عالمِهِ والغوصَ بَحْثَاً عن دُرَرِهِ؛ وهي التِي تُحدِّدُ لكَ معالمَهُ وتكشفُ أَسرارَهُ وخفاياهُ، ولكنَ مَصادِرَ التراثِ العربِيِّ ومَراجِعِهِ – على حَدِّ ما أَطْلَعتُ عليه من تراثٍ علمِيٍ _ لَم تَذكُرْ **مصطلحَ الانزياحِ** أَو تَسِمُهُ بهذا الاصطلاح صَراحةً، ولكنَ علماءَ العربِ القُدامى وباحثيهم تناولوه بمصطلحاتٍ جَمَّةٍ أُخرى ووَضَعُوهُ تَحتَ مباحثٍ شَتى؛ تتعلَّقُ كُلُّها بموضوعٍ كبيرٍ وواسعٍ وَسَمُوُهُ بـ**{المجازَ فِي اللغةِ}**، ووَسموا مَباحِثَهُ وفصولَهُ بمصطلحاتٍ تُمَيُّزُها من بعضها البعض وفَصَّلوا القولَ فِيها ومنها: **{ الانتقالُ، والاتساعُ، والتوكيدُ، والشجاعةُ، والضرورةُ، والتشبيهُ، والحذفُ، والزيادةُ، والتقديمُ والتأخيرُ، والحملُ على المَعنى، والتحريفُ، وغيرُها }**[١٢]، وأَبْرَزُ مَن لَخَّصَ هذه المصطلحاتِ وبَحثَها من العُلماءِ ابن جِنْيِّ(ت٣٩٢هـ) الذي عَقدَ لهُا باباً خاصاً فِي كِتابِه الخَصائِصُ.

لقد تنبَّه ابن جني إِلى مَباحِثِ الانْزياحِ – وإِنْ لَمْ يُطلِقُ عليهِ التَسميَّةَ نَفْسَها – عن طريق دراستِهِ لموضوع الحقيقةِ والمجازِ وبَيانِ الفرقِ بَيْنَهما؛ فتبيَّن لنا أَنَّه تناولَ مباحثَ الانزياحِ ضِمنَ مَباحِثِ موضوع المَجازِ؛ إِذْ قالَ فِي { باب فِي فرق بَينَ الحقيقةِ والمجازِ}:((الحقيقةُ: ما أُقرَّ فِي الاستعمالِ على أَصل وَضْعِهِ في اللغةِ، والمجازُ: ما كانَ بِضِدِّ ذَلِكَ، وإِنَّما يقعُ المجازُ ويعدلُ إِليهِ عَن الحقيقةِ لِمَعانٍ ثَلاثَةٍ، وهي: { الاتساعُ، والتَوكيدُ، والتَشبيهُ }، فإِنْ عُدِمَ هذهِ الأَوصافِ كانَتْ الحقيقة البتة))[١٣]، واستشهد ابن جني لذلكَ بقولِ النَبيِّ محمد (ﷺ) فِي وَصْفِ فَرَسٍ إِذْ

---

[٩] في القول الشعري؛ ليمنى العيد : ٢٠ .

[١٠] الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية: ٧ .

[١١] أسلوبية الرواية؛ للدكتور حميد الحمداني:٦٢، وينظر الأَسلوبية والأَسلوب:١٦٢–١٦٥، وهسهسة اللغة؛ لـ(رولان بارت):١٧٠، وجوانب من نظرية النحو، لنعوم جومسكي:١١.

[١٢] ينظر الخصائص ؛ لابن جني: ٤٤٤/٢ – ٤٥٨ .

[١٣] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٤/٢ .

قالَ: ((هُو بَحرٌ))[14]، وهذا الوصفُ يشتملُ على هذهِ المعانِي الثلاثةِ المذكورةِ سلفاً كُلِّها.

فَالمعنى الأَول كانَ **{الاتساع}**؛ وهو زيادةُ اسمٍ عَلى أَسماءِ الفَرسِ، إذ قال: ((أَمَّا **الاتساع** فلأَنَّه زاد في أَسماءِ الفَرَسِ التي هِي: فرسٌ، وطرفٌ، وجوادٌ، ونحوُها {البحرُ}))[15]، ومِمَّا تجدرُ الاشارة إليه إلى أَنَّ هذه التَسمية الجديدةِ لا تصحُّ في بناءِ التَراكيبِ – وتريدُ بها الدلالةَ عَلى الفَرَسِ – ما لَمْ تُرافِقْهُ قَرينَةٌ تُوضِحهُ وتبيّن مَقْصَدَهُ، فتقولُ مثلاً: (هذا بَحرٌ فِي جَرْيهِ)؛ وأَنتَ تُشيرُ إلى فَرَسٍ حَاضرٍ وَمَوجُودٍ أَو مَعْلومٍ لَدى السامِعِ، قالَ ابنُ جِنِيٍّ: ((إنْ احتيجَ إليه فِي شِعرٍ أَو سَجَعٍ أَو اتساعٍ استُعْمِلَ استعمالَ بقيةَ تلكَ الأَسماءِ، لكنَ لا يُفْضِي إلى ذلكَ إلا بقرينةٍ تُسْقِطَ الشُبهةَ))[16]، ثمَّ أَردفَ فِي المَوضِعِ ذاتِهِ مُوضِّحَاً هذا الشرطُ وهذهِ القرينةُ بقولِهِ: ((وَلَو عَرَى الكلامَ مِن دليلٍ يُوضِّحُ الحالَ لم يَقَعْ عليه { بَحرُ } لما فيهِ مِن التَعجرفِ في المَقالِ مِن غيرِ إيضاحٍ ولا بَيانٍ، أَلا تَرى أَنْ لو قال: { رأَيتُ بحرًا }، وهو يريدُ {الفرسَ} لم يُعلِمْ بذلكَ غَرضُه، فلم يُجْزِ قولَهُ؛ لأَنَّه إلِّباسٌ وإلِّغازٌ على الناسِ))[17] .

والمعنى الثاني **{التوكيد}**؛ ومنه التوكيد بلفظ {البَحْرِ} لتوكيدِ صفاتِ الفَرَسِ، الذي تحقَّقَ بزِيَادَةِ لفظٍ لزيادةٍ فِي الْمَعَانِيَ التي تُناسِبُ مقامَ التَّأْكِيدِ والوَجْهَ الخِطابِيِّ، فَهُو شَبَّهَ الصِفاتِ العارِضَةَ عَليهِ (العَرَض)؛ أَيّ: شَبَّهَ صفاتِ الفَرَسِ ولا سيما الجَريَّ مِنه؛ بِجنسِ الفَرَسِ كهَيئةٍ حَيوانيةٍ؛ وهو (الجَوهَر، أَيّ: جِنْسُ الفَرَسِ)، وهو ما يصدقُ عليهِ تَسميةُ الأَشياءِ بأَجزائِها، فَجرى هذا التوكيدُ؛ لإفادةِ الانزياحِ على التَفخيمِ والمُبالَغَةِ فِي الوَصْفِ، قالَ ابنُ جِنْيٌ: ((أَمَّا **التوكيدُ** فلأَنَّه شَبَّه العَرَضَ[18] بالجوهَرِ[19]، وهو أَثبتُ في النفوسِ مِنهُ، والشَبَهُ في العَرَضِ مُنتَفيةٌ عَنه))[20]، وقالَ فِي موضعٍ آخرِ: ((وأَمَّا التَّوْكِيدُ فلأَنَّه أَخبرَ عَنِ العَرَضِ بِمَا يُخْبَرُ بِهِ عَنِ

---

[14] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٤/٢، في الحديث رقم (٨٧٩) في (بَابُ يُقَالُ لِلرَّجُلِ وَالشَّيْءِ وَالْفَرَسِ: هُوَ بَحْرٌ)، عَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: كَانَ فَزَعٌ بِالْمَدِينَةِ، فَاسْتَعَارَ النَّبِيُّ(ﷺ) فَرَسًا يُقَالُ لَهُ: الْمَنْدُوبُ، فَرَكِبَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ: {{ مَا رَأَيْنَا مِنْ شَيْءٍ، وَإِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْرًا }}، الأدب المفرد، للبخاري :٣٠٣.

[15] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٤/٢ .

[16] الخصائص؛ لابن جني:٤٤٤/٢، وينظر الأدب المفرد للبخاري(باب يقال للرجل والشيء والفرس):٣٠٣.

[17] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٤/٢ .

[18] الْأَعْرَاض تجْرِي على صِفَات الْفَاعِل، ينظر الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الاندلسي:٥٦/٣.

[19] يقول ابن حزم:((الْعَالم كُله مَا دون الله تَعَالَى يَنْقَسِم قسمَيْنِ: جَوْهَر وَعرض، لَا ثَالِث لَهما، ثمَّ يَنْقَسِم الْجَوْهَر: إِلَى أَجنَاس وأنواع وَلكُل نوع مِنْهَا فصل يتَمَيَّز بِهِ مِمَّا سواهُ من الْأَنْوَاع الَّتِي يجمعها وإياه جنس وَاحِد... والْأَعْرَاض: تجْرِي على صِفَات الْفَاعِل))، الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الاندلسي:٥٤/٣، و٥٦ .

[20] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٥/٢ .

الجَوْهرِ، وَهَذَا تَغالٍ بالعَرَضِ وَتَفْخِيمٌ مِنْهُ إذا صُيِّرَ إلى حَيِّزِ مَا يشاهَدُ ويُلْمَسُ وَيُعَايَنُ))[٢١] .

وَالمعنى الثالثُ عَقَدَه ابنُ جِنْيٌّ **{للتشبيهَ}**، ومنه التَشبيهُ بَينَ الفَرسِ وماءِ البَحْرِ فِي الجَرْيِّ وسِعَتِهِ فِي كُلٍّ مِنْهُما، فالفرسُ في جريهِ الذي لا ينقطعُ وسعتِهِ؛ انزياحٌ بالتشبيهِ، فهو يَشْبَهُ جَرْيِّ الفَرَسِ بِماءِ البَحرِ فِي سِعَتِهِ وعَدَمِ نَفادِهِ[٢٢]، قالَ الأصمعيُّ: ((يُقالُ: للفرسِ بَحرٌ إذا كانَ واسِعَ الجَريِّ، أَو لأنَّ جَريهُ لا يَنْفَدُ كَما لا يَنْفَدُ ماءُ البَحرِ))[٢٣].

ثمَّ تحدَّثَ ابنُ جِنْيٌّ عَن المَجازِ فِي مُوضِعٍ آخرٍ فقال: ((ومِن المَجازِ كَثيرٌ مِن بابِ الشَجاعَةِ فِي اللغةِ: مِن الحُذوفِ، والزِياداتِ، والتَقديمِ والتَأْخيرِ، والحَملِ عَلى المَعنى، والتَحريفِ))[٢٤]، وقالَ فِي مَوضعٍ آخرٍ: ((وذلكَ قَولَهم: {أَنتَ الأَسدُ، وكَفُّكَ البَحرُ}، فَهذا لفْظُهُ لَفْظُ الحَقيقةِ، ومعناه: **{ المجازُ والاتساعُ }**، أَلا تَرى أَنَّه إِنَّما يُريدُ: {أَنتَ كالأَسَدِ، وكَفُّكَ مِثلُ البَحرِ}))[٢٥]، وهذه كُلُّها مباحثٌ تفيدُ الانزياحَ بالمعانَي.

وعقد ابن جني في موضع آخر باباً سمَّاه بـ{غلبةُ الفروعِ عَلى الأُصولِ} قال في مقدِّمته: ((هذا فصلٌ من فصولِ العَرَبيةِ طَريْفٌ؛ تَجِدَهُ فِي مَعانِيَ العربِ، كما تَجدَهُ فِي مَعانِيَ الإعرابِ ولا تَكادُ تَجِدُ شَيْئًا مِن ذَلِكَ إلاَّ والغَرضُ فِيه المُبالَغةُ))[٢٦]، فمما جاء فيه من ذلك للعرب قول ذي الرَّمة:[الطويل] [٢٧]:

وَرَملٍ كَأَوراكِ العَذارى قَطَعْتُهُ   إذا جَلَّلَتهُ المُظلِماتُ الحَنادِسُ[٢٨]

والشاهدُ فيهِ أَنَّ ذا الرمة أَجرى انزياحاً جَعَلَ –خلالِهِ – الأَصلَ فَرعًا وجَعَلَ الفرعَ أَصلًا؛ فَشبَّهَ كُثبانَ رَملِ الأَنقاءِ بأَردافِ النِساءِ؛ وهذا على غَيْرِ العُرفِ والعادةِ المألوفة التي تُشَبَّهُ فِيها أَردافُ النساءِ بِكُثبانِ رَملِ الأَنقاءِ[٢٩]، ومِثلهُ قولُ ذي الرمة:[ ][٣٠] أيضاً:

---

[٢١] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٥/٢ .

[٢٢] ينظر الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٥/٢ .

[٢٣] فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ لابن حجر:٢٤١/٥ .

[٢٤] الخصائص؛ لابن جني: ٤٤٨/٢ .

[٢٥] الخصائص؛ لابن جني: ١٧٩/٢ .

[٢٦] الخصائص؛ لابن جني: **٣٠١/١** .

[٢٧] ديوان ذي الرمة: ٣١٨، ينظر الكامل في اللغة؛ المبرد:٧/٢،والخصائص؛ لابن جني: **٣٠١/١** .

[٢٨]جَلَّلَتهُ : أَلْبَسَتْهُ وغَطَّتهُ، والحنادسُ: جمعُ حِنْدِس: وهو اشتداد الظلمة، وقد ذهب بها مذهب الوصف، ينظر لسان العرب(جلل):١١٩/١١، و: (دحمس):٧٧/٦ .

[٢٩] ينظر الخصائص؛ لابن جني:٣٠١/١، و:١٧٩/٢، لسان العرب(ورك):٥٠٩/١٠، و: (جمل):١١ /١٢٥ .

[٣٠] البيت في الخصائص؛ لابن جني، شطره الأول في:١٧٩/٢، وشطره الثاني في:٣٠١/١، والبيت في لسان العرب ؛ لابن منظور(قلد):٣٦٧/٣ .

لَيْلى قَضِيبٌ تحتَه كَثِيبُ وَفِي القِلادِ رَشَأٌ رَبِيبُ[٣١]

والشاهدُ فيهِ أَنَّ الانزياحَ الذي أَجراه ذُو الرمةِ فِي هذا المقام جَاءَ على عَكسِ ما يجري في العُرفِ والعادةِ، فهو أَرادَ بهِ **الاتساعَ**، فقلبَ الشاعِرُ التشبيهَ وتأَملَ كَثيْبَ الرَملِ وشَبَّهَهُ بِرَدْفِ لَيلى للمبالغةِ فِي الوصفِ[٣٢]، قال ابن معصوم: ((قَلَبَ ذو الرمة العُرفَ والعَادَةَ فِي هذا المَقام، فَشبَّهَ {كُثُباتِ الإِنْقاءِ} بأعجازِ النِساءِ، وهذا كأَنَّه يَخرجُ مَخْرَجَ المُبالَغَةِ، أَيّ: قد ثَبَتَ هذا الموضعُ، وهذا المَعنى لأَعجازِ النِساءِ، وصارَ كأَنَّه الأَصلُ، فَشَّبَهَ بهِ كُثبانَ الإِنقاءِ))[٣٣] .

وتناول ابن جني أشياءَ أُخرى من موضوعاتِ الانزياحِ أَيضاً في مباحث أُخرى كـ{الحذفِ والزيادةِ، والتَقديمِ والتَأْخيرِ، والحَملِ على المَعنى، والتحريفِ} في باب آخر ووسمه بـ {بابٌ في شجاعةِ العربيةِ} قال فيهِ: ((اعلم أَنَّ مَعظَمَ ذلك إِنَّما هو: { الحذفُ والزيادةُ، والتقديمُ والتَأْخيرُ، والحملُ على المَعنى، والتَحريفُ }))[٣٤].

وبناءً على كل ما تقدم فإِنَّ دور مصطلح الانزياح وعمله الأَدبي يتلخَّص في خروج التعبير اللغوي وأُسلوبه السائِدِ عن معناهما المَألُوفِ المُتَعارَفِ عليهما – قياسياً في الاستعمال ولغةً وصياغةً وتركيباً – إلى معانٍ أُخر تَجعَلَهُما أَكثرَ تفرداً وإِبداعاً وجَذْبَّاً آسرٍ للعقولِ[٣٥].

المبحث الثاني
الانزياح بالحذف عند سيبويه

أَسَّسَ عِلمُ اللسانياتِ قاعدةً مَتينةً للدراساتِ اللسانيةِ ولاسيما الَّلغَويةَ مِنها؛ واتَخَذَّ منَ اللسانِ مادَتَهُ الرئيسةِ، وبَحَثَ فِي أَصواتِها وأَبنيتِها وتراكيبِها ومعانِيَها وما يَجري عليها مِن حذفٍ وزيادةٍ وغيرها من الفعالياتِ الُّلغويةِ التِي تُسْهِمُ فِي بناءِ الأَلفاظِ وزيادةِ مَعانَيها اللامحدودةِ بعد أَنْ يتراسَلها الفكرُ الإِنسانيّ، لذلك فإِنَّ عِلمَ اللسانياتِ يتكَّونُ من تَمظهُرات الُّلغةِ الإِنسانيةِ كُلِّها وأَبحاثَها العلميةِ التي تَسْتَقصِيَ الأَصولَ والخصائصَ الُّلغويةِ، فضلاً عن الظواهرَ اللغويةِ وأَفاقَها السيميائية الدلالية والبلاغية وغيرهما من أَساليبِ العربيةِ التِي بوساطتِها كُلِّها يُؤَسَسَ لقوانينِ علميةٍ تَحكمُها وتضبطُ ما يطرأُ عَليها مِن تغييراتٍ، لذلك حَاولَ الإِنسانُ مِنذُ القِدَمِ أَنْ يتَّصلَ بمَن

---

[٣١] { القلاد}: واحدها قلادة، و{ الرشأ} : الظبي إذا تحرَّك وقوي ومشى مع أمه، ينظر لسان العرب؛ لابن منظور(قلد):٣٦٧/٣، و(رشأ):٨٦/١ .

[٣٢] ينظر الخصائص؛ لابن جني: ١٧٩/٢ .

[٣٣] أنوار الربيع في أنواع البديع؛ لابن معصوم: ١٩٤.

[٣٤] الخصائص؛ لابن جني: ٣٦٢/٢ .

[٣٥] ينظر أطياف الوجه الواحد؛ للدكتور نعيم الباقي: ٩٢، وفي القول الشعري؛ للدكتورة يمنى العيد: ٢٠ .

حولَهُ مِن أَبناءِ جنسهِ مُستخدماً عِدَّةَ وسائِلٍ لأَجلِ تَحقِيقِ غاياتهِ ومتطلَّباتِهِ الحياتيةِ والشعوريةِ والوجدانية وغيرها من الأحاسيس الأُخرى.

لَقَدْ استقرأَ سيبويه(١٨٠هـ) فئاتٍ كَثيرَةٍ مِن حالاتِ الأَنماط التوليديةِ المغايرةِ لأَنماطِ الكلامِ الأَصلِيِّ، بَعدما تَفطَّنَ إلى أَهميةِ هذهِ الظواهِرِ الأُسلوبيةِ وأَثرِها فِي إغناءِ المَباحثِ اللغويةِ بدوالٍّ ومعانٍ غَير الدوالِّ والمعانِيَ المَرسومةِ لها فِي الأَصلِ؛ ووقفَ على مَا يتعلَّقُ مِنها بإجراءِ الاختزالات التي تعتري الهياكلَ الخطابيةَ المتنوعةَ؛ وإثرائَها بتنويعٍ للمصطلحاتِ التي أطلقَها عليها كـ**{الاختزالِ، والاستغناءِ، والإضمارِ والحَذفِ، والسقوطِ، والطرحِ، والعِوَضِ وغيرها}**[٣٦]، فضلاً عن تَتَبُّعِهِ إيَّاها في الممارساتِ الكلاميةِ والأَدبيةِ والبلاغيةِ؛ وتعمُّقِهِ في مجالاتِ معالجاتِها عن طريق بَحْثِهِ عن العناصِرِ المَحذوفَةِ في الأَنماط الخِطابية كُلِّها؛ وإِعادةِ تشكيلِها الأَصلِي استناداً إلى النَمطِ الأَدائِي العامِ والسياقِ الدلالِي الخاصِ؛ فضلاً عن تطبيقِهِ لعمليتَي المُوازَنَةِ والتحليلِ بين الهيئتينِ المتغايرتينِ الأَصليةِ والمُنزاحَةِ، والْتماسِهِ للجدليةِ القائِمَةِ بينَ العناصرِ الحاضرةِ والعناصرِ الغائَبَةِ داخلَ فَضاءِ النَصِّ؛ فَضلاً عن تظافر علاقاتهما الاستدعائية الاتساقية في تجسيد الصورة الدلالية المرجوة من النص[٣٧].

وتبدو مقدرة القدماء – ولاسيما سيبويه – في إدراكِهم للعناصر اللغوية – التي يظهرُ دورُها الأَسلوبي عند غيابها أَكثر من حضورها – كانت جلية مميزة في مؤلفاتهم، فكانتْ مباحثُ الحذفِ والذكرِ وَسيلتُهم لإظهار هذا الدور في الأَعمال الأَدبية؛ ولعلَّه كان مِن أهم مَن افتتن بهذا الفنّ واهتدى بهدي سيبويه؛ هو ابن جني الذي أَفرَدَ له مَباحثاً جديرة بالتتبع والعناية ومنها باب في **{ شجاعة العربية }**[٣٨]، وباب في**{ غلبة الفروع على الأصول}**[٣٩]، وكذلك شيخُ البلاغيينَ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي قال في باب الحذف مقولته المشهورة ((القولُ فِي الحذفِ: هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأَخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنَّكَ ترى به تَرْكَ الذِكْرِ أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تَبِنْ)) [٤٠] .

ولابدَّ من الإشارة إلى أَنَّ استجلاء ظاهرة الانزياح هو من عناية وأولويات المدرسة الأَسلوبية

---

[٣٦] ينظر كتاب سيبويه: ٢٥/١و٣٨و٢٣٠ و٢٦٧ و٢٦٩و٢٩٠ و٢٩٤ و٣١٢، و١٣٠/٢، وغيرها.

[٣٧] ينظر التماسك في اللغة الانكليزية(Cohesion in English):١٤٤، والبنيات الأسلوبية ؛ للدكتور مصطفى السعدني: ١٣٩، والنص القرآني؛ للدكتور وليد منير:٣٤، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه:٣٥٥.

[٣٨] ينظر الخصائص لابن جني: ٣٦٢/٢ .

[٣٩] ينظر الخصائص لابن جني: ٣٠١/١ .

[٤٠] دلائل الإعجاز؛ للشيخ عبد القاهر الجرجاني:١٤٦/١ .

ومدرسة التلّقي في النّقد الأدبي، حيثُ تَتَعاملُ الأَسلوبيةُ مع انزياحاتِ الُّلغةِ التركيبيةِ والدلاليةِ؛ وتتبنَّى ما ينتجُ عَن مستوياتِها الصوتيةِ والصرفيةِ والنحويةِ والدلاليةِ والمعجميةِ وبحسب ما يُمليهُ عليها النصُّ المدروسُ[٤١].

لقد التفت سيبويه –رحمه الله – إلى مسائِل الانزياحِ؛ وتناولَها كإجراءٍ أَلسُنِيٍّ؛ وتلمَّسَ أَسرارَها الوظيفيةِ ودلالاتَها الُّلغَويةِ والبَلاغِيَةِ والأَدبيةِ التي تَنتِجُ عن الاجراءاتِ الانزياحيةِ المختلفةِ، وحَدَّد مسائلَها بِدقَّةٍ عاليةٍ ولاسيما مَسائِلُ الانزياحِ المُوضعِيِّ (التقديمُ والتأَخير)[٤٢]، والانزياحُ التَوَسُّعي(التوسُّع بالإضافةِ والتوسُّع بالتكرار)[٤٣]، والانزياحُ الاختزالي(الاختزال بالحَذفِ والاختزالُ بالقصرِ)[٤٤]، والانزياحُ التناوبي[٤٥]، والانزياحُ الوظيفي[٤٦]، والانزياحُ التنغيمي[٤٧]، فسيبويه بذلك كانَ مُتَقدِّماً على المُحدثينَ مِن العربِ والغَربِ الذينَ أدركوا – فيما بعد – أنَّ ((نظامَ الكلماتِ وهندسَتَها شرطٌ أَساسيٌ في الفِهم والإِفهامِ، وأنَّ لكُلِّ لغةٍ نِظاماً مُعيناً لا يَصحُّ الإخلالُ بهِ أَو الخروجُ عنهُ))[٤٨] .

ولابد من الإشارةِ إلى أَنَّ الأَصناف الانزياحية لدى سيبويه هي التي تُشَكِّلُ سِمَةً ((من سماتِ المنهج الوَصفيِّ فِي كتابِه الذي عُوِّلَ عليه فِي تحديدِ المستوى الدلاليِّ للتركيب النَحوي))[٤٩]، وأَنَّ سيبويه قد استعان – في بيان المتغيِّرات الانزياحية وفوارقها الدلالية التي اعترتْ الأَنساق الخطابيةِ – بعملياتٍ تحليليةٍ وتوصيفيةٍ للنظام الخارجي والداخلي للمكوِّناتِ

---

[٤١] ينظر الانزياح العجائبي الساخر في أدب المنامات (المنام الكبير للوهراني)(بحث)، للدكتورة دلال طه بخش وزميلتها:٣٤٠ .

[٤٢] ينظر بعض مباحث الانزياح الموضعي (التقديم والتأخير) في كتاب سيبويه:٣٤/١، و:٨٠/١-٨١، و:١٣٨/١، وغيرها .

[٤٣] ينظر بعض مباحث الانزياح التوسُّعي (التوسُّع بالإضافة والتوسُّع بالتكرار) في كتاب سيبويه:٤٥/١ و٤٨و٥٩، و:٣١٥/٢-٣١٦، و١٧٥-١٧٦، و:٢٢٥/٤، و:٩٧/١ و١٤٨ و١٥٠-١٦٣و:٣٨٧/٢، وغيرها.

[٤٤] الانزياح الاختزالي: هو موضوع بحثنا وسنتناوله بالبحث والتنقيب إنْ شاء الله .

[٤٥] ينظر بعض مباحث الانزياح التناوبي في كتاب سيبويه:١٤/١و١٦٤-١٧٥و١٨١-١٩٥و٢٠٢-٢٠٥وغيرها .

[٤٦] ينظر بعض مباحث الانزياح الوظيفي في كتاب سيبويه:١٦٠/١-١٦١و٢١٨-٢١٩ و٢٦٩/٣ و٣٨٥ و٤٧٨ وغيرها.

[٤٧] ينظر بعض مباحث الانزياح التنغيمي في كتاب سيبويه: ٣٠١/١-٣٠٥ و: ٩٦/٢و٢١٦/٤ وغيرها.

[٤٨] من أسرار اللغة؛ للدكتور إبراهيم أنيس: ٢٩٥، وينظر دلالة الألفاظ؛ للدكتور إبراهيم أنيس : ٤٨، ونظرة في أثر اللغويين العرب في علم الدلالة؛ للدكتور علي الحمد: ٢٦، وابن جني وعلم الدلالة؛ لنوال كريم زرزور (رسالة ماجستير): ٢٥٨-٢٥٩ .

[٤٩] المنهج الوصفي، للدكتور نوزاد أحمد: ٢٨٣ .

الأُسلوبيةِ والأَنظمةِ التركيبيةِ فِي عملياتِ الاتصال اللُّغوي، فَضلاً عن أنَّهُ خَلَقَ أَواصِرَ قَوِيَّةً بَينَ كُلِّ تَغييرٍ بنيويٍّ وآخَرِ دَلالِيٍّ؛ ومُنوِّهاً بالقِيمةِ الجَماليَّةِ والطاقَةِ البيانِيَةِ التي تتأَتى مِن إدراكِ كيفيةِ صياغةِ الكلامِ وتنسيقه حسب مقتضيات الحال والدوافع النفسية والشعورية لدى المتكلِّم والمُخاطَبِ[٥٠].

لقد قعَّدَ سيبويه طبقاً لِفَنِّ (آلية التضييق)[٥١] الذي انتابَ النصوصَ بحذفِ رُكنٍ مِن أَركانها الأَلسنية، واستشهدَ للعديدِ مِن صورِ الحَذفِ اللُّغويةِ وانزياحاتِهِ المختلفةِ عَلى وفقِ رُؤىً تحليليةٍ موازنةٍ وتطبيقاتٍ حَيَّةٍ عَلى السياقاتِ المختلفةِ فِي صفحات كتابهِ الذي استحقَّ أَنْ يوصفَ بـ{ قُرآن النَحوِ }، ولاسيما الصورَ التي سأقفُ عليها بالبحثِ والتدقيقِ – على سَبيل الاستشهادِ لا الحصرِ – من بين الصور التي ضمَّها كتابُ سيبويه ومِن الله التوفيقَ والتَمامَ .

وحينما ننعم النظر في **كتاب سيبويه ولاسيما في مباحث الحذف ومستوياتها اللغوية** التي حَقَّقتْ بِنْيَتِها ظاهرةَ الانزياح، نَجِدُنا أَمام مستويين من الانزياح بالحذف؛ **أولهما:** المستوى الصوتي والصرفي؛ حيث مستوى اللفظ الظاهر وحذف بعض الحروف أو الحركات (المصوتات) منه، **والآخر:** هو المستوى التّركيبي؛ حيثُ المستوى السياقي وحذف بعض مفرداته بأَكملها أَو حذف ركن من أركان الجُمَلهِ بأَكمَلِهِ.

لقد درس سيبويه هذا الأُسلوب وإِنْ لم يسمه بذات الاسم – أَقصد الانزياح على طريق الحذف بكل أَنواعه – في مبحث جعله كمقدِّمة نوَّه فيها على ما سيتناوله في أَبواب كتابه الأَخرى من مباحث تتعلَّق بالحذف وانزياحاته **تقعيداً وتحليلاً وتطبيقاً** وبحسب أَماكنها المخصَّصة في كتابه؛ إذْ وسمَ هذا التمهيد الانزياحي – إنْ صَحَّ التعبيرُ – بـ {هذا باب ما يكون في اللفظ من الأَعراضِ}، والأَعراضُ: جَمعُ عارِضٍ، والعارضُ: هو المانِعُ الذي يمنعك من أَداءِ عَمَلِكَ على أَتمِّ وَجهٍ، وقيلَ: { عَرَضَ عارِضٌ، أَي حَالَ حائلٌ ومَنَعَ مانِعٌ }[٥٢]، والأَعراضُ: حَذفُ شَيءٍ مِن مَقَرِّهِ[٥٣]، قالَ السِيرافيُّ: ((مِنَ الأَعْراضِ: يعني ما يَعْرِضُ فِي الكلام فيجيءُ عَلى غيرِ ما ينبغيَّ أَنْ يكونَ عليهِ قِياسُهُ))[٥٤]، وهذا لَعَمري لهو الانزياحُ عينُهُ الذي أَطلقَهُ الأَلسنيونَ المحدثونَ عليه.

لقد مهَّدَ سيبويه **لمسائِل الانزيـاح بالحذف** في الصفحات الأُولى من كتابه وأَوعد أَنَّه

---

[٥٠] ينظر البحث الدلالي في كتاب سيبويه: ٢٩٨ .

[٥١] ينظر النص؛ السلطة؛ الحقيقة؛ للدكتور نصر حامد أبو زيد:٢٠٥، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه:٣٥٦.

[٥٢] ينظر لسان العرب (عرض): ١٧٩/٧ .

[٥٣] التوقيف على مهمات التعاريف؛ للمناوي : ٣٢٣ .

[٥٤] شرح كتاب سيبويه؛ للسيرافي: ١٧٩/١، وينظر النكت في كتاب سيبويه، للشنتمري: ٣٢ .

سيبحثُها ويُقَعِّدُ لها في أَماكنِها المحدَّدة ضِمْنَ خُطَطِه التي بنى عليها كتابَهُ، إذْ قالَ في هذا التَمهيدِ القصيرِ للحذفِ: ((**اعلم أنّهم إنَّما يَحذفونَ الكَلِم وإنْ كان أصلُه في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوِّضون، ويَستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتَّى يصير ساقطاً، وسترى ذلك إن شاء الله، فما حُذِف وأصله في الكلام غير ذلك، { لَمْ يَكُ، ولا أَدْرِ }، وأشباهُ ذلك، وأمَّا استغناؤهم بالشيء عن الشيء فإنّهم يقولون: { يَدَعُ } ولا يقولون: { وَدَع }، استغنوا عنها: بـ{ تَرَكَ }، وأشباهُ ذلك كثير، والعوض قولهم: { زنادقة وزناديق، وفرازنة وفرازين }، حذفوا الياء وعوّضوها الهاءَ، وقولهم: { أسْطاع يُسْطيعُ }؛ وإنّما هي: { أطاع يُطيع }، زادوا السينَ عوضا من ذهاب حركة العين من { أَفْعَلَ }، وقولهم: { اللّهُم }؛ حذفوا { يا }؛ وألحقوا الميمَ عوضاً**))[٥٥]، وهذه المباحث – لَعَمْرِي – كُلُّها مباحث انزياحية تعتري الأَبنية والتراكيب على حدٍّ سواء وكما سيجيئ بعون الله .

****

لقد بحثنا قبل قليل مصطلح الانزياح، وتبيَّنَ لنا أَنَّه مصطلح نقدي تبَّناه المحدثون على شكل واسع النطاق، وعرفنا أَنَّه يتناول استعمال المبدع للُّغةِ (مفرداتٍ وأبنيةٍ، ودلالاتٍ، وتراكيبٍ وصورٍ) استعمالاً يخرج بها عَمّا هو مُعتاد ومألوف؛ ويؤدِّي ما ينبغي له أَنْ يتَّصفَ به من تَفَرُّدٍ وإبداع وقوَّة جَذْبٍ آسِر، وَعَلِمنا أَنَّه ينتهي إلى حيثُ انتهتْ إليهِ البلاغةُ العربيةُ وتدورُ مباحثه حول رحى المجاز اللغوي وفنونه الآسرة للعقول؛ ولعلّ ما يؤيد ما ذهبنا إليه هو ما ذهب إليه أَرسطو طاليس في المجاز؛ حيثُ ذهبَ إلى أَنَّ أُسلوب المَجاز هو أَعظم الأَساليب حَقَّاً؛ وهو آية الموهبة؛ إذْ قال: ((**وفي جميع هذه الأحوال؛ إذا كان الاشتراك اللفظي أَو المجاز هو الذي يأَتِي بالكلمةِ المناسبةِ فإِنَّ النجاحَ مُؤكَّد**))[٥٦]

والحذفُ بابٌ لغوي، يعمل على تقليص المدى الخطابي واختصار العلاقات السياقية الكلامية الرابطة بين وحداته اللغوية؛ جَّراء اختزال وحدة صوتية أَو كلامية أَو وحدة من الوحدات التي ينبني منها التركيب الخطابي، ويُعْرَفُ بـ((التقلُّص أَو الاختزال (Reduction))) [٥٧]، واعلم أَنَّ هذا الأمر لا يتحقق ارتجالاً وجزافًا، أَو يتَشكَّلُ اعتِباطًا، بل هو ممارسة مقصودة ينتهجها

---

[٥٥] كتاب سيبويه:١/٢٤-٢٥ .

[٥٦] الخطابة؛ لأرسطو طاليس: ٢٢١ .

[٥٧] ينظر جوانب من نظرية النحو؛ لنعوم جومسكي: ١٠-١١و٣٤ وما بعدها، والبنى النحوية؛ نعوم جومسكي:١٥٤، والنحو العربي والدرس الحديث؛ للدكتور عبده الراجحي: ١٤٠، وفي علم اللغة التقابلي؛ للدكتور أحمد سليمان ياقوت:٦٩، وقواعد جامعية للغة الإنجليزية (A university Grammar):٣٧٥، ومعجم اللغويات (A Dictionary of Linguistics): ٢٩٢ .

منشئ النص أَو الخطاب الكلامي؛ وغايته تحقيق انزياح صوتي أو أدائي أو خطابي ينبئُ عن أُسلوب ابداعِي، ينتهجه لابتداع صورٍ معنوية تُمْتِّعُ الأسماعُ بوقعها وتأْسُرُ الأَلبابَ بجمالها وتطمئنُ القلوبُ بعذوبتِها، ولعل شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ أو ٤٧٢هـ) من الأوائل الذين اهتدوا بكتاب سيبويه وافتتنوا بهذا الفنِّ فقال في وصف باب الحذف مقولته المشهورة : **((هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإِفادة، وتَجِدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إِذا لم تَنْطِقْ، وأَتَمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تَبِنْ))**[٥٨] .

لقد تتبع سيبويه الوحدات الخطابية المفقودة في الممارسات الكلامية والأَدبية وتعمق في مجال تحليلها ومعالجتها وتقدير المفقود منها وإِعادة تشكيلها الأَصلي وإجراء الموازنة بين التشكيلات الأَصلية والتشكيلات المنزاحة منها لالتماس المزايا السياقية وجمالياتها فضلاً عن تضافر علاقاتها التي استدعت السياق المنشود داخل فضاء النص والخطاب[٥٩].

وأَدرَكَ سيبويه الرؤيةَ التحليلية وتطبيقاتها فضلا عن إجرائِهِ الموازنة بين السياقات المختلفة مِمَا انتابتها ((آلية التضيق)) [٦٠] بحذف ركن من أَركانها السياقية، بحيث أصبحت مباحث الحذف والذكر عنده قبساً ينيرُ الطريقَ للعلماءِ من القدماء والمحدثينَ ووسيلتُهم في إظهار دورِهِ في بناءِ الأَعمال الأَدبية .

ويشير سيبويه إِلى أَنَّ الحذفَ لا يكون مطلقاً حيث أَردنا الحذف؛ وإِنَّما يحصل إذا كان المخاطب عالم به؛ عن طريق وجود قرينة تدلُّ على ذلك الحذف، ومعنى ذلك أنَّ سيبويه لا يجيز الحَذف حيثما أَردنا الحذف، وإِنَّما يُسْنِدُ هذا الإجراء الأَلسني إِلى دلائِلٍ سياقيةٍ تُساعِدُ على رصد الأَبنيةِ اللغويةِ المحذوفةِ في الأَداء الانزياحي وهذا ما يعرف في الدراسات النصية الحديثة بـ((الحذفِ بمُؤشِّر لُغوي)) [٦١]، فَرُؤية سيبويه لهذا التحليل تكمن في أنَّ النظام الأدائي للكلام – ولا سيما في هذا المقام – يقتضي وجود الأركان الأساسية للعلاقة الإسنادية السياقية للخطاب أَو النص إذا ما أَراد اختزال جزءٍ منها، فيقع الحذف اعتماداً على دلائل متعدِّدة منها: الدليل المقامي المتَّصل بطبيعة حال المتلَّقي ومقتضى الحال، فضلاً عن مقدرته على استحضار العناصر المختزلة وإدراكها، وهذا مما يُدلِّل على أنَّ بديهية المخاطب وقدرته على استحضار

---

[٥٨] دلائل الإعجاز؛ للشيخ عبد القاهر الجرجاني:١٤٦/١ .

[٥٩] ينظر البنيات الاسلوبية : ١٢٩، والنص القرآني: ٣٤، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه: ٣٥٦، والتماسك في اللغة الانكليزية (Cohesion in English): ١٤٤ .

[٦٠] ينظر النص؛السلطة؛الحقيقة؛ للدكتور نصر حامد أبو زيد: ٢٠٥، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه:٣٥٦.

[٦١] دينامية النص؛ للدكتور محمد فتاح: ١٦٧، وينظر البحث الدلالي في كتاب سيبويه: ٣٥٧ .

العناصر المفقودة؛ تشكل دوراً أساسياً في فهم هيئة الخطاب وكيفية إلقائه وبناء تصميمه الكلامي، فسيبويه بهذا التحليل الأدائي وتحديد العلاقة بين السياق الكلامي ومقتضى حال المتلِّقي وضع هذا الأداء الكلامي والخطابي ضمن إطار ((التداولية (Pragmatics)))[٦٢]؛ أَيّ : العلاقةُ بينَ المتكلِّمينَ وسياقاتِ خِطاباتِهم، ومنه ما أَلْمَحَ إليهِ في هذا الإطار أثناء بثِّ حديثه عن دور القرينة والدليل اللذينِ يوحيانِ إلى المحذوف من سياق التركيب؛ إذْ قالَ في مسألة التنازع في العمل: ((**ومما يقوِّى تركَ نحوِ هذا لعلم المخاطَبِ، قوله عَّز وجل: ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب آية:٣٥/٣٣]، فلم يُعْمِل الآخِرَ فيما عمل فيه الأوّلُ استغناءً عنه**))[٦٣]، فقد جاز حذف المفعول به من {الحافظات والذاكرات}؛ لدلالة ما تقدَّم عليه وتقديرهما هو: { والحافظاتها، والذاكراته }[٦٤].

ومن الحذف لدليل أَيضاً، قال سيبويه في حذف الخبر: ((**وجاء في الشعر من الاستغناء أشدُّ من هذا، وذلك قول قيس بن الخطيم:** [المنسرح][٦٥] :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ))[٦٦]

والشاهدُ فيه جاز حذف الخبر (نحن راضونَ)، وهو خبر المبتدأ الأَول الذي حُذِفَ استغناءً بدلالة ذكر خبر المبتدأ الثاني وهو: (أَنتَ راضٍ)، وتقدير الكلام: { نحن راضون بِمَا عِنْدَنَا، وأنتَ راضٍ بِمَا عِنْدَكَ }[٦٧] .

المبحث الثالث

الوظائف الدلالية للانزياح بالحذف

نماذج من الانزياح بالحذف في كتاب سيبويه :

إِنَّ عملياتِ الحذفِ التي جَرَتْ على المفردات والتَّراكيبِ الخطابيةِ فِي كتابِ سيبَويه أَو غيره؛ واختزالَ وحداتٍ كلاميةٍ أَو أَكثَر من الوحداتِ التِي يَنبَنِيَ مِنها النصُّ الخطابِيِّ؛ أَمرٌ لا يَتُمُ جِزافًا، أَو يَتشكَّلُ اِعتباطًا، بل هو ممارسةٌ لِسانيةٌ لُغويَّةٌ مَرجوَّةٌ يطلبُها كاتبُ النَصِّ

---

[٦٢] اللغة والخطاب؛(إدوارد سابير وآخرون): ١٠٥، وينظر البحث الدلالي في كتاب سيبويه: ٣٥٦ .

[٦٣] الك تاب :٧٤/١ .

[٦٤] ينظر تفسير البحر المحيط، لابي حيان الأندلسي : ٢٣٢/٧ .

[٦٥] البيت في ملحقات ديوان قيس بن الخطيم: ١٧٣، ونسب الى عَمرو بن امريء القيس في الخزانة، للبغدادي :١٩٣/٢ وجمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي:١٣٧.

[٦٦] الكتاب : ٢/ ٧٤ .

[٦٧] ينظر تحصيل عين الذهب : ٩٢ .

ومنشؤُهُ، لتحقيقِ – من ورائِها – غاياتٍ تتمَثَّلُ بوَظائِفٍ لفظيةٍ، أَو دَلاليةٍ[٦٨]، يمكنُ إيجازها في المطلبين الآتيينِ:

المطلبُ الأَولُ

الوظائفُ اللَّفْظِيَّةُ

تُحقّقُ الوظائفُ اللفظيةُ للحذفِ فِي بناء النَصِّ غاياتٍ وظواهرَ عديدةٍ، ولعلَ مبدأَ { التخفيفَ وكثرةِ الاستعمال والتداول } أَو **((قانون الاقتصاد الأدائي))**[٦٩] **لدى المحدثين**؛ لم تكن هي المعايير الجوهرية في الجنوح إلى هذه الممارسات الأُسلوبية في تقليص الخطاب، خلافاً لما ذهبتْ إليه الدكتورة (دلخوش جارالله دزه يي)[٧٠]، بل كان **مقضى الحال والمقام** هي المعاير الأَساسية التي استند إليها سيبويه في تحديد الإجراء الأُسلوبي الذي يرصدُ تلك الممارساتَ الأُسلوبيةَ ويُعَبِّر عن تلك الغايات وتلك الظواهر التي تحقَّقتْ في كلام العرب .

ويبدو أَنَّ كثرة تداول العرب لهذا الإجراء الأُسلوبي – المذكور سلفاً – في محاوراتهم اللغوية، فضلاً عن تحفيز الجانب التذكيري للمحذوفات لدى المتكلِّم؛ هو مَنْ جعلَ سيبويه يُسَجِّلُ عيناتٍ ونماذج لنصوصٍ وخطاباتٍ كثيرة اعتمدتْ هذا الإجراء الاختزالي؛ وأَنْ يجري موازنة بحثية بين الهيئات الأَصلية وبين الهيئات المستحدثة التي ساهمتا في بناء تلك النصوص وتلك الخطابات؛ ثمَّ يقوم بتحليلهما ورصد الاجراء الأُسلوبي الاختزالي الذي جرى عليهما استناداً إلى الإرث المعرفي الذي يمتلكه المتلِّقي ومنهج تعالق النظام اللغوي الذي بُني عليه السياق الذي – بدوره أيضاً – ينبئُ عن تقدير المحذوفات التي جرت عليها عمليات الحذف والاختزال فِي التراكيب والنصوص[٧١] .

ولابدَّ من الاشارة إلى أَنَّ هذا المبحث هو ليس من صُلبِ اهتْمامِ بِحثِنا هذا؛ إلّا أَنَّنا سنتناولُها بإيجازٍ موجزٍ جداً لنتعَّرفَ عَلى عنوانات مباحثِها الرأَسِيَّةِ على أَملِ أَنْ نتناولَها فِي بحثٍ خاصٍ بها إنْ شاءَ الله في وقت لاحقٍ إنْ مَنَّ الله تعالى علينا بذلك ووهبنا للعُمْرِ مِن بَقيَّةٍ،

---

[٦٨] ينظر الحذف من التركيب وتوجيهه في كتاب سيبويه دراسة في القاعدة والسياق، رسالة ماجستير في النحو والصرف، تقديم عزيزة بنت عبدالله الغوينم، إشراف الاستاذ الدكتور سيف بن عبدالرحمن العريفي، العام الجامعي: ١٤٣٢هـ : ٥٨٢ .

[٦٩] ينظر اللسانيات من خلال النصوص؛ للدكتور عبدالسلام المسدي:١٣١، وفي علم اللغة التقابلي؛:٦٩، و:٨٣، واتجاهات البحث اللساني؛(ميلكا إيفيتش)،:٤٠٧ .

[٧٠] ينظر البحث الدلالي في كتاب سيبويه:٣٦٠ .

[٧١] ينظر كتاب سيبويه:١/٨١-٨٨ ؛و:١٠٦، و:٢/٢٧٨-٢٨١، و:٢٨٣، و:٢٩١، و:٣٤٤-٣٤٦، و:٣/١٢٦-١٢٨، و:٤٩٩، و:٤/١٠، والبحث الدلالي في كتاب سيبويه: ٣٥٩-٣٦٠، والحذف من التركيب وتوجيهه في كتاب سيبويه: ٥٨٢ .

وهذه العنوانات هي:

١. تخفيفِ الجُهْد المَبذول مِن قِبَلِ أَعضاءِ النُطْقِ عِنْدَ التَحدُثِ، وهو الذي عُرِفَ – فيما بعد – في الدرسِ الُّلغوي الحَديث بِقانون { الاقتصادِ الُّلغويِّ أَو الجُهد الأَقل}[٧٢].

٢. اصـلاحُ اللفـظِ والتركيـب وجَعْـلُ بنـاءِ التَراكيـبِ مُتوائِمـاً مـع شـروطِ الصـناعة النحويـة، ومقتضياتِها، وذلك عن طريق استعمال أَوجهٍ مِن التَصرُّفِ التي يُتيحُها النظامُ النحوي نفسه، كالتَقديمِ والتَأْخيرِ والحَذفِ والزيادَةِ[٧٣] .

٣. تماسكُ التركيـبِ والنصِّ؛ وهو مفهومٌ يُعدُّ مظهراً مِن مظاهرِ الاتّساقِ الداخليِّ وسِلْكاً يَنْظِمُ معانِيَهُ، وجامعاً يَلمُّ شَمْلَهُ ويؤلِّفَهُ عن طَريقِ مَجمُوعةٍ من الرَوابِطِ، ويُشيرُ إلى الوَحدَةِ بين أَجزاءِ النَصِّ وتلاحُمِهَا فيما بينها كالتعالُقِ فيما بينَ معانِيَها وجَعْلِ بَعْضِها سبباً من بَعضٍ، كسهولةِ المَخارجِ والسَبْكِ الجَيْدِ الذي عَدَّه الجاحظُ مِعياراً لِجَودةِ الشِعرِ[٧٤].

٤. التَخلُّصُ مـن التقـاءِ السـاكنينِ، وتكثـرُ هذه الوظيفة فـي الحـذفِ البنيويِّ، كـإِجراءٍ للتغيـرات الطارئة على التحَّولاتِ الصرفيةِ في الكلمةِ الواحدةِ أَو الكلمتينِ المتجاورتينِ التي يلتقي بها سـاكنانِ، كحـذف التنويــن[٧٥]، وحـذف نـون التوكيـد الخفيفـة[٧٦]، وحـذف ضـمائِر الرفـع الساكنة[٧٧] .

٥. التخلُّصُ من توالي الأَصوات المتماثلةِ، أَو المتقاربةِ في المخرج الصوتِي وما تُؤدّي إليه من تكلُفٍ وعُسرٍ على جهاز النطق؛ ومن هنا يلجأُ المتكلمونَ إِلى تخفيفِ هذه المعاناة على أَعضاءِ النطق بوسائل من أهمها الإدغامُ[٧٨] .

٦. التناسبُ أَو المحافظـةُ علـى الإيقـاع الشعري: وهو إسقاط بعض من نسيج اللغة وتطويـع بنائها التركيبي للمحافظة على قوانينِ الوزنِ والقافيةِ في الشعرِ، فضلاً عَمَّا نَثره في أَبواب

---

[٧٢] ينظـر كتـاب سيبويـه علـى سبيـل الاستشهـاد:١/٨١–٨٢ ؛ و:١٠٦ ؛ و:١٦٥، و:٢٠٥، و:٣٤٠، و:٢/٣٠، و:١١٢، و:٢٤٤، و:٢٨٢ و:٣/١٦٢، و:٢٨٨، و:٥٦٠، و:٤/١٠، وفصول من علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير:٢٥٩.

[٧٣] ينظـر كتـاب سـيبويه علـى سـبيل الاستشـهاد: ١/٢١٥، و:٢٥٨ و:٢/٣٩٨، و:٣/١٢٤، و:٢٦٩، والخصائص: ١/٣١٣–٣٢٢ .

[٧٤] ينظر البيان والتبيين، للجاحظ: ١/٦٧، ودلائل الاعجاز: ٣٩٢، و:٤٦٦، وبلاغة الخطاب وعلم النص؛ صلاح فضل: ٣١٠، و: ٣١٣–٣١٤، والخطاب القرآني ؛ خلود عموش: ٦١ .

[٧٥] ينظر كتاب سيبويه :١/١٦٩،و: ٢/٢٢٢ .

[٧٦] ينظر كتاب سيبويه :٣/٥٢٣، وشرح كتاب سيبويه، للسيرافي: ٤/٢٤٤ .

[٧٧] ينظر كتاب سيبويه :٣/٥٢٠ .

[٧٨] ينظر كتاب سيبويه :٢/٣٦٨–٣٦٩، و:٤/٤١٧ .

كتابه الأُخرى من الضروراتِ المتنوعةِ التي تبيحُها اللغةُ الشعريةُ كالتقديمِ والتأخيرِ، أَو التغيير والإبدال، أَو الزيادة، أَو النقص، وبناءً على ذلك أُشيعَ عند القدماء أَنَّه يَجوزُ للشاعِرِ ما لا يجوزُ لِغيرِه، ويسوغُ في الشِعرِ ما لا يسوغُ في الكَلامِ(٧٩).

المطلبُ الثاني

الوظائفُ الدلالية للانزياح بالحذف في التركيب

إِنَّ مُمارسةَ حذفُ بَعضِ وحداتِ النسيجِ الكلامِي من التركيبِ تُعَدُّ أَحَّدَ الأَساليبِ التي تُستَجْلى فِي ضوئِها المعانِيَ الدلاليةِ، ولا يختلفُ أَحَدٌ في أَنَّ سيبويه –رحمه الله –قد اسْتَجلى مفاهيمَ البَلاغَةِ فِي حقولِ النَحوِ، ولا غَرابة فِي أَنْ تَقِفَ بينَ طياتِ أَبواب كتابه – صراحةً أَو ضِمْنًا – على العباراتِ والقواعدِ الكاشفةِ عن المعانِيَ الخَفيَّةِ للحَذفِ؛ فَضْلاً عَمَّا له من آثارٍ تُسْهِمُ في رَسْمِ جَوانبِ الدلالةِ الكُليَّةِ واستكمالها، فبذلك كان صاحب الكتاب سَبَّاقًا إِلى معرفةِ أَغراضِ الحَذْفِ كافة(٨٠) .

وافتتنَ عُلماءُ العَرَبيَّةِ من بَعدِ سيبويه بمَباحثِ الحذفِ وفنونهِ ولاسيما ابن جنِّي(ت٣٩٥هـ)، وشيخُ البَلاغَةِ عبد القاهر الجرجاني(ت٥٧٢هـ) الذي وَسمَهُ بأَنَّهُ بابٌ دقيقُ المَسْلك، ولطيفُ المأَخَذِ، وعجيبُ الأَمرِ، وأَنَّه شبيهٌ بالسِّحْرِ، وأَنَّكَ ترى به تَرْكَ الذِكْرِ، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ أَزْيَدَ إِفادةٍ (٨١)، فبالحذف يجري توسيعُ نِطاقِ الكَلامِ ومدُّ حدودِهُ وأَبعادِهُ، وإِنَّ استبعاد بعض المكونات التركيبية يُحقِّقُ إِثراءً لدلالاتِها التركيبيةِ، وبغيابها تظهر بلاغتها الأُسلوبية وتتجلَّى صورها أكثر من حين حضورِها، وبناءً على ذلكَ انشغلَ باحثو العربيةِ المحدثينَ بتتبع أَغراضِ الحذفِ وتلمسها؛ حتى أَطلَقوا عليهِ بالدلالة العدمية (zero morpheme) في الدرس اللِّسانِيِّ الحديث(٨٢) .

وَلمَّا كانَ بحثنا هذا يُعنى بِما يُولِّدَهُ **الانزياحُ بالحذفِ في التراكيب النحوية**؛ فإِنَّنا سندرس نماذج مختارة للإِجراءات الانزياحيةِ الدلاليةِ التركيبية فِي كتابِ سيبويه، ومنها **دلالات الانزياح بالحذف للمعاني من الصفة والأخبار إِلى المدحِ أَو الذَّمِ والشَّتمِ** .

---

(٧٩) ينظر كتاب سيبويه:٢٦/١؛ و٩٨؛ و١٣٥، و٤٥/٢؛ و١٦٦؛ و٢٨٠؛ و٣٦٨–٣٦٩؛ و٣٧٩، و:٧٥/٣ ؛ و١١٥؛ و١٦٠؛ و٦٢٤، و:٤١٧/٤، ومعاني القرآن للفراء:٢٨٧/١، وظاهرة التخفيف للدكتور أحمد عفيف:٢٨٣ .

(٨٠) ينظرالأصول البلاغية في كتاب سيبويه: ٩٦، والحذف من التركيب وتوجيهه في كتاب سيبويه دراسة في القاعدة والسياق: ٦٠٢.

(٨١) ينظر دلائل الإعجاز:١٤٦ .

(٨٢) ينظر اللغة العربية معناها ومبناها ؛ للدكتور تمام حسان: ١٢٨، والحذف من التركيب وتوجيهه في كتاب سيبويه دراسة في القاعدة والسياق: ٦١٢.

إنَّ توسيعَ معانِي الكلامِ؛ ومَدَّ نِطاقِه وأَبعادِهِ وإثراءِ دلالاتِهِ؛ لا يتحقَّق –أَحياناً –إلَّا باختزال بعضَ الوحدات التركيبية من النَصِّ، فغيابِها من التركيب يُبَرِّزُ لها دوراً أُسلوبياً مميزاً؛ ويُبيُّنُ لها معانٍ أَكثر من حضورِها[٨٣]، ومصداق لذلك وَصْفُ عبد القاهر الجرجاني لباب الحذف بقوله: ((وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لَم تُبِنْ)) [٨٤] .

وفي هَدي هذا الاتجاه الذي أَنارَهُ سيبويه للإمام عبدالقاهر الجرجاني وغيرِه من السابقين واللاحقين له حينما عقدَ أبواباً لهذا الفن ومنها: ((هذا باب ما يُنصب فيه الاسمُ؛ لأَنَّه لا سبيل له إلى أَنْ يكون صفة))[٨٥]، و:((باب ما ينتصب على التعظيم والمدح))[٨٦]، و:((باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه))[٨٧]، و: {هذا باب بدل المعرفة من النكرة، والمعرفة من المعرفة وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأةً }[٨٨]، فهو بذلك قَعَّدَ للانزياح بالحذف وإِنْ لم يسمه بذات الاسم.

****

فسياق الانزياح بالحذف لدى سيبويه يتطلَّب أحياناً حذف بِنيةٍ معينةٍ من الجملة لإزاحة معنىً ما؛ وطلب غيره بحسب مقتضى الحال الذي وضِعَ النصُّ المُؤَلَّف من أَجله، **ومن هذا الانزياح قطع معاني الصفة عن الموصوف ونصبها وجعل معانيَها للمدح أو الشتم والذم وذلك بحذف بعض بِنية التركيب**، وتماشياً في هذا الاتجاه وهديه حَلَّلَ سيبويه شواهداً قد اتسعت دلالاتها ومعانيها بعدَ حذف بعض أَبنيتها التركيبية **فأَفادتْ معانى المدح والتعظيم**؛ ومن هذا استشهاده بقول الخِرنِق:[الكامل] [٨٩]:

لا يبعَدَنْ قومي الذي همُ	سمُّ العُداة وآفةُ الجُزْرِ
النازلين بكل مُعترَكٍ	والطَّيِّبون معاقدَ الأَزْرِ

فالشاهد في هذينِ البيتين هو قطع الصفة وهي: **{النازلينَ}** من الموصوف وحملها على اضمار فعل محذوف تقديره: **{أَمدحُ النازلينَ}**، منصوب لقصدِ المدح والتعظيم دون الوصف[٩٠]،

[٨٣] ينظر جدلية الافراد والتركيب : ١٨١–١٨٢ .

[٨٤] دلائل الإعجاز: ١٤٦/١ .

[٨٥] كتاب سيبويه:٥٧/٢.

[٨٦] كتاب سيبويه:٦٢/٢.

[٨٧] كتاب سيبويه:٧٠/٢.

[٨٨] كتاب سيبويه:٥٧/٢ .

[٨٩] ديوان الخِرنِق : ٢٩ .

[٩٠] ينظر كتاب سيبويه: ٦٢/٢، وشرح كتاب سيبويه: ٣٩٠/٢، وتحصيل عين الذهب: ٢٥٥ .

ومنه قوله تعالى:﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ **وَالْمُقِيمِينَ** الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)﴾ **[سورة النساء:آية ٤/١٦٢]**، فكان نصب قوله تعالى:﴿ **وَالْمُقِيمِينَ** ﴾ على المدح بفعل محذوف تقديره: { أذكر }، ومعناه: ((ويصدِّقونَ بما أُنزلَ إليكَ وبالمقيمينَ الصلاة، أيَ: بمذاهبهم وبدينهم))[٩١]، قَالَ سيبويهُ: **((زعم الخليلُ أنَّ نصبَ هذا على أنَّكَ لم تردْ أن تُحدِّثَ الناسَ ولا مَن تُخاطب بأمرٍ جَهلُوهُ؛ ولكنَّهم قد علموا من ذلك ما قد عَلِمتَ، فجعلهُ ثناءً وتعظيماً ونصبه على الفعل، كأنَّه قال: { أَذكرُ أهلَ ذاك، وأَذكرُ المُقيمينَ }، ولكنَّه فِعلٌ لا يستعمل إظهارُهُ))**[٩٢]، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا **وَالصَّابِرِينَ** فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ **[سورة البقرة:آية٢/١٧٧]**، فكان قوله تعالى: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ** ﴾؛ منقطع عن الصلة؛ منصوب على المدح والثناء بفعل محذوف تقديره: { أَذكرُ } [٩٣].

وحلَّلَ سيبويه في { باب ما ينتصب على التعظيم والمدح } قول الأخطل التغلبي وهو يمدح الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان :[البسيط] [٩٤]:

نَفْسِي فِداءُ أَميرِ المؤمنينَ إذا	أبْدَى النواجِذَ يومٌ باسلٌ ذَكَرُ
الخائضُ الغَمْرَ والمَيْمونُ طائرُهُ	خليفةُ الله يُسْتَسْقَى به المَطَرُ

فالشاهد فيه قطع الصفة **{الخائض}** من قوله: {أميرِ المؤمنين} وحمله وإعرابه على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، وتقدير الكلام : **{هو الخائضُ}**؛ فقَصدَ به معنى المدح والثناء[٩٥]؛ قال سيبويه **((وإن شئت قطعتَه فابتدأتَه))** [٩٦]، ولمثل ذلك – في باب {هذا باب بدل المعرفة من النكرة، والمعرفة من المعرفة وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأةً} – استشهد سيبويه بقول مُهلهِل: [الكامل] [٩٧] :

---

(٩١) شرح كتاب سيبويه: ٢/٣٩٦ .

(٩٢) كتاب سيبويه: ٢/٦٥-٦٦ .

(٩٣) ينظر شرح كتاب سيبويه: ٢/٣٩٦ .

(٩٤) البيت في شعره: ١٩٧-١٩٨، وكتاب سيبويه:٢/٦٢، وتحصيل عين الذهب: ٢٥٦ .

(٩٥) ينظر كتاب سيبويه: ٢/٦٢، وتحصيل عين الذهب: ٢٥٦ .

(٩٦) ينظر كتاب سيبويه: ٢/٦٢ .

(٩٧) البيت لمهلهل بن ربيعة في الشعر والشعراء، وكتاب سيبويه: ٢/١٦، و: ٦٣.

وَلَقَدْ خَبَطْنَ بُيوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً ____ **أَخْوالُنا** وَهُمُ بَنُو الأَعْمامِ

والشاهد فيه قطع { **أَخوالنا** } عَمَّا قبلها وحملها على الابتداء على أَنَّها خبر لمبتدأ محذوف وتقدير الكلام: { **هُم أَخوالنا** }[٩٨]، حيثُ قال سيبويه:((**وإنْ شئت ابتدأت**))[٩٩]، وقال في موضع موضع آخر:((**كأنَّه حين قال: خبطنَ بيوت يشكرَ قيل له: وما هم؟ فقال: أخوالُنا وهم بنو الأعمام**))[١٠٠].

....

ولم يقف الأَمر على إيراد المدح والتعظيم في مسائل الانزياح بالحذف؛ بل تجاوز معنى الإخبار إِلى الذَّم والشتم، كقولكَ: { مَررتُ بالرجلِ الفاسقَ الخبيثَ اللَّئيمَ }؛ بنصب { الفاسِقَ } – على الشتم والذم – بفعل محذوف تقديره: { أذكرُ ؛ أَو أَذمُ الفاسقَ }، ولو جُرَّ الفاسِقُ على الظاهر لصار نعتاً وأَصبح المعنى إخبارياً، وشتَّان بين المعنيينِ، ومن هذا الباب قوله تعالى:﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ **حَمَّالَةَ** الْحَطَبِ (٤) ﴾ [المسد:١١١/٣-٤]، فإعراب: { وامرأَتُه }: اسم مرفوع بالعطف على الضمير المقدر في { يصلى }، على تقدير: { يصلى هو وامرأَتُه ناراً ذاتَ لهبٍ }، و﴿ **حَمَّالَـةَ** ﴾: اسم منصوب بفعلٍ محذوفٍ تقديره: { أذكرُ أَو أَذمُ حمالَـةَ الحَطَبِ }، فنصبَ { حمالَةَ } على الشتم والذم والقذف؛ قال الزمخشري: « وأَنا أَستَحبُ هذهِ القراءة »[١٠١]، وهي في الحقيقة وصفٌ لامرأَةِ أَبِي لهبٍ[١٠٢].

لقد وقفَ سيبويه مَليًّا على هذا النوع من الانزياح وعقد له باباً سَمّاه { باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أَشبهه }؛ وقال فيه: ((**تقول: {أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ}، لم يَرِدْ أَنْ يُكَرره ولا يُعَرِّفَكَ شيئًا تُنكره، ولكنه شَتَمه بذلك، وبلغنا أن بعضهم قَرأَ هذا الحرف نصبًا:** ﴿ وَامْرَأَتُهُ **حَمَّالَةَ** الْحَطَبِ (٤) ﴾ **[المسد:١١١/ ٤]، لم يجعل { الحمالةَ } خبراً للمرأةِ، ولكنه كأَنَّه قال: { أذكرُ حمّالةَ الحَطَبِ }؛ شتمًا لها، وإنْ كان فعلاً لا يُستعملُ إظهارَه**))[١٠٣]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) **مَلْعُونِينَ** أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١)﴾ **[الأحزاب:٣٣/٦٠-٦١]**، فنصبَ ﴿**مَلْعُونِينَ**﴾ على الذَمِّ؛ بفعلٍ محذوفٍ تقديرهُ: {أذمُّ

---

(٩٨) ينظر شرح كتاب سيبويه: ٣٩٥/٢، وتحصيل عين الذهب: ٢٤٣،و: ٢٥٦ .

(٩٩) ينظر كتاب سيبويه: ٦٣/٢.

(١٠٠) ينظر كتاب سيبويه: ١٦/٢.

(١٠١) الكشاف: ٤/ ٧٠١ .

(١٠٢) كتاب سيبويه:٧٠/٢، وينظر اعراب القرآن؛ للنحاس:٢٨٦/٥، وإعراب القرآن وبيانه؛ للدرويش: ٢٢٧/١.

(١٠٣) كتاب سيبويه: ٧٠/٢ .

الملعونينَ }[١٠٤]، ومنه أيضاً قول عروة بن الورد : [الوافر] [١٠٥]:

سقَوْني الخمرَ ثمَّ تَكنَّفوني   عُداةَ الله من كَذِبٍ وزورِ

والشاهد فيه أنَّه نصبَ **{ عُداةَ }** بفعلٍ مَحذوفٍ تقديره: { أَذمُّ عُداةَ اللهِ .. }؛ **فانزاح المعنى من الاخبار عنهم إلى الشتم والذم تقبيحاً لهم**؛ قَالَ سيبويهُ: ((**إنَّما شتمهم بشيء قد استقرَ عندَ المخاطَبينَ**))[١٠٦]، ويجوزُ رفع **{ عُداةُ }** لَو أَرادَ الشاعرُ معنى الإخبار عنهم؛ وهو معنى آخر سِوى مَعنى الشَتْمِ[١٠٧]؛ أَيّ: إنَّه لو قُدِّرَ الحذفُ عَلى غَيرِ ما ذكرناهُ سَلفاً؛ لأَنزاحَ المَعنى إلى مَعنىً آخرٍ غيرَ الشتم وهو الإخبارُ عَنْهم، ولمثل هذا من الذم والشتم استشهد سيبويه بقول ابن خياط العُكلي:[البسيط] [١٠٨]:

وكلُّ قومٍ أطاعوا أمرَ مُرشدهم   إلا نُمَـيراً أَمــرَ غاوِيــهاَ

الظّاعنينَ ولـمّا يُظعنوا أَحَداً   والقائلونَ لمنْ دارٌ نُخلّيها

والشاهد فيه نصبُ {**الظّاعنينَ**} وحملها على الذم فيه على إضمار فعل محذوف تقديره: **{أَذمُ أو أشتمُ الظّاعنينَ}**، ورَفَعَ {**القائلونَ**} على إضمار مبتدأٍ تقديره:
{ هم القائلونَ } لما قَصَدَ معنى الذم والشتم[١٠٩] .

الخاتمة:

١. إنَّ مصطلحُ الانزياحِ مصدرٌ يدل على المطاوعة والانحراف، وهو استعمالُ المُبدِعِ للغةِ –كمفرداتٍ وتراكيبَ وصورٍ – استعمالاً يخرج بها عمّا هو مُعتادٌ ومأَلوفٌ بحيثُ يُؤدّي ما ينبغي له أَنْ يتّصفَ به من تَفرُّدٍ وإِبْداعٍ وقُوَّةِ جَذْبٍ وأَسْرٍ في بناء المعاني المتوخاة.
٢. الانزياحُ باب من أبواب المَجازِ الُّلغوي بابٌ لَغويٌّ يبحثُ بُعْدَ النصِّ عن المطابقةِ اللغويةِ للحقيقةِ اللفظيةِ في المفرداتِ والتراكيبِ.
٣. يتعالق الانزياحُ مع باب الحذف فيجري توسيعاً لنِطاقِ الكَلامِ ومَدَّا حدودِه وأبعادِه، أَي: إنَّ اختزال بعض المكوِّنات التركيبية يُحقِّقُ إثراءً طيباً في دلالاتِها التركيبيةِ، وبغياب بعض مفرداتها تظهرُ بلاغتها الأُسلوبية وتتجلّى صورها البيانية.

---

[١٠٤] ينظر إعراب القرآن؛ للباقولي (منسوب خطأ للزجاج): ٧٤٢/٢ .

[١٠٥] كتاب سيبويه: ٧٠/٢ .

[١٠٦] كتاب سيبويه: ٧٠/٢ .

[١٠٧] ينظر تحصيل عين الذهب: ٢٦٠ .

[١٠٨] معجم الشعراء؛ للمرزبان:٢٥٨، وكتاب سيبويه:٦٤/٢، وشرح كتاب سيبويه:٣٩٦/٢، وتحصيل عين الذهب:٢٥٧.

[١٠٩] ينظر كتاب سيبويه: ٦٤/٢، وشرح كتاب سيبويه: ٣٩٦/٢، وتحصيل عين الذهب: ٢٥٧ .

٤. يدرسُ الانزياحُ النصَّ الأَدبيِّ من جِهَةِ مخالفته للمأَلوفِ والعاديِّ، مما دفع الباحثونَ المحدثونَ لإطلاق مُصطلحاتٍ كثيرةٍ على ظاهرةِ الانزياحِ مِنْها: **{الجسارةُ الُّلغويةُ، والشذوذُ الُّلغوي، والاتساعُ اللغوي، والابتكارُ والعدولُ، والازورارُ والغَرابةُ}**، وغير ذلك.

٥. تناول علماءَ العربِ القُدامى وباحثيهم الانزياح تَحتَ مباحثٍ بـ**{المجازَ فِي اللغةِ}** ووضعوا له ـ مصطلحاتٍ جَمَّةٍ، ووَسموا مَباحِثَهُ وفصولَهُ وفَصَّلوا القولَ فِيها ومنها: **{ الانتقالُ، والاتساعُ، والتوكيدُ، والشجاعةُ، والضرورةُ، والتشبيهُ، والحذفُ، والزيادةُ، والتقديمُ والتأخيرُ، والحملُ على المَعنى، والتحريفُ، وغيرُها }**، وأشهر مَن لخَّصَ هذه المصطلحاتِ وبَحثَها من العُلماءِ ابن جِنْيِّ(ت٣٩٢هـ) الذي عَقدَ لهُا باباً خاصاً فِي كِتابِه الخَصائِصُ.

٦. التفت سيبويه –رحمه الله – إلى مسائِل الانزياح؛ وتناولَ الإجراءاتِ الانزياحيةِ المختلفة كإجراءٍ أَلسُنِيٍّ؛ وتلمَّسَ أَسرارَها الوظيفيةِ ودلالاتَها الُّلغَويةِ والبَلاغِيَةِ والأَدبيةِ التي تَنتِجُ عنها بعد أَنْ حَدَّد مسائلَها بِدقةٍ عاليةٍ ولاسيما مَسائِلُ **الانزياحِ المُوضِعِيِّ**، **والانزياحُ التَوَسُّعي**، **والانزياحُ الاختزالي**، **والانزياحُ التناوبي**، **والانزياحُ الوظيفي**، **والانزياحُ التنغيمي**، فسيبويه كانَ مُتَقدِماً في ذلك على المُحدثينَ مِن العربِ والغَربِ الذينَ ادركوه – فيما بعد .

٧. لقد مهَّدَ سيبويه **لمسائِل الانزياح بالحذف** وقَعِّدَ لها في أَماكنِها المحدَّدة لها ضِمْنَ الخُطَة التي بنى عليها كتابَهُ.

٨. رصدَ سيبويه الممارساتَ الأُسلوبيةَ والوظائفُ اللفظيةُ للحذفِ التي حقَّقتْ تلك الغايات وتلك الظواهر في كلام العرب، ولعلَ مبدأً {التخفيفَ وكثرة الاستعمال والتداول }، أَو (قانون الاقتصاد الأدائي) لدى المحدثين؛ لم تكن هي المعاير الأَساسيةً التي استند إليها سيبويه فِي رصدِ الممارساتَ الأُسلوبيةَ التي حققتْ تلك الغايات وتلك الظواهر في كلام العرب، بل ربَّما كان مقضى الحال والمقام هو من يُحدِّد الإجراء الأُسلوبي الذي يُعبِّر عن ذلك، كما في أبواب المح والشتم والذم والصفة.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١. **اتجاهات البحث اللساني:** تأليف:(ميلكا إيفيتش)، ترجمة: الدكتور سعد عبدالعزيز مصلوح، والدكتورة وفاء كامل فايد، طبع ونشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية: ١٩٩٦م .

٢. **أدب الكاتب:** تأليف: أبي محمد؛ عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، حققه وضبطه وشرح أبياته: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع ونشر: مطبعة السعادة . مصر . الطبعة الرابعة: ١٣٨٢هـ .١٩٦٣م .

٣. **الأدب المفرد:** تأليف: أَبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (ت٢٥٦هـ)، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، عدد أجزاء الكتاب : جزء واحد، طبع ونشر : دار البشائر الإسلامية –بيروت –لبنان – الطبعة الثالثة: ١٤٠٩ – ١٩٨٩م .

٤. **الأدب المفرد بالتعليقات:** تأليف: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري (ت ٢٥٦هـ)، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري؛ مستفيدًا من تخريجات وتعليقات العلامة الشيخ المحدث: محمد ناصر

الدين الألباني، طبع ونشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع– الرياض– المملكة العربية السعودية– الطبعة الأولى: ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م .

٥. **أدوات النص:** تأليف: الدكتور محمد تحريشي،طبع ونشر:اتحاد كتاب العرب– دمشق :٢٠٠٠م.

٦. **الأسلوب والأسلوبية** : تأليف: (بيير جيرو)، ترجمة: منذر عياشي، طبع ونشر: مركز الانماء القومي – بيروت – لبنان: ١٩٩٤م

٧. **أسلوبية الرواية (مدخل نظري):** تأليف: الدكتور حميد لحمداني، طبع ونشر: مطبعة النجاح الجديدة – منشورات دراسات سيمائية أدبية لسانية – الدار البيضاء: ١٩٨٦م .

٨. **الأسلوبية منهجاً نقدياً** : تأليف: محمد عزام، طبع ونشر: منشورات وزارة الثقافة – دمشق – الجمهورية العربية السورية: ١٩٨٩م .

٩. **الأسلوبية والأسلوب** : تأليف: عبدالسلام المسدي، طبع ونشر: الدار العربية للكتاب – تونس – الطبعة الثالثة: ١٩٨٢م .

١٠. **الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي** : تأليف: الدكتو أحمد سعد محمد، طبع ونشر: مكتبة الآداب – القاهرة : (دون تاريخ وعدد الطبعة) .

١١. **أطياف الوجه الواحد:** تأليف: الدكتور نعيم الباقي، طبع ونشر: منشورات اتحاد الكتاب العربي – دمشق – سوريا: ١٩٩٥م.

١٢. **إعراب القرآن : (للباقولي المنسوب للزجاج):** تأليف: أبي الحسن نور الدين جامع العلوم؛ علي بن الحسين بن علي، الأَصْفهاني الباقولي(المتوفى: نحو ٥٤٣هـ)، تحقيق ودراسة: إبراهيم الإبياري، طبع ونشر: دار الكتاب المصري/ القاهرة – ودار الكتب اللبنانية / بيروت – الطبعة الرابعة: ١٤٢٠هـ .

١٣. **إعراب القرآن الكريم وبيانه** : تأليف: الأستاذ محي الدين الدرويش، طبع ونشر: واليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ودار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا، ومطابع المستقبل في بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م .

١٤. **اعراب القرآن:** تأليف: أبي جعفر، احمد بن محمد بن اسماعيل النحاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد، طبع ونشر: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية – الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

١٥. **الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية** : تأليف: الدكتور أحمد محمد ويس، طبع ونشر: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م.

١٦. **أنوار الربيع في أنواع البديع** : تأليف: صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم (ت ١١١٩هـ)، (دون مكان طبع وتارخها) .

١٧. **البحث الدلالي في كتاب سيبويه** : تأليف: الدكتورة دلخوش حسين دزه يى، طبع ونشر: مطبعة روان . السليمانية . جمهورية العراق : ٢٠٠٤م.

١٨. **بلاغة الخطاب وعلم النص** : تأليف: صلاح فضل، طبع ونشر: عالم المعرفة – مطابع السياسة – الكويت : ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

١٩. **البنى النحوية:** تأليف: نعوم جومسكي، ترجمة: الدكتور يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مجيد الماشطة، طبع ونشر: مطابع دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – العراق – الطبعة الأولى: ١٩٨٧م .

٢٠. **البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي:** تأليف : الدكتور مصطفى السعدني، طبع ونشر: منشأة المعارف بالاسكندرية: ١٩٩٢م .

٢١. **بنية اللغة الشعرية:** تأليف : (جان كوهن)، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، طبع ونشر: دار توبقال للنشر – الدار البيضاء – المغرب– الطبعة الأولى:١٩٨٦م .
٢٢. **البيان والتبيين:** تأليف: أَبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، طبع ونشر: مطبعة السعادة – مكتبة الجاحظ – نشر: مؤسسة الخانجي بالقاهرة – الطبعة الثالثة : (د.ت) .
٢٣. **تاج العروس من جواهر القاموس :** تأليف: أبي الفيض، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسينى الزَبِيدِىِّ، الملقب بمرتضى الزَبِيدِىِّ (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، طبع ونشر: دار الهداية: (د.ت.م) .
٢٤. **تحصيل عين الذهب من معدن جوهر العرب:** تأليف: أبي الحجاج؛ يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم الشنتمريّ (ت٤٧٦هـ)، حققه وعلق عليه: الدكتور زهير عبد المحسن سلطان، طبع ونشر: دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الثقافة والأعلام ـ جمهورية العراق ـ الطبعة الأولى : ١٩٩٢م .
٢٥. **التطبيق الصرفي:** تأليف: الدكتور عبده الراجحي، عدد أجزاء الكتاب: جزء واحد، طبع ونشر: دار النهضة العربية – بيروت – لبنان: ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م .
٢٦. **تفسير البحر المحيط :** تأليف : أَبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، دراسة وتحقيق: صدقي محمد جميل، طبع ونشر: دار الفكر – بيروت: ١٤٢٠ هـ .
٢٧. **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: تأليف** : الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر): تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر، طبع ونشر: دار المصحف– القاهرة– الطبعة الثالثة:١٩٧٧م .
٢٨. **تهذيب اللغة** : تأليف: أبي منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي(ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، عدد أجزاء الكتاب (٨) ثمانية أجزاء، طبع ونشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – الطبعة: الأولى: ٢٠٠١م .
٢٩. **التوقيف على مهمات التعاريف: تأليف:** زين الدين؛ محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت١٠٣١هـ)،طبع ونشر: عالم الكتب – القاهرة – الطبعة الأولى:١٤١٠هـ– ١٩٩٠م .
٣٠. **جدلية الافراد والتركيب في النقد العربي القديم** : تأليف: الدكتور محمد عبدالمطلب، طبع ونشر: مطابع المكتب المصري الحديث – الشركة المصرية للنشر – القاهرة – لونجمان:١٩٩٥م.
٣١. **جماليات الأسلوب والتلقي** : تأليف: الدكتور موسى ربابعة، طبع ونشر: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع – إربد – الأردن – الطبعة الأولى:٢٠٠٠م .
٣٢. **جمهرة اشعار العرب** : تأليف: أبي زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي(ت١٧٠هـ)، شرحه وضبطه وقدم له : الاستاذ علي فاروق، طبع ونشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى:١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .
٣٣. **جوانب من نظرية النحو:** تأليف: نعوم جومسكي، ترجمة : مرتضى جواد باقر، طبع ونشر: مطابع جامعة الموصل : ١٩٨٥م .
٣٤. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب** : تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، طبع ونشر: مكتبة الخانجي ودار الرفاعي بالرياض، الطبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢م .
٣٥. **الخصائص:** أبو الفتح؛ عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، طبع ونشر: مشروع النشر العربي المشترك ـ دار الشؤون الثقافية العامة والهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الطبعة الرابعة، بغداد : ١٩٩٠م .
٣٦. **الخطابة:** لأرسطو طاليس، (الترجمة العربية القديمة)،حققه وعلق عليه: عبدالرحمن بدوي، طبع ونشر: وكالة المطبوعات – الكويت، ودار القلم – بيروت – لبنان:١٩٧٩م.
٣٧. **دلالة الألفاظ :** تأليف: الدكتور إبراهيم أنيس، طبع ونشر: مطبعة لجنة البيان العربي – مكتبة الانجلو المصرية – الطبعة الثانية : ١٩٦٣م .

٣٨. **دلائل الإعجاز** : تأليف: الشيخ؛ أبي بكر ؛ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمد محمود شاكر، طبع ونشر: مكتبة الخانجي– القاهرة –ومطبعة المدني– المؤسسة السعودية بمصر – القاهرة – الطبعة الثانية : ١٤١٠ هـ –١٩٨٩ م .
٣٩. **دينامية النص (تنظير وانجاز):** تأليف: الدكتور محمد فتاح، طبع ونشر: المركز الثقافي العربي – بيروت / لبنان – والدار البيضاء / المغرب: ١٩٨٧م.
٤٠. **ديوان الأعشى** : تأليف: أبي بصير؛ ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير (ت٧هـ)، طبع ونشر: دار صادر – بيروت – لبنان .
٤١. **ديوان الخرنق بنت هفان:** تحقيق: يسرى عبدالله، طبع ونشر: دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان – الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م .
٤٢. **ديوان ذي الرمة:** تأليف: غيلان بن عقبة العدوي (ت١١٧هـ)، عني بتصحيحه: (كارلين هنري هيس مكارتي)، طبع ونشر: على نفقة كلية كمبرج في مطبعة الكلية: ١٣٣٧هـ – ١٩١٩م.
٤٣. **ديوان قيس بن الخطيم:** تحقيق: الدكتور ناصرالدين الاسد، طبع ونشر: دار صادر – بيروت – ١٩٦٧م.
٤٤. **الشافية في علم التصريف** : تأليف: أبي عمرو جمال الدين؛ عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، ابن الحاجب الكردي المالكي (ت٦٤٦هـ)، تحقيق: حسن أحمد العثمان، طبع ونشر: المكتبة المكية – مكة – الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ ١٩٩٥م .
٤٥. **شذا العرف في فن الصرف** : تأليف: الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوي (ت١٣٥١هـ)، شرحه وفهرسه واعتنى به: الدكتور عبدالحميد هنداوي، طبع ونشر: دار الكتب العلمية _ بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة:١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م .
٤٦. **شرح الشافية الكافية : تأليف:** ابن مالك، تحقيق: الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي، طبع ونشر: دار المأمون للتراث، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٨٢م .
٤٧. **شرح الكافية الشافية:** تأليف: أبو عبد الله؛ جمال الدين؛ محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني(ت٦٧٢هـ)، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، طبع ونشر: جامعة أم القرى – مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي– كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – الطبعة الأولى– مكة المكرمة:(دون تاريخ الطبع).
٤٨. **شرح كتاب سيبويه:** تأليف: أبي سعيد؛ الحسن بن عبد الله المرزبان السيرافي (ت٣٦٨هـ)، تحقيق: أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي، طبع ونشر: دار الكتب العلمية ـ الطبعة الأولى ـ بيروت ـ لبنان: ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م .
٤٩. **شعر الأخطل** : صنعة السكري، تحقيق فخر الدين قباوة، طبع ونشر: دار الأصمعي: حلب: ١٩٧١م.
٥٠. **الشعر والشعراء:** تأليف : أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، طبع ونشر : دار الحديث – القاهرة : ١٤٢٣ هـ .
٥١. **صحيح الأدب المفرد** : تأليف: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (ت ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، طبع ونشر: دار الصديق للنشر والتوزيع – الطبعة الرابعة: ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .
٥٢. **ظاهرة التخفيف في النحو العربي** : تأليف: الدكتور أحمد عفيفي، طبع ونشر: الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى – القاهرة:١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
٥٣. **علم الأسلوب (مبادئه واجراءاته):** تأليف: الدكتور صلاح فضل، طبع ونشر: منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
٥٤. **فتح الباري شرح صحيح البخاري:** تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع ونشر: دار المعرفة – بيروت: ١٣٧٩هـ.

٥٥. **الفصل في الملل والأهواء والنحل** : تأليف: أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، طبع ونشر: مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر .

٥٦. **فصول من علم اللغة العام:** تأليف: فرديناند دي سوسير، ترجمة: الدكتور أحمد نعيم الكراعين، طبع ونشر: دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية – مصر – (دون تاريخ وعدد الطبعة).

٥٧. **في القول الشعري:** تأليف: يمنى العيد، طبع ونشر: دار توبقال للنشر – الدار البيضاء – المغرب – الطبعة الأولى: ١٩٨٧م.

٥٨. **في علم اللغة التقابلي (دراسة تطبيقية):** تأليف: الدكتور أحمد سليمان ياقوت، طبع ونشر: دار بور سعيد للطباعة : ١٩٨٥م .

٥٩. **الكامل في اللغة والأدب:** تأليف: أبو العباس؛ محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد الهنداوي، طبع ونشر: دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . الطبعة الأولى: ١٤١٩ هـ . ١٩٩٩ م .

٦٠. **كتاب الأفعال** : تأليف: أبي القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي، المعروف بابن القَطَّاع الصقلي (ت٥١٥هـ)، طبع ونشر: عالم الكتب – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م .

٦١. **كتاب سيبويه:** تأليف : أبي بشر؛ عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ت١٨٠هـ)تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، طبع ونشر: عالم الكتب ـ بيروت ـ لبنان (د.ت).

٦٢. **لسان العرب** : تأليف: جمال الدين؛ أبي الفضل؛ محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، طبع ونشر: دار صادر ـ بيروت(د.ت) .

٦٣. **اللسانيات من خلال النصوص:** تأليف: الدكتور عبدالسلام المسدي، طبع ونشر: الدار التونسية للنشر – الطبعة الأولى: ١٩٨٤م .

٦٤. **اللغة العربية؛ معناها ومبناها:** تأليف: الدكتور تمام حسان، طباعة ونشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٧٩م.

٦٥. **اللغة والخطاب الأدبي:** تأليف: (إدوارد سابير وآخرون)، ترجمة: سعيد الغانمي، طبع ونشر: المركز الثقافي العربي – الدر البيضاء – المغرب – الطبعة الأولى:١٩٩٣م.

٦٦. **ما لا تؤديه الصفة (المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية)** : تأليف: الدكتور حاتم الصكر، طبع ونشر: دار كتابات – بيروت – الطبعة الأولى:١٩٩٣م.

٦٧. **معاني القرآن** : تأليف: أبي زكريا؛ يحيى بن زياد بن عبد الله الفراء (ت ٢٠٧هـ)، قدم له وعلق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، طبع ونشر: دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

٦٨. **معجم الشعراء:** تأليف: الإمام ابي عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت٣٨٤هـ)، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، طبع ونشر: مطبعة عيسى البابي – القاهرة: ١٩٦٠م.

٦٩. **معرفة الآخر(مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة)** : تأليف: عبدالله إبراهيم وسعيد الغانمي وعواد علي، طبع ونشر:المركز الثقافي العربي – الدر البيضاء – المغرب – الطبعة الأولى:١٩٩٠م.

٧٠. **مقاييس اللغة:** تأليف: أبي الحسين؛ أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا القزويني الرازي (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبع ونشر: دار الفكر ـ الطبعة : ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٧١. **من أسرار اللغة** : تأليف: الدكتور إبراهيم أنيس، طبع ونشر: المطبعة الفنية الحديثة – القاهرة – الطبعة الرابعة:١٩٧٢ م .

٧٢. **المنهج الوصفي في كتاب سيبويه:** تأليف: الدكتور نوزاد حسن أحمد، طبع ونشر: جامعة قاريونس – بنغازي – ليبيا – الطبعة الأولى: ١٩٩٦م .

٧٣. **النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج):** تأليف: الدكتور عبده الراجحي، طبع ونشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت : ١٩٧٩م .

٧٤. **النص، السلطة، الحقيقة؛ الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة :** تأليف: الدكتور نصر حامد أبو زيد، عدد أجزاء الكتاب: جزء واحد – طبع ونشر: المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء – المملكة المغربية – الطبعة الثانية : ١٩٩٧م .

٧٥. **النص القرآني من الجملة إلى العالم :** تأليف: الدكتور وليد منير، طبع ونشر: المعهد العالمي الإسلامي – القاهرة – الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

٧٦. **النقد والاسلوبية بين النظرية والتطبيق:** تأليف: الدكتور عدنان بن ذريل، طبع ونشر: منشورات اتحاد كتاب العرب – دمشق – سوريا: ١٩٨٩م .

٧٧. **النكت في تفسير كتاب سيبويه :** تأليف: أبي الحجاج؛ يوسف بن سليمان ابن عيسى الأعلم الشنتمريّ (ت٤٧٦هـ)، قرأه وضبط نصه: الدكتور يحيى مراد، طبع ونشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى : ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م .

٧٨. **هسهسة اللغة:** تأليف: (رولان بارت)، ترجمة: الدكتور منذر عياشي، طبع ونشر: مركز الانماء الحضاري – حلب – سوريا – الطبعة الأولى: ١٩٩٩م .

ثانياً : المصادر الأجنبية :

79. A university Grammar of English (قواعد جامعية للغة الإنجليزية) – R.Quirk – 12thn impression – Printed in Hong Kong :1983 .

80. **A Dictionary of Linguistics** (معجم اللغويات) .

81. **Cohesion in English** (التماسك في اللغة الانكليزية) .

82. **Cohesion in English** (التماسك في اللغة الانكليزية) .

ثالثاً : الرسائل والأطاريح الجامعية :

٨٣. **ابن جني وعلم الدلالة: (رسالة ماجستير)** : تأليف: نوال كريم زرزور، الجامعة المستنصرية – كلية الآداب: ١٤٠٩هـ – ١٩٩٣م .

٨٤. **الحذف من التركيب وتوجيهه في كتاب سيبويه:** دراسة في القاعدة والسياق، (رسالة ماجستير في النحو والصرف)، تأليف: عزيزة بنت عبدالله الغوينم، إشراف الاستاذ الدكتور سيف بن عبدالرحمن العريفي، العام الجامعي: ١٤٣٢هـ .

رابعاً : البحوث والدوريات :

٨٥. **الانحراف لغة الشعر والمجاز والاستعارة:** تأليف: الدكتور طراد الكبيسي، بحث منشور في مجلة الأقلام – العدد: ٢٤ – السنة: ١٩٨٦م .

٨٦. **الانحراف مصطلحاً نقدياً:** تأليف: الدكتور موسى ربايعه، بحث منشور في مجلة مؤتة للبحوث والدراسات للعلوم الانسانية والاجتماعية – المجلد: ١٠ – العدد: ٤ – السنة: ١٩٨٤م.

٨٧. **الانزياح العجائبي الساخر في أدب المنامات** (المنام الكبير للوهراني) **(بحث)**، للدكتورة دلال طه بخش وزميلتها، مجلة اللغة العربية العدد: ١٤٤، المجلد: ٢١،السنة :٢٠١٩م، ص:٣٣٥-٣٦٤ .

٨٨. **ظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب (بحث منشور):** للدكتور صالح علي سليمان الشتيوي، منشور في مجلة دمشق،مجل:٢١، العدد: (٣ +٤)، السنة: ٢٠٠٥م .

٨٩. **نظرة في أثر اللغوين العرب في علم الدلالة:** تأليف: الدكتور علي الحمد، بحث منشور في مجلة أبحاث اليرموك –

٩٠. المجلد :٢ – العدد:١ – جامعة اليرموك: ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

ابن مضاء القرطبيّ (ت٥٩٢ هـ)
بين التَّوظيف السِّياسيّ للنحوِ، والتَّيسير، والوصف

الأستاذ الدّكتور **الباحث**

محمّد حسين علي زعيِّن **عامر محسون هادي**

جامعة كربلاء – كليَّة التَّربيَة للعلومِ الإنسَانيَّة

قسم اللغَةِ العَرَبيَّة

الملخَّص:

تَتَأتَّى أهمية البحث من فكرة مفادها وجود أبعاد فكرية غير نحويَّة يضمرها مشروع ابن مضاء النحَّويّ، وقد تسربلت بسربال النحو؛ لما يملكه من أصول علمية متعددة تسمح له بالدخول في المعترك الفكري الذي نادت به دولة الموحِّدين في الأندلس، وفي ضوء هذه الرؤية حاول البحث إماطة اللثام عن هذا الفِكْرِ في ضوء قراءة البيئة الفكرية والزمكانيَّة التي رافقت تلك الدولة الفتية، وغير خافٍ على الباحثين أنَّ الأبعاد الفكريَّة لأي مشروع قد تتفق أو تختلف ببعض متبنّياتها مع أبعاد لمذاهب فكرية أخرى سواء أكانَ ذلكَ في منظومتها المنهجية أم اللغوية أم الفلسفية أم الفقهية أم غير ذلك؛ فكانت هذا التوافقات أو الاختلافات محط نظر لبعض الدراسات لتقيم مقاربات أخرى مع مشروع ابن مضاء؛ فكانت المقاربات التيسيريَّة أو الوصفيَّة أو غير ذلك، فجاء هذا البحث ناظرًا في الموقف الفقهي وأصوله، والفلسفيّ الماثل في رائده (ابن رشد)، وكذلك الحال في تسليط الضوء على الاتجاه الصوفي، ولم يغفل البحث تلك الدراسات التي سعت إلى الربط بين حركة التيسير ومشروع ابن مضاء، ومنها التي سعت الى الوقوف على بعض الدراسات الوصفية التي ربطت بين المنهج الوصفي وبعض أفكار ابن مضاء.

وخرجت هذه الدراسة بمجموعةٍ من النتائج منها :إنَّ ابن مضاء لم يكن ميِّسرًا ولا وصفيًّا في النحو بقدر ما كان مستثمرًا لطاقات النحو الفكرية لأبعادٍ سياسيَّة، فضلًا عن ذلك فإنَّ ابن مضاء حاول إبعاد النحو المشرقيّ من أجلِ استكمال مشروعه بإبعاد المتبنيَّات الفقهية والفلسفية والعقائدية للمذاهب الإسلامية الأربعة، وقد حاول بعض الباحثين الوصفيين قراءة مشروع ابن مضاء قراءة وصفية لإسباغِ الشرعيّة على المنهج الوصفيّ في التراث العربيّ.

المقدمة:

البحثُ في التُّراثِ النحويّ– كما هو معلوم – يدورُ في فلك المؤلَّفات والأفكارِ والنَّصوص التي وصلت إلينا عن روّادِ هذا العلمِ الَّذينَ فتحوا أبوابه ووضعوا مناهجه وآلياته، وقد أَضحت

دراسات المحدثين وأقوالهم تستنطق نصًّا هنا ورأيًا هناك ونظريةً عند آخر...، وقد تختلفُ هذه الأفكارُ أو تتّفق وقد تتعدّدُ في دراسةِ الرأي الواحد، فكل بحسب قراءته ونظرته للظاهرة المدروسة، ومن هذه الأفكار التي تعدَّدت القراءة فيها أفكار ابن مضاء النَّحويَّة في كتابه(الرَّد على النُّحَاة)، فمن المُحْدَثِينَ مَنْ نظر في أفكاره نظرة المنهج الوصفيّ، ومنهم مَنْ نظر فيها نظرة المنهج التَّيسيريّ، ومنهم مَنْ نظر نظرةً عقائديَّةً ألقت بظلالها على النحو بشعور أم من دونه، وهكذا هو الحال لهذه القراءات التي بُنِيَت على وفق الاجتهاد والنّظر.

وفي ضوء هذا التعدّد الفكري نقدِّمُ قراءةً أخرى نحسبها تضيفُ شيئًا يكون لبنةً أخرى تلتحق بتلك اللبنات التي سبقتها، وتقوم هذه القراءة على وجود ما يشير إلى غاياتٍ نحسبها غير نحويَّة في الأصل، لكنها تسربلت بسربال النَّحو؛ لكون صاحبها يملك السبل إليها في توظيف النحو، فظاهر كتاب (الرَّد على النُّحَاة) أنّه كتاب نحوي، وهو من هذا الباب كتابٌ نحويٌّ بحق، لكنه وُظّف إلى أبعادٍ فِكْرِيَّة، يهدف منها إلى مساندة ما يعتقده من مذهب دينيّ سياسيّ، شاء القدر له أن يتطور فيما بعد ليصبح سياسة دولة كاملة.

وقد حاولنا أنْ نقرأ البيئة الفكرية التي نشأ فيها ابن مضاء؛ للكشف عن الحركات الفكرية التي وافقت زمانه ومكانه ، وحاول الباحثان أيضا تلمُّس العلاقات الظاهرة والخيوط الخفية المتشابكة بين تلك الأبعاد الفكرية المتضادة، فكل هذه الأبعاد ذات علاقة بالنحو سواء أكانت من قريب أم من بعيد، إذ استُعِمل النحو أداة فكرية يُقارَع بها الفقهاء والفلاسفة والصوفية، ومن ثَمَّ استطاع النَّحو أنْ يخرج من دائرة البحث اللغويّ؛ ليساعد القائمين بالأمر السياسي على مواجهة الحركات الفكرية المناوئة لتلك الدولة الفتية.

وفي ضوء ما تقدّم رصد البحث العِلّة التي سوَّغت لابن مضاء رفض الفلسفة والقياس والتعليل ونظرية العامل؛ لأنّها تتصل بأصول الفقه للمذاهب الفقهيَّة الأربعة التي رفضها ابن مضاء، وقد أدَّى هذا الرفض إلى حرق الكتب الفقهيَّة التي تتعلق بها في بلاد الأندلس، ومن ثَمَّ أصبح هذا الرفض في نظر أهل التَّيسير تيسيريًّا، ووصفيًّا في نظر الوصفيين؛ لأنَّه يتفق مع ما نادت به هذه المناهج من استبعادٍ للعلل والفلسفة ونظريَّة العامل وغيرها.

واقتضت طبيعة البحث أنْ تدرس العلاقات التي توقفنا على شيء من قراءتنا هذه؛ فجاءت هذه العلاقات بين ابن مضاء والفقه، وابن مضاء وابن رشد، وابن مضاء والصوفية، وابن مضاء والتَّيسير، وابن مضاء والوصفيّين، ثم خاتمة بأهم النتائج التي توصَّل إليها البحث، ومن ثَمَّ ثبت بالمصادر والمراجع التي استقى منها البحث مادته .

ابن مضـاء والفقــه:

تتسلل الأنساق الثقافية المضمرة في ذهن الإنسان من خلال كلامه المنطوق أو المكتوب، فتظهر بعض توجهاته إذا ما تم رصدها ونسج خيوطها وجمعها، لتمثل توجُّهًا عامًّا لذلك الشخص، وإن لم يصرِّح بها في مشروع ما، فالإنسان الذي يعتنق فكرة سياسية أو مذهبًا دينيًّا أو فِكْرًا معيّنًا فهو وإن أخفى ذلكَ الفِكْرَ فلا بدَّ له من أنْ يتسلّل؛ ليخرج عِبْرَ كلامِه أو في كتاباته، ومع بُعد المكان والزمان عن شخصية علمية باستطاعة القارئ أنْ يمسك خيوطًا من خلال مؤلفاته؛ ليكشف عن بعض توجهاته بصورة عامة .

وفي ظل التصور السابق نرى توظيفًا فكريا للنحْو العربيّ وظّفه ابن مضاء القرطبيّ الظّاهريّ (ت٥٩٢ هـ)، إذ حاول أنْ يقف للحفاظ على مذهبه الظّاهريّ الذي شكل خطًا فكريًّا وسياسيًّا لدولة المُوَحّدين في الأندلس، فالمذهب الظّاهريّ يُعدُّ في دولة المُوَحّدين دستور الدولة وبُعدها الفكري والاقتصادي وغير ذلك مما يدخل في شؤون الدولة والشعب، وكان من مرتكزاته الفكرية الاكتفاء بظواهر الكتاب والسُّنَّة، ورفض التأويل والقياس والتعليل والفلسفة والأمور الباطنيَّة وكل ما يخالف النظرة الظّاهريّة[١].

وترجع الأسس الإبستمولوجيَّة للمذهب الظّاهريّ في الأندلس إلى ابن حزم(ت٤٥٦ هـ) الذي بنى عقيدته على الإيمان بظواهر الكتاب والسنة، ورفض آراء المذاهب الأربعة وما بُنيت عليها من أصول كالقياس والاستصحاب والتعليل وغيرها مما يدخل في التفسير الذي يتعدَّى الظاهر، وقد تعدَّى ابن حزم بنظرته هذه الفقه إلى النحو؛ فرفض العلل النَّحويَّة مصرِّحًا بذلك ((كلّها فاسدة لا يرجع منها شيء إلى الحقيقة البتة، وإنَّما الحق من ذلك أنّ هذا سمع من أهل اللغة الذين يرجع إليهم في حقيقتها ونقلها، وما عدا هذا مع أنَّه حكم فاسد متناقض، فهو أيضًا كذب؛ لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل إلى كذا ... شيء يعلم كل ذي حسن أنّه كذب لم يكن قط، ولا كانت العرب عليه مدة، ثم انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك))[٢] وكذلك طالب بالاقتصار على ما هو ضروري من قواعد اللغة إذ قال:((وأما التعمُّق في علم النحو ففضول لا منفعة بها، بل هي مشغلة عن الأوكد...، وإنَّما هي أكاذيب فما هو الشغل بما هذه صفته؟))[٣]، وقد شدَّد على رفض القياس فعقد بابًا سمّاه: (في إبطال القياس في أحكام الدين)[٤]، فصار القياس عنده بدعة خطأ إذ قال: ((أصل خطأ القوم وبعدهم عن الحقائق وهي

---

[١] ينظر :الرَّد على النُّحَاة (مقدمة المحقق) : ٢، والعربيَّة وعلم اللغة البنيويّ ، الدكتور حلمي خليل : ٥٦.

[٢] التقريب لحد المنطق والمدخل إليه ، ابن حزم :١٦٨

[٣] التجديد في النحو بين ابن مضاء وابن رشد ، الدكتور محمد عابد الجابري :١– ٢.

[٤] الأحكام في أصول الأحكام:٧/ ٥٣ .

بدعة محدثة... ونسأل الله لإخوتنا أنْ يتوب عليهم من بدعة القياس والتقليد))[٥].

وشاءت الأقدار للعقيدة الظّاهريّة بعد صراعات طويلة أنْ تنجح في إقامة دولة كان مدارها الفكر الظّاهريّ، وقد شاءت الأقدار أيضًا أنْ يبرز ابن مضاء في تلك الدولة الفتية؛ ليكون قاضيًا لقضاتها ومرجعًا عقائديًا لها والرجل الثاني بها، ومصدر قوة أمير دولة المُوَحّدين وسنده، يُزَاد على ذلك أنّ ابن مضاء كان يؤمن بأنّ أمير الدولة هو الإمام المهدي المعصوم، وقد صرَّح بذلك في دعائه له في مقدمة الكتاب[٦]، وفي ظل هذه العقيدة أصبح من الواجب عليه أنْ يقارع لنصرة دولته بكل ما يمتلك من إمكانات فكرية أو غيرها، وقد بانت بوادر تفعيل أفكار المذهب الظّاهريّ بحرق كتب المذاهب الفقهيَّة الأربعة في بلاد الأندلس، ليستقيم الأمر للمذهب الظّاهريّ فقط ولأفكاره بالأخذ من القرآن والسُّنَّة[٧] .

وتُعد حادثة حرق الكتب الفقهيَّة مواجهة علنية تبنَّتها دولة المُوَحّدين، وتحتاج هذه المواجهة إلى سدِّ الثغرات الفكرية التي يمكن للخصوم مهاجمتهم من خلالها، ومن أقوى هذه الثغرات التي لابدَّ لهم من سدِّها هي مخلّفات الفقه في النَّحو، فالنَّحو بُنِيَت أصوله على سمت أصول علم الفقه والكلام، فبقاء هذه الأصول في النحو تعني فتح المجال للطعن في حادثة حرق الكتب الفقهيَّة، وهذا الأمر إنْ كان خافيًا على أمير الدولة فهو لا يخفى على عالم موسوعي مثل ابن مضاء، فحاول استثمار النَّحو لسدِّ الطريق بوجه الطاعنين بمبادئ تلك الدولة الفتيَّة، فسوَّغ هذا الأمر وبتخطيطٍ محكم أنْ يستهدف تلك الأصول الفقهيَّة الكامنة في النحو ليسدّد الضربة مرة أخرى لمخلفات المذاهب الأربعة في النحو.

وفي ظلِّ التصوّر السابق استهدف ابن مضاء الاستصحاب والقياس والعلَّة ونظريَّة العامل التي تتضمن الفلسفة والتقدير والتأويل، وغيرها من موضوعات الإضمار والحذف التي تصرف الفهم من الظاهر إلى الباطن، وقد استثنى من هذه الأصول السماع؛ لأنَّ السماع من أدلة الحديث في منهج الظّاهريّة، وبهذا العمل أبقى ابن مضاء على النحو الذي هو الواسطة لفهم القرآن والسُّنَّة، لكن من دون شوائب المذاهب الفقهيَّة، وهذه إحدى تحركات ابن مضاء في استثمار النحو لدعم دولة المُوَحّدين.

ولأجل تفعيل هذا الدعم قام ابن مضاء بتأليف ثلاثة كتب استهدفت النحو المشرقي المتبنِّي لأصول الفقه المشرقي، سمَّى الكتاب الأول(المشرق في النحو)، وقد ذهب أبو حيان

---

[٥] المصدر السَّابِق :٥٣/٧.

[٦] ينظر: الرَّد على النُّحَاة :٧.

[٧] ينظر: المصدر السَّابِق:٧.

(ت٧٤٥هـ) إلى أنَّ هذا الكتاب أُلِّف ضد المشرق[٨]، والكتاب الآخر سمَّاه (تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان)، يقول الدكتور شوقي ضيف:((وليس في اسم هذا الكتاب ما يدلّ على أنَّه أُلِّف خصومة للمشرق ونحاته، بَيْدَ أنَّ صاحب البغية يقول: إنَّ ابن خروف ناقضه في هذا التأليف بكتاب سمَّاه (تنزيه أئمة النحو مما نسب إليهم من الخطأ والسهو))[٩]، ومعنى ذلك أنَّ هذا الكتاب أُلِّف ضد نحاة المشرق وآرائهم التي بقيت كامنة في عمق الدولة الفتية، لكنَّ الكتابين لم يصلا إلينا، وقد وصلت الإشارات الدالة عليهما[١٠].

وأمَّا الكتاب الثالث فهو (الرَّد على النُّحَاة)، ونحسب أنَّ هذا الكتاب يمثل البُعْدَ الفِكْرِيّ والدينيّ لابن مضاء، إذ وظَّفه ليواجه به مكامن الخطر الباقية في النحو، وقد أبدى الدكتور محمد عابد الجابريّ رأيًا في كتاب (الرَّد على النُّحَاة) في هذا المضمون إذ قال:((... فكتاب الرَّد على النُّحَاة يصدح بكيفية عامة في نفس الخط الفكري المؤسس للمشروع الثقافي لدولة المُوَحّدين، وأنَّه منخرط بصفة مباشرة في يعقوب المنصور [أمير الدولة] من أجل تكريس العمل بالظاهر))[١١].

وقد حاول ابن مضاء أن يُسبغَ الشرعية على هدم تلك الأصول التي في النحو باستثمار الجانب الديني، إذ ذهب إلى أنَّ هذه الأصول هي من باب القول بالرأي في القرآن الكريم، أو القول بغير علم إنْ جاء التفسير في ضوئها ، فما كان من ابن مضاء إلا أنْ يكون ناصحًا للقوم، فيصرح بأنَّ غايته في تأليف هذا الكتاب هي ما تقدم ذكره، قال ابن مضاء في مقدمة الكتاب ((أمَّا بعد فإنَّه حملني على هذا المكتوب قول الرسول (صلّى الله عليه وسلم): الدِّين النصيحة)). وقوله: ((مَنْ قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ))، وقوله: ((مَنْ قال في كتاب الله بغير علم فليتبوَّأ مقعده من النار))، وقوله: ((مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإنْ لم يستطع فبقلبه))[١٢].

ومن جانب آخر يستثمر ابن مضاء ثقافته اللغوية محاولًا ضرب المشارقة في عقر دارهم، فيوظّف آراء ابن جني في الخصائص، ليهدم بها نظرية العامل عند النُّحَاة التي مفادها أنَّ الألفاظ يعمل بعضها ببعض إذ قال: ((فمن ذلك ادِّعاؤهم أنَّ النصب والخفض والجزم لا يكون إلّا بعاملٍ لفظيٍّ، وأنَّ الرفع منها يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي))[١٣]، ويستثمر ابن مضاء

---

[٨] ينظر: المصدر السَّابِق(مقدمة المحقق) :١٢.

[٩] المصدر السَّابِق:١٢.

[١٠] الرَّد على النُّحَاة:١٢.

[١١] النحو بين ابن مضاء وابن رشد :٣.

[١٢] الرَّد على النُّحَاة : ٧- ٨.

[١٣] المصدر السَّابِق: ١٣-١٤.

رأي ابن جني المخالف لهم في رؤيته لنظريَّة العامل، والذي ذهب فيه إلى أنَّ العوامل هي من فعل المتكلم لا من الألفاظ، قال ابن مضاء: ((وقد صرَّح بخلاف ذلك أبو الفتح ابن جني وغيره ... وأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنَّما هو للمتكلِّم نفسه لا لشيء غيره ... وهذا قول المعتزلة))[١٤]، وبعد التمهيد برأي ابن جني لضرب رأي النُّحَاة، يعود ليعطي رأيه الموافق للمنظومة الفِكريِّة في الدولة الظّاهريّة ((وأمَّا مذهب أهل الحق فإنَّ هذه الأصوات إنَّما هي من فعل الله تعالى، وإنَّما تنسب إلى الإنسان كما ينسب إليه سائر أفعاله الاختياريَّة...))[١٥].

واستثمر ابن جني مرة أخرى لضرب أصل آخر ظاهره في النحو وباطنه في الفقه، وهذا الأصل هو الإجماع، إذ اعترض عليه ابن جني في النحو ما لم يُسَلَّم به من قبل الخصم، قال ابن مضاء في سياق حديثه عن عدم حجيَّةِ الإجماعِ: ((قيل إجماع النحويين ليس بحجة على من خالفهم وقد قال كبير من حذاقهم ومقّدم من مقدميهم وهو أبو الفتح بن جني في خصائصه: اعلم أَنَّ إجماع أهل البلدين إنَّما يكون حجة إذا أعطاك خصمك يده أنْ لا يخالف المنصوص والمقيس على المنصوص فإذا لم يعطك يده بذلك فلا يكون إجماعهم حجة عليه))[١٦].

ونحسب أنَّ ابن مضاء اختار ابن جني في توظيفه السابق لسببين: الأول صرَّح به بقوله: ((كبير من حَذّاقهم)) فأراد الإشارة بذلك إلى مهارته اللغوية وعلمه الواسع الذي يمكن الاتكاء عليه أمام المعارضين الذين يؤمنون بأفكار ابن جني وعلميته، وهذا من باب إلزام الخصم بما يلزم به نفسه، والشيء الثاني أنَّ ابن جني في خصائصه هو أول من أَلَّف في أصول النحو على سمت أصول الفقه، وهذا يعني أنَّ ابن جني بآرائه تلك كان مصدرَ قلقٍ لابن مضاء ودولته الظّاهريّة، فأحسن التوظيف وأداره حيث يريد الوصول إليه، وشيء آخر ساعد ابن مضاء في استهداف تلك الأصول الكامنة في النحو هو الشكوى من صعوبتها في النحو على الناس، إذ عُدَّت من مواطن صعوبته.

وفي ضوء ما تقدم من توضيح حقَّ لابن مضاء أنْ يبني كتابه على هدم تلك الأصول الفقهيَّة المخالفة للثقافة التي بُنِيَ على وفقها فِكْرُ دولة المُوَحّدين، فكان (الرَّد على النُّحَاة) عنوانًا لرد نظريَّة العامل، ورفض الاستصحاب، والفلسفة، والتأويل القائم على الحذف والإضمار والتقدير، ومن ثَمَّ رفض العلل والقياس والتمارين العقليَّة القائمة على ما تقدَّم من أفكار.

---

[١٤] المصدر السَّابِق : ١٣، ويُنظَر: الخصائص : ١٠٩/١ –١١٠.

[١٥] الرَّد على النُّحَاة : ١٤.

[١٦] المصدر السّابق : ١٨–١٩.

ابن مضـاء وابن رشـد (ت٥٩٥هـ)

تُعدُّ قضية الفيلسوف القرطبيّ (ابن رشد) من الأمور المهمة في هذا البحث؛ لكونه قاضيًّا فـي دولـة المُوَحّـدين، وفـي المكـان والزمـان الـذي عمـل فيـه ابـن مضـاء، وعلـى الـرغم مـن أنَّ ابن مضاء كان رافضًا للفلسفة التي تنضم إِلَى الأفكار التي رفضتها دولة المُوَحّدين فإِنَّ الواقع فرض وجود هذا المفكر بجسده وفكره في قلب الدولة، وقد عمل ابن رشد في عهد يوسف أمير دولة المُوَحّدين، ومن ثَمَّ في عهد ابنه يعقوب المنصور[١٧].

ويبدو أنَّ دولة المُوَحّدين قد وظَّفت ابن رشد –فضلًا عن غيرِهِ– لهدم الأصول الفقهيَّة والفلسفيَّة والمنطقية الكامنة في النحو من جانب آخر، إذ كلَّف أحد أمراء دولة المُوَحّدين ابن رشد بتأليف كتاب نحوي يُخلِّص النَّحو ممَّا فيه من ظواهر المنطق والفلسفة الأرسطية، فألَّفَ كتابًا سمَّاه (الضروريّ فـي علم النَّحو)، وقد ذَكَرَ في مقدمته غايتَـهُ من تـأليفِ هذا الكتـابِ قَائِلًا: ((الغرض من هذا القول أنْ نذكر من علم النحو ما هو كالضروري لمن أراد أنْ يتكلم على عادة العرب في كلامهم وتجري في ذلك ما هو أقرب إلى الأمر الصناعي وأسهل تعلماً وأشد تحصيلاً للمعاني))[١٨]، فواضح من هذا الكلام البُعد الفِكْريّ الذي يتَّفق به مع متبنيَّاتِ دولة المُوَحّدين وتوظيفها للنَّحو في مقارعة المذاهب الفقهيَّة الأخرى، ويبدو أنَّ منهج الكتاب الذي ألَّفه ابن رشد جاء على وفق المنهج المنطقيّ الأرسطيّ، وهذا يعني أنَّه أدخل المنطق في المنهج فقط لا في المادة، ليستطيع ردَّ الجانب المنطقيّ والفلسفيّ الكامن في النحو[١٩].

وثمة أسئلة محيَّرة منها: ما علاقة ابن مضاء بابن رشد؟، وكيف كانت طبيعة تلك العلاقة التي لم تظهر في موقفٍ ما بينهما؟ ولكونهما مشتركين في الهدف في التأليف النحوي، فلماذا لم يذكر أحدهما كتاب الآخر، أو يتعرّض له بشيء من الذّكر أو الإِشَارَة ؟ وما موقف ابن مضاء في هذه المدة من فلسفة ابن رشد[٢٠]؟ وهل كان ابن مضاء يخشى على منصبه من ابن رشد المنافس له في العلم؟ كلها أسئلة لا يوجد لها جواب صريح سوى تتبع الخيوط التي توصلنا إلى شيء نقرِّر في ضوئه أن يكون جوابًا لهذه الاستفهامات.

وشـاءت الأقـدار أنْ يتسـلَّم الإمـارة يعقـوب المنصـور المعـارض للفلاسـفة وأنْ يسـتمر ابن مضاء في منصبه، بل يُرقَّى إلى قاضي القضاة، وتبدأ الحملة ضد الفلاسفة، وبعد أنْ تسلَّمَ يعقوب الإمارة بسنة أصدر ابن مضاء كتابه (الرَّد على النُّحَاة)، وتستمر ملاحقة الفلاسفة في ظل إمارة يعقوب، ولا نعلم ما موقف ابن مضاء وهو قاضي القضاة من الفلاسفة ومن بينهم

---

(١٧) ينظر : التجديد في النحو بين ابن مضاء وابن رشد : ٤.

(١٨) ينظر: المصدر السابق :٤.

(١٩) ينظر :الرَّد على النُّحَاة:١٨–١٩ .

(٢٠) المصدر السابق :١٨–١٩.

ابن رشد، فهل يعني ذلك أنَّ ابن مضاء لا يعلم بهذا وهو بمنصب وزير العدل في دولة الأمير؟، أو أنَّ ابن مضاء هو العقل المدبِّر لضرب الفلاسفة بفكره وبكتابه الرَّد على النُّحَاة، فكما استهدف الفقه فيه استهدف الفلاسفة برفضه كل مظاهر الفلسفة في النحو، وتستمر ملاحقة الفلاسفة في حياة ابن مضاء وبعد وفاته أيضًا إلى أنْ ينتهي الأمر بابن رشد أنْ يحاكم بتهمة الفكر الفلسفي[٢١].

وفي ضوء ما تقدم يبدو لنا أنَّ ابن مضاء وظَّف النحو أيضًا للقضاء على الفكر الفلسفيّ في الأندلس، وكذلك استعمل أبعادًا أخرى للقضاء عليهم، وهكذا يكون النحو وسيلة لضرب جهة أخرى في الأندلس .

ابن مضــاء والصّوفيـَّة

اتَّضح ممَّا سبق وجود الأدلــة الماديــة أو الخيوط التي أوقفتنا على بيانِ توظيف ابــن مضــاء للنحــو فــي مواجهــة الفقهــاء والفلاسفــة، أمــا الآن فيكــاد الدليــل المــادي غير موجـود أو غير واضح؛ لذلك تكون البيئة الزمكانيَّة والفكرية هما المسلك الذي نسلكه لمسك الخيوط لتلك العلاقة الجدليَّة بين الصوفية والعقيدة الظّاهريّة، فالمتصوفة سكنوا الأندلس كما هو الحال في البلدان الأخرى، بل أشهر حركاتهم وأقواها كان مركزها (بيئة ابن مضاء) التــي تمثَّلت بمفجّر ثورة المتصوفة (ابن عربي)، فمن المعلوم أنَّ الصوفية ينحون نحوَ التفسير الباطني الكشفي، وهذا مخالف لعقيدة ابن مضاء التي أصبحت دستورًا لدولة المُوَحّدين، فضلًا على ذلكَ فإنَّ ابن عربي كان له أكثر من لقاء مع ابن رشد، ولعلّ اللقاء الأول كان بترتيب من والده، إذ كانت تربطه علاقة بابن رشد، فابن عربي وإن كان صغير العمر في تلك الحقبة لكن صيته كان ذائعًا فــي كـل الأوسـاط الفكريــة، وهذا مـا دعـا ابـن رشـد للقائـه، وكـل هذا الأمـور لا تتفـق مع معطيات دولة المُوَحّدين، وقد عرفنا سابقًا ما حلَّ بالفلاسفة ومنهم ابن رشد في ظل سياسة هذه الدولة.

وسعى الصوفية في منهجهم سواء أكانَ ذلك قبل ابن مضاء أم بعده في توظيف النحو بصورة خاصة واللغــة بصورة عامــة توظيفـًا يجنح به من الظاهـر إلى الباطـن، فكـان هناك نحو القلوب للقشيري (ت ٤٦٥ هـ)؛ إذ وظَّف فيه نظرية العامل، لنقل النحو من معانيه الظاهرة إلى المعاني الصوفية ، قال القشيري في أحد توجيهاته الصوفيَّة لوجوه الإعراب الأربعة: ((الرفع والنصب والخفض والجزم، وللقلوب هذه الأقسام، فرفع القلوب قد يكون بأنْ ترفع قلبك عن الدنيا، وهو نعت الزهاد...، وأما نصب القلوب فيكون بانتصاب البدن على بساط الوفاق...، وأما خفض القلوب فيكون باستشعار الخجل واستدامة الوجل...، وأما جزم القلوب، فالجزم القطع، ويكون

---

[٢١] ينظر : التجديد في النحو بين ابن مضاء وابن رشد : ٤.

بحذف العلائق والسكون تحت جريان أحكام الحقيقة...))[٢٢]، وقد ذهب ابن عربي إلى أبعد من ذلك توظيفًا في كشفه وتأويله لإمكانات اللغة كلها، ومنها ما وظَّفه من نظرية العامل وغيرها إذ وظّف الحذف، لكثرة الاستعمال بالحروف، ومنه حرف الألف في كلمة (بسم)، إذ قال في الفتوحات المكية: ((فلما كَثُرَ استعمالها في أوائل السور حذفت بوجود المثل ... وعلى هذا الترتيب نظام التركيب))[٢٣]. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك في توظيف اللغة من حروفها إلى كلماتها إلى نحوها في كتابه (المبادي والغايات) فجعل هذه المستويات اللغوية مقابل مستويات الكون كله، إذ قال: ((... وخفي مواقعها معاذًا لجميع ذلك في رتبة الثلاث في الأسماء حذو الوجود كله على مواقعها منه في الأعيان بدأ لبدء، وتمامًا لتمام، ووصلة لوصلة، وجامعًا لجامع، وأعلى لأعلى، وأدنى لأدنى))[٢٤].

وهذه الأمور كلها كانت أمام ابن مضاء وفي ظل سلطته وهي تدخل في ضمن ما رفضه سابقًا، فهل من الممكن أنْ يسكت ابن مضاء عن هذه الأفكار الباطنية الهدَّامة للعقيدة الظّاهريّة ؟!، وبناء على ذلك ساغ لنا مسك الخيوط التي تجعل من الصوفية هدفًا نحويًّا آخر لمقارعتهم إلحاقًا بالمقارعات السابقة. وشيء آخر يدعو للتأمل في كتاب ابن مضاء (الرَّد على النُّحَاة) نحسبه مقصودًا لاستهداف الأفكار الصوفية التي وظَّفت النحو بنقله من ظاهره إلى باطنه، وهو أنَّ ابن مضاء عندما بدأ بهدم نظرية العامل في بداية كتابه[٢٥]، إذا تأملناه نجده قد قدَّم موضوع إلغاء الحذف والتقدير، وموضوع رفض التقدير في الضمائر وفي الجار والمجرور، فهذه الأمور النَّحويَّة كلها تشير إلى أمور تأويلية باطنية تذهب من النحو الظاهر إلى تقدير خفي لا نحصل عليه إلا بالتأويل، وهو ضرب يوافق التأويل الصوفي، فالراجح منه أنَّ ابن مضاء بتقديمه هذه الموضوعات كان في قصده هذه الأمور وغيرها، وفي ضوء هذا التصور نلمح هذه التوجيهات الظّاهريّة المتمثلة بابن مضاء إلى استهداف هذه الحركة الباطنية التي تتناقض وَفِكْر تلك الدولة الفتية.

وفي ظل التصورات السابقة نستطيع الإجابة عن سؤال افترضه الدكتور شوقي ضيف مفاده سبب توجُّه ابن مضاء في التأليف في النحو من دون الفقه إذ قال: ((والغريب أنه لم يعن بتأليف كتاب ضد فقه المشرق، وإنما بتأليف ضد النحو المشرقي، فقد صبّ عنايته كلها على النحو إذ ألَّف فيه ثلاثة كتب...))[٢٦]، وفي ظل هذه التصورات يظهر أنَّ ابن مضاء استثمر

---

[٢٢] نحو القلوب، القشيري : ٩-٨.

[٢٣] الفتوحات المكية، ابن عربي :١٣٦/٩.

[٢٤] المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات ، ابن عربي: ٤٥.

[٢٥] ينظر : الرَّد على النُّحَاة: ٥.

[٢٦] الرَّد على النُّحَاة ، ١٢.

إمكانات النحو لضرب الفقه بضرب أصوله وقواعده الكامنة في النحو، من هنا فليس به حاجة إلى أنْ يُؤلِّف كتبًا فقهيَّة للرَّدِّ على الفقه، ومشروع النحو عنده أوسع من مشروع الفقه كما عرفنا سابقًا من توظيفه مرَّةً مع الفلاسفة، وأخرى مع الصوفيَّة، وفي هذا الجواب يظهر أنَّ الدكتور شوقي ضيف صبَّ اهتمامه بالنظر إلى أنَّ النحو كان مقصودًا للتيسير عند ابن مضاء فقط.

ابن مضاء وتيسير النحو

بات واضحًا مما تقدَّم أنَّ ابن مضاء استهدف نظرية العامل والقياس والتعليل والتمارين إجمالًا وتفصيلًا خدمة لتوجهه الديني والسياسي القائم في دولة المُوَحّدين، وهذه الأمور هي أنفسها مواطن الشكوى في النحو العربي، وفي ظل التصور السابق أصبح التيسير في عمل ابن مضاء تحصيلًا لحاصلٍ، من هنا حق لنا أن نصف عمله بالعمل التَّيسيريّ.

وليس التيسير فكرة جديدة ابتدعها ابن مضاء، بل قد يُقال إنَّ التيسير نشأ في القرن الأول للهجرة مع نشأة النحو؛ لأنَّ من أسباب وضع النحو هو تيسير فهم القرآن وتذليل الصعوبات أمام العرب والأعاجم، فهذه المهمة يمكن وصفها بالعمل التَّيسيريّ، وكذلك الحال في تعدد القراءات القرآنية وإمضاء تلك التعددية فيه مسحة من التيسير(٢٧). ويبدأ التيسير واضحًا مع مقدمة خلف الأحمر (ت ١٨٠ هـ) التي صرَّح في مقدمتها غايته من تأليفها؛ إذ كانت تهدف إلى تيسير فهم النحو على الناشئة، ويستمر التيسير مع مختصر الكسائي (ت١٨٩هـ)، وكذلك مع كتاب للأخفش (ت٢١٥هـ)، وكتاب التفاحة للنحّاس (ت٣٣٨هـ)، وكتب التلخيص والشروحات والمنظومات، فهذه كلها محاولات تيسيرية وغيرها قد سبقت ابن مضاء في قضية التيسير(٢٨)، وقد وظَّفها ابن مضاء في مشروعه الذي عرفناه سابقًا.

وتستمر الشكوى من صعوبة النحو وتستمر معها الحركات التَّيسيريّة وصولاً إلى العصر الحديث، وفي مطلع القرن العشرين بدأت حركة التيسير تتصاعد وبدأت جهود الباحثين تنصبُّ على النحو دراسة وبحثًا لهذا الغرض، ويبدو أنَّ أول عمل تيسيريّ عند المحدثين تمثَّل بكتاب(إحياء النحو) للدكتور إبراهيم مصطفى، ويبدو أنَّ هذا الكتاب غير متأثِّر بابن مضاء وإنْ اتفق معه في بعض الجزئيات؛ لأنَّ الكتاب صدر في عام (١٩٣٧م) وكتاب ابن مضاء صدر بعد تحقيقه من قبل الدكتور شوقي ضيف في عام (١٩٤٧م)؛ فتاريخ الكتابين يحتّم علينا أنْ تكون باكورة التيسير في القرن العشرين غير متأثرة بابن مضاء، بل ناتج من محل الشكوى

---

(٢٧) ينظر: مظاهر التَّيسير الصَّرفيّ دراسة في قرارات مَجْمَع اللغة العربيَّة في القاهرة ، الدكتور محمد حسين علي زعين :١٧.

(٢٨) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي ، الدكتور حلمي خليل: ٥، وموضوعات في نظريَّة النحو العربيّ ، الدكتور زهير غازي زاهد :٢٦٧.

والتعقيد في النحو العربي، وفي ضوء هذا البعد التاريخي يكون من الخطأ أنْ ننسب جهد إحياء النحو إلى كتاب (الرَّد على النُّحَاة) الذي لم يكن موجودًا في الساحة العلمية حين صدر كتاب إحياء النحو.

ويشهد على أصالة فكر الدكتور إبراهيم مصطفى ما قاله الدكتور طه حسين في مقدمة الكتاب الذي كانت فكرة اسم الكتاب صادرة عنه، قال الدكتور طه حسين: ((... لأنَّ الكتاب جديد كما قلت في أصله وفي صورته وهو من أجل ذلك يخالف كثيرًا جدًّا ممَّا ألَّف الناس، وقد يغير كثيرًا جدًّا ممَّا ألَّف الناس، فلا غرابة في أنْ يلقوه بالدهش، وفي أنْ يثور به الثائرون))(٢٩). فالدكتور طه حسين ينفي في نصه تأثُّر صاحب الإحياء بصاحب الرَّد على النُّحَاة ضمنًا، وصرَّح الدكتور أحمد الجواري بهذه الأصالة وزاد على أنَّ فكرة تيسير النحو عند ابن مضاء فكرة ساذجة، قال الدكتور الجواري: ((وتبيانًا للحقيقة نقرّر أنّ الجهد الأصيل في هذا الباب يقوم على إحياء النحو للأستاذ إبراهيم مصطفى، فهو الذي فتح مغاليق هذا الباب وهو الذي أنار الأذهان سبيل النحو فيه، ومهما كان رأي طائفة من أهل العلم في أصالته وفي رده أو رِّد أصله لكتاب(الرَّد على النُّحَاة) لابن مضاء القرطبيّ وذلك الأمر يعرف حقيقته من ينعم النظر في الكتابين فيقف على سذاجة الفكرة عند ابن مضاء واختلاف الدوافع التي دفعته إلى التأليف واختلاف الغرض الذي يرمي إليه))(٣٠)، فالدكتور الجواري كما هو واضح من نصه لا يذهب إلى أنَّ ابن مضاء كان ميسِّرًا، فقد وضع اليد فيما يبدو على تلك العلة التي من أجلها ألَّف الكتاب، بَيْدَ أنَّه – للأسف – لم يصرِّح بها كاملة فقد لمَّح لها تلميحًا في النَّص السابق.

الوصفيون وابن مضاء

تزعَّمَ الحركة اللغوية الجديدة في البلدان العربية جماعةٌ من الباحثين العرب الذين تلقَّوا علمهم في البلدان الغربية ثم عادوا إلى بلدانهم ليطبقوا تلك المناهج اللغوية الحديثة على اللغة العربية، ولعلّ أبرز هؤلاء هم: الدكتور عبد الرحمن أيوب، والدكتور تمَّام حسَّان، والدكتور كمال بشر، وتنسب الوصفية إلى العالم السويسري (دي سوسير) الذي يرى أنَّ ((موضوع علم اللغة الصحيح والفريد هو دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها)) فاللغة عند سوسير منظمة لدى أجهزتها الداخلية الخاصة ومستوياتها المعروفة من صوت وصرف ونحو ودلالة بعيدة عن المؤثرات الخارجية(٣١).

والوصفية تقوم على أسس ومبادئ متعدِّدة لعلَّ من أهمِّها أنها تدرس لذاتها على وفق مناهج

---

(٢٩) إحياء النحو: ٧ .

(٣٠) نحو التيسير، الدكتور أحمد الجواري: ٢٣.

(٣١) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيويّ: ١٦٧، وأبحاث في العربية الفصحى، الدكتور غانم قدوري الحمد: ٢٦٨.

خاصة بها لا تستقي مادتها من وقائع خارجية وكذلك تبتعد الوصفية عن التعليل وتكتفي بوصف الظاهرة كما هي، وتعتمد الوصفية على الاستقراء ثم التصنيف ثم التقعيد فهي تبدأ بالجزئيات وصولاً إلى الكليات، وتبتعد عن الأحكام المعياريَّة التي بموجبها يمكن تحديد موضع الخطأ أو الصواب في اللغة أو عند متكلِّميها[٣٢].

وقد حاول الباحثون المقاربة بين المنهج الوصفي ومناهج اللغويين العرب القدماء، وذهبوا إلى أنَّ الدرس العربيّ بدأ وصفيًّا في جمع المادة وتتبعه لها بخطوات تتفق مع المنهج الوصفيّ، فتكاثرت دراسات المقاربة بين المنهجين فتارة يُدرَسُ الدؤليّ وصفيًّا، وأخرى سيبويه، أو الجرجاني، أو ابن مضاء وغيرهم، فالدراسات كثيرة في هذا الشأن، وقد حاول بعضهم التركيز على ربط منهج ابن مضاء بالمنهج الوصفيّ لما وجدوا فيه من ظواهر تتفق مع المنهج الوصفيّ لينسبوا الريادة في المنهج الوصفيّ، إلى الفكر اللغويّ العربيّ القديم.[٣٣]

وفي الحقيقة ثمَّة فرق كبير بين منهج ابن مضاء في دراسة النحو وتوظيفه له في أبعاد أخرى كما عرفنا سابقًا وإنْ وجدت فيه بعض مظاهر الوصف فهذه حقيقة لا تنكر، لكن القصد والغاية عند ابن مضاء تختلف عن القصد والغاية عند الوصفيين؛ لأنَّ ابن مضاء لا يؤمن بدراسة اللغة لأجل اللغة، بل لا يرى جدوى من دراسة اللغة بالشكل الذي يراه الوصفيون، بل أكثر من ذلك كان يحثّ على تلقي القليل منها، ولعلَّه في مذهبه هذا يتابع مذهب ابن حزم الذي عرفناه سابقًا؛ إذ ذهب إلى عدم توسيع الدراسة اللغوية، قال ابن مضاء: ((وأما من اقتصر على الاقتصار على المعارف التي لا تدعو إلى جنة ولا تخرج من نار كاللغات والأشعار ودقائق علل النحو ومسميات الأخبار، فقد أساء الاختيار، واستحب العمى على الإبصار))[٣٤].

وأما العبارات التي تقارب عبارات الوصفيين فهي مقصودة لدعم منهجه الظّاهريّ الذي كما عرفناه سابقًا يدعو إلى ترك الباطن وعلله وأقيسته والدعوى إلى الظاهر الذي يمثّله السماع خير تمثيل، ومن ذلك حديثه عن رفع الفاعل وترك التعليل فيه، إذ يقول: ((... فيقول ولِمَا رُفِعَ الفاعل؟ فالصواب أنْ يُقال له: هكذا نطقت به العرب، ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام))[٣٥]، فعبارة (هكذا نطقت به العرب) عبارة وصفيه، بيد أنَّ ابن مضاء ما يلبث إلَّا أنْ يكمل غايته التي تركز على الفقه الظّاهريّ حيث قال: ((ولا فرق بينه وبين من عرفه أنَّ أنّهُ ما حرام بالنص، ولا يحتاج فيه إلى استنباط علة لينقل حكمه إلى غيره، فسأل لما حُرِّمَ؟ فإنَّ الجواب على

---

[٣٢] منهج البحث بين التراث والمعاصرة ، الدكتور علي زوين : ١١.

[٣٣] ينظر: المصدر السَّابِق:١٦ وما بعدها .

[٣٤] الرَّد على النُّحَاة : ١٠.

[٣٥] المصدر السَّابِق :٦٨.

ذلك غير واجب على الفقيه))[٣٦]. فواضح من هذا النص مدى تمسُّك ابن مضاء بتلك المنظومة الفكريَّة المترابطة ذات الهدف الذي يسعى إلى سدَّ الثغرات في دولة المُوَحّدين، التي قوامها المذهب الظّاهريّ، والنّص السابق يسند قضية السماع والاقتصار على الحديث الشريف إلى جانب القرآن الكريم.

ويُوقِفُنا التمعُّن في نصوص ابن مضاء على أنَّه من المعياريين وليس من الوصفيين، ولعلَّ في هذا الرأي خيبة الظن التي ستصيب الوصفيين؛ ذلك بأنَّه يذعن إلى الأحكام المعياريَّة التي من أجلها أُلِّف النحو، أحكام الخطأ والصواب التي وصفهم بها وعابهم عليها الوصفيون[٣٧]، ((وإني رأيت النحويين –رحمة الله عليهم –قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن، وصيانته عن التغير، فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي أملوا وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا، إلا أنَّهم التزموا ما لا يلزمهم وتجاوزوا فيه القدر الكافي .... على أنها إذا أخذت المأخذ المبرَّأ من الفضول المجرد عن المحاكاة والتخييل كانت من أوضح العلوم برهانًا ....))[٣٨]، فابن مضاء يسلِّم بمعياريَّة النحو لكنه يرفض التخييل وكل ما فضل عن النحو ، وهو بذلك يريد الفلسفة والافتراض والتعليل والتمارين فيما نخاله.

وفي ضوء ما تقدم يبدو أنَّ التوجه الوصفيّ في الدرس اللغوي الحديث لا علاقة له في واقع الأمر بابن مضاء، أو بغيره من النُّحَاة الذين سبقوه، أو الذين خلفوه، وإنْ جاءت بعض مظاهر الوصف في التراث بصورة عامة، وإنما مشروع الوصفية عند الوصفيين العرب كان متأثرًا بالغرب، بفعل الانبهار المعرفي ؛لما تحمله تلك المناهج من رؤية منظمة ومناهج تتوافق مع منهاج العلوم العصرية، ونتائج ترتبت على تلك المناهج في تعلم وتعليم اللغة واكتساب اللغات ومعالجة كثير من الظواهر بسبب هذه المناهج الحديثة، يُزاد على ذلك تلقي هؤلاء الرواد تلك العلوم من مصادرها مباشرة، كل هذا كان المسوغ للتركيز على الجانب الوصفي الذي لابد من دراسته في ضوء اللغة العربية وتطبيقه عليها، فكانت الدراسات الوصفية التي اتخذت التراث قاعدة لها هو من باب المقاربة بين المناهج، أو من باب إسباغِ الشرعيَّة لتطبيق المنهج على اللغة العربية، فوجود الظاهرة القديمة والتركيز عليها من قبل الباحث تعطيه حرية أكبر للتطبيق على اللغة العربية.

والشواهد كثيرة على هذا التوجه فقد حاول الدكتور أحمد مختار عمر أنْ يقارب بين الوصفية وكتاب التفاحة للنحاس في ضوء المنهج الوصفي[٣٩]، وكثيرة هي اليوم المقاربات بين المناهج

---

[٣٦] المصدر السَّابِق:٦٨.

[٣٧] ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي :٥٧.

[٣٨] الرَّد على النُّحَاة :٨-٩.

[٣٩] ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي :٥٣.

الغربية والتراث فلا تقف عند الوصفية وابن مضاء، فهناك المقاربات التوليدية، والمقاربات التداولية، والأسلوبية، وغيرها وكل باحث اختار له كتابًا أو عالمًا ليقارب بينه وبين المنهج الغربي، فهل يصح لكل واحد منهم أنْ يخرج ويضع منهجًا جديدًا يهدم به المنهج العربي القديم !؟

وإذا أخذنا باختصار بعض هؤلاء الرواد والمرجعيات الفكرية التي اعتمدوا عليها فإنَّ المدار يدور على الدكتور عبد الرحمن أيوب، والدكتور تمام حسان، والدكتور كمال بشر، وعلى النحو الآتي:

١ - دراسة الدكتور عبد الرحمن أيوب في كتابه (دراسات نقديَّة في النَّحو العربيّ):

نقد الدكتور أيوب النَّحو العربيّ، ولم يقف عنده، بل تعداه إلى نقد الثقافة العربية إذ وصفها بالثقافة التقليدية، قال الدكتور أيوب: ((... وظن كثير من أنَّ الأمر لا يعدو إعادة تدوين النظريات النَّحويَّة بأسلوب حديث، ولكن الأمر عندي أعمق من كل هذا، فالنحو العربي شأنه في ذلك شأن ثقافتنا التقليدية في عمومها، تقوم على نوع من التفكير الجزئي الذي يُعنى بالمثال قبل أنْ يُعنى بالنظرية))[٤٠]. ويبدو أنَّ الدكتور أيوب متأثر جداً بالفكر الغربي إلى الحّد الذي ينقل فيه وصفهم للدراسات اللغوية التقليدية السابقة، فمصطلح التقليدية هو من مخرجات تلك الأبحاث الغربية، استعمل في مقابل النحو الحديث في دراسة تاريخ الفكر الإنساني[٤١]، وكلام الدكتور أيوب مشابهٌ لكلام الفيلسوف (رينان) الذي وصف فيه العقلية السامية بأنَّها عقلية مفرقة تتناول الجزئيات لا الكليات[٤٢].

وقد تبّنى الدكتور أيوب منهج المدرسة الشكلية الغربية، إذ نقل الوصفيّة منها بعد نقد النظريَّة العربيّة ذات الطابع القياسيّ الذي يفرض القاعدة على المادة، لا أنَّه يشتق القاعدة من مادته الداخلية، وقد دعاه هذا المنهج الاعتماد عليه عوضًا عن المنهج العربي إذ قال: ((لقد اتَّسم التفكير اللغوي الحديث بموضوعية البحث وحثّ اللغويين بأنْ يكونوا وصَّافين بالظواهر اللغوية، لا مفلسفين لها))[٤٣]، وبهذا يتضح أنْ دراسة أحد رواد الوصفية هي بعيدة عن ابن مضاء وكان مرجعها الفكري هو الوافد الغربي .

٢ - دراسة الدكتور تمَّام حسَّان في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها:

اتَّصف هذا الكتاب بدقةٍ أكثر من سابقه وقد استمد مرجعياته الفكرية من الدراسات الغربية أيضًا، وقد صرَّح الدكتور حسَّان بذلك ووصف الدراسة العربية بالمعيارية مقابل الدراسة الوصفية،

---

[٤٠] دراسات نقدية في النحو العربي ، الدكتور عبد الرحمن أيوب : المقدمة .

[٤١] ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٣٨ ، والعربية واللسانيات قراءة ناقدة :١١٣.

[٤٢] ينظر : العربية واللسانيات قراءة ناقدة : ١١٥.

[٤٣] دراسات نقدية في النحو العربي : المقدمة .

وقد حدد دوافعه لتأليف هذا الكتاب، وانتقد مصادر الشكوى في الدرس اللغوي العربي من الفلسفة ونظرية العامل وأحكام الصحة والصواب؛ لذلك حاول أنْ يقدم قراءة جديدة للغة العربية تكون محطة جديدة وقراءة رابعة تلحق بقراءة سيبويه وابن جني والجرجاني[٤٤].

وألَّف الدكتور تمَّام حسَّان كتابه على وفق المستويات اللغوية الشائعة في المنهج الوصفي الحديث، وجاء بنظرية تضافر القرائن تعويضًا عن نظرية العامل، وكونها قراءة تقدم التراث على وجه حديث، وبالعموم لم يخرج الدكتور تمَّام حسَّان عن المنهج الغربي ولا سيما تأثره بمدرسة (فيرث) الإنجليزية[٤٥]. ولم يتأثر الدكتور تمَّام حسَّان بابن مضاء في دراسته التي قدَّمها، ولم يكن ابن مضاء على علاقة بما قدّمه الدكتور تمَّام حسَّان من نظرة حديثة للغة العربية .

٣- قراءة الدكتور كمال بشر:

حاول الدكتور بشر المقاربة بين البحث اللغوي العربي وعلم اللغة الحديث، وقد فتحت قراءة الدكتور بشر الباب للدراسات المقاربة من بعده، وقراءة التراث على وفق نظريات علم اللغة الحديث[٤٦]، وقد توصَّل الدكتور بشر إلى وجود اختلافات كبيرة بين المنهجين، وقد أجمل هذه الاختلافات بأمرين:

أ- العلاقة بين مستويات علم اللغة .

ب- المصطلحات ومفهومها.

وذهب الدكتور بشر إلى أنَّ علماء العربية لم يدركوا تمام الإدراك مدى العلاقة أو الارتباط بين أجزاء الدراسة اللغوية وفروعها، فنظرتهم إلى الفروع تقوم على الانفصال وعدم الارتباط، وسعى الدكتور بشر إلى تحديد مواطن الخلل في الدرس القديم مقابل الدرس الوصفيّ الحديث محددها في خطوات المنهج مِن عدة جوانب هي[٤٧]:

أ- الاتجاهات الفلسفية .

ب-التأويل والافتراض.

جـ - المعيارية.

د-الوصفية.

ولم يكن ابن مضاء هو المؤثِّر أو الأرضية التي بنى عليها الدكتور بشر دراسته، بل هو منهج غربي خالص حاول تطبيقه على اللغة العربية مستعملاً ثقافته في الجانبين.

---

[٤٤] ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي:١٨٠ وماب عدها، والعربية واللسانيات قراءة ناقدة :١١٦.

[٤٥] ينظر: المصدران السَّابِقان .

[٤٦] ينظر: دراسات في علم اللغة (القسم الثاني): ٩ -١٤، والعربية وعلم اللغة البنيوي : ١٩٣.

[٤٧] ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي:١٩٢-١٩٥.

ممَّا سبق – يتَّضحُ لنَا – أنَّ الدراسات الوصفية التي ذكرناها، والتي شكَّلت أكبر المشاريع الوصفيَّة في اللغة العربية ذات طابع غربيّ خالص، ولم تستند هذه الدراسة أو تلك أو غيرها إلى ابن مضاء، لكن قد تكون بعض الدراسات تستأنس بالظواهر الوصفية عند ابن مضاء، أو من هو قبله مثل سيبويه أو غيره، ممن يرفضون جانبًا أحيانًا ويشجعون جانبًا آخر، وقد يكون الجانب وصفيًا، أو معياريًّا، فتلك الدراسات تكتنز في داخلها كثيرًا من ظواهر الوصفيَّة، أو التَّوليديَّة، أو التَّوزيعيَّة، أو التَّداوليَّة، أو اللسانيات المعرفيَّة، فالمناهج تنبع من عقلٍ واحدٍ، وقد يتطوّر أحيانًا بتطوّرِ الزَّمن، لكن تبقى له ثوابت تسري من بداية التاريخ إلى نهايته في اللغة أو في غيرها.

والسؤال الذي يثار هنا هو: هل استطاعت جهود الميسرين قديما وحديثا، وجهود الوصفيين أن تبعد نظرية العامل، أو الفلسفة، أو التأويل، أو غير ذلك من هذه الأفكار التي رفضوها من الدراسات العربية، أو ما تزال قائمة في النحو العربي إلى درجة أنَّ الميسرين والوصفيين أنفسهم يدرِّسونها في حلقاتهم الدراسيّة؟، يبدو أنَّ أصالة تلك النظرية وقوتها هزمت الطارئ عليها بين الحين والآخر، ويبدو أنَّها مستمرة بهزائم المناهج الأخرى وصولاً إلى مناهج حديثة تناصرها، وتحسب لها ما لم يُحسب من قبل، تلك هي المدرسة التَّوليديَّة التَّحويليَّة .

ويظهر تشومسكي بنظريته العقليَّة التي كتب لها أنْ تهزم الوصفية، وتنصر الاتجاه العقليّ القديم في اللغة، تنصر سيبويه وابن جني والجرجانيّ ؛ لترجح كفَّة مناصري النَّحو القديم على الوصفيّين وتعيد إلى نظرية العامل هيبتها وتبدأ رحلة جديدة للعامل بوجه جديد في بنية عميقة وأخرى سطحية، رحلة تغوص في أعماق الفكر الإنسانيّ؛ لتكتشف أنَّ بُعدًا عميقًا في ذهن الإنسان يُولَد قبل نطقه للجمل(٤٨)، وبهذا يولد نور جديد يجعل من اللغة فلسفةً يستثمرها كما فعل ابن مضاء باستثمار النحو.

وقد حاول تشومسكي على وفاق فلسفته أنَّ يوظِّفَ النحوَ من جديدٍ لأبعادٍ نحويَّةٍ وأخرى سياسيَّة فأدخل الفلسفة في النحو وغيره لغاياتٍ سياسيَّة وأخرى اقتصاديَّة، يقول الدكتور عبده الراجحيّ: ((من أجل ذلك قلنا إنَّ آراء تشومسكي السياسيَّة لا تنفصل عن آرائه في علم اللغة؛ لأنَّه يصدر من كل أولئك عن منهج واحد، يرى أنَّ هناك فروقًا جوهرية بين الإنسان أو الآلة أو الحيوان، وأنَّ على الحكومات، وعلى العلماء، أنَّ يضعوا هذه الفروق باعتبارهم وكل ذلك أفضى إليه تقويض الأسس التي قام عليها النحو الوصفي؛ لأنَّ قضية استقلاله تصبح بلا معنى، فلا مناص من الاستعانة بالفلسفة وعلم النفس استعانة أساسية، وقد رأى تشومسكي لذلك أنَّ ما نحتاجه هو نظرية لغوية تشارك في فهم الطبيعة البشرية مع السعي أنْ يكون ذلك في

(٤٨) ينظر: النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، الدكتور عبده الراجحي:١١٣.

نطاق مبادئ العلم))[٤٩].

وبانتصار الطابع العقلي اللغوي مع تشومسكي تتراجع حدَّة الوصفيين وتنكسر شوكتهم ولا سيما الذين ازدروا بالتراث، وتبدأ آراؤهم بالتخلخل، وكأنهم يعتذرون للتراث خجلاً من تشومسكي لا من سيبويه، وبهذا يعلو النحو العربي مرة أخرى وتتوسع معه الأبحاث العقلية؛ لتأخذ طورًا جديدًا مع طور تشومسكي، ولا نعلم أي طور جديد سيدخل سيبويه فيه بعد هزيمة تشومسكي!.

الخاتمة:

خلص البحثُ إلى النّتائجِ الآتية:

* لم يكن ابن مضاء مُيَسِّرًا للنحو بحسب ما ظهر في البحث، بل كان أداة فكرية سياسية، وأما قضية رفض العلل والفلسفة والقياس؛ فقد كانت أداة للوصول إلى غايته ومشروعه الذي يصبُّ في الحفاظ على دولة المُوَحّدين الفتية.

* استطاع ابن مضاء أنْ يبعد الفقه المشرقيّ، والفلسفة، والتَّصوّف من بلاد الأندلس بتوظيفه للنَّحو.

* هاجم ابن مضاء الفقه المشرقيّ باستبعاده لأصوله الكامنة في النحو.

* لم يستهدف ابن مضاء السَّماع؛ لأنَّه من أسَّس المذهب الظّاهريّ.

* استبعاد الأمور السابقة من النحو في بلاد الأندلس، يعني استعمال النحو الموافق لطبيعة المذهب الظّاهريّ مما يجعله سندًا للدولة الظّاهريّة، ويسدّ الباب أمام الخصوم فلا يسمح لهم بالطعن في المذهب الظّاهريّ وهو يستعمل نحوًا بُنِي على أصول فقه المذاهب الأربعة.

* لم يكن ابن مضاء وصفيًّا بالمعنى المشهور عنه، بل كان معياريًّا، وإنَّما وجدت في كتابه ظواهر تتَّفق مع الوصفية بناء على اتفاقها مع أفكار المذهب الظّاهريّ.

* أراد بعض الوصفيين الاتّكاء على ابن مضاء؛ ليأخذ الشرعيَّة من التّراث على مشروعه العلميّ الجديد.

* بنى الباحثون الوصفيّون الكبار من العرب مناهجهم اللغوية في ضوء علم اللغة الحديث بناء على تأثرهم بتلك المناهج ومنظِّريها لا بالعرب القدماء، وإنما حاولوا المقاربة إن وجدت بين التراث والمناهج الغربيَّة.

* تردد كثير من الوصفيين في آرائه بعد ظهور المنهج التوليديّ.

---

[٤٩] المصدر السابق:١١٣.

* يرى الباحثان أنَّ التهجم على التراث بحجة التجديد ليس مسألة علمية صحيحة، بل علينا إذا أردنا أنْ نجدد في لغتنا أن نحترم جهود القدماء ونضيف لها من الحداثة ما يتوافق مع روحها لا مع روح اللغات الأخرى؛ لأنَّ اللغة العربية مرتبطة بالقرآن الكريم، وفهم موضوعاته مرتبط بالحفاظ على اللغة العربية لا بهدمها، فاللغة العربية تتَّسم ببُعدٍ فِكْرِيٍّ عميق لا يمكن القضاء عليه بهذه السهولة.

* من الخطأ ترديد القول الشائع بأنَّ أول عملية تيسير في القرن العشرين والمتمثلة بكتاب (إحياء النحو) كانت مبنيةً على وفقِ آراء ابن مضاء أو متأثِّرة به، بل الواقع التاريخيّ يُثبت خلاف ذلك.

المصادر:

١. أبحاث في العربية الفصحى، الدكتور غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط١ – ٢٠٠٥م.
٢. الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي القرطبيّ الظّاهريّ (ت ٤٥٦هـ)، تح: الشيخ أحمد محمود شاكر، تقديم الأستاذ الدكتور إحسان عباس، دار الاتفاق الجديدة، بيروت –لبنان.
٣. إحياء النحو، الدكتور إبراهيم مصطفى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
٤. التجديد في النحو بين ابن مضاء وابن رشد (بحث على النت) الدكتور محمد عابد الجابري .
٥. التقريب لحد المنطق والمدخل إليه والألفاظ العامية والأمثلة الفقهيَّة، ابن حزم الأندلسي، تح : إحسان عباس، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، ط ١.
٦. الخصائص، أبو الفتح عثمان ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، تح :محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتب،ط٣،١٩٨٦م .
٧. دراسات نقدية في النحو العربي ، الدكتور عبد الرحمن أيوب، مؤسَّسة الصباح – الكويت.
٨. الرّد على النُّحَاة ،تأليف أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن مضاء اللخميّ القرطبيّ (ت ٥٩٢هـ)، تح: الدكتور شوقي ضيف دار الفكر العربي – القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م .
٩. العربية واللسانيات قراءة ناقدة ، الدكتور يوسف خلف محل العيساويّ، مكتبة الحبيب، بغداد- العراق، ط١، ٢٠١٨م
١٠. العربية وعلم اللغة البنيوي دراسة في الفكر اللغوي الحديث، الدكتور حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م .
١١. الفتوحات المكية، محيي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) تح: عثمان يحيى مراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
١٢. المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، محيي الدين ابن عربي، تح: سعيد عبد الفتاح، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .
١٣. مظاهر التيسير الصرفي دراسة في قرارات مجمع اللغة العربية في القاهرة ، الدكتور محمد حسين علي زعين، المجمع العلمي العراقي –بغداد، ط١،٢٠١٤م .
١٤. منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، الدكتور علي زوين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
١٥. موضوعات في نظرية النحو العربي ، الدكتور زهير غازي زاهد، دار الغدير –قم، مط معراج،ط١،١٤٣٤هـ.
١٦. النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج ، الدكتور عبده الراجحي، دار النهضة العربية –بيروت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م .
١٧. نحو القلوب، لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م.

شعر أبي بكر المخزومي القرطبي (ت ٥٤٢هـ)
_ نظرة واستدراك _

الأستاذ المساعد الدكتور
صفاء عبد الله برهان
كلية العلوم الإسلامية بجامعة بغداد

الملخص:

البحث نظرة نقدية في مجموع شعر أبي بكر المخزومي الأعمى القرطبي (ت ٥٤٢هـ)، وهو من أعلام الشعر الأندلسي أيام المرابطين في القرن السادس الهجري، وبيان ما قدّمه صاحبا المجموع الشعري، من عمل في خدمة شعر الشاعر، في ضمن ما جمعاه من شعر الشعراء الأندلسيين العميان، ولاسيما أن هذا الشاعر من أعلام الشعراء الهجّائين بالأندلس، على الرغم من تحاشي الذائقة الأندلسية لهذا الغرض الشعري، ومن ثم عمل الباحث على استدراك ما لم يجمعه الباحثان الكريمان؛ بحسب ما وقف عليه من شعر جديد لم يتسنَ لهما الوقوف عليه، فأردف مجموعهما الشعري بقطع شعرية جديدة، قدم لها بالمصدر المعتمد في توثيق تلك القطع، وأعقبها ببيان الغرض الشعري الأساسي فيها، وبعدها انطلق إلى ذكر القطع الشعرية، تبعا لما سار عليه صناع الدواوين الشعرية والمستدركات عليها؛ إذ توزيعها بحسب حرف الروي، ومن ثم ترقيمها والأبيات المنضوية فيها، فضلا عن بيان للإشارات الواردة فيها على اختلاف مضامينها من دينية وتاريخية وأدبية؛ لتلتئم بذلك صورة جديدة لشعر أبي بكر المخزومي (هجاء الأندلس)، بلحاظ أنها صورة مؤقتة لذلك الشعر المجموع، في انتظار ما تجود به الأيام من أشعار جديدة، تحتجنها المخطوطات الأندلسية التي تكتشف من حين إلى آخر، فتكشف عن صور جديدة من الحياة الشعرية الأندلسية، وما تكتنزه من نصوص شعرية جديدة، لم يطلع عليها المتخصصون في الأدب الأندلسي، عسى تكتمل بذلك حلقات مفقودة من حلقات تراث الأندلس المفقود، وهو ما يدعو إلى التفاؤل بما اكتشف من مخطوطات العامة والخاصة بالمغرب الأقصى وغيرها، فنتعرف على صورة الحياة الأدبية بالأندلس.

المقدمة:

مثّلت المستدركات حلقات مهمة للأشعار، تسند ما موجود من الأشعار؛ لأنها تعني الرصيد الشعري المكتشف، سواء أكان ذلك في الدواوين المحققة أم المصنوعة، وعلى وفق ذلك تكون المستدركات إضافة مهمة، تعمل على بيان ملامح جديدة لشعر الشعراء عامة، فحظيت الأشعار

الأندلسية بالكثير من المستدركات الشعرية؛ بسبب ما يكتشف بين الحين والآخر من مخزون التراث الأندلسي المخطوط، وتزداد الأهمية إذا ما كان المكتشف مما عُدَّ من مفقودات تراث الفردوس المفقود، ولاسيما إذا ما كان ذلك أصول ديوان مخطوطة أو اختيارات شعرية، وكذلك كتب السير الأدبية وغيرها من الكتب التي تحتوي مادة أدبية.

يأتي هذا البحث (شعر أبي بكر المخزومي القرطبي ت ٥٤٢ هـ .. نظرة واستدراك)؛ ليمثل إضافة شعرية جديدة على ما جمعه الزميلان الباحثان الأستاذ الدكتور محمد عويد الساير، والأستاذ الدكتور محمود الساجت، من شعر الشاعر في كتابهما ما تبقى من أدب العميان في الأندلس، ولعلّ اختيار الباحث لهذا الشاعر، لمنزلته الكبير التي جعلت منه عنوان الأندلس في الهجاء الذي طالما نأت عنه.

وهكذا فقد جاء البحث في مدخل، عرّف بأبي بكر المخزومي وملامح من حياته الاجتماعية ومنزلته الأدبية، وقسمين: الأول مجموع شعر أبي بكر المخزومي القرطبي، وقد ضمنّه نظرة في عمل الباحثين في مجموعهما الشعري بعامةٍ، وفي مجموع أبي بكر المخزومي بخاصةٍ، والقسم الآخر المستدرك على شعر أبي بكر المخزومي، بحسب ما أورده من ذكر مصدر الاستدراك، وكذلك الغرض الشعري الذي احتوى القطع الشعرية المستدرك بها، ومن ثم رصف النصوص الشعرية لتلك القطع المستدركة بحسب حرف الروي، وترقيمها والأبيات التي تحتويها، فضلا عن شرح الإشارات المتنوعة الواردة فيها.

وعلى وفقه انسجمت مفردات البحث في هذه المحطات البحثية التي تعمل على بيان صورة مؤقتة للشاعر وشعره؛ تبعا لما هو مكتشف من أشعار، وما موجود من أغراض شعرية، كانت تعلن شخصيته الأدبية في الأوساط الأندلسية، عسى أن تدركنا الأيام بما خفي من شعر الشاعر كما أتحفتنا بشعر سواه.

مدخل: التعريف أبي بكر المخزومي (ت ٥٤٢هـ)

هو أبو بكر محمد المخزومي الأعمى من شعراء الأندلس في مرحلة حكم المرابطين، نشأ في حصن المدور[١]، ثم انتقل إلى حضرة قرطبة لطلب العلم، كما بيّن ذلك ابن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ) نقلا عن المسهب: (أصله من المدور، وقرأ بقرطبة، ثمَّ جال على البلدان، وأكثر الإقامة في غرناطة).[٢]

---

[١] المدور: حصن حصين مشهور بالأندلس بالقرب من قرطبة لهم فيه عدة وقائع مشهورة. ينظر: معجم البلدان، ابن عبد المنعم الحميري: ٥/ ٧٧.

[٢] المغرب في حلى المغرب: ١/ ٢٢٩.

وكما يبدو من إشارة ابن سعيد، فقد قرأ المخزومي دروس العلم بقرطبة، وتعلّم بها، ولكن لم يذكر شيوخه هناك، كذلك كان الرجل ممن أكثر التجوال ببلاد الأندلس، ولم يذكر ابن سعيد كذلك شيئا عن تلك المدن التي زارها، ويبدو أن أبا بكر المخزومي قد أنِس بغرناطة فدخلها، وكانت له فيها منزلة وحضور؛ إذ كان مرهوب الجانب؛ لسلاطة لسانه وحدة سلوكه، كما نقل ذلك الكثير ممن تناول سيرته، ومنهم ابن الخطيب الغرناطي (ت ٧٧٦هـ)، قال: (قدم على غرناطة أيام ولاية أبي بكر بن سعيد عمل غرناطة، ونزل قريبا منه، وكان يسمع به؛ فقال: صاعقة يرسلها الله، عزّ وجلّ، على من يشاء من عباده، ثم رأى أن يبدأه بالتأنيس والإحسان).[٣]

وتأسيسا على ذلك فإن والي غرناطة المذكور، أدرك الحرج الكبير الذي نتج عن حلول المخزومي بمدينته، وأن ليس من السهل تجاهل لسان ذلك الرجل، ردود أفعاله العنيفة في الهجاء، فكان عليه أن يضع مداراته في حساباته، وهو الشأن الذي يحتم على الولاة الاهتمام به؛ لاستقرار الأحوال في ولايتهم، وإلا جنحت الحال إلى ما لا يحمد عقباه، فكان أن عامله بالتأنيس والإحسان؛ ليعالج ما في داخل المخزومي من عنف، كذلك تضبط حركته الشخصية، وهو ما يعنى بديمومة مجاراة الأسباب التي تكمن وراء طبيعة الشاعر الصعبة، كما تسهم من جهة أخرى في توجيه الاهتمام من قبل الولاة الأندلسيين بالبعد النفسي لتلك الشريحة من الشعراء؛ لذا فقد خصّ المخزومي بالعطاء اتقاءً للسانه؛ لأنه كان ضد العنف في الألفاظ والسلوك.

وهو ما يعطي صورة واضحة للحال التي كان قد بلغها؛ بسبب باعه الطويل في الهجاء، فقد قال عنه عماد الدين الكاتب (ت٥٩٧هـ): (كان مهيب الصولة، مرهوب الجولة، مخصوصا بالتحايا والتحف، والهدايا والطرف).[٤]

ومن جهة أخرى فإن هذه الرهبة التي غرسها في وجدان الناس، سواء على المستوى الرسمي أو الاجتماعي، كانت تعمل على تنشيط الوعي الجمعي للمجتمع الأندلسي، إزاء تلك الشخصية المتفردة في منهجها، فعمل الأعيان خاصة على الحد من تفاقمها؛ لأن المجتمع الأندلسي لم يتعود التكيف مع مخرجاتها السلبية، ولاسيما أنه كان يمرّ بظروف عصيبة وقتذاك، فتودد أعيان غرناطة إلى المخزومي، مقدمين القيم الروحية على الحال المادية، هذه الأخيرة التي تنوعت مواردها؛ لتلقى بين أيدي المخزومي اتقاءَ شره، ومن ذلك ما وقع للجد الثاني لابن سعيد الأندلسي؛ بحسب ما تحّدث عنه، قائلا: (أخبرني والدي: أن جده عبد الملك بن سعيد كان كثير الإحسان له مستحفظا من لسانه، وبعد ذلك فما سلم من أذاته. ومن خبره معه: أنه قصده مرة

---

[٣] الإحاطة في أخبار غرناطة: ٢٣٢/١.

[٤] خريدة القصر وجريدة العصر: ٢/ ٢٥٥.

وهو بقلعته، فأنزله وتلقها ببر قولا وفعلا، ثم إنه قال لغلام له: اسأل في الموضع الذي نزل فيه المخزومي متى يرحل؟ وكان غرضه أن يرسل له زادا، وينظر ما يركب عليه، فأساء الغلام التناول، وضرب عليه بابه، فخرج له الأعمى، فقال: يقول لك القائد: متى ترحل؟ فقال: ارفق أكتب لك الجواب، فكتب له أبياتاً منها:

لا ترجـــون بنـي سعيـــد للنــــــدى فالظل أفيـد منهـــــم للســـائـــل

فلقـــــد مررت على منازلهـــم فمـا أبصـــرت منهـــا غير بعـد منــازل

قـــوم مصيبتهم بطلعـــــة وافـــد وســــرورهم أبـــدًا بخيبة راحـل).[٥]

والحق أن الأمير عبد الملك بن سعيد، كان يرقب الفعل الاجتماعي والنفسي للمخزومي، ويدرك معه أنه ثمرة المخاض الاجتماعي الذي عاشه بين تلك الحواضر الأندلسية، ومدى تأثيره في ذاته إنسانا وشاعرا، وهو تأثير له أبعاده ومخرجاته في شعر المخزومي بما اتضحت معه معالم هجائه الثقافية و السياسية، كما يتضح من الموقف الإيجابي للأمير بن سعيد صاحب القلعة المعروفة بقلعة بني سعيد.

وما كان سؤاله عن رحيل المخزومي إلا رفعا للحرج عن رعيته؛ لئلا يقع معها ما وقع لغيرها، فقابلها المخزومي بردة فعل سلبية، وهو ما يشكل معه ارتفاعا ملحوظا في خزين التوتر الاجتماعي الذي كان يتملك الأندلسيين إتجاه المخزومي، ذلك الذي لم يترك لإنسان من فضيلة كحال ابن سعيد ومن قبله ومن بعده.

ويمكن أن نقف على حس السؤال الذي تفرّد به الأمير ابن سعيد، بما تسبب وجود المخزومي في إحداث حرج اجتماعي حيثما نزل، وهو ما يمثل النظرة إليه كشخصية تحتجن السلبية. ومن ثم يكون من اليسير عليه التعرض للآخر بالسوء في شعره، وهو ما يشوه صورة الأفراد بنحو غير منطقي، إلى الحد الذي أمست معه تلك الحال حالا مرضية؛ لأن ذلك يمسّ هويتهم وانتمائهم في أبعاد سلبية تؤثر في المجتمع، ومن ثم يصبح لزاما على المتلقي التأثر بصورة متشجنة عن مجتمعهم، ومن ذلك تعرضه لشاعرة قرطبة نزهون بقوله: [٦]

ألا قـــــل لنــزهـــونـــة ما لهـــا تجـــر مـــن التيـــه أذيالـهـــا

ولـــو أبصـــرت فيشـة شمـــرت كَمَـــا عودتنـــي سربالـهـــا

وهنا نجد ذلك التعرض القبيح لتلك الشاعرة، يترجم العوامل المؤثرة والمهمة في تأسيس

---

[٥] المغرب في حلى المغرب: ١/ ٢٣١.

[٦] المغرب في حلى المغرب: ١/ ٢٣١.

شخصية المخزومي الاجتماعية والشعرية، ولاسيما عندما يتوجه بالشعر إلى شاعرة معروفة بالتحرر كنزهون، في ظل ما يهتك حرمتها بمفردات لم تراعِ المناخات المجتمعية والدينية، فضلا عمّا يجب أن يراعى من أعراف سائدة، ينشأ فيها الفرد المسلم، فكان الأحرى أن يتحلّى بسلوك ينسجم مع الطبيعة الخلقية السائدة، ومن جهة أخرى وجدت نزهون في ذلك ما يخدشها، فردّت عليه هي الأخرى بالطريقة نفسها التي تعطي توازيا نفسيا وشخصيا، عن طريق رِّد اعتبارها ببيان المثالب الحسيّة والمعنوية للمخزومي، فقالت فيه: [٧]

خلقت أعمى و لَكِن تهيم فِي كل أَعور

جاويت هجوا بهجو فقل لعنت: من أشعر؟

إن كنت فِي الخلق أنثى فَإن شعري مذكر

إن هذه الحركة المتبادلة من قبل المخزومي ونزهون، كانت تظهر معها صورة مهمة من مراحل الشعر الأندلسية، ونعني بها الهجاء الذي لم تعهده البيئة الأندلسية إلى حّد كبير، ويبدو أن ما دفع المخزومي إلى هذه السبيل المنبوذة بالأندلس، هو السعي للحصول على دوره ومكانته في المجتمع، كذلك إحراز احترام الذات، وعدم تهميشها لعلة العمى التي لازمته، وهذا يتطلب جهدا منشطا لما يخشاه الناس، ويتجنبوه، ومن ثم يدفعون إلى وقف ذلك وإعادة المجتمع إلى السواء، وهو ما قام به والي غرناطة، فقد ذكر المقّري التلمساني: (حلف أبو بكر بن سعيد أن لا يزيد أحدهما على الآخر في هجو كلمة، فقال المخزومي: أكون هجّاء الأندلس وأكفّ عنها دون شيء؟ فقال: أنا أشتري منك عرضها فاطلب).[٨]

وهنا يبدو ما كان يطمح إليه المخزومي، وهو أن يكون هجاء لأندلس؛ لأنه أدرك أهمية الهيبة في وجدان الخصوم والأصدقاء، فيعطي اعتبارا للمجتمع الذي تعيش مفرداته المحلية، فتتجاهل حقوق الآخرين ومشاعرهم، فكان والي غرناطة الراعي لتلك الحقوق، والمشتري للأعراض من هجاء لا يظهر أي إحساس بالذنب، أو الندم على أقوال ينشدها في الحطّ من غيره، بل يرى في ذلك موقفا مطلوبا لتقويم شخصيته؛ ليكون صاحب اللسان الأعلى في الهجاء، ومهما يكن من شأن فقد تحولت خصومتهما إلى تلمذة نزهون للمخزومي، ويذكر في ذلك أنه (كانت تقرأ على أبي بكر المخزومي الأعمى، فدخل عليها أبو بكر الكندي فقال يخاطب المخزومي: لو كنت تبصر من تجالسه فأفحم وأطال الفكر فما وجد شيئا فقالت نزهون: لغدوت أخرس من جلالته البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح في غلالته).[٩]

---

[٧] المصدر نفسه: ٢٢٩/١.

[٨] نفح الطيب من غصن الأندلس: ١/ ١٦١.

[٩] الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، زينب فواز العاملي: ٥١٩.

والواقع أن لكـل مجتمع ثقافتـه التـي تطبـع أفـراده، ومن ثـم فإن طبيعـة المجتمع الأندلسـي الشّفاف كانت تنوء بتلك الشخصية المتفردة في عصرها، وكان لولاة الأمر أن يوقفوا إلى حدٍّ معلوم تأثيراتها؛ لأنها تتناقض مع صفات أفرادها وسلوكياتهم وعاداتهم في ثقافة ذلك المجتمع المتحضر؛ إذ كان يتجافي مع كل ما هو بدوي جلف، أو أميّ متخلف عن ركب الأندلس الحضاري عصر ذاك.

القسم الأول

مجموع شعر أبي بكر المخزومي القرطبي

جمع الزميلان الفاضلان الأستاذ الدكتور محمد عويد الساير والأستاذ الدكتور محمود شاكر ساجت، شعر أبـي بكـر المخزومـي فـي ضـمن مـا جمعـا ممـا وصـل إلينـا مـن شـعر العميـان بالأندلس، وهو ما احتواه كتابهما (ما تبقى من أدب العميان في الأندلس)، ونشرته دار الكتب العلمية بطبعة أولى ببيروت سنة ٢٠١٣م. لقد احتوى ذلك التصنيف المهم للأستاذين الفاضلين، بقية شعر ونثر العميان ببلاد الأندلس، وقد عرّفا بـ(عشرين) أديبا وشاعرا من أهل الأندلس، جمعتهم علّة العمى سواء أكان كفيفا منذ الولادة، أم عرض به العمى في مرحلة من مراحل عمره، وقد تنوعت تلك السير بحسب ما وقف عليه الباحثان؛ إذ تجاوزت بعضها عشر صفحات، على حين لم يتجاوز بعضها الآخر سطرين، كما يتوضح من مصدر توثيقها في هامش كل شاعر، وهذه الأسماء الأدبية هي:

١_ أبو المخشّي القرطبي، عاصم بن زيد بن يحيى التميمي (ت ١٨٠ هـ).

٢_ أبو بكر الطليطلي، محمد بن وسيم بن سعدون القيسي (ت ٥٥٢ هـ).

٣_ عبوّد الأعمى، عبد الله بن يعقوب، وقد كان في أيام ولاية الحكم المستنصر الأموي (القرن الرابع الهجري).

٤_ ابن الحنَّاط القرطبي، أبو عبد الله محمد بن سليمان الرعيني (ت ٣٣٧هـ).

٥_ ابن خلصة الشَّذوني، أبو عبد الله البصير الكفيف (ت ٤٧٠ هـ).

٦_ أبو بكر الغرناطي، غالب بن عبد الرحمن بن غالب المحاربي (ت ٥١٨ هـ).

٧_ أبو زيد السُّهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي (ت ٥٨١ هـ).

٨_ أبو بكر المخزومي القرطبي (ت ٥٤١هـ) موضوع البحث.

٩_ ابن سيده المرسي، أبو الحسن إسماعيل بن محمد الأعمى (ت ٥٤٨هـ).

١٠_ أبو القاسم الشاطبي، محمد بن فِيرُّه بن أبي القاسم الرعيني (ت ٥٩٠هـ).

١١_ التطيلي الأصغر، إبراهيم بن محمد القرطبي (القرن السادس الهجري).

١٢_ أبو عبد الله الخطيب، محمد بن عبد الله الفرّاء، وهو من أهل القرن السابع.

١٣_ ابن قسّوم الإشبيلي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم (ت ٦٣٩هـ).

١٤_ ابن الصفّار القرطبي، أبو عبد الله محمد بن الصفّار (ت ٦٤٠هـ).

١٥_ أبو عبد الله الغرناطي، محمد بن محمد النمري (ت ٧٣٦هـ).

١٦_ ابن الأصفر الإشبيلي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله المكفوف.

١٧_ أبو عبد الله بن الحداد القرطبي.

١٨_ بكر الأعمى.

١٩_ ابن عمران القفصي، محمد بن إبراهيم المكفوف.

٢٠_ ابن أيوب القبري، محمد بن محمود المكفوف.[١٠]

لقد حرص الباحثان الكريمان على إيراد كل ما يقع بين أيديهما من أخبار، تخصّ الشعراء العميان، وتبين أحوالهم ومنزلتهم العلمية والأدبية، وما كان من آراء نقدية بشأنهم كما يشعرهم، ولم ينسيا أن يعّرفا بآثار ما وصل إلينا من مؤلفات ورسائل تلك الشريحة المهمة من شعراء الأندلس، فضلا عن غيرها من الفوائد التي لا غنى للباحث في الأدب الأندلسي عنها، و ذيّلا تسمية كل شاعر بالمصادر والمراجع التي اعتمداها في بيان تلك الأحوال التي تُعنى به منذ الولادة إلى الوفاة، وهو الشأن الذي يفتح آفاق البحث والدراسة أمام المتلقي، ويسهل مهمة البحث عن أولئك الشعراء.

وهكذا انطلق الباحثان الكريمان نحو بيان الأغراض والاتجاه، التي حفل بها شعر الشعراء العميان بالأندلس، ولم يستغرق ذلك منهما أكثر من صفحتين؛ لأنهم بذلك قد تركوا الباب لدراسة ذلك الشعر لباحثين لاحقين، بحسب رغبتهم في جمع المتبقي من شعر الشعراء العميان ببلاد الأندلس، وهو ما يسمح بالبحث مرة أخرى في هذه الأشعار المجموعة؛ لبيان مزاياها الأدبية التي قدّمها أولئك الشعراء.

بعد ذلك أعقبا الأغراض والاتجاهات بخطرة فنية سريعة عن ذلك الشعر المجموع، ولم تتجاوز ما سبق من بيان الأغراض والاتجاهات؛ للسبب نفسه الذي اختزلا به الأخيرة. وختما هذا

---

[١٠] ينظر: ما تبقى من أدب العميان في الأندلس: ١١_ ٥٧.

الفصل من الكتاب بالنثر، ولم يكملا به الصفحة الواحدة؛ كانت توضيحا مكثفا لأحوال النثر عند تلك الشريحة من الشعراء، وكان أن أحرزا بذلك تمام عنوان الكتاب بجمع شطري الأدب الشعر والنثر بين دفتي الكتاب.

أما عن مجموع الأشعار التي تعطي للباحثين الكريمين، مساحة للوقوف عليها لشريحة الشعراء العميان، فقد استغرقت جُلَّ الكتاب؛ إذ افترشت خمسا وعشرين ومئة صحيفة، ابتداءً من الصحيفة ثلاث وستين إلى الصحيفة ثمان وثمانين ومئة، وهو عدد مهم كان له أن يحتضن ثمان وسبعين ومئة قطعة شعرية، تنوعت بين البيت اليتيم فالنتفة فالمقطوعة فالقصيدة الشعرية. وقد ضّمت بمجموعها أكثر من ثمنمئة بيت شعري، وهو رصيد مهم يمثل صورة مهمة لشعر العميان بالأندلس، على الرغم من أنها صورة نقدية وقتية، على أمل انتظار ما يمكن أن يجود به زمن الأندلس المفقود، من أصول الدواوين المفقودة لعدد من أولئك الشعراء، أو ظهور عدد من المجموعات الشعرية، ككتب الاختيارات أو كتب السير المتعلقة بالأدباء أو غيرها مما يمكن أن يحتضن أشعار جديدة يستدرك بها على هذه الشريحة المهمة من شعراء الأندلس. بعد ذلك تناول الباحثان الكريمان القطع الشعرية، وقد رصفاها بحسب حروف الروي، وعملا على ترقيمها، كذلك وثقا مصادر الأشعار، وعملا على شرح الإشارات اللغوية، كذلك قاما بترجيح الروايات في القطعة الواحدة إن وجدت، فضلا عن عدد من الفوائد التي لا غنى للباحث في الآداب الأندلسية عنها.

وفيما يتعلق بشعر أبي بكر المخزومي من ذلك المجموع الشعري؛ فقد توصل الباحثان الكريمان إلى جمع (٢٧) قطعة شعرية، احتوت (٩١) بيتا، وقد توزعت على النحو الآتي:

١_ القطعة رقم (٢)، تضمنت بيتين من الشعر في حال رجل يطير لعابه إذا تكلم، ص٦٥.

٢_ القطعة رقم (٦)، وهي أربعة أبيات من الشعر مدح فيها القاضي بغرناطة أبا الحسن بن أضحى، ص٦٨_٦٩.

٣_ القطعة رقم (٧)، وهي عبارة عن بيتين في مدح فارسٍ، ص٦٩.

٤_ القطعة رقم (٣٤)، وهي ثلاثة أبيات من الشعر في هجاء أهل مرسية، ص٨٥.

٥_ القطعة رقم (٣٦)، وهي ثلاثة أبيات في هجاء أحدب، ص٨٦ .

٦_ القطعة رقم (٤٢)، وهي خمسة أبيات في هجاء ابن له، ص٨٩.

٧_ القطعة رقم (٤٣)، وقد ضمّت بيتين في هجاء أحدهم، ص٩٠.

٨_ القطعة رقم (٤٧)، وهي ثلاثة أبيات في وصف قرطبة، ص٩٣_٩٤.

٩_ القطعة رقم (٥٥)، وهي أربعة أبيات في النسيب، ص٩٩_١٠٠.

١٠_ القطعة رقم (٦٢)، وهي أربعة أبيات إلى الأمير علي بن يوسف، ص١٠٦.

١١_ القطعة رقم (٦٦)، وهي أربعة أبيات في هجاء بني سعيد، ص١٠٨.

١٢_ القطعة رقم (٧٤)، وقد ضمّت بيتين في الهجاء، ص١١٢.

١٣_ القطعة رقم (٧٧)، وهي تسعة أبيات في الهجاء، ص١١٣_١١٤.

١٤_ القطعة رقم (٧٩)، وكان من بيت واحد في هجاء القاضي عاشر، ص١١٥.

١٥_ القطعة رقم (٨٤)، وقد ضمّت بيتين يغري بهما أحد الملوك بوزير ص١١٨.

١٦_ القطعة رقم (٩١)، وهي ثلاثة أبيات في هجاء قاض، ص١٢٢.

١٧_ القطعة رقم (٩٤)، وقد ضمّت بيتين في هجاء ابن، ص١٢٤.

١٨_ القطعة رقم (١٢٤)، وهي في ثلاثة أبيات هجا بها بني سعيد، ص١٤٧_١٤٨.

١٩_ القطعة رقم (١٢٥)، وهي أربعة لأبيات في هجاء الكاتب ابن أبي الخصال، ص١٤٨.

٢٠_ القطعة رقم (١٣٤)، وهي خمسة أبيات في الهجاء، ص١٥٤_١٥٥.

٢١_ القطعة رقم (١٣٩)، وقد ضمّت بيتين في هجاء نزهون بنت القلاعي، ص١٥٧.

٢٢_ القطعة رقم (١٤٦)، وهي أربعة أبيات هجت ابن القصير، ص ١٦٤_١٦٥.

٢٣_ القطعة (١٧٤)، وهي أربعة أبيات رد بها على ابن الطبني الذي نعى عليه شرب الخمر، ص١٦٥.

٢٤_ القطعة رقم (١٥١)، وهي أربعة أبيات في الهجاء، ص ١٦٧.

٢٥_ القطعة رقم (١٦٦)، وهي أربعة أبيات في وصف دار السعيدي، ص ١٨٠_١٨١.

٢٦_ القطعة رقم (١٦٧)، وهي أربعة أبيات في هجاء ابن رعمان من أكابر رجال غرناطة، ص١٨١.

٢٧_ القطعة رقم (١٧٨)، وهي القطعة الأخيرة من شعره المجموع، كما أنها الأخيرة من شعراء العميان المجموع، وضمّت بيتي مدح فيهما نزهون، ص١٨٨.

وهكذا تلخص مجموع شعر ابي بكر المخزومي في واحد وتسعين بيتا، توزعت على قصيدة في تسعة أبيات، وست عشرة مقطوعة في خمسة وستين بيتا، وثماني نتف في ستة عشر بيتا، وبيتا يتيما واحدا، وهو ما يعني أن الصورة الوقتية لبنية الشعر عنده كانت تميل إلى المقطوعات

والنتف، وهو ما يعطي صورة أولية عن طبيعة الشعر الذي يحمل فكرة واحدة ينسجها في بنية المقطوعة والنتف.

على حين توزعت أغراض الشعر على أغراض خمسة، وهي الهجاء الذي ورد في ثمانية وسبعين بيتا، والوصف في ستة أبيات، والمدح في ستة أبيات أيضا، وبيتان في الإغراء بخصم له. وهذه الصورة المؤقتة قد تجد لها من الموضوعية، في تشكيل صورة عن طبيعة الأغراض التي تعطاها، ولاسيما ما يخص الهجاء، ولم يكن ببعيد عما وصف به من أقوال المعاصرين له واللاحقين به، وهي حقيقة كانت تلازم شعر الرجل والذات الشاعرة التي سكنته؛ لأنه قد أفرغ نفسه إلى هجو خصومه، ولم يسلم من لسانه إلا ما ندر، وهذا الشأن قد يكون قد ضيّع الكثير من شعره؛ لأنه قد تناول شرائح من الناس، ولم تكن تلك الشرائح ترتضي أن يُذاع ما قيل فيها من هجاء يحطّ من أقدارها في المجتمعات، فضلا عن الذائقة الأندلسية التي لا تساير الهجاء.

وكنت أتمنى على الزميلين الفاضلين، أن يذيّلا عملهما القيّم بالفهارس الفنية التي تضمّ الآيات القرآنية، وكذلك فهارس الأحاديث النبوية الشريفة، وفهرس الأشعار، والأعلام البشرية، والمواضع الجغرافية، وغيرها من الفهارس العامة التي هي من مكملات عمل صنّاع الدواوين والمجموعات الشعرية؛ لما لها من الفوائد الكثيرة لطلبة العلم والباحثين، ولاسيما في الآداب الأندلسية، مما يسهل عليهم البحث في هذه الصنعة القيمة من أدب العميان بالأندلس، ونأمل في الزميلين الفاضلين أن يلتفتا إلى هذا المطلب في طبعة أخرى للكتاب، ولاسيما أن ثمة زيادات طرأت على ما جمعا من قطع شعرية ونثرية، ومنها هذا المستدرك على شعر المخزومي الذي أهديه إلى جنابهما الكريم، عرفانا بما قدماه للأدب الأندلسي، والاستفادة منه في نشرة جديدة لشعر الشاعر، في ضمن المجموع الشعري من كتاب ما تبقى من أدب العميان في الأندلس، رافعا إليهما المودة والتقدير لمجهودهما الواضح في الكتاب.

مصادر شعره المجموع:

اعتمد الباحثان الكريمان في جمعهما لشعر أبي بكر المخزومي سبعة مصنفات، انقسمت على خمسة مصادر وكلها أندلسية، وهي:

١ _ خريدة القصر وجريدة العصر، للعماد الكاتب الأصبهاني، في نشرتين:

الأولى لآذرتاش آذرنوش، نقحّه وزاد عليه: محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني ابن الحاج يحيى، الدار التونسية، سنة ١٩٧١م.

والأخرى عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم، مطبعة الرسالة، القاهرة.

٢ _ زاد المسافر وغُرّة محيا الأدب السافر، لصفوان بن إدريس التجيبي المرسي، بتحقيق عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، سنة ١٩٧٠م.

٣ _ المغرب في حُلَى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، نشرة شوقي ضيف، تحقيق، الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة، سنة ١٩٨٦م.

٤ _ الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب الغرناطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، سنة ٢٠٠٣م.

٥ _ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني(ت ١٠٤٢هـ)، بتحقيق الأستاذ الدكتور إحسان عباس، نشرة دار صادر ببيروت، سنة ١٩٨٨م.

وأما المصنفان الآخران فهما مرجعان مشرقيان، اعتمدا في ما ضمَّا من شعر المخزومي على ما تقدمهما من مصادر؛ لأنه هي من احتوت أصول ذلك الشعر، بعدما فقد أغلب شعر أبي بكر المخزومي القرطبي كحال المفقودات الأندلسية:

_ الأول: تاريخ الادب العربي، للأستاذ عمر فروخ، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، بيروت، سنة ١٩٨٠م.

_ الآخر: موسوعة شعراء العصر الأندلسي للأستاذ محمد العريس، دار اليوسف، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٥م.

وهكذا فلم تنقل سوى تلك المصادر ما تبقى من شعر المخزومي، وصمتت المصادر الأخرى عن شعره؛ لم يتم إيراد بيت واحد لشعره، بلحاظ أن من تحدّث عن الشاعر، لم يذكر وجود ديوان مخطوط، كذلك لم يقف على كمية شعره، ولعله فقد كحال غيره من الشعراء الذين لم يقف الباحثون على أشعارهم جميعا.

القسم الثاني

المستدرك على شعر أبي بكر المخزومي القرطبي

يأتي هذا الاستدراك لإضافة عدد من الأبيات الشعرية، على ما تم جمعه من شعر أبي بكر المخزومي القرطبي، وذلك بفضل كتاب لم يتسنَّ للباحثين الكريمين الوقوف عليه وقت صناعة ديوان شعر الشعراء العميان في الأندلس.

إن المصدر الذي استقيتُ منه هذا الاستدراك، هو كتاب اختيارات أبي الحسن الرعيني (ت ٦٦٦هـ)، المسمّى (جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة في صلة المطمح بالذخيرة مما ولدته الخواطر من المحاسن في هذه المدة الأخيرة)، وهو من كتب الاختيارات الأندلسية

المهمة، وقد اكتشفت مؤخرا في الزاوية الأزاريفية بمدينة سوس المغربية، لصاحبها الشريف الشيخ محمد الأزاريفي، وكان للباحثين المغربيين الفاضلين الأستاذ الدكتور البشير التهالي وصديقه الأستاذ الدكتور رشيد كناني، الفضل الكبير في اكتشاف النسخة المهمة من هذا الكتاب، وضما إليها ما موجود من نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط، وهذه الأخيرة اسقطت منها أوراق ومنها ورقة العنوان ومن ثم عكفا على تحقيقها، تحقيقا علميا رصينا بجهود محمودة مشكورة؛ ليخرجا إلى النور سفرا أندلسيا نفيسا، كان يعدّ من مفقودات التراث الأندلسي، فلهما جزيل الشكر وخالص الامتنان على عملهما الجليل، وصنيعهما الأصيل الذي أحيا ذلك الكتاب الذي هو من خيرة كتب الاختيارات الشعرية؛ لما ضمه من أشعار أندلسية مهمة، أغلبها مما تفرد به ذلك الكتاب، ولم تذكر في مصادر التراث الأدبي الأخرى، فضلا عن الفوائد الأخرى لهذا الكتاب الذي ألّفه ذلك الأديب الأندلسي الكبير، ولاسيما تصوير الحياة الأدبية في العصر الموحدي، الذي يعدّ من أزهى العصور الأدبية التي شهدتها ببلاد الأندلس عامة.

وعلى وفق ذلك اعتمد الباحث على ما جاء من أشعار جديدة لأبي بكر المخزومي؛ ليلحقها بما جمعه الباحثان الكريمان الدكتور الساير والدكتور الساجت، فيزداد بها الرصيد الشعري لشعر المخزومي، على أمل أن يفرِّج اللهُ تعالى الكرب عن مفقودات التراث الأندلسي؛ لكي تدرّ علينا بمزيد من الأشعار الأندلسية لأبي بكر المخزومي وغيره من الشعراء، ممن ضاعت أصول دواوينهم المخطوطة.

الغرض الشعري في المستدرك:

كان الهجاء هو الغرض الوحيدة الذي حملته النصوص الشعرية الجديدة، وعلى وفق ذلك تنوعت معها الملامح العامة لهجاء المخزومي، بما حملته من التعريض بالشخصيات من أفراد ومجتمعات، وقد أكد في ذلك أنه يتعرض إلى خصوصيات الشرائح الاجتماعية المتباينة، على اختلاف منزلتهم وطبيعتهم واتجاهاتهم، فطفق شعره يتناولهم حقا كان أم باطلا، ولا ريب في ذلك فهو أحد ثلاثة شعراء الهجاء الشعري بالأندلس، كما أكد ذلك ابن سعيد الأندلسي ناقلا عن والده: قال والدي: (هجاءو الأندلس المخزومي واليكي والأبيض).[١١]

على أن ذلك الوصف الخطير الذي أصدره ابن سعيد الأب، كان يرمق به المعايير الأندلسية، وهي تصوب هجوها في كل ما هو محظور، وقد تتباين في تصوير المعاني المقذعة التي ترمي بها شخصياتها المهجوة، وهو ما يؤكد أثره في الذات المقصودة، بما يرافقه من هتك الحرمات، كما هو حال المخزومي الذي وصفه الأديب الأندلسي الكبير صفوان بن إدريس

---

[١١] المغرب في حلى المغرب: ٢٣١/١.

التجيبي (ت ٥٩٨هـ)، بقوله: (كان ذا هجاء قبيح، وذكر لحرمات الأعراض مستبيح).(١٢)

فقد كان الهجاء ثقافة عاش الشاعر مفرداتها يوميا، فمثلت نوعا من النشاطات التي تتنوع في اتجاهاتها، فتؤسس الوسيلة التي تهدف إلى تحقيق رغبته، وإن كانت ذات معالم سلبية واضحة، فتتكامل فيها ثقافة الشاعر في غرض الهجاء، وتتعاقب مكوناتها في عمليتي التأثر والتأثير، فيقوم بإنجاز مهام حيوية للتواصل مع مجتمعه، وإن كان تواصلا سلبيا، وهو ما تنبه له ابن سعيد الأندلسي عندما وصف المخزومي بتلك الشخصية التي لا يشفي غليلها إلا الهجاء، وكأنما خلق لأجل هتك حرمات الأفراد والمجتمعات، فشبهه الشاعرين ببشار والحطيئة، قائلا: (بشار الأندلس انطباعا ولسنا وأداة، وهو الذي أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس، فمقيت، وكان لا يسلم من هجوه أحد، لا يزال يخبط الآفاق بعصاه، ويقع فيمن أطاعه وعصاه).(١٣)

والواقع إن صورة المخزومي السلبية، كانت تحتوي أبعاد الثقافة المتفردة لذلك الشاعر؛ بحسب ما توازت مع نشأته وقدراته الفردية التي اكتسبها نتيجة خبراته، فكان لها أن تكمل شخصيته، عبر تأكيد تفرده الثقافي، وما أدى إلى نمو شخصيته التي أكدها في ردّه على والي غرناطة أبي بكر بن سعيد، عندما سأله: (هلاّ اقتصرت على ما أنت بسبيله، فكم تقع في الناس، فقال: أنا أعمى، وهم لا يبرحون حفرا، فقال: والله لا كنت لك حفرة أبدا، وجعل يوالي عليه يده).(١٤)

فكان يجد أن المجتمع لما يزل يترصده، بحسب عدم قدرته على أن يبصر شخصياته وأحداثه، فكان يرى عليه أن يرمقهم بوجدان يحطّ من السمات التي يتصفون بها، وكان ذلك على وفق المعايير أو المواصفات الراسخة في ثقافته، التي طبعت شخصيته منذ ولادته، وقد فصّل أبو الحسن الرعيني (ت٦٦٦هـ)، تلك الأحوال: (لا يلفظ إلا نكرا، ولا يعمل في غير مثله فكرا، وما تكلم إلا قال فاحشة، كأن فكيه للأعراض مقراض، من رجل مشتمل بشعار العار، ملتحف بإزار الأوزار. لسان في الذم حديد، وباع في البذل والهجر مديد، و"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"، وقد أثبت له ما يخزي عليه، وتهدي ضوال اللعنة إليه).(١٥)

لقد فصّل شعره ومشاعره حتى بلوغ بهما مستوى من الفحش، ما لم يبلغه شاعر في عصره، فكان ينهض بتلك المعاني السلبية، في ضمن مجتمع يرفض ذلك ولاسيما تحت ظل الدولة المرابطية؛ إذ كانت تتحاشى في أدبياتها ما انتهجه المخزومي، من مفردات تثلب المجتمع التي تحرص على تماسك شرائحه، فكانت مفردات الرعيني تعرض للتناقض بين حال المخزومي

---

(١٢) زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر:

(١٣) المغرب في حلى المغرب: ٢٨٨/١.

(١٤) المغرب في حلى المغرب: ١/ ٢٣١.

(١٥) جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٨٨_ ٢٨٩.

والمجتمع، ورفضت ما لديه من نوازع غير مقبولة في الذائقة الدينية والاجتماعية، ورد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، (١٦) ومن ثم عقّب على تلك المرجعية القرآنية بما يخزي حال الرجل في وجدان المتلقي، انطلاقا من أهمية التهذيب الديني والاجتماعي، وهو ما سعى إليه في تشكيل الشخصية الأندلسية.

وهكذا فإن الهجاء عند المخزومي، كان يمثل منهجا شرعه في مسيرته الشعرية، تراعي ارتقاء العمليات المعرفية لديه، والمنتظمة مع الخبرات الشعورية التي تملكت وجدان الشاعر، وكانت تسمح له أن يحاكيها في عالمه الشعري، وكذلك بعد طول باعه؛ استعدادا لأحداث الترابط الذهني والشعري على حدٍّ سواء: (١٧)

مِثْلِيْ يَكُوْنُ أَدِيْبَا ... مِثْلِيْ يَكُوْنُ أَرِيْبَا

غَرَسْتُ فِيهِ قَضِيْبًا ... وَ لَا أُبَالِيْ خَصِيْبَا

أَلْفَيْتَهُ أَمْ جَدِيْبَا

وهذه المفردات تعبر عن أسس الثقافة الذاتية، التي نهضت بشخصية المخزومي الأدبية، وما كان لها أن تخرجه إلى الأوساط المجتمعية في ذلك المظهر الرائق، وهو ما يتجسد فيه المعيار الذاتي المحدد للتباينات الثقافية؛ لأن مزاياه المتفردة تحتوي الخصوبة والجدب، ولا يعوزها المعاني بل يمدها من طاقته المغروسة في الأغراض التي طرقها، ولاسيما باعه الأول الشعر، بما تجلّى فيه من أنشطة واتجاهات، شكلت الوسيلة التي تهدف إلى تحقيق غاية، تتكامل فيها صورة الأديب الذي تمثله بذاته في المفردات أعلاه، وبناءً على طبيعة الهجاء عند المخزومي، وما أداه من تأثير متداعٍ في الأوساط الأندلسية، فإن ذلك يؤشر النمو المعرفي والمنجز الشعري عند الشاعر، عن طريق عمليتين الاولى عقلية تتعلق بالتفكير المجرد، والأخرى أدبية تظهر تفاعل الشاعر مع المؤثرات المتنوعة.

وعلى وفق ذلك كان الهجاء عند المخزومي، يمثل طاقة أدبية تضعف إذا ما غادرها إلى غرض آخر ولاسيما المدح، وهو ما التفت إليه ابن الخطيب الغرناطي (ت ٧٧٦هـ)، بقوله: (كان أعمى شديد القحة والشر، معروفا بالهجاء، مسلطا على الأعراض، سريع الجواب، ذكي الذهن، فطن للمعاريض، سابقا في ديوان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره).(١٨) ويبدو أن فخره بمنجزه في غرض الهجاء بما قدمه النص أعلاه، يحبس طاقة الفخر في ضمن ذلك الغرض، ولا يمكن أن

---

(١٦) سورة ق/ الآية ١٨.

(١٧) ينظر: القطعة رقم ١.

(١٨) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/٣٣١_٣٣٢.

يفهم إلى من تلك الزاوية الموضوعية التي حشر المخزومي فيه.

لذا وجدنا تنوعا في اتجاهات الهجاء الشعرية، ومنها (الاتجاه الرسمي) المتمثل بهجو القضاة الذين يحكمون بالباطل، وهي صورة للتعريض بحكم المرابطين، بعدما اختلت أحوال ببلاد الأندلس عهد ذاك، قال:[١٩]

شَـرَّدَ نَـوْمِـيْ وَ ذَادَ إِيْنَاسِـيْ   مَا أَحْـدَثَتْـهُ القُضَـاةُ فِيْ النَّـاسِ

مِنْ أَكْـلِ أَمْوَالِهِـمْ وَ ظُلْمِـهِمْ   وَ لَـيْسَ رَبِّـيْ لِذَاكَ بِالنَّـاسِـيْ

وهنا يتضح إدراك المخزومي للحال المزرية لقضاة الأندلس وقتذاك، وقد أثرت في ذاته الشاعرة، فكان أن أظهر مثالب القضاة بما بان من تأثير نفسي عليه شخصيا، بعدم الهجوع ومفارقة الأنس، وهو ما يمثل بيانا لمال للفرد من هواجس نفسية نتيجة ظواهر رسمية، ويعرض معها مظاهر السلوك الشخصي للقضاة الظالمين، من أكل أموال الناس الذي هو نتيجة أحكام الجور، وهو ما يشكل خللا في الأحوال الاجتماعية؛ لظلم تلك المؤسسة المهمة في المجتمع؛ لأن واجبها إقامة العدل، فكان الاتجاه الرسمي للهجاء يؤدي نتائج مزرية على المجتمع.

فضلا عن اختلال أحكامهم في مواطن أخرى، وعدم ركونه إلى العدالة، ومنها الأحكام الشرعية التي غادرت الذهنية القضائية، وقد أعطى مثالا فيمن الحكم على الزاني دون اللائط، كما في قوله:

قَاضٍ يَرَى الحَدَّ فِيْ الزِّنَاءِ وَ لَا   يَـرَى عَلى مَنْ يَلُـوْطُ مِنْ بَـاسِ

وهذا الشأن الغريب والمتناقض للأحكام الشريعة، إنما يؤشر ظواهر سلبية كانت تحاصر القضاة، ومنها انتشار الرشى في الأحكام، كذلك التسامح من قبل عدد منهم في القضايا الموجبة للعقاب القانوني والشرعي كاللواط، فكان يعرّض بذلك كله عن طريق النيل من الصورة المتناقضة في الأحكام.

ويبدو أن ذلك كان نتيجة ما كان من تحلل خلقي، عند عدد من الشرائح الاجتماعية ممن لهم المكانة ببلاد الأندلس، وكان ذلك مما يزري بأحوال القضاء، فضلا عن الحط من صورة المجتمع الأندلسي، بالنظر إلىما كانت تحمله ذات المخزومي من إشهار المثالب، وإظهار النوازع السلبية التي احتجنتها ذات الشاعر.

كذلك فقد ظهر اتجاه آخر في شعر الهجاء عند المخزومي، ونعني به (الهجاء الاجتماعي)، فأعلن نزعته السلبية تجاه المجتمع بنحو عام، بعدما تلاقت الرغبات الشخصية عند الشاعر مع

---

[١٩] ينظر: القطعة رقم ٤.

الأحوال العامة حينذاك، بما يعرف بالأحوال التي عهدتها عدد من الشرائح، ومنها نيله من أولاد خيثمة، كما جاء في قوله:[٢٠]

أَوْلَادُ خَيْثَمةٍ عِنْـدِيْ مِنَ العِبَـرِ ... لَا يَكْلَفُوْنَ بِمَرْكُـوْبٍ سِـوَى الغَمَـرِ

سَـاوَى رِجَالُـهُمْ نِسْوَانَـهُـمْ خَنَـثًا ... فَلَسْتَ تَعْرِفُ أُنْثَـاهُـمْ مِنَ الذَّكَـرِ

وعند النظر إلى هذين البيتين، يرمق منهما روح الفحش التي استوطنت المخزومي، وهو يتعرض إلى تلك الجماعة (أولاد خيثمة)، فكان ينطلق من ذات تعايشت مع الهجاء المقذع، وكانت تجد وجودها في تعاطي هذا الاتجاه؛ لأنه يغرس الاضطراب في وجدان المتلقي المقصود، ولاسيما إذا ما كان يعنى بالوعي الجمعي، فكانت المكونات الرئيسة في صور الهجاء، تتشكل عن طريق الفحش الذي حاصرهم بهم، وعلى أساس ذلك فإنها تشكل تناغما مع رغبة المخزومي، عندما يجرد المهجو من الفضائل ويلحق به المثالب، ويزداد الشأن سوءا عندما يتعرض إلى الأخلاق، ويعمد على سلبها مساويا بذلك بين الرجال والنساء، فيمعن في النيل من الأعراض، وهو ما يشعر بهجاء ينفر من صورة تلك الجماعة المهجوة، وينذر المجتمع من أخلاق السوء التي ألحقها بهم، ومن ثم فإنه يمثل للهجاء المتعرض للأعراض الذي عرف عنه المخزومي والذي شاع عنه، وكان حريا بالولاة والأعيان شراء أعراض الناس، بتجنب لسان المخزومي الذي لم يحرص على المشاعر الجمعية؛ تبعا للأسباب النفسية التي حاصرت شخصيته، وجعلتها نتاج الطبيعي للخلل الذي يؤدي إلى الابتذال في القول، والانحطاط في الشعر إلى الحد الذي لم يراعِ الحرمات.

لقد ادّت النزعة الراسخة إلى نمو الهجاء في شعره، بل بنيت شخصيته الشاعرة على أساسها، وهو نمو أحرز خصائصه الفردية المتميزة، وأدى إلى صياغة صور هجائية متفردة؛ اكتسبت مكوناتها من دوافع شخصية، تفاعلت مع موروثها وما اكتسبته من محيطها، وهو ما ينجلي مرة أخرى بقوله: [٢١]

لِقُرْبِـكَ يَا نَجْـلَ الخَسَاسَةِ طُوْلُ ... فَمِنْ أَجْلِهِ تُـزْهَـى بِـهِ وَ تَـصُـوْلُ

وَمَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّـرَى وَسَمَـا بِهِ ... إِلَى النَّجْـمِ فَـرْعٌ لَا يُنَـالُ طَـوِيْـلُ

أشر المخزومي في هجاء ذلك الشخص، المثالب التي تزدري بأحوال الفخر التي ثلبها شعره، بحسب ما يتناوله من هجو استهدفت شخصية المهجو، بالتجاوز على الآخر ومزاياه، بل

---

[٢٠] ينظر: القطعة رقم٣ .

[٢١] ينظر: القطعة رقم ٩ .

يقلب تلك المزايا إلى معايب، فكل ما يدعو إلى الزهو، إنما هو دون ما يدركه الرجال من محاسن، بل ينزل به إلى الدركات، فلا مجال لوصوله إلى الفخر، بحسب المسافة التي صورتها من تحت الثرى إلى النجم، وهكذا فهو يزدري بأصل المهجو، في صورة تفاعلية تنقض المحاسن والمفاخر، مذكرا بعنصر المهجو وأصله المتواضع، منافيا ذائقة البيئة الأندلسية التي تنفر من الهجاء، ولكن ذلك كما بينا جاء استجابة للمؤثرات الذاتية للشاعر، وهو ينقض محاسن الفرد والجماعة؛ لتلبية المطالب المتصارعة في ذاته المتشنجة إزاء مجتمعها، وهي صورة مترجمة للملامح العامة للهجاء لشاعر يتعرض للأفراد.

وكان للمرأة نصيبها من لسان المخزومي وشعره، فكانت ضحية لسانه كما تقدم مع نزهون، أو غيرها ممن لم تسلم من هجاء شاعر كان يجد قوته في النيل من الناس، فيسلب المحاسن، ويغرس المثالب، ويهتك الأعراض، كما قال:

يَا زَوْجَــــــةً لِلْبَــرْدِ مَــا أَفْضَلَكْ   لَــمْ يَخِــبِ الزَّيْـــــرُ الَّذِيْ أَمَّلَـــكِ

يُدْمِيْـكِ ثَـــوْبُ الشُّـرْبِ مِنْ رِقَّـةٍ   وَ لِلْجُفَاةِ السُّــــوْدِ مـا أَحْمَلَـــكْ

فقد أظهرت مفرداته صورة المرأة المبتذلة، وهي صورة تحاشتها الأشعار الأندلسية إلى حدٍّ واضح، ولم يتعاطاها إلا النادر من الشعراء، فكان المخزومي من أولئك القلة النادرة، ممن يلذ لسانه بهتك الحرمات، دون رادعٍ ديني أو واعزٍ من ضمير، فهو لا يرى في المرأة إلا ملبية لرغبات الرجال من كل الأجناس والألوان، متعاطية للخمرة، مضيعة للفضائل، فلا حرمة تضرب عليها، ولا عفاف يكون عنوان لها، وهو ما يؤشر الموقف السلبي للمخزومي من المرأة، وعدم تعايشه مع هكذا نوع من النساء، وهو ما أثر في رؤيته الشخصية للمرأة، وركونه إلى زاوية واحدة يحكم بواسطتها على أخلاقها، و وظيفتها في الوجود البشري.

القطع الشعرية المستدركة

روي الباء

١

وله في هذا الباب سمح الله لنا وله بمنه:[٢٢] [المجتث]

١ـ مِـثْلِـــيْ يَكُــــوْنُ أَدِيْــبـًا   مِـثْلِـــيْ يَكُــــــوْنُ أَرِيْبـًا[٢٣]

٢ـ غَــرَسْــتُ فِيــــهِ قَضِيْــبـًا   وَ لَا أُبَالِـــــيْ خَـــصِـيْـــبَـــا

أَلْــفَيْــتَـــهُ أَمْ جَــدِيْــبَــا[٢٤]

---

[٢٢] تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩١.

[٢٣] الأَرِيْبُ: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من أرُبَ وأرِبَ إلى أرِبَ بأربَ في: بصير بالأمور ذو دهاء وفطنة.

[٢٤] جَدِيْبٌ: خلاف الخصيب.

روي الدال

٢

وله: [٢٥] **[الطويل]**

١ _ جَرَتْ لِابْـنِ زَيْـدٍ فِيْ الأَنَامِ قَضِيَّـةٌ   أَبَـى اللهُ فِيْـهَـا أَنْ يَتِـمَّ مُـرَادُه

٢ _ خَـلاَ بِيَـهُـوْدِيْ لِيَـشْفِـيْ غَلِيْلَـهُ   وَ كَـانَ عَلَيْـهِ فِيْ اليَهُـوْدِ اعْتِمَادُهُ

٣ فَلَمْ يسْعِدِ الحُلْوَانُ فِيْ الحَيْنِ غَيْرَهُ   وَ هَاجَ عَلَى ظَهْرِ المَلِيْكِ اتَّقَـادُهُ[٢٦]

٤ _ فَصَـرَّفَـهُ فِيْ كَفِّـهِ كَـيْ يُقِيْمَـهُ   فَيَـزْدَادَ فِـيْ ذَا لِيْنُـهُ وَ امْتِـدَادُهُ

٥ _ فَأَنْشَدَ لَمَّا خَامَرَ اليَـأْسُ قَلْبَـهُ   وَ قَـدْ كَادَ حُـزْنًا أَنْ يَطِيْـرَ فُؤَادُهُ:

٦ _(إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَـى   فَأَكْثَرُ مَا يَجْنِـيْ عَلَيْـهِ اجْتِهَادُهُ)[٢٧]

روي الراء

٣

له: [٢٨] **[البسيط]**

١ _ أَوْلاَدُ خَيْثَمَـةٍ عِنْدِيْ مِنَ العِبَـرِ   لَا يَكْلَفُـوْنَ بِمَرْكُـوْبٍ سِوَى الغَمَـرِ

٢ _ سَاوَى رِجَالُـهُمْ نِسْوَانَـهُـمْ خَنَـثًا   فَلَسْتَ تَعْرِفُ أُنْثَاهُـمْ مِنَ الذَّكَرِ [٢٩]

٣ _ طَـئْ الرِّجَـالِ وَ لَا تَتْرُكْ نِسَـاءَهُمْ   عَنْ ذَاكَ وَاسْرَحْ عَلَى الأَصْلَابِ والسُّـرَرَ

٤ _ فَأَنْتَ عِنْدَهُمُ مَهْمَا فَتَكَتْ بِهِمْ   أَحْلَـى مِنَ الأَمْنِ عِندَ الخَائِفَ الحَذِرِ

روي السين

٤

له: [٣٠] **[المنسرح]**

١ _ شَـرَّدَ نَـوْمِـيْ وَ ذَادَ إِيْنَـاسِـيْ   مَـا أَحْدَثَتْـهُ القُضَـاةُ فِيْ النَّـاسِ

---

[٢٥] تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٨٩_٢٩٠.

[٢٦] الحُلْوَانُ: العطاء لحاجة عرضت.

[٢٧] هذا البيت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام، ضمّنه أبو بكر المخزومي في شعره هذا. ينظر: أنوار العقول من أشعار وصي الرسول: ١٧٨.

[٢٨] تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩٠_ ٢٩١.

[٢٩] الخَنَثُ: استرخى الشاب وتثنَّى وتكسَّر كالنِّساءِ، فهو على صورة الرجال وأحوال النساء.

[٣٠] جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٨٨_ ٢٨٩.

٢_ مِنْ أَكْـلِ أَمْـوَالِهِـمْ وَ ظُلْـمِـهِـمْ ... وَ لَـيْـسَ رَبِّـــيْ لِـذَاكَ بِالنَّـاسِـــيْ

٣_ صَـانَ الحَـنَاطَـبِـيُ نَـجْـلَـهُ زَمَـنًا ... مَـخَـافَـــةً مِـنْ حَـبَائِـلِ الكَـاسِـيْ [٣١]

٤_ فَقَـيَّـضَ اللهُ قَـاضِيًا هُــوَ مِنْ ... مَـلَابِـسَ العَـارِ وَ الخَنَـى كَاسِــيْ [٣٢]

٥_ يَطْعَـنُ أَحْشَـــاءَهُ كَمَا طَعَنَتْ ... آلُ كُـلِـيْـــبٍ لآلِ جَـسَّــــــاسِ[٣٣]

٦_قَـاضٍ يَرَى الحَـدَّ فِيْ الزِّنَـاءِ وَ لَا ... يَـرَى عَـلَى مَنْ يَـلُـــوْطُ مِـنْ بَـــاسِ

٥

وله في هذا الباب رحمه الله وسمح له:[٣٤] [الطويل]

١_ جَعَلْتُ قَنَـاةَ النَّيْرِ فِيْ لَبَّةِ اسْمِهِ ... وَطَاعَنَتْهُ طَعْـنَ الكَمِيِّ المُدَاعِسِ[٣٥]

٢_ فَأَخْـرَجْـتَـهُ كَالزِّبــرِقَـانِ بِعَـمَّـــةٍ ... وَ قَـدْ كَانَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ كَابْنِ حَابِسِ [٣٦]

---

[٣١] من الشخصيات المهجوة في شعر أبي بكر المخزومي، ولم أتوصل إلى معرفة سيرتها.

[٣٢] قَيَّضَ: قدّره له وهيأه وأتاحه له، والخَنَى: الفحش في الكلام.

[٣٣] إشارة إلى قتل جساس بن مرة الشيباني لكليب وائل، بعدما رمى كليب ضرع ناقة يقال لها: سراب، كانت للبسوس خالة جساس، وقد دخلت الناقة حماه، وكسرت بيض حمام كان قد أجاره، وقد ضربت العرب بها المثل بالشؤم. ينظر: مجمع الأمثال: ٢/ ٤٣٩.

[٣٤] تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩١.

[٣٥] الكَمِيُّ: الشُّجاعُ المقدامُ الجريء، كان عليه سلاح أو لم يكن. المُدَاعِسُ: الطَّعَّان بالمدعاس، ويقال: امرأةٌ مِدْعَسٌ؛ لأنه يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث.

[٣٦] الزِّبْرَقَانُ: هو الحصين بن بدر بن امرئ القيس التميمي، والزبرقان، اسم من أسماء القمر، وقد لقب به الحصين لشدة حسنه ووسامته، حتى كان يدعى بقمر نجد، وقيل: لقّب بالزبرقان؛ لأنّه كان يلبس عمامة مزبرقة أي مصبوغة بالزعفران، وهو من أشراف قومه في الجاهلية وفي الإسلام. كان شاعرا محسنا، فصيحا، عرف بالجفاء والخشونة، وكان ينزل مدينة البصرة، وفد على النبي صلّى اللّه عليه وآله في وفد بني تميم سنة تسعة هجرية، وفي ذلك الوفد أعيان تميم وأشرافها، ومنهم عطارد بن حاجب، والأقرع بن حابس، وعمرو بن الأهتم، وقيس بن عاصم، فنادوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، من وراء الحجرات، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون۝ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم﴾. سورة الحجرات ٤_٥. أسلم بعد نزول الآية الكريمة، وولّاه النبي صلى الله عليه وآله صدقات بني تميم، فقد بصره في أواخر حياته، وتوفّي أيّام معاوية بن أبي سفيان حدود سنة ٤٥هـ. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: ٢/٤٥٤.

روي الكاف

٦

وله:[٣٧] [البسيط]

١_لِلْحَضْرَمِــيْ أَبِيْ عَبْــدِ الإِلَــهِ حُلًــى مَـــا دَارَ قَـطُّ عَلَـى أَمْثَـالِهَا الفَلَـكُ[٣٨]

٢_ وحَسْبَهُ أَنَّـــهُ مِــنْ مَعْشَــرٍ مَنَعُـوْا أَمْوَالَهُمْ وَ أُبِيْحَتْ مِنْهُـــمُ الفِلَكُ[٣٩]

٣_شَدُّوْا عُرَى الكِيْسِ حَتَّى لَا انْفِصَامَ لهَا وَحُلِّلَتْ مِنْ نِسَاءٍ عِنْـدَهُـمْ تِكَكُ[٤٠]

٤_ لَوْ تُكْرِمُوْنَ كَمَـا جَــادَتْ نِسَاؤُهُـمُ لَمْ يَسْلُكِ الجُــوْدُ إِلَّا أَيَّـةً سَلَكُــوْا[٤١]

٧

وله:[٤٢] [الكامل]

١_ اِفْخَرْ فَمَا لَكَ فِيْ الفِخَارِ شَرِيْكُ وَ اصْـرَخْ عَلَى هَضَبَـاتِـنَـا يَا دِيْكُ

٢_ لَمْ تَحْكِ أَنْـتَ الدِّيْكَ إِلَّا بِالَّـذِيْ هُـــوَ نَاقِـصٌ مِنْ فِعْلِـهِ مَتْـــرُوْكُ

٣_ الدِّيْكُ لَيْـسَ يَحِيْـكُ إِلّا بِاسْمِـهِ وَ كَـذَاكَ بِاسْمِكَ يَا فَقِيـــه تَحِيْـكُ

وأما ابن حابس فهو الأقرع بن حابس بن عقال التميمي المجاشعي الدارمي، اسمه فراس؛ ولقب الأقرع لقرع كان به في رأسه. وهو عم الشاعر الفرزدق همام بن غالب، كان من سادات العرب في الجاهلية، وهو أحد حكام العرب في الجاهلية، كان يحكم في كل موسم، وهو أول من حرَّم القمار. وهو ممن ذكرته سورة الحجرات، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فتح مكة وحنينا والطائف، كذلك شهد حروب العراق، وأبلى فيها بلاءً حسنا، وكان على مقدمة خالد بن الوليد، واستعمله عبد الله بن عامر على جيش سيَّره إلى خراسان، فأصيب بمعركة الجوزجان هو والجيش العربي، واستشهد سنة ٣١ هـ. ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٥٢_٢٥٤.

(٣٧) تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩٠.

(٣٨) لم أتوصل إلى معرفة أبي عبد الله الحضرمي.

(٣٩) الفِلكُ: مفرده فلكةٌ: المستديرة من الأرض في غلظ أو سهولة. والمقصود به في البيت الأستاه كما جرى به استعمال عامة الأندلس.

(٤٠) تِكَكُ: مفردها تكة، وهي رباط السراويل. وهي لفظة معربة.

(٤١) أخذه من قول دعبل الخزاعي: (الطويل)

أيـن الشبـاب وأيــة سلكـــا؟ لا أين يطلـب ضلَّ بــل هـلكـا

شعر دعبل بن علي الخزاعي: ٢٠٣.

(٤٢) تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩٢.

٨

وله: [٤٣] [السريع]

١_ يَا زَوْجَةً لِلْبَرْدِ مَا أَفْضَلَكْ | لَمْ يَخِبِ الزّيرُ الّذِيْ أَمَّلَكِ
٢_ يُدْمِيْكِ ثَوْبُ الشُّرْبِ مِنْ رِقَّةٍ | وَ لِلْجُفَاةِ السُّوْدِ مِا أَحْمَلَكْ
٣_ كَمْ أَسْوَدٍ قَدْ شَلَّهُ نِصْفُهُ | حَوْلَ عَيْنَيْكِ إِذْ حَوَّلَكْ
٤_ يَا نجْمَةً تَرْغَبُ لَوْ نَالَهَا | جَمِيْعُ مَنْ دَارَ عَلَيْهِ الفَلَكْ

روي اللام

٩

له: [٤٤] [الطويل]

١_ لِقُرْبِكَ يَا نَجْلَ الخَسَاسَةِ طُوْلُ | فَمِنْ أَجْلِهِ تُزْهَى بِهِ وَ تَصُوْلُ[٤٥]
٢_ وَمَا أَصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى وَسَمَا بِهِ | إِلَى النَّجْمِ فَرْعٌ لَا يُنَالُ طَوِيْلُ

روي النون

١٠

وله:[٤٦] [البسيط]

١_ أَبُوْ عُظَيْمَةَ لَا تُلْمِمْ بِمَجْلِسِهِ | فَإِنَّهُ بِرِمَاحِ اللَّحْمِ مَطْعُوْنُ[٤٧]
٢_ لَوْ أَنَّ مَنْ نَالَهُ أَعْطَاهُ خَرْدَلَةً | لَكَان يَحْسُدُهُ فِيْ المَالِ قَارُوْنُ[٤٨]

---

(٤٣) تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩١.

(٤٤) تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩١.

(٤٥) الخَسَاسَةُ: الحالةُ يكونُ عليها الخَسِيسُ من سفاهة، وقاحة، ومجون.

(٤٦) تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ٢٩١.

(٤٧) تُلْممُ: تجتمع.

(٤٨) وهو من أقارب سيدنا موسى عليه السلام، قيل: عمه، وقيل: ابن عمه. بلغ من الثراء أن مفاتيح ثرواته كانت ثقيلة تتعب من يحملها. وكان وزيرا لشؤون بني اسرائيل لدى فرعون، ذكره الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. سورة القصص: ٧٦.

١١

_ تخريج جديد لنتفة من شعر أبي بكر المخزومي ذكرها الباحثان في مجموعهما:

القطعة رقم (٤٣): تخريج: جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة: ص ٢٨٨، ونفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب: ٣/ ٢٠٥.

المصادر:

بعد القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم بن أبي النجود الكوفي

_ **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ابن الخطيب الغرناطي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠٠٣م.

_ **الإصابة في تمييز الصحابة**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤١٥هـ.

_ **أنوار العقول من أشعار وصي الرسول**، قطب الدين البيهقي، دارسة وتحقيق، كامل سلمان الجبوري، دار المحجة البيضاء، ط١، بيروت، ١٩٩٩م.

_ **جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة في صلة المطمح بالذخيرة مما ولدته الخواطر من المحاسن في هذه المدة الأخيرة**، أبو الحسن الرعيني، تحقيق، الدكتور البشير التهالي، و الدكتور رشيد كناني، مؤسسة الرسالة، ط١، السوس، ٢٠١٩م.

_ **خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني**، تحقيق، آذرناش آذرنوش، نقحه وزاد عليه، محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني ابن الحاج يحيى الدار التونسية للنشر، ط١، تونس، ١٩٧١م.

_ **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**، زينب فواز العاملي، المطبعة الكبرى الأميرية، ط١، مصر، ١٣١٢ هـ.

_ **زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر**، نشرة الدكتور محمد بن شريفة، دار النجاح، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.

_ **شعر دعبل بن علي الخزاعي**، صنعة: الدكتور عبدالكريم الأشتر، منشورات مجمع اللغة العربية، ط٢، دمشق، ١٩٨٣ م.

_ **ما تبقى من أدب العميان في الأندلس**، جمع وتحقيق وصنعة ودراسة، أ.م.د محمد عويد الساير، وأ.م.د محمود شاكر ساجت، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ٢٠١٣م.

_ **مجمع الأمثال**، الميداني، تحقيق، محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.

مهارة القراءة

تطور في المصطلح ووسائل التنمية والتوظيف

الباحث مروان أسعد محمد

كلية التربية واللغات/جامعة جرمو/كركوك

الملخص:

هذا البحث يتناول مصطلح القراءة، وما يطرأ في هذا المجال في تطور المصطلح والوسائل وما استجد في عوامل تنمية القراءة وتوظيفها ووظيفتها كأساس من أساسيات التعليم إلى جانب (الاستماع، والمحادثة، والكتابة).

المقدمة:

❖ **القراءة لغة واصطلاحاً.**

القراءة لغة:

ذكرت الكثير من المعجمات العربية قديما وحديثا مفهوم القراءة، ويكاد يكون الاتفاق على المفهوم اللغوي بين هذه المعجمات، ونذكر منها:

قرأت الشيء قرآنا: جمعته وضممت بعضه إلى بعض، وقرأت الكتاب قراءة وقرآنا، ومنه سُمِّيَ القرآن. وقال أبو عبيدة: سُمِّي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) أي جمعه وقراءته[١].

وأما في لسان العرب فقد وردت كلمة القراءة بمعنى: قرأ: القرآن: التنزيل العزيز، وإنما قدم على ما هو أبسط منه لشرفه. قرأه يقرؤه ويقرؤه، قرءا وقراءة وقرآنا، فهو مقروء[٢].

ويعرِّفها الآخر بأنها: قَرَأَ (الشيءَ: جَمَعَه وضَمَّه) أي ضَمَّ بعْضَه إلى بعضٍ، وقَرأْتُ الشيْءَ قُرْآناً: جَمعْتُه وضمَمْتُ بعْضَه إلى بعضٍ[٣].

(قرأ) الكتاب قراءة، وقرآنا: تتبع كلماته نظرا ونطق بها. وتتبع كلماته ولم ينطق بها، وسميت (حديثا) بالقراءة الصامتة، والآية من القرآن نطق بألفاظها عن نظر أو عن حفظ فهو قارئ. (ج)

---

[١] تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ). تحقيق: أحمد عبدالغفور العطار، ط ٤، ٦٥/١.

[٢] لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط ٣، ١٢٨/١.

[٣] تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ). تحقيق: عبدالستار أحمد فرج، د.ط، ٣٧٠/١.

قـراء – وعليـه السـلامَ قِـراءَةً: أبلغـه إيـاه –. والشـيءَ قـرءاً، وقرآنـاً: جمعـه وضـم بعضـه إلى بعض[٤].

قرَأ الآيةَ من القرآن: تلاها؛ نطق بها عن نظر أو عن حِفْظ[٥].

نخلص من المفهوم اللغوي أن كلمة (القراءة) تعني التعرف على الحروف والكلمات والنطق بها سواء كان ذلك جهراً أم سرّاً.

القراءة اصطلاحاً:

هـي نشـاط يتضـمن التعـرف علـى الرمـوز المطبوعـة واسـتخلاص المغـزى العـام للمقـروء والوصول إلى المعـاني الضمنية والإضافية التي أرادها الكاتب ثم نقد المقروء وتطبيقه أي الحكم على المقروء والانتفاع به[٦].

يمكن تعريف القراءة بأنها سلسلة عمليات هدفها الاستيعاب، يقوم بها القارئ لبناء معنى من خلال الجمع بين المعلومات التي يقدمها النص، والمعلومات الموجودة عنده مسبقاً[٧].

والقراءة عملية عقليـة تشمل تفسير الرموز التـي يتلقاها القارئ عن طريـق عينيـه، وتتطلب هذه الرموز فهم المعاني، كما تتطلب الربط بين الخبرة الشخصية وهذه المعاني[٨].

فالقراءة إذن ليسـت عملية بسيطة كما تظهر للوهلـة الأولـى، لكنها عمليـة تشترك فـي أدائها حواس وقوى وقابليات مختلفة عديدة، ولخبرة الفرد أيضـاً ولمعارفه الأوليـة ولذكائـه عملها فـي القراءة[٩].

ويعرفها الـدكتور علـي أحمد مـدكور ويقـول: (تعـرف) علـى الرمـوز المطبوعـة، و(فهـم) لهـذه الرموز المكونة للجملة والفقرة والفكرة والموضوع[١٠].

---

(٤) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى – أحمد الزيـات – حامد عبدالقادر – محمد النجـار . تحقيق: مجمع اللغـة العربية، ط٤، ٧٢٢/٢.

(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، ط١: ١٧٨٩/٣.

(٦) اتجاهـات تلاميذ المرحلـة الثانويـة نحو القـراءة وعلاقتهـا بالتحصـيل الدراسـي في اللغـة العربيـة، توفيق محمد نصرالله، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى (١٩٨٨): ٩.

(٧) الدليل التدريبي فـي تدريس مهـارات اللغـة العربيـة وعناصـرها للنـاطقين بغيرها النظريـة والتطبيق، خالد تجسين أبو عمشة، ط١: ٢٤٦.

(٨) الطرق جامعة للقراءة النافعة، الدكتور محمد موسى الشريف، ط٦: ٢٣.

(٩) تعليم مبادئ القراءة دراسة تحليلة، انتقادية، توجيهية، صبيحة عكاش فارس، د.ط: ١٤.

(١٠) تدريس فنون اللغة العربية، الدكتور علي أحمد مدكور، د.ط: ١٢٩.

ورأى الآخر أنها عملية عقلية ونفسية معقدة تتضمن تفسير الرموز الكتابية، وفهم معانيها في ضوء الخبرات السابقة، وأنماط التفكير والتحليل والتقويم والتعليل وحل المشكلات(١١).

وتُعّرف القراءة أيضاً بأنها إدراك الرموز المكتوبة، والنطق بها، ثم استيعابها وترجمتها إلى أفكار وفهم مادة المقروءة ثم التفاعل مع ما يقرأ، والاستجابة لما تمليه عليه هذه الرموز(١٢).

من خلال التعريفات السابقة نخلص إلى أن القراءة عملية عقلية ونفسية يمارسها القارئ ويتفاعل معها، وينتفع بها في المواقف المختلفة في حياته اليومية.

❖ **مفهوم القراءة وتطورها:**

تبرز القراءة من بين مهارات اللغة بوصفها مهارة مهمة في حياة الإنسان عامة، وفي العملية التعليمية على وجه الخصوص، كيف لا وهي سرّ تحصيل الثقافة والمعرفة، ووسيلة اتصال الإنسان بغيره، وبها يتمكن من كشف حقيقة الماضي، ومعرفة الحاضر، واستشراق المستقبل.

وتعّد القراءة من أهم العمليات التي يمارسها الإنسان عبر التاريخ للحصول على المعلومات التي تلبي احتياجاته وتسهم في حل المشكلات، فالقراءة لها دور فاعل في تكوين قاعدة معرفة من الخبرات والمعلومات للمتعلم، وعلى هذا فهي المصدر الأول للمعرفة والرافد الأساسي لها، كما أنها تعّد أيضاً من أهم وسائل التعلم الإنساني التي يكتسب من خلالها الفرد الكثير من المعارف والعلوم والأفكار التي تؤدي إلى تطور الإنسان، وأنها مازالت من أهم وسائل نقل ثمرات العقل البشري وآدابه وفنونه ومنجزاته، وبأنها الصفة التي تميز الشعوب المتقدمة(١٣).

وقد حدث تطور كبير في مفهوم القراءة في القرن العشرين يمكن تلخيصه بالآتي:

١. في العقد الأول من هذا القرن وقف مفهوم القراءة عند حدود التعريف إلى الحروف الهجائية والنطق بها وفي ضوء هذا المفهوم كان تعليم القراءة يقتصر على تعليم الحروف الهجائية وتمكين الأطفال منها رسما وشكلا وتدريب الطلبة على نطق كل حرف ورسمه وكتابته والاعتماد على محاكاة الطفل معلمه في النطق والتكرار الدائم للتأكد من معرفته لشكل الحرف ونطقه ومن ثم ينتقل جهد المعلم مع طلبته من تعلم الحروف إلى كتابة الكلمات ونطقها.

---

(١١) أخطاء القراءة الجهرية باللغة العربية للطلبة الناطقين بالملاوية: دراسة وصفية، عاصم شحادة علي، خير النساء بنت بخاري (٢٠١٦): ٩.

(١٢) بوصلة التدريس في اللغة العربية، نضال مزاحم رشيد العزاوي، ط١: ١٠٤.

(١٣) فاعلية استخدام استراتيجية التساؤل الذاتي في تنمية مهارات القراءة الإبداعية لدى تلميذات الصف الثاني المتوسط، منى بنت أحمد بن حنش الشهري، رسالة ماجستير (١٤٣٤): ٢٠.

٢. في العقد الثاني تطور هذا المفهوم ليشمل في المادة المقروءة في ضوء نمو الفرد وتطوره، والفهم وترجمة معاني المنطوق والتي تعني التعبير عن المعنى الذي فهمه الطفل القارئ الذي تعرف إلى الرموز المكتوبة، وعادة ما يكون ذلك التعبير على شكل كلمات مرادفة للكلمات المكتوبة وتعبِّر عن المعنى المقصود، ولاشك أن القراءة وفقا لهذا المفهوم أعمق منها من الأول إذ تميل قليلاً إلى المواءمة بين التعرف البصري والنطق الصوتي من جهة، وإعمال العقل لفهم المادة المقروءة من جهة أخرى.
٣. اتسع مفهوم القراءة ليشمل تحليل معاني المادة المقروءة ومناقشتها ونقدها، وأظهر هذا المفهوم أن المتعلم ليس مُستقبِلا فقط لما يقرأ، ولكنه يتدخل فيه تدخلا واعيا موجها يصل فيه إلى الأجزاء الدقيقة للمادة المقروءة مشاركاً زملاءه ومعلمه في مناقشة تلك المعاني والحكم عليه.
ولاشك أن القراءة وفقا لهذا المفهوم جعلت القارئ صاحب موقف، ورؤية ناقدة لما يقرأه وهذا يشكل بواكير القراءة الناقدة التي تحتم على القارئ ألاّ يكون سلبيا، وإن عليه إعمال عقله فيما يقرأ وتكوين موقف منه والحكم عليه.
٤. في العقد الثالث اتسع مفهوم القراءة ليشمل الإفادة من المادة المقروءة في حلِّ المشكلات التي تواجه الانسان، ولاشك أن القراءة وفقا لهذا المفهوم موظفة لمواجهة مشكلات القارئ لتكون مساعدة له في التغلب عليها أو لفهمها، ومن هنا تكون القراءة مصدراً للخبرة، ومعينا على الفهم والتصرف.
٥. وفي العقد الخامس تطور مفهوم القراءة ليشمل القراءة للاستمتاع بالمادة المقروءة، وذلك عندما يخلو فيها القارئ إلى ذاته ويتحلل من مشاغل الحياة وضغوطها في أوقات فراغه؛ ليرّوح عن نفسه ويشبع هوايته.
ولاشك أن القراءة وفقا لهذا المفهوم قراءة صامتة يغلّفها الهدوء والسكينة لأعمال العقل فيها وتتم من دون إجبار من المعلم ولا تخضع لمتطلبات دراسية وهي تمثل قمة الاستقلال القرائي للقارئ[١٤].

فالقراءة هي تحويل النظام اللغوي من الرموز المرئية (الحروف) إلى مدلولاتهِ. وهذا يعني أن مفهوم القراءة ليس إجادة نطق الحروف؛ وإلا لأصبح معظم العرب يجيدون اللغة الفارسية والأُردية لأنهم يستطيعون قراءة حروفها[١٥].

وهي الخطوة الرئيسة المهمة في تعليم اللغات الحية. وهي الأساس الذي تبنى عليه سائر فروع

---

[١٤] المرجع في تدريس مهارات اللغة العربية وعلومها، علي سامي الحلاق، د.ط: ١٨٠ – ١٨١.
[١٥] إضاءات، الدكتور عبدالرحمن بن إبراهيم الفوزان، د.ط: ٢٢٣.

الأنشطة اللغوية من حديث واستماع وكتابة.

وأضاف (الهاشمي) أن القراءة: عملية يراد بها إدراك الصلة بين لغة الكلام الإنسانية ولغة الرموز الكتابية التي تقع عليها العين، وهي نشاط فكري لاكتساب القارئ معرفة إنسانية من علم وثقافة وفن ومعتقدات ومقدسات...) فهي تشمل: (الرمز المكتوب، والمعنى الذهني، واللفظ المنطوق)[١٦].

ويرى (الخولي) أن القراءة من المهارات الرئيسة اللازمة في تعلم اللغة. أما المهارات الأخرى فهي فهم المسموع والكلام والكتابة[١٧].

وأوضح آخر أنَ القراءة: نشاط عقلي يقوم على نطق الرموز، وفهمها، وتحليلها، والانتفاع بها في حلِّ المشكلات، ومن ثم القدرة على الإبداع في محاورة النص، وكاتبه، وإدراك ما بين السطور، وما خلفها من دلالات[١٨].

❖ **أهمية القراءة لغير الناطقين بها:**

هناك أهمية كبيرة للقراءة لغير الناطقين بها، منها ما يأتي:

- إن القراءة هي المهارة التي تبقى مع الدارس عندما يترك البلد الذي يتعلم فيه القراءة، كما أنها المهارة التي يستطيع من خلالها أن يتعرف على أنماط الثقافة العربية وملامحها.
- عن طريق القراءة يستطيع الدارس تحقيق أغراضه العلمية من تعلُّم العربية.
- إن القراءة هي المهارة التي يستطيع أن ينميها الطالب وحده بعد أن يترك المؤسسة التعليمية.
- إن القراءة هي أولى المهارات الثلاث التي يجمع المجتمع على حق الفرد في تعلمها.
- إن القراءة الواسعة شرط للثقافة، إن ما يجنيه الدارس الأجنبي من خلال قراءة المواد العربية أعظم بكثير مما يجنيه من خلال أي مهارة أخرى[١٩].

❖ **أهداف القراءة:** هناك عدد من الأهداف التي تحققها القراءة في حياة الناس، أهمها:

١. **التسلية والاستمتاع:** هي تزجية أوقات الفراغ بما يفيد، والمثل العربي يقول: (الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

---

[١٦] طرائق تدريس مهارات اللغة العربية وآدابها، الأستاذ الدكتور عابد توفيق الهاشمي، ط١: ١٢٨.

[١٧] أساليب تدريس اللغة العربية، الدكتور محمد علي الخولي، د.ط: ١٠٧.

[١٨] فاعلية برنامج قائم على القصة في تنمية بعض المهارات القراءة الإبداعية لدى تلاميذ الصف الثالث المتوسط، حسن بن أحمد بن علي الحميد، رسالة ماجستير (٢٠١٠): ٤٠.

[١٩] معايير مهارات اللغة العربية للناطقين بغيرها، رمضان، الدكتور هاني إسماعيل رمضان، ط١، ٢٥٩.

٢. **تنمية مهارات التفكير والتعبير**: القراءة هي مهارة فهم النص واستيعابه وحسن التعبير عنه، كذلك الاستفادة منه في الكتابة والتأليف والابداع والابتكار عند الحاجة.

٣. **إتقان مهارات القراءة**: في مقدمة هذه المهارات التعود على سرعة القراءة، وهي مسألة مهمة بخاصة في عصرنا الذي نعيش فيه، حيث المعلومات تنشر بكثافة هائلة، أصبحت معها سرعة القراءة مهمة وضرورية.

٤. **خلق المجتمع القارئ**: إن من أسمى واجبات المؤسسات التعليمية خلق المجتمع القارئ، وتنمية قدرات الطلبة الفكرية والتعبيرية، وجعل المطالعة والبحث الذاتي عن المعلومات أولى ركائز التعليم وأهم وسائله،

مع ربطها بالحياة ومتطلباتها، وتوسيع مدارك الدارسين العقلية.

٥. **الارتباط بأفضل الكتب**: من الخطأ القول: إن الانسان لايقرأ أو لايميل إلى القراءة حتى يصبح قارئاً أفضل ولو كان الأمر كذلك لما استطاع إي إنسان أن يقرأ أي كتاب. فالقراءة أسمى من ذلك وأجل، إنها للمتعة والفائدة، وكسب المعلومات، وفوق هذا وذاك، لتحريك العقل، وصقل الوجدان، ولفهم أنفسنا والعالم حولنا، ثم لزيادة الوعي والثقافة، والمشاركة في التقدم العلمي، إلى غير ذلك من الأهداف النبيلة[٢٠].

عناصر تعليم القراءة:

أهم هذه العناصر ما يأتي:

١ – **المتعلم**: وهو الفرد الذي يريد تعلُّم القراءة أو يراد له ذلك، وينبغي أن يعنى باستعداده للقراءه فالأفراد يتفاوتون من حيث استعداد كل منهم للقراءة وفقاً لمبدأ الفوارق الفردية، واختلافهم في القدرات العقلية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمهارات اللغوية فقد يستطيع تعلُّم القراءة طفل في الرابعة من عمره الزمني، بينما هناك طفل آخر يظهر استعداده في السادسة من هذا العمر، وطفل آخر لايكون مستعداً لتعلُّم القراءة قبل السابعة من عمره الزمني فهناك ارتباط بين تعلُّم القراءة والعمر العقلي.

٢ – **المعلم**: وهو من يوكل إليه تعليم القراءة للنشِئ بالمدرسة، وعليه أن يدرك الآتي:

-متى استعداد كل طلبة من طلابه للقراءة، أي يعرف قدرات كل منهم للقراءة حتى يقدم له ما يناسب هذه القدرات، حيث لو قدّم له ما هو أكبر من قدراته فقد يصيبه بالإحباط، ولو قدّم ما هو أقل من قدراته فقد يصيبه الغرور، وكلاهما قد يصرفه عن عملية تعليم القراءة أو الميل فيها أو إليها.

-البيئة التي تعيش فيها المتعلم، فالطلبة الذي يعيش في بيئة صحراوية تكون متطلباته

---

[٢٠] فن القراءة، الدكتور عبداللطيف الصوفي، ط١: ٣٦ ـ ٤١.

القرائية غير الذي يعيش في بيئة حضارية، وغيرهما من يعيش في بيئة زراعية تختلف متطلباته القرائية عنهما، وعمن يعيش في بيئة صناعية، وقد توجد بيئات متعددة داخل وطن واحد.

٣- **التهيئة:** مهما كان نوع بيئة المتعلم فلابد أن يسبق تعليم المتعلم مهارات القراءة تهيئة مناسبة تشحذ استعداده للقراءة وتزيد دافعيته نحوها، وهذه التهيئة تختلف باختلاف المستويات للمتعلمين، واختلاف بيئاتهم أيضاً. وهذه التهيئة تكون عامة فيما يتعلق بفن القراءة، وتكون مع كل درس من دروس القراءة بما يناسبه، وتكون مشوقة للمتعلمين.

٤- **الفروق الفردية:** كذلك ينبغي على المعلم مراعاة المحتوى والفروق الفردية بين المتعلمين لفن القراءة. وهذه الفروق أيضاً ينبغي مراعتها عند عمليات التقويم البنائي أو التكويني والتقويم النهائي أيضاً. وقد تأتي هذه الفروق الفردية هنا من قبل اختلاف المستويات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو القدرات العقلية أو السمات الفردية[٢١].

❖ **استعداد الطلبة للقراءة:**

هناك أربعة عوامل تجعل الطلبة تخلق الاستعداد لدرس القراءة، وأهمها ما يأتي:

١- **الاستعداد العقلي:** القراءة عملية معقدة، والنجاح فيها يتطلب قدراً معينا من النضج العقلي، ولقد اختلف في تحديد العمر العقلي للطفل من حيث الزمن الذي يتناسب مع دخوله في المدرسة فيرى بعضهم أنه ست سنوات، بينما يراه آخرون ست سنوات ونصف أو سبع.

يجب على المربي (المعلم) إدراك حقيقة أن العمر العقلي (الذكاء) ليس العامل الوحيد الذي يؤثر في عملية نجاح تعلم الطلبة القراءة، فهناك أمور أخرى تؤثر في هذه العملية، مثل: جو غرفة الصف، ومهارة المعلم، وعدد الطلبة والمناهج وإعادة استخدامها في القراءة، وطريقة تعليمها[٢٢] .

٢- **الاستعداد الجسمي:** لايتوقف تعلم الطلبة للقراءة على العامل العقلي فقط، بل هناك عامل آخر يؤثر بشكل كبير في عملية تعلم الطلبة للقراءة وهو العامل الجسمي. فالطالب الذي يعاني من ضعف في البصر يكون عنده قصور في تعلم القراءة. ومع اختلاف البحوث والدراسات في العلاقة بين القصور البصري وصعوبة القراءة إلا أنها أجمعت عنى عدة نقاط منها:

- إنَّ نسبة الطلبة الذين يعانون من قصور في القدرة البصرية ويعانون من صعوبة في

---

[٢١] ينظر: تدريس اللغة العربية، الدكتور علي إسماعيل محمد، د.ط، ١٧٨ – ١٨١.

[٢٢] أساليب تعليم القراءة والكتابة، سحر الخليلي، ط١: ٥٧.

القراءة أكبر بدرجة قليلة من الذين لايواجهون صعوبة في القراءة.

- إنَّ أداء الطلاب ذوي القصور البصري في القراءة أقل بكثير من الذين لا يوجد لديهم قصور بصري.

والعوامل الجسمية لا تتوقف على البصر بل تمتد إلى السمع التي يحتاجه الطالب في القراءة. فضعف الحاسة أو عدم نضجها يؤدي إلى عدم قدرته على الربط بين الأصوات التي يسمعها والكلمات التي يريد أن يقرأها. وكذلك يساعد الطالب على فهم التعليمات والإرشادات التي يوجهها المعلم.

وترتبط حاسة النطق بحاسة السمع من حيث قدرة الطالب على القراءة. وهذا لها الأثر السلبي على تعلم الطالب الذي يعاني من عيوب في النطق فهو يميل إلى الانطواء الخجل والخوف من القراءة. وأن كثيرا من الممارسات الإكلينيكية(٢٣) تكشف أن الطلاب الذين يعانون من من عيوب في النطق حتى وإن كانت ضئيلة يصرون على عدم رغبتهم في القراءة الجهرية. ويبدون ميلا شديدا في كراهيتهم للقراءة الجهرية.

٣- **الاستعداد النفسي:** من أهم العوامل في تطور مهارات القراءة لدى الطفل هو دافعيته نحو تعلم القراءة، فكلما زادت دافعية الطالب نحو القراءة زاد من إمكان إتقانه لمهارات القراءة. ويشير إلى أن هذه الدافعية مبنية بشكل كبير على اتجاه المتعلم نحو التعلم، وأن الطلاب الذين يأتون من بيئات مختلفة تؤثر بشكل سلبي أو إيحابي في التكوين النفسي للطلبة. فبينما بعض الطلاب يكون لديه المقدرة على التكيف بسرعة مع جو المدرسة، نجد البعض الآخر ينقصه هذا التكيف مما يجعل استعداده للتعلم بشكل أقل من زملائهم. فالأبحاث تكاد تتفق على أن إخفاق بعض الطلاب في القراءة سببها الرئيس مشكلاتهم الشخصية والعاطفية.

٤- **الاستعداد التربوي:** وهنا يتمثل دور الأسرة بشكل كبير، فالاستعداد التربوي قائم على أمور من أهمها الخبرات المعرفية واللغوية، فالتفاوت في محصول خبرات الطلبة المعرفية واللغوية يكون سببا رئيسا في التفاوت في سرعة تعلم الطالب للقراءة، فكما ذُكر سابقا أن التفاوت في الخبرات المعرفية واللغوية قد تكون سببا في زيادة عمق الفهم التي تتطلبه

---

(٢٣) الإكلينيكية: تعني علم النفس السريري الذي يدمج بين العلوم والنظريات والمعرفة السريرية يهدف طبيعة القلق والضغوط والإضطرابات أو الأمراض النفسية والخلل الوظيفي الناتج عنها ومحاولة التخفيف في حدتها والتغلب عليها من خلال الفحص والتشخيص والعلاج، كما أنه يهدف إلى تعزيز السعادة الذاتية لدى الفرد مما يحقق له التقدم على مستوى الشخصي، فضلاً عن ذلك تركز بصورة أساسية على كل من التقيم النفسي والعلاج النفسي والدوائي في ممارسة العلمية.

القراءة في مفهومها الحديث[٢٤] .

❖ **وظائف القراءة:**

١. **الوظيفة المعرفية:**

تُعدّ القراءة من أهم الوسائل في التعرف على ثمار الحضارة الإنسانية في شتى فروع المعرفة. وبها نتصل بأفكار من سبقنا من الأمم والحضارات، وبها نطلّع على ثمار الثقافات المختلفة للأمم المعاصرة.

وتساعد القراءة الفرد على تقدم في التحصيل الدراسي، إذ تعدّ القراءة إحدى وسائل البحث العلمي. وعن طريقها نجد إجابات لكثير من تساؤلاتنا، وحلولاً لبعض مشكلاتنا، وكذلك تسهم في النمو العقلي للفرد؛ لأن استعداداته العقلية تنمو وتتشكل في أفضل صورة ممكنة عن طريق القراءة.

٢. **الوظيفة النفسية:**

تشبع القراءة في الفرد حاجات كثيرة، فهي تشبع حاجاته للاتصال بالآخرين ومشاركتهم في أفكارهم ومشاعرهم. كما تشبع حاجة الفرد للاستقلال؛ لأنها تمكنّه على نفسه في تحصيل المعرفة، وتتيح له فرصة اكتشاف عوالم مجهولة وحقائق كانت فيما يتعلق به غير معلومة، وكذلك تساعد الفرد على التكيف النفسي في مواجهة الصراع وحالات الإعاقة أو القصور عن تحقيق الأهداف، إذ قد يلجأ الفرد إلى قراءة القصص أو نحوها لينفس عن نفسه من بعض الضغوط النفسية التي يعانيها.

وفضلاً عن دورها في تنمية ميول الفرد وزيادة اهتماماته، والاستفادة من أوقات فراغه، والاستمتاع بحياته؛ لأنه يجد شعوراً بالمتعة والسعادة.

٣. **الوظيفة الإجتماعية:**

تسهم القراءة في إعداد الفرد للحياة الإجتماعية، فمنها يكتسب أفكاره واتجاهاته وقيمه، ومن خلالها يتعرف على سلوك غيره ومشاعرهم، وعبرها يتفهم النظام الإجتماعي المحيط به، ويتكيف مع محيطه، حيث تعدّ القراءة وسيلة مهمة من وسائل نقل التراث الاجتماعي من جيل إلى جيل، فهي عامل من عوامل إحيائه وتنميته وتنقيحه وتطويره، ومن دونها يبقى جزء كبير من تراث الأمة خامداً ومهملاً في بطون الكتب، وهي وسيلة للاتصال الفكري والتبادل الثقافي بين الشعوب

---

[٢٤] مدى تمكن طلاب الصف الأول المتوسط في مدارس التعليم العام وفي مدارس تحفيظ القرآن الكريم من مهارات القراءة الجهرية، صالح بن إبراهيم بن محمد الشبل، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية – رياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية(١٤٣١): ٤٢ – ٤٤.

المختلفة، خاصة في عالمنا المعاصر[٢٥].

❖ **مهارات القراءة.**

للقراءة مجموعة من المهارات، ولكل درس من دروس القراءة خاصة به يجب أن تعالج في أثناء عملية التعليم، ومعنى هذا أن أي نسيان أو إهمال في تعليم هذه المهارات في الوقت المناسب، يفضي إلى خلل في تعلم القراءة؛ ولأن تعلم القراءة عملية نمو لغوي متدرج فإن كل خطوة منها تعتمد على مزيد من اكتساب المهارات الأساسية، بحيث تكون هذه المهارات متتالية ومتكاملة[٢٦].

ومن مهارات القراءة المهمة التي أشار إليها الباحثون: (مهارة الفهم، ومهارة التعرف، ومهارة النطق، ومهارة التقويم، ومهارة الاستفادة العلمية من المقروء).

١ - **مهارة الفهم:** إن القراءة من أهم المهارات التي تؤكد عليها مرحلة التعليم الأساسي، حيث يحتل تعليم القراءة –كمهارة أساسية – الجزء الأكبر من العمل المدرسي، والهدف من كل قراءة هو فهم المعنى أساساً، ويستطيع القارئ الجيد أن يفهم الكلمات من السياق كما يستطيع فهم الكلمات كأجزاء للجمل، والجمل كأجزاء للفقرات، والفقرات كأجزاء للموضوع كله[٢٧].

ويمكن تعرف **مهارة الفهم** بأنها: المقصود بها تمكين المتعلم من معرفة معنى الكلمة ومعنى الجملة، والربط بين المعاني بشكل منظم ومنطقي متسلسل، والاحتفاظ بهذه المعاني والأفكار وتوظيفها في مختلف المواقف الحياتية اليومية[٢٨].

و**الفهم** يعتمد على ثلاثة عناصر أساسية:

أ ـ **القارئ:** تؤثر خصائص القارئ العقلية والمعرفية والدافعية على قدرته على القراءة، من حيث الكم والكيف.

ب ـ **النص موضوع القراءة:** تؤثر درجة مقروئية النص من حيث الوضوح والتنظيم والطباعة

---

(٢٥) فاعلية برنامج تعليمي في اللغة العربية مستند إلى التعلم التعاوني في مهارة القراءة لدى طلبة الصف التاسع الاساسي في مدارس محافظة جنين حكومية، شهد سفيان أحمد جرار (٢٠١٤): ١٧ –١٨.

(٢٦) فاعلية برنامج تعليمي في اللغة العربية مستند إلى التعلم التعاوني في مهارة القراءة لدى طلبة الصف التاسع الاساسي في مدارس محافظة جنين حكومية: ١٧ –١٨.

(٢٧) فعالية برنامج مقترح لتنمية مهارات القراءة الجهرية لدى تلاميذ ذوي التخلف العقلي البسيط ، علي سعد سالم آل جبار القحطاني، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الملك سعود (١٤٣٠): ٢١.

(٢٨) تدريس مهارة القراءة في ضوء المقاربة بالكفاءات السنة الثانية ابتدائي أنموذجاً، زنازل نور الهدى، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغة، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر (٢٠١٦): ٥٧.

والألوان وعناصر التشويق، على درجة فهم القارئ ودرجة الاهتمام بالقراءة.

ج . **السياق:** تؤثر الظروف البيئية على عملية القراءة، فالاختبارات وما يصاحبها من قلق وتوتر يمكن أن يؤثر على الفهم القرائي، كما أن الغرض من القراءة له تأثير على الفهم، فالقراءة للتسلية تختلف عن قراءة المواد الدراسية لغرض التحصيل العلمي[٢٩].

وللفهم القرائي أربعة مستويات، على نحو التالي:

- **الفهم الحرفي:** ويتضمن تذكر الحوادث التفصيلية فيه، وربطها بالأفكار الرئيسية.
- **الفهم التفسيري:** والذي يعني إدراك العلاقات بين الأسباب والنتائج، والتوصل إلى التعميمات.
- **الفهم الناقدي:** والذي يهتم بإصدار الحكم على المادة المقروءة، وهذا هو العنصر الثالث من القراءة في مفهومها الحديث الذي يتطلب أن يتفاعل القارئ مع النص تفاعلاً يصدر فيه حكماً على المادة المقروءة.
- **الفهم الإبداعي:** الذي يحدث بالاستفادة من الآراء الواردة في المادة المقروءة، واستخدامها على نحو يتميز بالأصالة من خلال التطبيق المباشر لهذه الآراء. وهذا هو العنصر الرابع من عناصر القراءة الذي يتمثل من خلال الاستفادة العلمية من المقروء[٣٠].

وتتطلب هذه المهارة مجموعة من المهارات الفرعية:

- مهارة تحديد الفكرة العامة أو الشاملة للنص المقروء.
- مهارة تحديد الفكرة الرئيسة أو الأساسية للنص المقروء.
- مهارة تحديد الأفكار الثانوية أو الفرعية للنص المقروء.
- مهارة تحديد الكلمات أو المفردات المفتاحية للنص المقروء.
- مهارة تحديدما بين السطور من معان وأفكار ودلالات.
- مهارة تحديد ما وراء السطور من معان وأفكار ودلالات.
- مهارة نقد المقروء وإصدار الأحكام عليَّه.
- مهارة فهم الاتجاهات المختلفة.
- مهارة تحديد الوحدات اللغوية الأكبر من الكلمة: الجملة، الفقرة، النص.
- مهارة الاحتفاظ بالمقروء.

---

[٢٩] مدى شيوع صعوبات تعلم القراءة وعلاقتها ببعض المتغيرات التصنيفية لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية والمتوسطة بدولة كويت، صالح غانم مريجب العنزي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليج العربي(٢٠١١): ٢٦.

[٣٠] مدى تمكن طلاب الصف الأول المتوسط في مدارس التعليم العام وفي مدارس تحفيظ القرآن الكريم من مهارات القراءة الجهرية، ٢٨.

▪مهارة استخدام هذه الأفكار في مواقف حياتية مختلفة وجديدة.
▪مهارة إعطاء الرمز اللغوي معناه الخاص به[٣١].
▪القدرة على الفهم (فهم الكلمات والجمل والمحتوى والفكرة).
▪الطلاقة والانسياب
▪العمل على تجنب الأخطاء ومحاولة علاجها على فور.
▪تحديد واستخراج الأفكار والنقاط البارزة.
▪التفريق بين الأفكار الرئيسة والثانوية.
▪التفريق بين الأفكار الرئيسة والتافصيل الداعمة وتصنيف الأفكار والمعلومات.
▪فهم العلاقات القائمة بين الأفكار ومعانيها.
▪استخدام الرموز والمختصرات وتسجيل الأفكار بعبارات موجزة.
▪تنويع السرعة في القراءة لما يناسب الغرض منها.
▪تنظيم معلومات المكتسبة من المقروء[٣٢].

١- **مهارة التعرف:** أساس القراءة تعرف الكلمات، وتعد من أهم المهارات التي يحتاج إليها القارئي، ويستطيع القارئ تعرف الكلمات في دقة ويسر لأسباب منها: الصورة الكلية للكلمة، ولحصيلة اللغوية، والسرعة الإدراكية، واستخدام السياق لتعرف الكلمة، وقدرة القارئ على ملاحظة البناء الصوتي للكلمة[٣٣].

ويقصد **بمهارة التعرف** هي: التعرف على الكلمات بصرياً و صوتياً ودلالياً[٣٤].

مهارة التعرف تشمل عنصرين أساسين، الأول هو التعرف على الكلمة، وتمييزها بدقة بمعنى نطقها نطقاً صحيحاً والتمييز بينها وبين الكلمات الشبيهة لها، أو ما يسمى بالتعرف على الكلمة وتحويلها من رمز لا معنى له إلى كلمة ذات دلالة محددة يحضر معناها في ذهن القارئ كلما رآها، أما العنصر الثاني فيتمثل في الاتوماتيكية أو الأولية، ويقصد بها السهولة أو السرعة في التعرف على الكلمات أو ما يطلق عليه التلقائية والانسيابية في القراءة دون تعثر[٣٥].

---

[٣١] العوامل المؤثرة في اكتساب مهارات القراءة لدى تلاميذ السنة الثانية ابتدائي، تيخمارين حياة، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة أبوبكر بلقايد (٢٠١٨): ٢٨ – ٢٩.

[٣٢] تدريس مهارة القراءة في ضوء المقاربة بالكفاءات السنة الثانية ابتدائي أنموذجاً: ٥٦.

[٣٣] تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الإبتدائية رؤية تربوية ، الدكتور سمير عبدالوهاب – الدكتور أحمد علي الكردي – الدكتور محمود جلال الدين سليمان، (٢٠٠٤)، ط٢، ٨٩.

[٣٤] العوامل المؤثرة في اكتساب مهارات القراءة لدى تلاميذ السنة الثانية ابتدائي: ٢٧.

[٣٥] مدى شيوع صعوبات تعلم القراءة وعلاقتها ببعض المتغيرات التصنيفية لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية

والمهارات الأساسية للتعرف هي:

- ▪ربط المعنى المناسب بالرمز (الحرف) الكتابي.
- ▪التعرف إلى أجزاء الكلمات من خلال القدرة على التحليل البصري.
- ▪التمييز بين أسماء الحروف وأصواتها.
- ▪ربط الصوت بالرمز المكتوب.
- ▪التعرف إلى معاني الكلمات من خلال السياقات[٣٦].
- ▪قراءة النص من اليمين لليسار بشكل سهل.
- ▪الانتقال من سطر إلى سطر بانتظام.
- ▪تعرف الكلمات عن طريق تحليلها إلى أصواتها.
- ▪التعرف على الكلمات مهما اختلف شكل كتابتها. مثل الهاء في أول الكلمة تختلف عن وسطها. والياء في وسط الكلمة تختلف عن آخرها.
- ▪إدراك التشابه والاختلاف بين الحروف. مثل الشين والسين، والراء والزاي، والصاد والضاد.
- ▪إدراك التشابه والاختلاف بين الكلمات، مثل نضخ ونضح، وجذب وجبذ.
- ▪التعرف على إشارات الطباعة وتفسيرها، مثل علامة الاستفهام والتعجب.
- ▪التعرف على الحروف التي تكتب ولا تنطق، مثل اللام الشمسية. التعرف على الحروف التي لاتكتب وتنطق، مثل الألف في هذا[٣٧].

٢ - **مهارة النطق:** القصد من مهارة النطق هو سلامة إخراج الحروف من مخارجها، وحسن نطق الحركات الطوال (الألف والواو والياء) فلا تنطق كلمة ارتقى (ارتكى)، ولا كلمة عثر (عسر)، ولا كلمة اعتماد (اعتمد)، ولا كلمة قيل (قل)، أو كلمة كثر (كسر)، ولا كلمة يقول (يقل). وبعض الطلبة المعاقين فكرياً القابلين للتعلم الذين يعانون من مشكلة النطق ينزعجون عندما يطلب منهم المعلم قراءة منهج بطريقة جهرية، ويرجع ذلك إلى حساسيتهم نحو ما يرتكبون من أخطاء في النطق، وكراهيتهم لإظهارها في مواقف القراءة[٣٨].

ويمكن تعريفه بأنه: إخراج الأصوات من مخارجها الصحيحة، مع مراعاة صفات كل صوت من حيث التفخيم والترقيق، والشدة والرخاوة، والجهر والهمس، ويعدّ النطق هو المرآة التي تعكس شخصية القارئ وثقافته، ومن بين مهارات النطق ما يأتي:

والمتوسطة بدولة كويت: ٢٤.

[٣٦] بوصلة التدريس في اللغة العربية: ١٠٤.

[٣٧] مدى تمكن طلاب الصف الأول المتوسط في مدارس التعليم العام وفي مدارس تحفيظ القرآن الكريم من مهارات القراءة الجهرية: ٢٧.

[٣٨] فعالية برنامج مقترح لتنمية مهارات القراءة الجهرية لدى تلاميذ ذوي التخلف العقلي البسيط: ٢١.

- نطق الأصوات نطقاً صحيحاً من حيث المخرج.
- التمييز بين الأصوات المفخمة، والأصوات المرققة.
- نطق الحركات القصار والحركات الطوال نطقاً دقيقاً.
- التمييز بين الأصوات المهموسة، والأصوات المجهورة.
- التمييز بين الأصوات الشديدة، والأصوات الرخوة، والأصوات المتوسطة[٣٩].

٣- **مهارة التقويم:** بعد تطور المفهوم القراءة بدأ الباحثون في شأن القراءة بان لايكتفي القارئ بالفهم بل لابد إظهار مشاعره اتجاه ما يقرأ. ولابد أن يظهر حكما على ما يقرأه من حيث الجودة وعكسها، والفائدة ومغايرتها؛ لذلك أصبحت مهارة التقويم ركناً من أركان القراءة. والمهتمين بشأن القراءة جعلوا التقويم مستوى من مستويات الفهم القرائي، ونوعاً من أنواعه. بل يعد التقويم نوعاً متقدماً يتطلب من القارئ أن يكون ذا خبرات متعددة عميقة، ومعارف متنوعة أكثر مما تتطلبه المستويات الأخرى. ويذكر عدداً من مهارات التقويم منها ما يأتي:
- تقويم المحتوى وتحديد نقاط القوة والضعف فيه، وهنا يزيد من القناعة أن لابد للقارئ أن يتسلح بخبرات عميقة، ومعارف متنوعة.
- تقويم المحتوى، وتحديد مستوى الدقة والمبالغة فيه. حيث تطلب من القارئ هنا أن يميز بين الحقائق العلمية والآراء الشخصية للكاتب، وكذلك يجب على القارئ أن يميز بين الدعاية وعكسها.
- تقويم المحتوى، وتحديد صدق المعلومات من عدمها. وهنا يتطلب من القارئ أن يزن الأدلة التي أوردها النص ويمحصها، ويعرف مدى صحتها وملائمتها، والتمييز بين العبارات الصحيحة والمخطوءة في النص، ومعرفة التراكيب الحقيقية والمجازية في النص، وإدراك المتشابه والمتناقض من المعاني.
- معرفة غرض الكاتب، ووجهة نظره، وإلى ماذا يهدف إلى النص، والحالة المزاجية له.
- الموازنة بين مقروء وآخر. وهذا يتطلب من القارئ أن يكون ذا ذاكرة استيعابية جيدة، وكذلك أن يكون ذا قدرة على المقارنة بموضوعية ومن دون اعتماد على كاتب النص.

٤- **مهارة الاستفادة العلمية من المقروء:** مع بداية العقد الثالث ظهرت نقلة نوعية في مفهوم القراءة تتمثل في أن القراءة لابد أن يكون لها أثر في تشكيل الإنسان معرفياً ومهارياً وجدانياً، فأصبحت القراءة أسلوباً من أساليب النشاط الفكري في حل المشكلات. فالقراءة لابد أن تظهر في حياة القارئ، وأن ينتفع بها في حياته اليومية، ومن أهم

---

[٣٩] فاعلية المسرح التعليمي في تنمية مهارات القراءة الجهرية لدى تلاميذ الحلقة الثانية من التعليم الأساسي، سلوى محمد أحمد عزازي، (٢٠٠٧): ٦٧.

مهارات الاستفادة العلمية من القراءة ما يأتي:

- الربط بين أفكار النص وقيمه والواقع، وتسخيره لخدمته في الحياة.
- استخدام بعض ما يرد في النص للتعبير عمّا في النفس[٤٠].

العوامل التي تساعد على في تنمية مهارات القراءة:

- البيت (الأُسرة).
- دور الحضانة والروضة مرحلة ما قبل المدرسة.
- المدرسة.
- القصص.
- الأغاني والأناشيد.
- الرحلات.
- الحديث الجماعي.
- الوسائل السمعية والبصرية[٤١].

❖ أنواع القراءة:

يمكن تحديد أنواع القراءة من زواياها الأربع هي:

(من حيث التهيؤ الذهني للقارئ، من حيث أغراض القارئ، من حيث السرعة، من حيث الأداء)

الأول: من حيث التهيؤ الذهني للقارئ: وينقسم هذا النوع من القراءة إلى نوعين:

١) **القراءة للدرس:** وهي قراءة تتصل بالمهنة والواجبات المرتبة، وتهدف إلى تحصيل المعلومات وحفظها، وبذلك فهي تمتاز باليقظة، والتأمل والتفرغ، والجد والاهتمام، فهي تستغرق وقتاً طويلاً، وتتطلب وقفات متكررة ورجوعاً إلى المادة مرات متعددة[٤٢].

٢) **القراءة للاستماع:** تطلق عليها (القراءة بالأذن): وهي قدرة المستمع على الفهم، وإدراك ما يسمع، ويكون ذلك بتمكينه من ترجمة الأصوات إلى دلالات، ويحتاج ذلك إلى قدرة فائقة

---

(٤٠) مدى تمكن طلاب الصف الأول المتوسط في مدارس التعليم العام وفي مدارس تحفيظ القرآن الكريم من مهارات القراءة الجهرية: ٣١ – ٣٢.

(٤١) فاعلية استخدام استراتيجية التعليم المتمايز في تنمية مهاراتي القراءة والكتابة لدى تلاميذ الصف الثاني الابتدائي في مقرر اللغة العربية، مها سلامة نصر، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠١٤): ١٧.

(٤٢) أثر استخدام طريقة لعب الأدوار في تدريس القراءة على تنمية التفكير التأملي لدى طلبة الصف الثالث الاساسي، جيهان أحمد العماوي: ٥١.

على التركيز، بعيداً عن شرود الذهني وتقوم على عنصرين:
أ- تلقي الصوت بالأذن، وأجهزة السمع المرافقة.
ب- إدراك المعاني التي تحملها الأصوات المسموعة.

وهذا النوع من القراءة يظهر مرتبطاً بقضاء وقت الفراغ، ويبدأ اهتمام الطفل بهذه القراءة في بادئ الأمر، بإقباله على مطالعة القصص الخرافية، والصور الطريفة، ثم يزداد هذا الاهتمام كلما تقدمت السن[٤٣].

الثاني: من حيث أغراض القارئ: حيث يمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية:

١) **القراءة التعرف:** تكوين فكرة عامة عن الموضوع كقراءة تقرير أو كتاب جديد، وهذا النوع تتطلبه حياتنا الراهنة نظراً لضخامة الانتاج اليومي من المطبوعات في العلوم والفنون والآداب، وتمتاز هذه القراءة بالوقفات في أماكن خاصة لاستيعاب الحقائق وكذلك السرعة والفهم في الأماكن الأخرى[٤٤].
٢) **القراءة التحصيلية:** وهي القراءة التي يهدف بها القارئ إلى الدراسة والتحصيل والتزود بالمعلومات، التي يستخدمها في المدرسة أو الجامعة لاجتياز الاختبارات، وهي من القراءات الأساسية التي لايمكن الاستغناء عنها لتحقيق التقدم الدراسي. (خليفة وآخرون، ١٩٩٦: ٤١).
٣) **القراءة لجمع المعلومات:** وفيها يرجع القارئ إلى مصادر كثيرة، قصد جمع المعلومات التي يحتاج إليها في إنجاز بحث أو رسالة ويتطلب هذا النوع من القراءة مهارة التصفح السريع، والقدرة على التلخيص[٤٥].
٤) **القراءة النقدية التحليلية:** نوع خاص من القراءة المركزة بحيث يهتم القارئ بتقويم ما يقرأ من حيث المحتوى أو السياق المنطقي أو مستوى النوعية ولتحديد نقاط الضعف والقوة في المادة القرائية، وهي ضرورية لكل طالب من أجل نقد الكتب والأبحاث والتقارير[٤٦].

---

[٤٣] أثر استخدام الدراما على تحسين مستوى بعض المهارات القرائية لدى طلبة الصف السابع الأساسي، لطفي موسى أبو موسى، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠٠٨): ٢٨.

[٤٤] الاخطاء القرائية الشائعة لدى طلبة الصف الثالث الأساس في ضوء المستويات المعيارية، علاء حسن عويضة رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – : ٢١ – ٢٢.

[٤٥] العوامل المؤثرة في اكتساب مهارات القراءة لدى تلاميذ السنة الثانية ابتدائي: ١٧.

[٤٦] أسباب تدني مستوى القــراءة ومقترحات علاجهـا فـي المدارس الأساسية من وجهــات نظــر المعلمــين والمشرفــين التربـويين في محافظة نابلس، ميرا محمد رمضان زيد (٢٠١٦)، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية: ١٦.

الثالث: من حيث السرعة:

١) **القراءة الخاطفة:** تهدف إلى معرفة شيء معين في لمحة من الزمن كقراءة فهارس الكتب وقوائم المؤلفين والأدلة بأنواعها، وهي قراءة ضرورية للباحثين والمتعلمين. (النوري، ٢٠١٠: ٥٦).

٢) **القراءة السريعة:** هي القراءة التي تمارس حين تكون المادة المقروءة لا تتطلب دقةً وتركيزاً، وهدفها الفهم العام مثل قراءة الصحف، ويمكن للدارس استخدام هذا النوع من القراءة أثناء عملية المراجعة بشرط أن لا تكون مادة صعبة وتحتاج إلى لتركيز وقراءة معادة، ويجب أن لا ينشد الفرد السرعة القرائية بقدر ما ينشد الفاعلية فيها[٤٧].

٣) **القراءة العادية:** تستخدم للإجابة عن سؤال معين، أو لمعرفة العلاقة بين التفاصيل والفكرة العامة، أو لقراءة مادة متوسطة الصعوبة.

٤) **القراءة الدقيقة المتأنية:** تستخدم للتمكن من المادة، ولمعرفة التفاصيل وتسلسلها، ولمتابعة التوجيهات، ولحل المسائل، ولقراءة مادة صعبة نسبياً، وقراءة الشعر، والقراءة للتذكر، وللحكم على المادة المقروءة[٤٨].

الرابع: من حيث الأداء:

١) **القراءة الجهرية:**

مفهوم القراءة الجهرية: هي ترجمة الرموز المكتوبة إلى ألفاظ منطوقة وفهم معانيها وتقويمها، فالنطق فيها عنصر فعال ويشكل محوراً رئيسياً فيها، وفيها تشترك العين والذهن واللسان، ومن أبرز ما تشدد عليه:

- نطق الكلمات والجمل نطقاً صحيحاً.
- الاسترسال في القراءة.
- التعبير الصوتي عن المعاني أي تمثيل المعنى من خلال النبرات الصوتية.
- تحقيق الفهم والإفهام.
- ضبط حركات الإعراب[٤٩].

---

[٤٧] أسباب تدني مستوى القراءة ومقترحات علاجها في المدارس الأساسية من وجهات نظر المعلمين والمشرفين التربويين في محافظة نابلس: ٩٧.

[٤٨] برنامج مقترح لتنمية مهارات القراءة الصامتة وأثره في تحسين مستوى التحصيل الدراسي، خالد بن عبدالله الراشد (٢٠٠١)، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الملك سعود: ١٩.

[٤٩] تدريس اللغة العربية في ضوء الكفايات الأدائية، الدكتور محسن علي عطية، ط١: ٩٧.

فوائد القراءة الجهرية:

القراءة الجهرية لها فوائد كثيرة، نلخصها بالآتي:

١- وسيلة مهمة للكشف عن عيوب النطق عند القارئ؛ لعلاجها في الوقت المناسب، وتعويده على النطق السليم..

٢- تحسن النطق عند القارئ، وتعويده على مخاطبة الجماهير، من دون خوف أو خجل.

٣- تنمية روح المنافسة في إلقاء الشعر والأناشيد والمسرحيات بصوت عالٍ ومسموع.

٤- تساعد القارئ والسامع على إدراك مواطن الجمال في التعبير، وتمثيل المعنى للنص المقروء.

٥- تعود القارئ على السرعة المناسبة في القراءة، من دون إسراع وإبطاء يخلّ بالمعنى.

٦- يشارك القارئ السامع الاستمتاع والسرور بما يقرأ.

٧- تسعد القارئ عندما يمدح عليها من المعلم، أو الأهل أو من يثني عليه من الجمهور.

٨- تساعد على بناء الشخصية، وإعداد القيادات المستقبلية.

٩- القراءة الجهرية الجيدة والمؤثرة والجذابة تنمي عند المستمع حب القراءة، والأذن اللغوية عند المقارنة بين صوتين أو أكثر.

١٠- تغيير نبرة الصوت من القارئ تشد الانتباه، وتساعد على التركيز، وتجذب المستمع[٥٠].

مزايا القراءة الجهرية:

وللقراءة الجهرية مزايا متعددة من الناحية **اللغوية** و**الإنفعالية** و**الإجتماعية**.

فمن الناحية اللغوية:

١- تعّد وسيلة للتدريب على صحة القراءة، وجودة النطق وحُسن الأداء.

٢- من خلالها تكتشف الأخطاء في النطق.

٣- عن طريقها يتم تعرف أخطاء القراءة الشائعة، علاجها.

٤- هي فرصة للتدريب على الأداء الصوتي، وتمثيل المعنى.

ومن الناحية الإنفعالية:

١- تعّد مجالا مناسبا للقضاء على الخجل والتردد والارتباك.

٢- تمنح المتعلم الثقة بنفسه، والقدرة على مواجهة الآخرين.

٣- ترفع معنويات المتعلم وسط أقرانه بمنحه فرصة إثبات ذاته وإعلان وجوده.

---

[٥٠] أثر استخدام الدراما على تحسين مستوى بعض المهارات القرائية لدى طلبة الصف السابع الأساسي: ٢٥.

ومن الناحية الاجتماعية:

١ – هي تدريب وجوده وحضوره في المجتمع، ومشاركة الآخرين وحواراتهم وأحاديثهم.
٢ – تمنح مواقف يتعود من خلالها المتعلم التعامل مع الجماهير بحيث ينبغي عليه أن يكون قادراً على إيصال كلامه إليهم.
٣ – تشعر المتعلم بالمسئولية الاجتماعية(٥١).

عيوب القراءة الجهرية:

١ –رُبّما لايتسع وقت الحصة لإقراء جميع الطلبة مما يؤدي إلى حالة من الإحباط لدى بعض الطلبة.
٢ –إنشغال بعض الطلبة أثناء قراءة الآخرين بأمور خارج عن موضوع الدرس.
٣ –الشعور بالسأم والملل لدى بعض الطلبة حين الاقتصار على موضوع واحد وتعدد قراءته وانعدام وجود شيءٍ جديد فيه.
٤ –مجهدة للطالب والمدرس.
٥ –تتسم بالبطء فلا تصلح لتحصيل المعارف والتشدد على محتوى المقروء(٥٢).

٢) القراءة الصامتة:

مفهوم القراءة الصامتة: القراءة التي لاتستخدم فيها الجهاز الصوتي. حيث يكون القارئ يدرك الحروف والكلمات المطبوعة أمامه ويفهمها من دون الصوت ومن دون أن يجبر بنطقها، فهي عملية حلّ الرموز المكتوبة وفهم مدلولاتها بطريقة فكرية هادئة(٥٣).

فوائد القراءة الصامتة:

القراءة الصامتة لها فوائد عديدة، نلخصها فيما يأتي:

١ – توفر الوقت والجهد لتحصيل واكتساب المعرفة من دون إرهاق كما يحدث في القراءة الجهرية.
٢ – تحقق المتعة والسرور والاستماع للقارئ، من دون أن يشعر به الآخرون.
٣ – تعود القارئ الاعتماد على النفس والاستقلالية.

---

(٥١) القراءة وتنمية التفكير، سعيد عبدالله لافي، د.ط: ١٧.

(٥٢) العوامل المؤثرة في اكتساب مهارة القراءة لدى تلاميذ السنة الثانية ابتدائي: ١٤ – ١٥.

(٥٣) إعداد كراسة التدريبات لترقية مهارة القراءة بمدرسة الإرشاد الإسلامية في المرحلة الابتدائية بسنغافورة، رجب جون، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج (٢٠١٤): ١٩.

٤- تحرر القارئ من أعباء النطق والضبط وتمثيل المعنى الذي قد يوقع في الإحراج وتهتم باستيعاب المعنى.

٥- لا يوجد فيها إزعاج للآخرين لما فيها من صمت وهدوء، ويمكن لأكثر من قارئ القراءة في نفس المكان والزمان.

٦- تزويد القارئ ببعض القيم، والاتجاهات الإيجابية المرغوب فيها، مثل: الذوق الرفيع، واحترام شعور الآخرين، والترتيب والنظافة، كما يحدث في المكتبات العامة، أو المكتبة المدرسية.

٧- تكون مدة الانتباه والتركيز فيها طويلة، وتقلل من الملل.

٨- تشغل جميع الطلاب في الفصل، مراعية الفروق الفردية بينهم.

٩- تيسر على القارئ عملية الاطلاع وتنمية الثروة اللغوية لديه.

١٠- تستخدم في جميع المراحل التعليمية، ولكن بنسبة متفاوتة.

١١- تنمي في القارئ دقة الملاحظة، والاستنتاج والنقد والحكم والتأمل في المقروء[٥٤].

مزايا القراءة الصامتة:

١- إنها الطريقة السليمة لتحصيل المعارف وتحقيق المتعة القرائية.

٢- إنها قراءة المستقبل الذي يتسم بالسرعة، فهي اقتصادية في اكتساب المعرفة؛ لأنها أسرع من القراءة الجهرية وتتيح للقارئ فرصة قراءة أكبر قدر ممكن في زمن قصير ومن دون أرهاق كما يحدث عادة في القراءة الجهرية.

٣- توطد العلاقة بين القارئ ومصادر القراءة. فهي أجلب للسرور والاستمتاع من القراءة الجهرية، لأن فيها انطلاقاً، ويتعامل فيها القارئ مع نفسه بحرية، لأنها تمضي في جو يسوده الهدوء.

٤- قراءة الحياة الطبيعية، فهي تستخدم في الحياة أكثر من القراءة الجهرية.

٥- فيها احترام لمشاعر الآخرين.

٦- تتيح الفرصة لترقية الفهم، وتذوق المقروء، وتوسع مجاله.

٧- تعود الطفل الاطلاع والاعتماد على نفسه في فهم المقروء.

٨- هي وسيلة لإخفاء عيوب النطق والكلام بعامة.

٩- هي طريق الإعداد للقراءة الجهرية.

١٠- تراعي الفروق الفردية بين طلبة الصف الواحد[٥٥].

---

[٥٤] أثر استخدام الدراما على تحسين مستوى بعض المهارات القرائية لدى طلبة الصف السابع الأساسي: ٢١ – ٢٢.

[٥٥] صعوبات تعلم القراءة لدى تلامذة الصف الرابع الأساسي وتصور مقترح لعلاجها، إيمان أحمد النوري، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة (٢٠١٠): ٦٠.

عيوب القراءة الصامتة:

١- لاتعطي فرصة للمدرس لمعرفة أخطاء الطلبة وعيوبهم في القراءة الصامتة.
٢- الإهمال للنطق وعدم العناية باللفظ.
٣- إنها قراءة فردية لاتشجع القراء على الوقوف أمام الجماعات أو مواجهة مواقف اجتماعية.
٤- لاتهيئ الطلبة للتدريب على صحة القراءة، وتمثيل المعاني وجودة الإلقاء.
٥- لاتزيل الخجل والتردد الذي قد يكون عند بعض الطلبة.
٦- تساعد على شرود ذهن التلميذ وقلة تركيزه. (عوض، ٢٠١٢: ٢٣)

الفرق بين القراءة الجهرية والصامتة:

١. القراءة الجهرية فيها الكثير من الوقفات، وإظهار الحركات، بينما الصامتة أكثر سرعة، وأقل وقفات، أو إظهار للحركات.
٢. القراءة الجهرية تستدعي أن يفسر المعلم المقروء لطلابه، بينما يفسر القارئ في الصامتة.
٣. القراءة الجهرية تتطلب مهارات للصوت الواضح، والإلقاء المؤثر، والإحساس بمعاني المقروء، وهذه أمور تحتاج إلى شيء من المهارة والقدرة، بينما لايحتاجها القارئ في القراءة الصامتة[٥٦].

الخاتمة والنتائج:

استطاع البحث تسجيل عدد من النتائج في نهاية الرحلة البحثية، منها:

١) إن مصطلح القراءة – المهارة – أخذ يلمع إلى دلالات متطورة تعكس مرونة التوظيف والوظيفة.
٢) أخذت التطورات في مجالات تنمية القراءة تسجل أفكاراً تستجد في مجال مهارة القراءة.
٣) وظيفة مهارة القراءة أخذت أبعادا واسعة في استعدادات مادية محسوسة وأخرى ملموسة في بناء هذا الركن الأساس في عملية وبناء التعليم ونتائج أخرى يلمسها المتلقي داخل المبحث، ولكل نتيجة موضعها بين أثناء المكتوب والمبحوث.

المصادر:

١. القران الكريم.
٢. اتجاهات تلاميذ المرحلة الثانوية نحو القراءة وعلاقتها بالتحصيل الدراسي في اللغة العربية ، توفيق محمد نصر الله، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى (١٩٨٨).

---

[٥٦] أثر استخدام الدراما على تحسين مستوى بعض المهارات القرائية لدى طلبة الصف السابع الأساسي: ٢٨.

٣. أثر استخدام الدراما على تحسين مستوى بعض المهارات القرائية لدى طلبة الصف السابع الأساسي، لطفي موسى أبو موسى، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠٠٨).

٤. أثر استخدام طريقة لعب الأدوار في تدريس القراءة على تنمية التفكير التأملي لدى طلبة الصف الثالث الاساسي، جيهان أحمد العماوي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠٠٩).

٥. أخطاء القراءة الجهرية باللغة العربية للطلبة الناطقين بالملاوية: دراسة وصفية، عاصم شحادة علي، خير النساء بنت بخاري، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، العدد الخاص، السنة السابعة (٢٠١٦).

٦. الاخطاء القرائية الشائعة لدى طلبة الصف الثالث الأساس في ضوء المستويات المعيارية، علاء حسن عويضة رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠١٢).

٧. أساليب تدريس اللغة العربية، الدكتور محمد علي الخولي، الأردن، دار الفلاح للنشر والتوزيع، د. ط، (٢٠٠٠).

٨. أساليب تعليم القراءة والكتابة، سحر الخليلي، دار البداية، ط١، (٢٠١٤).

٩. أسباب تدني مستوى القراءة ومقترحات علاجها في المدارس الأساسية من وجهات نظر المعلمين والمشرفين التربويين في محافظة نابلس، ميرا محمد رمضان زيد ، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية(٢٠١٦).

١٠. إضاءات، الدكتور عبدالرحمن بن إبراهيم الفوزان، العربية للجميع، د.ط، (١٤٣١).

١١. إعداد كراسة التدريبات لترقية مهارة القراءة بمدرسة الإرشاد الإسلامية في المرحلة الابتدائية بسنغافورة، رجب جون، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية مالانج (٢٠١٤).

١٢. برنامج مقترح لتنمية مهارات القراءة الصامتة وأثره في تحسين مستوى التحصيل الدراسي، خالد بن عبدالله الراشد ، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الملك سعود(٢٠٠١).

١٣. بوصلة التدريس في اللغة العربية، نضال مزاحم رشيد العزاوي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، (٢٠١٧).

١٤. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، أبو الفيض ، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ). تحقيق: عبدالستار أحمد فرج، د.ط (١٩٦٥).

١٥. تاج اللغة وصحاح العربية ، اسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ). تحقيق: أحمد عبدالغفور العطار، ط ٤ (١٩٨٧).

١٦. تدريس اللغة العربية في ضوء الكفايات الأدائية، الدكتور محسن علي عطية، دار المناهج للنشر والتوزيع، ط١(٢٠٠٧).

١٧. تدريس اللغة العربية، الدكتور علي إسماعيل محمد، د.ط ، د.ت.

١٨. تدريس فنون اللغة العربية، الدكتور علي أحمد مدكور، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ط (٢٠٠٦).

١٩. تدريس مهارة القراءة في ضوء المقاربة بالكفاءات السنة الثانية ابتدائي أنموذجاً، زنازل نور الهدى، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغة، جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر(٢٠١٦).

٢٠. تعليم القراءة والكتابة في المرحلة الإبتدائية رؤية تربوية ، الدكتور سمير عبدالوهاب – الدكتور أحمد علي الكردي – الدكتور محمود جلال الدين سليمان، ط٢، (٢٠٠٤).

٢١. تعليم مبادئ القراءة دراسة تحليلة، انتقادية، توجيهية، صبيحة عكاش فارس، جامعة الأمريكية، بيروت، د.ط (١٩٥٢).

٢٢. الدليل التدريبي في تدريس مهارات اللغة العربية وعناصرها للناطقين بغيرها النظرية والتطبيق، خالد تجسين أبو عمشة، دار الوجوه للنشر والتوزيع، ط١ (٢٠١٧).

٢٣. صعوبات تعلم القراءة لدى تلامذة الصف الرابع الأساسي وتصور مقترح لعلاجها، إيمان أحمد النوري، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠١٠).

٢٤. طرائق تدريس مهارات اللغة العربية وآدابها، الأستاذ الدكتور عابد توفيق الهاشمي، مؤسسة الرسالة، ط١ (٢٠٠٦).

٢٥. الطرق جامعة للقراءة النافعة، الدكتور محمد موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط٦ (٢٠٠٤).

٢٦. العوامل المؤثرة في اكتساب مهارات القراءة لدى تلاميذ السنة الثانية ابتدائي، تيخمارين حياة، رسالة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة أبوبكر بلقايد (٢٠١٨).

٢٧. فاعلية استخدام استراتيجية التساؤل الذاتي في تنمية مهارات القراءة الإبداعية لدى تلميذات الصف الثاني المتوسط، منى بنت أحمد بن حنش الشهري، رسالة ماجستير، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى (١٤٣٤).

٢٨. فاعلية استخدام استراتيجية التعليم المتمايز في تنمية مهاراتي القراءة والكتابة لدى تلاميذ الصف الثاني الابتدائي في مقرر اللغة العربية، مها سلامة نصر، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة الإسلامية – غزة – (٢٠١٤).

٢٩. فاعلية المسرح التعليمي في تنمية مهارات القراءة الجهرية لدى تلاميذ الحلقة الثانية من التعليم الأساسي، سلوى محمد أحمد عزازي، (٢٠٠٧).

٣٠. فاعلية برنامج تعليمي في اللغة العربية مستند إلى التعلم التعاوني في مهارة القراءة لدى طلبة الصف التاسع الاساسي في مدارس محافظة جنين حكومية، شهد سفيان أحمد جرار، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية (٢٠١٤).

٣١. فاعلية برنامج قائم على القصة في تنمية بعض المهارات القراءة الإبداعية لدى تلاميذ الصف الثالث المتوسط، حسن بن أحمد بن علي الحميد، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة أم القرى (٢٠١٠).

٣٢. فعالية برنامج مقترح لتنمية مهارات القراءة الجهرية لدى تلاميذ ذوي التخلف العقلي البسيط ، علي سعد سالم آل جبار القحطاني، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الملك سعود(١٤٣٠).

٣٣. فن القراءة، الدكتور عبداللطيف الصوفي، دمشق، دار الفكر، ط.١(٢٠٠٧).

٣٤. القراءة وتنمية التفكير، سعيد عبدالله لافي، عالم الكتب، د.ط (٢٠٠٦).

٣٥. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور (ت ٧١١هـ)، ط ٣ (١٤١٤).

٣٦. مدى تمكن طلاب الصف الأول المتوسط في مدارس التعليم العام وفي مدارس تحفيظ القرآن الكريم من مهارات القراءة الجهرية، صالح بن إبراهيم بن محمد الشبل، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية – رياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية(١٤٣١).

٣٧. مدى شيوع صعوبات تعلم القراءة وعلاقتها ببعض المتغيرات التصنيفية لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية والمتوسطة بدولة كويت، صالح غانم مريجب العنزي، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليج العربي (٢٠١١).

٣٨. المرجع في تدريس مهارات اللغة العربية وعلومها، علي سامي الحلاق، طرابلس –لبنان، المؤسسة الحديثة للكتاب، د.ط (٢٠١٠).

٣٩. معايير مهارات اللغة العربية للناطقين بغيرها، رمضان، الدكتور هاني إسماعيل رمضان، ط١، دار المبادرة للنشر والتوزيع، ط١ (٢٠١٩).

٤٠. معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، القاهرة، عالم الكتب، ط١ (٢٠٠٨).

٤١. المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى – أحمد الزيات –حامد عبدالقادر – محمد النجار . تحقيق: مجمع اللغة العربية، ط٤ (٢٠٠٤).

نظريـة الأفعال اللغويّة

عند الدكتور طه عبد الرحمن

الأستاذة الدكتورة لطيفة عبد الرّسول الضايف   محمّد كاصد غانم الساعديّ

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

الملخص:

يُعد الدكتور طه عبد الرحمن من أوائل المفكرين الذين اشتغلوا بالمنهج التداولي وأسسوا له، وأبدعوا فيه.

تحدث الدكتور طه عبد الرحمن عن أهمية هذا المفهوم (الفعل اللغويّ) لكونه يشكل نواة مركزية في البعد التداولي .

ترتكز فكرة الدكتور طه عبد الرحمن في الفعل اللغوي على أن التواصل لا يكون إلاّ بين طرفين أو أكثر بهدف تبليغ الرسالة، ومن بين أهم أسباب التواصل عنده، الأسباب اللغوية لما تمثله اللغة أنها الأداة الأساسية لحدوث هذا التواصل .

ابتكر الدكتور طه عبد الرحمن لمستويات الفعل اللغوي مفاهيماً يجدها أنجع من غيرها، وهي الفعل الكلامي، والفعل التكلمي، والفعل التكليمي .

ويدافع عن هذه التسميات الثلاث بأن لها خلفيات معجمية في التراث العربي.

ناقش الدكتور طه عبد الرحمن مبدأ التعاون والمبادئ المتفرعة عليه، كاشفاً عن موارد القصور ومواضع الضعف فيها، ليسد كل هذه الموارد والمواضع بإبداع مبدأ خامس أطلق عليه اسم (مبدأ التصديق) .

ذكر لهذا المبدأ الخامس جملة قواعد بعضها تواصلية وآخرى تعاملية .

يرى الدكتور طه لممارسة الصدق في المستويات الثلاثة أفضليات ثلاث يجب أن يحصلها المتكلم.

تطرق الدكتور طه إلى قضية الإيجاز والإطناب فيما أخذه عن الماوردي الذي وضع لهما مصطلح (الحصر) بدلاً عن (الإيجاز)، ومصطلح (الهذر) بدلاً عن (الإطناب).

ركز الدكتور طه على الجانب الأخلاقي التعاملي وما له من دور بارز في ضبط جانب الاتصال التبليغي بين الطرفين.

المقدمة:

تُعدُّ نظرية أفعال اللغة (الكلام) أحد أهم الأسس التي نشأت منها اللسانيات التداولية، كما تُعد من أهم مراجعها، وقد نشأت (أفعال اللغة) من أهم مبدأ في الفلسفة اللغوية الحديثة، وهو

عدم حصر الاستعمال اللغوي بتحريك جوارح النطق وابراز الأصوات، بل بانجاز حدث اجتماعي معين المستبطن لوظيفتين مهمتين هما (الوظيفة التعاملية) و(الوظيفة التفاعلية) والتي تتحقق من خلالهما أغراض الكلام.

ويُعدُّ العالم الكبير والفيلسوف البريطاني (جون أوستن) أحد فلاسفة جامعة أكسفورد في القرن العشرين ورموزها، واضعاً لمصطلحها ومؤسس نظريتها، وراسم حدّ تقسيمها ومبين أصنافها الثلاثة، حيث أنكر أن يكون للغة وظيفة واحدة وهي الإخبار وحصر وصف حال الواقع وصفاً إما صادقاً أو كاذباً، وقد أطلق على ذلك (المغالطة الوصفية) منطلقاً من فكرة مفادها أن الكثير من الجمل لا يمكن أن نحكم عليها بهذا المعيار الذي وزانه (الصدق أو الكذب)؛ لأن بعض هذه الجمل إن لم تكن أكثرها إنما لتغيير هذا الواقع لا لوصفه، لينتج نظره وفحوى فكره لرفض ثنائية الصدق أو الكذب والإقرار بأن كل قول هو عبارة عن فعل أو عمل.

ومن ثم جاء تلميذه (سيرل) ليقوم أعوجاج بعض ما بها من هنات ليضع تصنيفاً بديلاً لما قدمه أستاذه (أوستن) وذلك في تقسيمه الخماسي.

وهذا البحث يتحدّث عن هذه النواة المركزية في البعد التداولي عند الدكتور طه عبد الرحمن ودوره الذي عالج فيها عائق قلّ ما أُلتفت إليه وهوما يخص نماذج التواصل وأنواع الحجج عنده، ودواعي الأخذ بها بسبب التجريد الجزئي للحجة الذي يقع فيه النموذج الإيصالي، وما يسببه هذا التجريد بالفعالية الخطابية عند الاكتفاء بقصد المتكلم وغض الطرف عن قصد المستمع وكأن العملية تكون بتناوب القصود، وهذا ما سيسبب تعثراً في أسباب صلتها بالحجة الحيّة التي هي بنية تداولية لها نوع تعلق بجانبين اثنين لا على نحو التناوب، ثم يعطف القول لبيان أطوار ثلاثة لهذه النظرية، لينتقل بعدها لرسم ملامح مستويات الفعل اللغوي الذي مّيزه (أوستن) مقترحاً عناوين ثلاثة قد ابتكرها .

❂ نظرية الأفعال اللغوية (Speech Acts Theory):

<u>نظرية أفعال اللغة (الكلام) عند لسانييّ الغرب:</u>

يُعدُّ هذا المفهوم من المفاهيم المركزية في المنهج التداولي، بل يمكن عدّ نظريته واحدة من الإسهامات التأسيسية للتداولية اللسانّية، فكانت هذه النظرية " من بين أهم النظريات التي حاولت بحث العلاقة بين اللغة والاتصال، فقد مثّلت مقوله (مالينوفسكي): (إن اللغة أسلوب عمل وليست توثيق فكر)، الحجر الأساس للنظرية، فدلالة الملفوظات تتداخل بين التقرير والأداء، وترتبط مباشرة بالموقف الذي تقال فيه أو تنجز فيه " [١]، ويعود فضل تسمية هذا المصطلح (نظرية أفعال الكلام) إلى (بوهلر) في كتابه (نظرية اللّغة) الصادر سنة (١٩٣٤م)، فجاء بعده اللسانيّ

---

[١] الخطاب القرآني دراسة في البُعد التداولي: الدكتور مؤيد آل صوينت / ٣١ .

المبرّز (أوستن جون لانجشو: ت ١٩٦٠م) ورفاقه فوظّفوه في مبتنياتهم اللغوية التداولية.

وقد أثار مصطلح (Speech act) الذي وضعه (أوستن) حيرة للترجمات الموازية له في اللغة الفرنسية إذ تعددت بين (Actes de language) أفعال اللغة، و(Actes de parole) أفعال الكلام، و(Actes de discours) أفعال الخطاب، وقد فصل ديكرو (Ducrot) في ذلك، وذكر أن حمل هذا المصطلح على مقابلته بأفعال الكلام (Les actes de parole) سيضطرنا إلى نوع من التناقض على اعتبار أن سيرل (Searle) نفسه يجعل هذا الفعل جزءاً من اللسان إذا حملناه على مقابلته بأفعال اللسان (Actes de language) فإن مقابلته بهذا ستكون غير مرضية وتافهة ولا يبقى إلاّ أن نحمله على مقابلته بأفعال اللغة (Actes de language) .... [٢]

ينطلق (أوستن) من فلسفته التحليلية التي يتبّناها في تحليله للغة بأن ليس كل الأقوال هي خاضعة لمبدأي الصدق والكذب؛ بل إنّ في اللغة أقوالاً لا تخضع لهذين المبدأين، إنما لمبدأيّ التحقق وعدمه، وبذلك تكون اللغة بحسب رأيه " ليست مجرد وسيلة للوصف ونقل الخبر، بل أداة لبناء العالم والتأثير فيه، وعليه فموضوع البحث يتمحور بالأساس حول ما نفعله بالتعابير التي ننطق بها (أفعال الكلام) "[٣]، وبذلك تؤكد هذه النظرية أن العبارات اللغوية لا تنقل مضامين مجردة ونمطية، بل هي مختلفة باختلاف العوامل الداخلة فيها من سياق وظروف أخرى تبلور دلالة القول وقوته، لتكون أداة لبناء العالم والتأثير به.

وبذلك رفض (أوستن) في مرحلته الأولى التقسيم الثنائي لأفعال الكلام (الإخباريات والإنشائيات) وأن مبدأ احتمال الصدق والكذب لا يكفيان في التمييز بين الأفعال الكلامية، منطلقاً لبناء جديد ذي منطلقات مهمة لُخصت في؛ تغليبه للإنشاء على الخبر، وتأويله للعبارات الخبرية تأويلاً انشائياً، وذهب إلى أن الكلام كلُّه انشائي بدون استثناء، ونقل عنه ذلك الأستاذ عادل فاخوري في كتابه، بقوله: « خلص أوستن أخيراً إلى أن مفهوم الإنشاء لا ينفع في أن يكون معياراً تصنيفياً؛ إذ إنّ كل الكلام بما فيه الخبر هو اساساً انشائي، فالموضوع المهم والشامل إذن هو دراسة الأفعال التي تحصل عند الكلام " [٤]. وهذا المذهب هو عكس ما ذهب إليه العلاّمة الجرجانيّ في كتابه دلائل الإعجاز [٥] الذي اعتمد فيه الخبر هو أصل للإنشاء؛ لذا

---

[٢] مقال بعنوان: (التلفظ والإنجاز): لعبد السلام اسماعيل علوي / ٥ .

[٣] نظرية الأفعال الكلامية عند (أوستن وسيرل) ودورهما في البحث التداولي: الدكتور حكيمة بوقرومة/٤ .

[٤] الموسوعة الفلسفية العربية: معن زياده / بحث: نظرية أفعال الكلام: الدكتور عادل فاخوري: ١٣٣١/٢, ١٣٣٢ .

[٥] ينظر: دلائل الإعجاز: للجرجاني / ٣٣٧ .

فقد مّيز (أوستن) نوعين من الأقوال، هما: (الإنجازيات)، والأخرى هي: (الإخباريات)، حتى يصوّب ما اعترض عليه في التقسيم الدارج إلى (الإخباريات والإنشائيات) والتي يتخلص بها من التقسيم الدارج (الإنشائيات والإخباريات) اللذين يكونان معرضاً لمبدأيّ الصدق والكذب، ثم بعد حين وجد أن هذه (الإنجازيات)، وإن لم تدخل في مبدأ التصديق والتكذيب، ولكنها قد تكون داخلة في اطار (عدم الموفقية)، إذا خالفت بعض الشروط، كما أن هذه الشروط ليست بنفس الدرجة من الأهمية، " فمخالفة بعضها تؤدي إلى إخفاق وفشل في الفعل الكلامي كلّياً كما في حالة الوعد بالقتل فهذا ليس وعداً وإنما هو تهديد، في حين أن مخالفة البعض الآخر يؤدي إلى إساءة الاستعمال وعدم اللياقة، كما في حالة الوعد الذي ينوي المتكلم أن يخالفه، فهو يبقى وعداً وإن كان معيباً أو غير موفق " [٦]، وبذلك اكتشف (أوستن) أن بعض هذه المقولات الإنجازية ذات الصفات الخاصة، وإن كانت حاوية لخصوصية الإنجازية إلاّ إنّها لا تتوافر على القيود الشكلية التي رسمها أوستن لها، فإن (أوستن) يعّد كل قول في صيغة الأمر إنشائياً، " ولكنها تبقى معِّبرة عن دلالة الإنشاء بكيفية فضفاضة، فلا ندري مثلاً إن كان قولك: (غادر) يفيد الأمر أو التهديد أو النصيحة أو الالتماس، وهذا ما جعله يعدل عن التعويل على المعايير النحوية؛ لأنها غير كافية، ليعتمد على معايير دلالية " [٧]، مما دعاه إلى التفكير في تحديد مفهوم أوسع (إنجازية) مما سبق له رسمه، فكانت المقولات الإنجازية التي تضم بين دفتيها (الإنجازية التصريحية/ مباشرة) وهي التي تشتمل على لفظ الفعل المُنجز نحو: (استغفر ربّي وأتوب إليه، أُقسم بالله العظيم أن أصون سمعة بلدي)، و(الإنجازية الضمنية / غير مباشر) وهي التي خلت من ذلك الفعل، نحو: (الاجتهاد مفيد: (أقول الاجتهاد مفيد، آمرك أن تجتهد)، هناك ثور هائج في الحقل)، ليتحول بعد ذلك (أوستن) إلى " نظرية عامة في الأفعال الكلامية تشمل: (الإنجازيات) و(الإخباريات) على حدٍّ سواء " [٨].

بذلك ينتهي أوستن في تقسيمه للفعل القولي الواحد على ثلاثة أفعال تحصل في آنٍ واحد، هي:

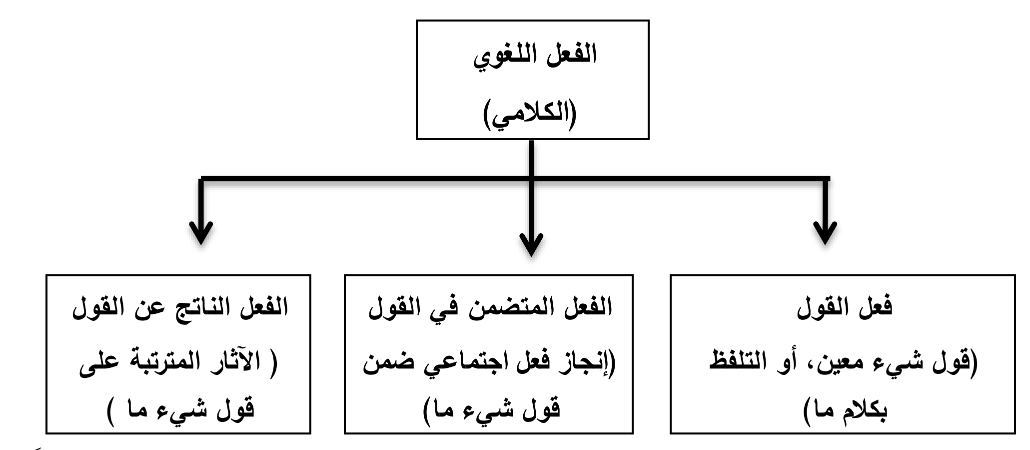
١. فعل القول (الفعل اللغوي) (Acte locutoire).
٢. الفعل المتضمن في القول (الفعل الإنجازي) (Acte illocutoire).
٣. الفعل الناتج عن القول (الفعل التأثيري) (Acte perlocutoire). وبذلك يمكن لنا ايجاز هذا التقسيم بالمخطط في أدناه:

---

[٦] نظرية الفعل الكلامي: الدكتور هشام عبد الله خليفة / ٨١ .

[٧] التداولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه / ٥٦ , ٥٧ .

[٨] نظرية الفعل الكلامي / ٩٩ .



وأن التمييز بين هذه الأنواع من الأحداث اللغوية لغرض التحليل والدراسة، وليس تمييزاً بين أشياء متفرقة بعضها عن بعض.[٩]

وبذلك وضع هذا اللسانيّ الكبير بعض المفاهيم المركزية في نظريته، تُجمل على النحو الآتي:

١. تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازي والنجاح في أداء هذا الفعل.
٢. تمييزه بين الصريح من الأفعال الادائية والأوّلى منها، وهي كما ذكرناها بمعنى آخر المنطوقات الإنجازية الصريحة والمنطوقات الإنجازية الإبتدائية.
٣. تمييزه بين ما تعنيه الجملة وما قد يعنيه المتكلم بنطقها
٤. تحديده للفعل الإنجازي الذي يُعد مفهوماً محورياً في هذه النظرية . [١٠]

وعلى الرغم من كل هذه الإسهامات لم يستطع (أوستن) أن يحقق ما سعى إليه من وضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، " فلم يكن ما قدّمه من تصور كافياً ولا قائماً على أسس منهجية واضحة ومحددة ؛ فقد خلط بين مفهوم الفعل قسماً من أقسام الكلام والفعل حدثاً اتصالياً " [١١]، وبذلك ينتهي (أوستن) إلى التفريق بين الأفعال القولية والإنجازية وفرق أيضاً بين الأفعال الإنجازية الصريحة والضمنية (الأولية) .

ثم جاء (أوستن) في أواخر كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، ليقسم الأفعال على خمسة أصناف على أساس من قوتها الإنجازية وذلك بالرجوع إلى المعجم، بعد ان رأى أنها أكثر الملفوظات استعمالاً وتداولاً؛ لأنه قد اعتمد " تصنيف ألفاظ الأفعال الكلامية كأساس في تصنيف الأفعال الكلامية " [١٢]، وهي:

---

[٩] مقال بعنوان: نظرية الحدث اللغوي تحليل ونقد: محمد العيد/ ٤ .
[١٠] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: الدكتور محمود نحلة/ ٧٣ .
[١١] المصدر نفسه .
[١٢] نظرية الفعل الكلامي: الدكتور هشام عبد الله / ١٢١ .

أ) الحُكميات (أفعال القرار) .
ب) التنفيذيات (أفعال التنفيذ) .
ت) الوعديات (أفعال الوعد) .
ث) السلوكيات (أفعال السلوك) .
ج) العرضيات (أفعال العرض) .[١٣]

ثم جاء تلميذه الفيلسوف الأمريكي (جون سيرل)؛ ليتقدم خطوة في بناء صرح هذه النظرية المهمة، ويحاول سدّ ما بها من ثغرات سببتها بعض الأمور الموضوعية والخارجية، منها موت رائد النظرية قبل أن يكمل ما أراد، وإن النظرية في بداية تكوينها، فقام وريثه باعادة تقسيم الأفعال الكلامية معالجاً مشكلة الإنجازيات الأولية التي قال (أوستن) بأن عددها يزيد على ألف فعل، بعد أن صنّف ألفاظ أفعالها على وَفْقِ نظرته، فجاء (سيرل) ليصنفها دلالياً تحت عدد محدد من الأفعال مفرِّقاً بين الأفعال: (يفتخر، يهنئ، يعتزم، يصرّ، يتوسل، يلتمس) من حيث علاقة الأفعال بالقوة التي تطرح بها الملاحظة، وباختلاف اقتران المقولة بمصالح المتكلم والمخاطب، وكذا باختلاف مقام المتكلم عن مقام المستمع[١٤]، فجاء (سيرل) ليضع جملة من المعايير والشروط الدقيقة لتصنيف الأفعال الكلامية بشكل محكم، أوردها في مصنفه الثاني (١٩٨٢م)[١٥]، والتي ناهز عددها اثنا عشر فارقاً مميزاً [١٦]، ثم عَمد إلى اختزال تلك الاثنتي عشرة في أربعة رئيسة، تتحدد على أساسها أغراض العمل اللغوي وهي:

١. إتجاه المطابقة من القول إلى العالم .
٢. إتجاه المطابقة من العالم إلى القول .
٣. اتجاه المطابقة المزدوج .
٤. اتجاه المطابقة الفارغ .

إن مثل هذه المقاييس المحكمة في نظر (سيرل) كفيلة بوضع تصنيف دلاليّ لما نفعله باللغة يتجاوز ما وقع فيه (أوستن) من مزالق ومغالط أدت به إلى تداخل الأعمال، وعدم وضوح حدودها .[١٧]

---

[١٣] ينظر: المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو/ ٦٢ , ٦٣ .
[١٤] ينظر/ نظرية الفعل الكلامي / ١٢١ .
[١٥] صدر الكتاب بعنوان (التعبير والمعنى) سنة (١٩٨٢م) عن نسخته الأصلية بعنوان (Expression and meaning) باللغة الفرنسية سنة (١٩٧٩ م) عن منشورات (مينوي) (Minuit) بباريس .
[١٦] ينظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: الدكتور خالد ميلاد / ٥٠٢ , ٥٠٣ . آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: الدكتور محمود أحمد نحلة / ٧٥ , ٧٧ .
[١٧] الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: الدكتور خالد ميلاد / ٥٠٣ , ٥٠٤ .

وانطلاقاً مما مضى من المقاييس والشروط، ينتقل (سيرل) إلى تصنيف جديد، يجمعه في تقسيم خماسي، هو:

١. التقريرات (Les assertifs) .

٢. الطّلبيات (Les directifs): ومما تتماز به الطلبيات:

أ. أن يكون المخاطب هو المسؤول عن احداث تلك المطابقة .

ب. أن يكون المخاطب قادراً على الامتثال .

ت. أن يكون الفعل المطلوب من المخاطب في زمان المستقبل .

ث. توافر هذه الملفوظات على نية وارادة مصحوبة بالرغبة من المتكلم[١٨].

ويشمل هذا الصنف كثيراً من أفعال القرارات عند أوستن: الأمر، والرجاء، والتشجيع، والنصح، والتحدي، الذي جعله أوستن من أفعال السلوك[١٩].

٣. الوعديات (Les promissifs) .

٤. الإفصاحات (Les expressifs) .[٢٠]

ويرى (سيرل) أن هذه الأعمال لا تطلب مطابقة الواقع للقول أو مطابقة القول للواقع؛ " لأن صدق القضية في الإفصاحات صدق مقتضى[٢١] "، فالمطلوب ببساطة هي التعبير عن شرط الصدق للفعل الكلامي، فالمحتوى الخبري في التعبيرات من الناحية النمطية ليس له اتجاه ملاءمة؛ لأن حقيقة المحتوى الخبري يُسلَّم بها فحسب، بيد أن شرط الصدق هنا يتغير بتغير نمط التعبير[٢٢]، ومن أمثلتها: الشكر والاعتذار.

٥. التصريحات (Les declaratifs) .

وهذه تكون الأفعال ناجحة إذا طابق محتواها القضوي العالم الخارجي. كما أكد سيرل وجود أفعال مباشرة وأفعال غير مباشرة؛ وهذه هي التعديلات التي أدخلها (سيرل) على نظرية أستاذه (أوستن) في تصنيف الأفعال الكلامية، فالفعل المباشر في نظره هو أن يكون مراد المتكلم وما يقوله مطابقاً لما يعنيه، أما الفعل غير المباشر فهوما خالف ذلك، وقد ناقش(سيرل) عدداً كبيراً من الأفعال الإنجازية غير المباشرة، ولاحظ أن الغاية من استعمالها

---

(١٨) المصدر نفسه / ٥٠٦ .

(١٩) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر / ١٢٥ .

(٢٠) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: الدكتور عبد الهادي بن ظافر الشهري / ١: ٢٠٦ .

(٢١) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة / ٥٠٧ .

(٢٢) ينظر: العقل واللغة والمجتمع: جون سيرل / ٢١٩ .

هو(التأدب في الحديث)، " حيث ينقل المتحدث إلى المستمع أكثر مما تحمله الكلمات اعتماداً على الخلفية المعرفية المشتركة بينهما سواء اللغوية منها أم غير اللغوية، فضلاً عن قدرة المستمع على الاستنتاج والتعقل والتفكير، ويثير مفهوم الأفعال الكلامية غير المباشر مسألة إمكان قول شيء من جانب المتحدث يحمل ما يقول من معنى كما يحمل معنى اضافياً آخر "[٢٣] .

ولم تقف عملية النقد والمراجعة لنظرية الأفعال الكلامية عند (سيرل)، بل تجاوزته لتصل إلى (ديتر نديرليتش) الذي لم يَر في تصنيف (أوستن) و(سيرل) ما يقنع، فهو يرى ـ مثلاً ـ، لايمكن أن تكون (الالتزامات) نمطاً عالمياً لأفعال الكلام، بل هي مجرد ردود فعل إتجاه (أوامر) معينة، فأعاده " حسب علاقتها بالهدف الاجتماعي من حيث تأسيس الكياسة والمجاملة أو الصيانة " [٢٤] .

وكذا يرى أن " الأسئلة من منظور (سيرل) هي طبقات تحتية لـ (الأوامر)، ومع ذلك فهي معلّمة نحوياً، مما يجعلها مرشحة جيدة لتكوين نمط فريد من أفعال اللغة ... " [٢٥].

كما انه لا يرى في تصنيف (سيرل) الخماسي موضعاً للتنبيهات، أو القضايا، أو العروض، أو النداءات، أو الاستدعاءات .

فلذا يقترح (وندير ليتش) أربعة مقاييس رئيسة، لتصنيف أفعال اللغة، هي:

أ‌- إمكان تصنيف أفعال اللغة، من خلال علاماتها النحوية في لغة ما، ففي لغات كالفرنسية، والألمانية، أو الأنجليزية، نجد أن لها العلامات الآتية:
- الصيغة الاستفهامية، لأفعال اللغة ذات النمط (Erotetique) .
- صيغة الأمر، بالنسبة لأفعال اللغة، ذات النمط الآمر .
- الصيغة الإدلائية، بالنسبة للنمط التمثيلي .
- الأشكال الإنجازية، المخصصة لأفعال اللغة، ذات النمط (الإدلاء)، عند (سيرل)، لكن بالمعنى الواسع.

ب‌- إمكان تصنيف أفعال اللغة، على النحو الآتي: (نمط المضمون القضوي)، و(نمط النتيجة الإنجازية)، أو(نمط شرط المصداقية) .

ت‌- تصنيف أفعال اللغة بحسب أصولها: كأفعال لغة أولية أو طبيعية، أو كأفعال لغة ثانوية أو مؤسساتية.

---

[٢٣] الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب: الدكتور علي عزت / ٥٢ .

[٢٤] استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية / ١: ٢٠٦ .

[٢٥] المقاربات التداولية / ٦٩ .

ث- ويمكن لأفعال اللغة أن تُصنف بحسب وظيفتها، أي بحسب تمثيلها لحركة مبادرة، أو حركة ردِّ فعل، تبعاً لوضعيتها في أوجه أفعال اللغة .

وبذلك يبقى الدور الريادي لهذه النظرية للعالمين (اوستن) و(جون سيرل)، ولا ينكر فضل من جاء بعدهم ناقداً أو مقوّماً كالعالمين (ويندير ليتش) و(فرانسوا ريكاناتي) و(باخ وهارنيش) وغيرهم من لسانييّ الغرب، الّذين تطورت هذه النظرية وأسهموا في بنائها.

نظرية أفعال اللغة (الكلام) عند لسانييّ العرب:

لم تكن بذرة النشوء لمفهوم (الأفعال اللغوية (الكلامية)) غائبة عن تفكير العلماء العرب في تراثنا الإسلامي، بل لها حضور بيّن المعالم في مباحثهم المندرجة تحت مباحث (علم المعاني)، ونتلمس آثار هذا المفهوم وتطبيقاته في تضاعيف مؤلفات الأفذاذ من النُحاة والبلاغيين والأصوليين والفلاسفة وغيرهم، ونخص بالذكر من النحاة (سيبويه: ١٨٠ هـ)، ومن البلاغيين (الجرجاني: ٤٧١ هـ)، و(السكاكي: ٦٢٦ هـ)، و(الرضي الإسترباذي: ٦٨٦ هـ)، و(الجاحظ: ٢٥٥هـ)، غيرهم، وأما الأصوليون فقد بحثو هذا المفهوم ضمن مبحثي (الخبر والإنشاء)، وممن برزت ملامح هذه المفهوم في مصنفاته (العلاّمة القرطبي: ٥٩٥ هـ)، و(الفخر الرازي: ٦٠٦ هـ) و(سيف الدين الآمدي:٦٣١هـ)، و(العلامة القرافي: ٦٨٤ هـ) وغيرهم الكثير، أما الفلاسفة، فقد تضمنّت مؤلفاتهم البحث عن الاعتبارات المنطقية المتصلة بالمركبات التامة، تمييز بين طرفيها الخبرية من غير الخبرية، منهم (الفارابي: ٣٣٨ هـ)، و(الكاتبي القزويني: ٤٩٣ هـ)، و(الشيخ الرئيس ابن سينا: ٤٢٨ هـ) وغيرهم الكثير، وقد نظّرَ لهذه النظرية الكثير من علماء العرب، منهم الدكتور أحمد المتوكل، والدكتور طه عبد الرحمن، والدكتور هشام عبد الله الخليفة، والدكتور مسعود صحراوي، والدكتور تمام حسان، والدكتور جعفر دك الباب، وآخرون، وسيقتصر الكلام على الفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمن.

الدكتور طه عبد الرحمن ونظرية أفعال اللغة:

يتطرق الدكتور طه عبد الرحمن في كتابه (اللسان والميزان) للحديث عن نماذج التواصل وأنواع الحجج عنده، للخوض في (نظرية الأفعال اللغوية: Speech Acts Theory) ودواعي الأخذ بها سببه التجريد الجزئي للحجة الذي يقع فيه النموذج الإيصالي، والمراد بمظهر هذا التجريد المضر بالفعالية الخطابية في " الاكتفاء بقصدية المتكلم، أما قصدية المستمع، فلا يقام لها كبير وزن؛ فالمستمع لا يشارك في تكوين قصدية المتكلم إلاّ أن يتحول إلى متكلم، أما أن يشارك في هذه القصدية وهو في حال الاستماع، فلا، كأنما تكوين القصدية يحدث على التناوب كما تحدث الوظيفة الخطابية للمتكلم والمستمع" [٢٦]، وبذلك تتجرد الحجة من قصدية المستمع،

[٢٦] اللسان والميزان: الدكتور طه عبد الرحمن / ٢٥٩ .

فتكون " بمنزلة بنية دلالية موجهة من جانب واحد، فتتعثر أسباب صلتها بالحجة الحية التي تكون أصلاً بنية تداولية لها تعلق بجانبين اثنين " [٢٧].

ثم رسم طريق انبثاق هذه النظرية على يدي مؤسسها وواضع أصولها (أوستن) ليأتي دور وريثه (سيرل) الذي أقام بناءها، ليحل دور موسع مجالها (غرايس) و(فان إيمِيرن) و(خروتندورست)، موضحاً مبنى هذه النظرية إجمالاً قائلاً: " ان الجمل اللغوية لا تنقل مضامين مجردة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف المقامات والسياقات المتنوعة " [٢٨]، ضارباً مثالاً توضيحياً، معبراً عمّا قدّمه من كلام، في قول القائل: (هل الشرق هو مهد الحضارة ؟) مبيِّناً المضمون القضوي لهذا المثال وهو(كون الشرق هو مهد الحضارة)، مُبيناً إمكان تعدد سياقات فهم هذا القول، " لكن هذا المضمون، إذا أفاد في هذا السياق استخباراً، فإنه قد يفيد في سياق آخر استحثاثاً، كما يفيد في سياق ثالث استنكاراً، وهكذا ؛ فالاستخبار والاستنكار والاستحثاث وأمثالها من المعاني كالجزم والطلب والأمر والنهي والوعد والوعيد والإنذار والتوبيخ والاعتذار والتنويه، أفعال مَثَلُها مَثَل الأفعال السلوكية، إنما اختص بها السلوك اللغوي"[٢٩].

ثم يعطف القول لبيان أطوار هذه النظرية محدداً ثلاثة أساسية منها، هي:

أ. تمييز مستويات مختلفة في الفعل اللغوي .

ب. وضع قواعد خطابية للفعل اللغوي .

ج. وضع شروط محددة للفعل اللغوي .

وقد أطلق على مستويات الفعل اللغوي الذي ميز (اوستن) بين عناصرها، مفضلاً أوقل مقترحاً مفاهيم تختلف عمن سبقه، وهي:

١) الفعل الكلامي (فعل النطق): هو فعل التلفظ بصيغة ذات صوت معين وتركيب مخصوص ودلالة محددة .

٢) الفعل التكلمي (فعل الإنجاز): هو الفعل التواصلي الذي تؤديه صيغة تعبيرية في سياق معين كالوعد القريب في قول القائل: (سأعود إلى القدس)، والوعيد البعيد في قوله: (سوف أعود إلى القدس) .

٣) الفعل التكليمي (فعل التكليم): هو أثر الفعل التكلمي في المستمع .

وفي تصنيفه للفعل الثالث (التكليمي) يعلل سبب تسميته بهذا المفهوم قائلاً: " وقد ظفرنا بنص يؤيد هذه التسمية في كتاب (الفروق اللغوية) لأبي هلال العسكري (ت بعد٤٠٠هـ)، وهو:

---

[٢٧] المصدر نفسه .

[٢٨] اللسان والميزان / ٢٦٠ .

[٢٩] المصدر نفسه .

(إن التكليم تعليق الكلام بالمخاطب فهو أخص من الكلام، وذلك أنه ليس كلُّ كلامٍ خطاباً للغير)، ويمكننا أيضاً أن نترجم التعبير الأجنبي بـ (فعل التأثير). ولقد آثرنا أن نستخدم لتسمية مستويات (الفعل اللغوي) مصطلحات مشتقة من نفس المادة (ك / ل / م)، حرصاً منا على استثمار خاصية الاشتقاق التي تنماز بها اللغة العربية حيث تستثمر المقابلات الأجنبية التركيب المزجي" [٣٠].

ثم يبين شروط الفعل اللغوي لـ (سيرل) مطبقاً إياها على مثاله السابق: (الشرق مهد الحضارة)، موضحاً مضمون القضية فيه، وشرطه الجوهري، وشرطه الصدقي، والتمهيدي، قائلاً: " فإذا قال القائل (الشرق مهد الحضارة)، فقد قام بفعل (الجزم)؛ والشرط القضوي للجزم أنه حكمٌ يحتاجُ إلى دليل، وشرطه الجوهري هو أن المتكلم يتحمل اثبات الحكم الذي أصدره، وشرطه الصدقي هو أن يعتقد صدق هذا الحكم، وشرطه التمهيدي هو اعتقاد المتكلم أن المستمع لا يعلم بمضمون قوله، وأن الإتيان بالدليل عليه قد يحمله على التسليم به "[٣١].

❖ <u>شروط الفعل اللغوي:</u>

ذكر الدكتور طه عبد الرحمن الشروط التي ينبغي أن يستوفيها أداء الفعل اللغوي حتى يكون أداءً موفقاً من كلام (جون سيرل)، وقد جمعها في أربعة أنواع من الشروط:

١. شروط مضمون القضية: ومن خلالها تتحدد أوصاف المضمون المعبر عنه بقول مخصوص.
٢. الشروط الجوهرية: ومن خلالها يُعيِّن الغرض التواصلي من الفعل التكلمي، والذي من خلاله (الغرض) يُلزم المتكلم بواجبات معينة.
٣. شروط الصدق: وهي تحدد الحال الاعتقادي الذي ينبغي أن يقوم بالمتكلم المؤدي لهذا الفعل التكلمي.
٤. الشروط التمهيدية: وتتعلق هذه الشروط بما يعرفه المتكلم عن قدرات واعتقادات المستمع، وكذا عن طبيعة العلاقات القائمة بين المتخاطبين .

ثم يورد مثالاً يطبق من خلاله هذه الشروط الأربعة، فعندما يقول قائل: (الشرق مهد الحضارات)، فقد قام بفعل الجزم هنا؛ والشرط الأول منها (القضوي) للجزم هو أنه حكم يحتاج إلى دليل يثبته، أما الشرط الثاني (الجوهري) هو أن المتكلم يتحمل إثبات الحكم الذي أصدره، والثالث من هذه الشروط (الصدقي) هو أن يعتقد المتكلم صدق هذا الحكم المثبت، ورابعها (التمهيدي) هو أن المتكلم يعتقد بأن المستمع لا يعلم بمضمون قوله، وأن الإتيان بالدليل عليه قد

---

[٣٠] اللسان والميزان / ٢٦٠ .

[٣١] المصدر نفسه / ٢٦١ .

يلجؤه إلى الإذعان به والتسليم، وبذلك سنصل إلى أداء موفق للفعل اللغوي .

❖ قواعد الفعل اللغوي:

وضع (بول غرايس) جملة قواعد خطابية للفعل اللغوي، منطلقاً من مبدأ عام مقتضاه إجمالاً أن يتعاون المتخاطبون على الوصول إلى الغرض المطلوب من دخولهما في التخاطب، سمّاه (مبدأ التعاون)، ويمكن لنا إجمال تلك القواعد الخطابية على النحو الآتي:

١. قاعدة الكم: مقتضاها: (لتكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته من غير زيادة ولا نقصان).
٢. قاعدة الكيف: مقتضاها: (لا تقل إلاّ ما تعلم صدقه أو تقدر على إثباته) .
٣. قاعدة العلاقة: مقتضاها: (لتراع المناسبة في الكلام) .
٤. قاعدة الجهة: مقتضاها: (لتحترز من الغموض والإطناب والاضطراب) .[٣٢]

وللدكتور طه عبد الرحمن إشكال على هذه النظرية بمستوياتها وشرائطها وقواعدها المختلفة، مفاده؛ أن أصحابها غلب عليهم الاشتغال بالأفعال اللغويّة البسيطة، ولم يشتغلوا إلاّ لمَاما بالأفعال اللغويّة المركبة أي (المتواليات) من الأفعال اللغويّة، وهذا بالذات ما أراد (فان إيميرن) و(خروتندورست) تفاديه، من خلال توسيع هذه النظرية لتشمل المتواليات من الأفعال اللغويّة فضلاً عن البسيطة منها .

حتى مكن هذا التوسيع من ضمّ (الحجاج) في جملة الأفعال اللغويّة، لإنه عندهما عبارة عن (فعل تكلمي لغوي مركب)، ومعنى ذلك أن الحجة فعل تكلمي لغوي مؤلف من أفعال تكلمية فرعية وموجه، إما إلى إثبات أو إلى إبطال دعوى معينة.

وقد أخذا هذا العالمان بمبدأ (سيرل) في تحديد شروط الفعل اللغوي، مستقصين الشروط التي يؤدي استيفاؤها إلى توفق المتكلم في أداء فعل (الحجاج)، وقد قسماها إلى (شروط الحجة المثبتة)، و(شروط الحجة المبطِلة).[٣٣]

وبعد تفصيل قد يطول ذكره، يرى الدكتور طه عبد الرحمن أن هناك قواعد أربع للتواصل تتفرع على مبدأ التصديق ـ الذي أبدعه ـ في جانبه التبليغي لما في جميع مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عليه، استوحاها من كتاب (أدب الدنيا والدين) للماوردي، وهي:

أ. ينبغي للكلام أن يكون لداعٍ يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر.
ب. ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته.
ت. ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر الحاجة.
ث. يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم.

---

(٣٢) اللسان والميزان / ٢٦١ , ٢٦٢ .

(٣٣) يُنظر: اللسان والميزان / ٢٦٢ , ٢٦٣ .

وإذا أنعمنا النظر في هذه القواعد الأربع نجدها جامعة لمبدأ التعاون والمبادئ المتفرعة عليه إلاّ واحدة وهي قاعدة الكيف أو(قاعدة الصدق)، ليقابل بينها على النحو الآتي:

القاعدة الأولى: حيث تقوم مقام (مبدأ التعاون)، والقاسم المشترك بينهما أن كليهما يشترط تحديد هدف معين للمخاطبة، وإذا خلت المخاطبة من هذا الهدف كانت باصطلاح (الماوردي) هجراً أو هذراً .

القاعدة الثانية: حيث تقوم مقام (قاعدة العلاقة)، فهي تقضي أن يكون لكل مقام مقال يناسبه.

القاعدة الثالثة: تقوم مقام (قاعدة الكم)، فهي توجب الاكتفاء بالضروري من الخبر كما توجبه (قاعدة الكم). أما إذا خرج الكلام عن ذلك بالتقصير سمي باصطلاح (الماوردي) حصراً، أما إذا خرج عنها بالتكثير سمي هذراً عنده .

القاعدة الرابعة: تقوم هذه القاعدة مقام (قاعدة الجهة)، فهي تشترط مراعاة صحة المعاني وفصاحة الألفاظ واتباع أساليب الوضوح، فإذا خرج الكلام عن هذه القواعد كان مختل المعنى ومستغلق اللفظ .[٣٤]

ثم يعطف النظر الدكتور طه عبد الرحمن ليبين قواعد للتعامل متفرعة على (مبدأ التصديق)، يجملها في ثلاث مع صياغتها:

١. قاعد القصد: (لِتتفقَّد في كل قول تُلقي به إلى الغير).
٢. قاعد الصدق: (لِتكن صادقاً فيما تنقله إلى الغير).
٣. قاعدة الإخلاص: (لِتكن في توددك للغير متجرداً عن أغراضك).[٣٥]

وعند التدقيق في هذه القواعد نجد أنّها قريبة من قواعد (مبدأ التأدب) وقواعد (مبدأ التواجه)، مع تلافي الوقوع بالقصور والهفوات التي حوتها المبادئ السابقة.

وهناك يذكر الدكتور طه نكتة جديرة الالتفات مفادها أنه يترتب على قاعدة القصد أمران أساسيان، هما: وصل المستوى التبليغي بالمستوى التهذيبي للمخاطبة، وإمكان الخروج عن الدلالة الظاهرة للقول إلى الدلالة المستلزمة، كما أنها قاعدة القصد تفترق عن (مبدأ التأدب) للاكوف بأنها تأخذ بعنصر العمل من الجانب التهذيبي إن على جهة المتكلم أومن جهة المستمع .

ومما تدعو إليه (قاعدة الصدق) ممارسة الصدق في ثلاثة مستويات، هي: (الصدق في الخبر، والصدق في العمل، ومطابقة القول للفعل) .

---

[٣٤] اللسان والميزان/٢٤٩ , ٢٥٠ .

[٣٥] المصدر نفسه/٢٥٠ .

فينتج هذا الفعل من الصدق أفضليات ثلاث:

أ. أن يفعل المتكلم ما لم يقل أفضل له من أن يقول ما لم يفعل.

ب. أن يسبق فعلُ المتكلم قولَه أفضل له من أن يسبق قولُه فعلَه.

ت. أن يكون المتكلم أعمل بما يقول أفضل له من أن يكون غيره أعملَ له. [٣٦]

لينتهي الدكتور بتفضيل مبدأ التصديق على سائر المبادئ؛ لأنه يقوم بشرطي التقرب من الغير وهما (الصدق والاخلاص)، فيكون بذلك أفضل المبادئ وأكملها جميعاً.

المصادر:

- ❖ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر/ نشر دار المعرفة الجامعية، القاهر ـ مصر/ الطبعة الأولى، السنة ٢٠١١ م .
- ❖ بحث: نظرية أفعال الكلام: الدكتور عادل فاخوري/ منشور في الموسوعة الفلسفية العربية: معن زياده/ نشر معهد الانماء العربي/ الطبعة الأولى . السنة ١٩٨٦ م .
- ❖ بحث بعنوان: (التلفظ والإنجاز): الأستاذ عبد السلام اسماعيل علوي / منشور في مجلة فكر ونقد / المغرب: العدد ٥٨ / أبريل . السنة ٢٠٠٤م .
- ❖ بحث بعنوان: (نظرية الأفعال الكلامية عند (أوستن وسيرل) ودورهما في البحث التداولي): الدكتورة حكيمة بوقرومة / منشور في حوليات الآداب واللغات . الجزائر/ العدد ١/ السنة ٢٠١٣ م .
- ❖ بحث نظرية الحدث اللغوي تحليل ونقد: محمد العيد / مجلة الدراسات اللغوية: م٢/ ع٤: السنة ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م .
- ❖ التداولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه / ترجمة صابر الحباشة / نشر دار الحوراء للنشر والطباعة: دمشق، سوريا / الطبعة الأولى، السنة ٢٠٠٧ م .
- ❖ الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: الدكتور مؤيد آل صوينت / نشر مكتبة الحضارات، بيروت ـ لبنان / الطبعة الأولى، السنة ١٤٣١ هـ . ٢٠١٠ م .
- ❖ دلائل الإعجاز: العلامة عبد القاهر الجرجاني / تعليق السيد محمد رشيد رضا / نشر دار المعرفة . بيروت / الطبعة الأولى . السنة ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤م .
- ❖ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: الدكتور طه عبد الرحمن / نشر المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء ـ المغرب / الطبعة الثالثة . ٢٠١٢ م .
- ❖ المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو/ ترجمة الدكتور سعيد علوش / نشر مركز الإنماء القومي / الرباط . المغرب / بلا .
- ❖ الإنشاء في العربية بين التّركيب والدّلالة دراسة نحوية دلالية: الدكتور خالد ميلاد / نشر مشترك جامعة منوبة: كلية الآداب منوبة والمؤسسة العربية للتوزيع تونس / الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ . ٢٠٠١ م .
- ❖ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: الدكتور عبد الهادي بن ظافر الشهري / نشر دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع: عمان . الأردن / الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة)، السنة ١٤٣٦ هـ . ٢٠١٥ م .
- ❖ الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب: الدكتور علي عزت/ نشر وتوزيع شركة أبو الهول للنشر/الطبعة الأولى، السنة ١٩٩٦م.
- ❖ العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي) : جون سيرل / ترجمة سعيد الغانمي / الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، منشورات اختلاف ـ الجزائر . (المركز الثقافي العربي) ـ المغرب / الطبعة الأولى، السنة ١٤٢٧ هـ . ٢٠٠٦ م .

[٣٦] نفسه / ٢٥١ .

الاستقلال الفكـري
عنـد الزلمـي

الأستاذ الدكتور هيثم عبدالسلام محمد
الجامعة العراقية– كلية العلوم الاسلامية

الملخص:

يدور البحث حول شخصية الاستاذ الزلمي (رحمه الله) واستقلاله الفكري، وعدم تبعيته او تقليده للاخرين، فما كان يكره شيئا مثل كرهه لتقليد الاخرين سواء السابقين أو المعاصرين لذلك فهو مستقل فكريا وافكاره نابعة عن دراسة وتمحيص .

وقد حرصت في البحث ان أسوق الادلة المختلفة والمتنوعة لاثبات استقلاله وتبنيه ارآء وافكار ليست لدى الاخرين، وقد قسمت البحث الى ثلاث مباحث: في الاول منه، تحدثت عن سيرته وكان الهدف منها اظهار دراسته وجديته في طلب العلم مع ذكر أهم مؤلفاته .

وفي المبحث الثاني: بينت اسباب الاستقلال والتي تلمسناها من خلال قراءة كتبه، وقد انحصرت كما رأينا:

أ– حدة الذكاء والحافظة: وهذا واضح من خلال الشهادات التي حصل عليها والمؤلفات الكثيرة والمتنوعة فقد جمعت مؤلفاته وبلغت "٢٤" مجلدا تحت عنوان "الكامل " لمؤلفات الزلمي.

ب– الاعداد العلمي الرصين: لقد جمع الزلمي في دراسته بين الطريقة الملائية والاكاديمية أو بين الجامع والجامعة الا انه عاب على كلا الطريقتين فطريقة الجامع تجعل الطالب يتعلم العلوم من غير ان يستفيد منها، وطريقة الجامعة لاتخلق عقلية فقهية، ونحن نرى ان الاستاذ الزلمي قد استفاد من كلا الطريقتين، وجعل من جده ومثابرته طريقا للوصول الى مراتب العلماء الكبار .

ج– الاعتداد بالنفس من غير غرور أوتعالي : يمتاز الاستاذ بالاعتداد برايه من غير ان يهاب أو يخاف من أبداءه حتى وان جلب له النقد والعتاب وهو يجهر باقواله ويدافع عنها ولكن ان راى فيها عدم الصحة يذعن ويخضع للحق .

وفي المبحث الثالث: نماذج تطبيقية من الاستقلال الفكري .

من خلال التتبع في النتاج العلمي للاستاذ وجدنا ان ذلك يكمن في:

ا– الانفرادات في الارآء .

ب– مخالفة السابقين وبيان خطىء قولهم .

ج- انتهاج طرق علمية للوصول الى الحكم الشرعي تختلف عما مألوف لدى العلماء .

وقد ذكرت امثلة مختلفة وكثيرة من كتبه توضح تلك النقاط وتعزز ما قلناه .

وبعد فاننا نرى ان الاستاذ الزلمي قد بلغ مرتبة الاجتهاد كما ان الله سبحانه وتعالى قد من عليه بان مكنه ان يحيط ويجمع بين الشريعة والقانون وقليل ممن استطاع ان يصل لذلك وابدع واضاف الى المعرفة في كليهما .

المقدمة:

إّن علماء هذه الأمة مصابيح الدُّجى، ومنارة العلم المنيف، بهم يدحض الباطل، ويبصر الجاهل، وينافح عن الإسلام، وقد هيئ الله تعالى للإسلام علماء أفذاذاً على مدار التاريخ أخذوا على عاتقهم سبر غور تعاليم الإسلام؛ لإظهاره بما يفهمه أهل عصره وبشكل واضح ومعتدل وبعيداً عن الغلو والتفريط، وقد قيّض الله تعالى لهذا الزمان العلاّمة الدكتور مصطفى الزلمي (رحمه الله تعالى) قضى عمره المديد كله بين العلم والعلماء متعلماً وعالماً ومؤلفاً، وقد حباه الله تعالى بعقلية علمية تدرك المسائل العويصة، وله المقدرة على الموازنة ونقد أقوال السابقين من العلماء، وقد أحببت فيه هذه الخصال، لذلك عزمت على أن أوضح هذا الأمر بشخصيته.

وقد قمت بتقسيم البحث على ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: حياته والمرتبة العلمية التي وصل اليها.

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: موجز عن حياته العلمية والشخصية.

المطلب الثاني: لماذا الاستقلال الفكري وليس الاجتهاد.

المبحث الثاني: أسباب الاستقلال الفكري.

وكانت تلك الأسباب كما نرى هي:

١- حدة الذكاء والحافظة.

٢- الاعداد العلمي الرصين.

٥- الاعتداد بالنفس من غير غرور أو تعالٍ.

المبحث الثالث: نماذج تطبيقية من الاستقلال الفكري. ومن خلال التتبع في كتبه وجدت أن محاور الاستقلال هي:

المحور الأول: الانفرادات في الآراء.

المحور الثاني: مخالفة السابقين وبيان خطأ قولهم.

المحور الثالث: انتهاج طرق علمية للوصول إلى الحكم الشرعي تختلف عما مألوف لدى العلماء.

ثم الخاتمة: بينت فيها أهم نتائج البحث .

من خلال هذا البحث سوف تلمس عزيز القارئ مفتاح شخصية الزلمي وما الذي ميّزه من أقرانه انه الاستقلال الفكري فليس تابعاً أو مقلداً لأحد، وإنما يسير بتروٍ وهدًى وبصيرة من أمره.

وختاماً فلا ندعي الكمال في العمل، ولكننا قد بذلنا جهدنا من أجل إظهار مكانة علم من أعلام العراق وبيان فضله على العلم والعلماء.

المبحث الأول

حياته والمرتبة العلمية التي وصل إليها

ويتكون من مطلبين:

المطلب الأول: موجز عن حياته العلمية والشخصية.

لست بصدد تتبع الحياة العلمية والشخصية للأستاذ الزلمي (رحمه الله) فهي مسطورة ومكتوبة بأدق

التفاصيل، ولكني سأقف عند أهم المراحل من حياته التي ساهمت في بنائه العلمي والفكري، وهذه الوقفات لها أثر كبير في اثراء بحثنا فنقول وبالله التوفيق.

اسمه وولادته:

مصطفى إبراهيم محمد أمين المتولي، ولد سنة ١٩٢٤م في وادي زلم بالسليمانية.

طلبه للعلم:

تتلمذ (رحمه الله تعالى) على عدد محدود من العلماء وهم؛ في العراق:

١- الشيخ حسن الأباعبيدي ودرس على يديه النحو.

٢- الشيخ الصاحب الطويلي ودرس عليه البحث والمناظرة.

٣- الشيخ عبد الكريم المدرس ودرس عليه علم البلاغة.

٤- الشيخ نور الدين وحصل منه على الإجازة العلمية في العلوم الإسلامية العقلية والنقلية.

وفي إيران:

١- الشيخ عبد القادر الدكاكايي ودرس عليه العقائد والأصول.

٢- الشيخ زاده المعروف بالكلمبوي ودرس عليه المنطق والأصول.[١]

الشهادات العلمية من الجامعات:

١- البكالوريس في القانون من جامعة بغداد سنة ١٩٦٥م.

٢- ماجستير في الشريعة الإسلامية/ جامعة بغداد سنة ١٩٦٩م.

٣- ماجستير في الفقه المقارن/ جامعة الأزهر ١٩٧١م.

٤- ماجستير في القانون/ جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

٥- دكتوراة في الفقه المقارن بمرتبة الشرف/ جامعة الأزهر ١٩٧٥م.

٦- دكتوراة في القانون بتقدير امتياز/ جامعة بغداد سنة ٢٠٠٥م.[٢]

الألقاب العلمية:

١- لقب الأستاذ المتميز في جامعة بغداد سنة ١٩٨٥م.

٢- لقب الأستاذية جامعة بغداد سنة ١٩٨٧م.

٣- لقب الأستاذ المتمرس/ جامعة بغداد ١٩٩٠م.

مؤلفاته:

له أكثر من «٥٠» مؤلفاً، وطبعت على شكل مجموعة متكاملة تحت عنوان «الكامل للزلمي في الشريعة والقانون» في «٢٤» مجلداً، وسنذكر أهمها:

١- أصول الفقه في نسيجه الجديد، طبع عدة مرات وبين يدي نسخة مكتوباً عليها « الطبعة الثانية والعشرون » في سنة ٢٠١٠م.

٢- أحكام الزواج والطلاق في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة بالقانون.

٣- أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية.

٤- موانع المسؤولية الجزائية في الشريعة الإسلامية والتشريعات الجزائية العربية.

٥- الالتزامات في ضوء المنطق والفلسفة.[٣]

---

[١] الدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي وارآؤه الأصولية والقانونية/١٥.

[٢] أصول الفقه في نسيجه الجديد /٦٠٠.

[٣] أصول الفقه في نسيجه الجديد /٦٠٠.

البحوث المنشورة:

وهي كثيرة جداً وله أكثر من ٤٠ بحثاً علمياً نذكر أهمها:

١- التنمية الاجتماعية في الشريعة الإسلامية، بحث ألقي في مشاركة مؤتمر علماء الاجتماع العربي ١٩٨٠م في بغداد منشور في مجلة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.

٢- مبدأ الشريعة. منشور في مجلة القانون المقارن كلية القانون جامعة بغداد.

٣- أساس المسؤولية الجنائية، منشور في مجلة القانون المقارن.[٤]

وفاته:

توفي سنة ٢٠١٦م (رحمه الله تعالى)، فقضى عمره المبارك طالباً ومتعلماً ومعلماً ومؤلفاً وباحثاً في علوم ومعارف مختلفة.

المطلب الثاني: لماذا الاستقلال وليس الاجتهاد.

لا شك أن من يقرأ عنوان «الاستقلال الفكري» يرى أنه على غير ما درج عليه علماء الشريعة الإسلامية من مصطلحات كالامام أو الفقيه أو الأُصولي وقد يرى البعض أن الزلمي (رحمه الله تعالى) قد امتلك أدوات الاجتهاد، فلماذا لا يوصف بالمجتهد؟ ولماذا العدول إلى الاستقلال الفكري! وأرى لزاماً عليَّ أن أوضح سبب ذلك، ولكن قبل ذلك دعني أذكر شروط الاجتهاد عند الزلمي (رحمه الله تعالى).

وقد ذكر شروط الاجتهاد عدة مرات في كتبه وآخرها -كما أظن- في كتابه «ختان الإناث» وهي:

١- أن يكون ملماً بمقاصد الشريعة الإسلامية على وجه الحقيقة والواقع.

٢- أن يكون عالماً بمتطلبات ومستلزمات الحياة في زمانه ومكانه؛ لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان.

٣- أن يكون محيطاً بالصلة بين مقاصد الشريعة وكنه الحياة ومستلزماتها.

٤- أن يكون ملماً بالعلوم الآلية وهي الفلسفة والمنطق وأصول الفقه وقواعد اللغة.

فكل من تتوافر فيه هذه الشروط له أهلية الاجتهاد.[٥]

في حين ذكر شروط الاجتهاد في كتابه «المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية في نمط

---

[٤] موانع المسؤولية الجزائية /٦٠٠، ويا حبذا لو تجمع بحوثه مخافة أن يكون نصيبها النسيان والضياع.

[٥] ختان الإناث أضراره وتحريمه في القرآن / ص٤٦.

جديد»[٦] سبعة شروط، وفي كتابه «أصول الفقه في نسيجه الجديد»[٧] ثمانية شروط.[٨]

وهذه الشروط تنطبق كاملاً على أستاذنا (رحمه الله تعالى)، وكل من يقرأها لا يختلف معنا على أن أستاذنا قد امتلكها بل اكثر وأزيد من ذلك، ولكن حال دون وصفي للأستاذ بالمجتهد سببين وهما:

١- إنْ الأستاذ الزلمي (رحمه الله) من أدبه وتواضعه كان لا يعد نفسه قد بلغ رتبة الاجتهاد (رحمه الله) بل هو ناقد للآراء ومستنتج منها ما هو نافع ومتلائم مع عصرنا الحاضر قال (رحمه الله تعالى) «ولم أكن من أهل الاجتهاد وإبداء الآراء الجديدة ولكني حاولت أن أستنتج من الثروة العلمية للسلف الصالح من الفقهاء وعلماء القانون»[٩] وقال في مكان آخر «ولا أدعي الوصول إلى مرتبة التمييز بين الصواب والخطأ في كلام كبار العلماء»[١٠] فإذا كان لم يصل إلى مرتبة معرفة الصواب من الخطأ في كلام العلماء فهو عن مرتبة الاجتهاد أبعد. وتأدباً مع رغبة أستاذنا ووقوفاً عند قوله تحاشينا أن نطلق عليه صفة الاجتهاد.

٢- ما زال التحسس كبيراً لدى علماء عصرنا وفقهائهِ من إطلاق لقب المجتهد على العلماء الذين وصلوا إلى مرتبة الاجتهاد خوفاً من نقد عوام الناس والجهال.

لهذين السببين عدلنا عن وصف الأستاذ بالمجتهد إلى الاستقلال الفكري وإلا فإنا أستاذنا قد بلغ رتبة الاجتهاد[١١] بأصول الفقه والفقه فهو يتخير من بين آراء الفقهاء، ويستدرك ويخطئ أقوالهم (رحمه الله تعالى).

المبحث الثاني

أسباب الاستقلال الفكري

لابد لأي شخصية علمية ومعرفية يكتب لها الشهرة والمكانة الواسعة بين العلماء و الناس ان

---

[٦] المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية /٦١.

[٧] أصول الفقه في نسيجه الجديد /٥٨٨.

[٨] ما ذكرته من شروط هي الأصل التي ذكرها أستاذنا في كتبه ويضيف إلى بعضها من قبيل الاطلاع على أقوال المتقدمين من الفقهاء أو عدم التعصب إلى مذهب أو أن يوازن بين النفع والضرر وكلها شروط مكملة لما ذكرناه من شروط رئيسية للاجتهاد، فجوهر شروط الاجتهاد عنده هي التي ذكرتها.

[٩] الدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي /١٠.

[١٠] أخطاء أصولية /٤.

[١١] في معجم لغة الفقهاء ٤٠٥/١، المجتهد المطلق: الذي له أصول فقه خاصة به، وقواعد فقهية خاصة به، وتطبيقات فرعية خاصة به. وكلها قد حواها أستاذنا الزلمي رحمه الله تعالى.

يكون لها نتاج معرفي ثر ويتمتع بعلم غزير؛ وذلك لايكون الا لمن يمتلك صفات وقدرات جعلت منه علامة بارزة، وقد تضافرت صفات ومؤهلات لدى أستاذنا الزلمي كثيرة نحاول هنا تلمسها لنعرف سر نجاحه وعلو كعبه بين العلماء وهي:

١- حدة الذكاء أو الحافظة.

إن خصلة الذكاء من شروط طالب العلم النجيب «هذه الحافظة هي الأساس لكل علم ونظر، فلا بد لأهل العلم أن تكون عندهم طائفة حفظوها يبنون عليها، ويستنبطون منها، وأن العلماء بالنفس في عصرنا الحاضر، كما كان الناس في الغابر يردون عناصر الذكاء إلى الذاكرة المدركة والحافظة الواعية، والبديهة الحاضرة التي تثير المعلومات التي حفظت في أوقاتها المناسبة».[١٢]

وقال الإمام الشافعي (رحمه الله تعالى) في فضائل الذكاء: «يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال: أولها طول العمر، والثانية: سعة اليد، والثالثة: الذكاء»[١٣] وقد جمع هذه الخلال أستاذنا الزلمي فقضى عمره المديد المبارك بالعلم وآثاره على كل عمل وقد حباه الله تعالى بقدر وفير من الذكاء وقوة الحافظة؛ بل متعه الله بذاكرته إلى وفاته من دون أن يعتريها الضعف أو الخلط وبقي إلى آخر أيام حياته يكتب ويؤلف، فهل يوجد دليل أقوى من ذلك على ذكائه وحسن تدبيره لوقته.

إن المؤلفات الغزيرة لأستاذنا وبشتى المعارف الصعبة التي لا يحسنها إلا قلة من العلماء لهي دليل على نباهته وحفظه فضلاً عن أنه (رحمه الله تعالى) عُرِفَ عنه حفظه للمتون عند طلبه للعلم، وبقيت عالقة في ذهنه ولا ريب أن من يكتب هذه الكتب الغزيرة يحتاج إلى ذاكرة تسعفه بالوصول إلى المصادر المختلفة وحسن ترتيب وتبويب مصنفاته تدل على فرط ذكائه.

٢- الاعداد العلمي الرصين:

من السمات التي جعلت منه علما من أعلام الفقه والقانون هو ذلك الإعداد العلمي المتواصل والمتنوع، فقد درس على أيدي عدد من الشيوخ الكرام وتلقى العلم على أيديهم، ثم درس في المدارس والجامعات وبالتأكيد يكون قد تأثر بالكثير من الأساتذة الذين درّسوه في

---

[١٢] ابن حنبل حياته وعصره /٦٧.

[١٣] الفقيه والمتفقه ٢/٩٤. قال الخطيب البغدادي رحمه الله: أما طول العمر فإنما يقصد به دوام الملازمة للعلم وأراد بسعة اليد أن لا يشتغل بالاحتراف وطلب التكسب، فإذا استعمل القناعة أغنته عن كثير من ذلك. وإن رزقه الله تعالى الذكاء فهو أمارة سعادته وسرعة بلوغه إلى بغيته.

الجامعات، وقد اختلفت دراسته الجامعية ما بين نوعين شرعية وقانونية ونال بهما درجة الدكتوراة وقد ذكرنا ذلك آنفاً، وكل ذلك أسهم بإعداده بشكل متميز وفريد، فهو يُعدُّ من الذين جمعوا بين دراسة الجامع والجامعة أو بين الدراسة الملائية والأكاديمية فأفادَ من محاسنهما وترك ما يعاب عليهما، فهو يعيب على الدراسة الملائية اهتمامها الزائد والمبالغ بالعلوم الآلية من دون استخدامها فيما وضعت له فيقول: «لا يزال يتردد في ذاكرتي القول الحكيم الذي قاله لي في سنة ١٩٤٧م أحد رؤساء عشائر بشدر وهو شبهُ أمي حضر مدرستي ضيفاً واستمع إلى درسي كنت أدرس مادة المنطق، قال أيها المشايخ أنتم تبذلون الجهود كل حياتكم في سبيل صنع مفتاح لفتح باب، ثم تضيع جهودكم هذه وينتهي عمركم قبل أن تفتحوه. كان يقصد بالمفتاح العلوم الإسلامية الآلية التي تستخدم في استنباط الأحكام وبالباب باب القرآن الكريم مصدر الأحكام».[١٤]

وأخذ على دراسة الجامعات السطحية وعدم قدرتها على البناء العلمي للطلاب يقول (رحمه الله تعالى) « من الواضح أن الدراسة في هذه المراحل الأولية في كليات القانون غالباً تكون نظرية محضة وقد تكون سطحية يعتمد فيها الطالب على حفظ الألفاظ عن الدخول في عمق معانيها فلا يكتسب عقلية قانونية أو ذهنية فقهية »[١٥] ويقول في مكان آخر « وقد مارست التدريس في المعهد القضائي القائم سبع سنوات فوجدت أنه لا يحقق الأهلية المكتسبة الكافية لتولي منصب القضاء الذي هو أخطر المناصب »[١٦]

وإذا كانت الدراسة الملائية والأكاديمية لها تلك المآخذ عنده فكيف بنى نفسه علمياً حتى أصبح طوداً معرفياً شامخاً؟ إننا نرى أن موجهه الأكبر من نفسه، ورغبته الجامحة في طلب العلم ونمتها الدراسات الشخصية والاطلاع على العلوم المختلفة مع إخلاص لله في طلب العلم حتى آتاه الله بسطةً في العلم.

٥- الاعتداد بالنفس من غير غرور أو تعالٍ.

جبلت النفوس الكبار على الاعتداد بنفسها والإيمان بآرائها وطرحها من غير خوف أو وجل، حتى وإن خالفت جمهور الناس، وهذه السجية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار عند أستاذنا (رحمه الله) فهو ينتقد ويرد ويخالف السابقين والآخرين ويعلن عن ذلك إذا ما وصل إليه اجتهاده، فلا يهمه كثرة المخالفين أو شدة المعترضين ولا يثنيه قول قال مهما كان عن ابداء رأيه، فعلى ذلك نشأ وعليه تربى؛ لذلك فهو لا يقلد في آرائه أحد

---

[١٤] أصول الفقه في نسيجه الحديد /٥٩٤.

[١٥] معين القضاة /١١.

[١٦] المصدر نفسه /١٤.

ولا يتبع اتباع الأعمى السابقين بل يقارن ويوازن ويرجح بين أقوالهم، وقد ينفرد بآراء لم يقلها بها أحد من قبلهِ، وما كان يكره شيئاً مثل كرههِ للتقليد فهو يراه أساس تخلف المسلمين فكيف يرضاه لنفسه؟ قال (رحمه الله): «وأهم عوامل هذا التخلف في العالم الثالث وبوجه خاص العالم الإسلامي هو التقليد للغير وتقديس آراء من سبقوهم وبوجه خاص علماء الدين».[١٧]

بل إنه جعل من شروط الاجتهاد التي لم أراها عند غيره هي الجرأة في ابداء الرأي قال (رحمه الله تعالى) من ضمن شروط الاجتهاد «أن يكون جريئاً لا يخشى لومة لائم لأنه يقوم بأداء واجب أوجبه الله عليه في حالة أهليته للاجتهاد».[١٨]

وهنا قصة طريفة تؤكد مدى اعتداد الأستاذ الزلمي وثقته بنفسه أمام الآخرين، إذ يذكر (رحمه الله تعالى) أنه دُعِيَ إلى مؤتمر في جامعة الزرقاء سنة ٢٠٠٤م عن حقوق الإنسان وكان له بحث عن الرق في الإسلام وهو يرى أن هذا وصمة عار على الفقه الإسلامي، ويعلن عن ذلك ويدعو إلى رفعه من كتب الفقهاء وكان من ضمن الحاضرين الدكتور عبدالكريم زيدان[١٩] وهو على النقيض من رأيه فكان بينهما خلاف في هذا الموضوع منذ زمن وأنقل لك ما ذكره الزلمي بنفسه: «فقال –زيدان– أطلب منك التراجع عن الرأي وأن تستغفر ربك وأنت في أواخر عمرك، فقلت –الزلمي– يا أستاذي لو كان لي ملئ الأرض ذنوب لغفر لي ربي عنها لأني أحاول إزالة آثار هذا الخطأ الذي وقع فيه العالم الإسلامي، وقال –زيدان– إذا يجب حذف الأمثلة بالعبد والجارية في المراجع الفقهية، فقلت يا أستاذي هذه أمنيتي في الحياة ودائما أتمنى أن يستيقظ ضمير أحد حكام الإسلام ويشكل لجنة لحذف هذه الأمثلة البالية وتبديلها بأمثلة أخرى..»[٢٠]

فانظر إلى شدة تمسكه برأيه وثقته على الرغم من مخالفة الآخرين له، ولكن هذه الاعتداد بالنفس والثقة بها لا تؤدي به إلى الغرور، أو عدم المراجعة للأقوال عندما يرى أنه على خطأ فقد ذكر رجوعه عن أقواله ودوّن ذلك في كتبه قال (رحمه الله تعالى) عن الخلع «وقد رجحت في مؤلفي الطلاق في الشريعة والقانون خلال أربعة آلاف سنة عدم جواز الافتداء مطلقاً وزعمت

---

[١٧] المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية /٦٤.

[١٨] المصدر نفسه /٦٢.

[١٩] الدكتور عبد الكريم زيدان العاني ولد ببغداد سنة ١٩١٧م طلب العلم منذ صغره في بغداد ثم أكمل دراسته الأولية فيها، نال شهادة الماجستير والدكتوراة من القاهرة، عين أستاذاً في الجامعات العراقية ثم انتقل إلى التدريس باليمن وتوفي بها سنة٢٠١٤م. موقع الموسوعة الحرة، ويكيبيديا على شبكة الانترنيت

[٢٠] انظر للقصة والحوار كاملاً في كتابه: «مستنقع العبيد والجواري وتجفيفه في القرآن» /٧٩.

تقليدا للغير ان آية ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢١] منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾ [٢٢] وكنت مخطئاً كما أن هذا الترجيح يتعارض مع قولي بعدم النسخ لعدم وجود التعارض بين الآيتين والكمال لله »[٢٣]

هذه الخلال: الذكاء والإعداد العلمي الجيد، والاعتداد بالنفس هي التي كونت منه شخصية فذة وفقيها وقانونياً ألمعياً.

المبحث الثالث

نماذج تطبيقية من الاستقلال الفكري

في هذا المبحث نبرهن على ما قلناه سابقاً عن مقدرته العلمية وقدرته على الإبداع والاجتهاد في ميادين العلم والمعرفة ولاسيما الشريعة والقانون، ولو شئت أن أجعل من هذا المبحث كتاباً مستقلاً لفعلت فهي كثيرة وغزيرة ويا حبذا لو ينهض أحد طلاب الدراسات العليا لتتبعها وفرزها لينتفع بها الباحثون.

وقد رأيت أن الإبداع العلمي للأستاذ الزلمي (رحمه الله) يمكن أن يكون بثلاثة محاور.

الأول: الانفرادات في الآراء:

ونعني به أن يبدي آراءً لم يسبقه بها أحد، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١- تقسيم الدلالة عند الأصوليين:

قسم العلماء الدلالة تقسيما رباعيا وتزعم هذا الاتجاه الأصوليون من الحنفية، وقسم آخر من العلماء قسموا الدلالة إلى تقسيما ثنائيا وتبّنى هذا النهج الأصوليون من المتكلمين.

وقسم أستاذنا الزلمي (رحمه الله) تقسيماً آخر غير مسبوق ولا مألوف لدى العلماء فقال: «المسلك المفيد في دراسة وضوح وخفاء الدلالات هو –التقسيم الثلاثي– الذي استنتجته من الأقسام المذكورة لواضح الدلالة وخفيها وهو التقسيم باعتبار الوضوح والخفاء إلى الدلالة القطعية والظنية والغامضة».[٢٤]

---

[٢١] سورة البقرة آية ٢٢٩.

[٢٢] سورة النساء آية ٢٠.

[٢٣] التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن /١٣٥.

[٢٤] أصول الفقه في نسيجه الجديد /٥٤١ وذكر الأسباب الموجبة لهذا التقسيم.

٢- أقسام أحكام القرآن:

جرى العلماء على تقسيم أحكام القرآن على ثلاثة أقسام وهي:

الأحكام الاعتقادية، والأحكام الخلقية، والأحكام العلمية. يقول الزلمي رحمه الله تعالى: « وهذا التقسيم في رأينا المتواضع خاطئ؛ لأن القرآن كله أحكام ».[٢٥]

لذلك ذهب (رحمه الله تعالى) على تقسيمه على خمسة أقسام وهي: الأحكام الاعتقادية، الخلقية، العبرية، الكونية، العلمية.

٣- جريمة تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة:

حتى لا يظن القارئ أننا نحسن الأمثلة الشرعية فحسب أحببنا أن نذكر مثالاً قانونياً فقد قال (رحمه الله تعالى) عن هذه الجريمة المنسية: «لم أجد أحداً حسب علمي يطلق على تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة تعبير الجريمة، علماً بأن هذا الإطلاق حقيقة واضحة وضوح الشمس في منتصف النهار، لأنه من باب خيانة الأمانة، لذا نقترح إدراج هذه الجريمة ضمن الجرائم الأخرى وتحدد لها عقوبة تتلاءم مع حجمها».[٢٦]

الثاني: مخالفة السابقين وبيان خطئ قولهم:

لو لم يكتب الأستاذ (رحمه الله تعالى) في هذا الباب إلا كتابه «أخطاء أصولية لابن السبكي»[٢٧] لكان كافيا لبيان فضله وعلو كعبه، فكتبه مليئة بتتبع خطأ السابقين مع بيان وجه الصحة والصواب ولا بأس أن نسوق الأمثلة للتوضيح وليس للحصر وهي:

١- تعريف العام عند الأصوليين:

عرّف ابن السبكي العام بأنه «لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر»[٢٨] قال الزلمي (رحمه الله تعالى): «هذا التعريف غير جامع فلا يشمل إلا العام اللغوي والصواب العام هو ما يستغرق الصالح دفعة واحدة لغة أو عرفاً أو عقلاً».[٢٩]

---

[٢٥] المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية في نمط جديد /٩، وشرح هذا التقسيمات بالتفصيل ويمكن الرجوع إليها.

[٢٦] هامش معين القضاة لتحقيق العدل والمساواة /١٢٠، ويضرب رحمه الله مثلاً على هذه الجريمة وهو التعيين في الوظائف غير الكفؤ على أساس الحزبية أو المنسوبية أو الوساطات، ولو قدر لهذا القانون أن يرى النور لقضى على كثير من مشاكل الفساد الاداري في بلدنا والعالم الثالث عموما .

[٢٧] وهو كتيب صغير الحجم كبير النفع، حتى إن الأستاذ طه جابر العلواني أثنى عليه وتمنى أن يكون بداية لنقد الموروث من أصول الفقه. أخطاء اصولية، مجموعة الأبحاث القانونية / الكامل ص١٩٩.

[٢٨] جمع الجوامع لابن السبكي/١٣٨.

[٢٩] أخطاء أصولية /٢٧ وشرح هذا التعريف بشكل كامل ويمكن الرجوع إليه

٢- تعريف الحق:

يقول الزلمي (رحمه الله تعالى): (لم أجد في المراجع الفقهية والقانونية تعريفاً سليماً للحق وفي رأينا المتواضع «حق الإنسان في الشيء مركز شرعي -قانوني- يبيح له نفعه ويفرض على الغير احترامه»).[٣٠]

٣- لفظ الخمر في القرآن الكريم:

قال (رحمه الله تعالى): «وأينما ورد لفظ "الخمر" في القرآن الكريم يراد به معناه اللغوي ومن حمله على المعنى العرفي وقاس عليه سائر المسكرات بجامع الإسكار فقد أخطأ من وجهين..».[٣١]

الثالث: انتهاج طرق علمية للوصول إلى الحكم الشرعي تختلف عما مألوف لدى العلماء.

قد يتفق الأستاذ الزلمي (رحمه الله تعالى) في حكم شرعي مع الآخرين ولكنه يسلك في الوصول إليه طرق مختلفة عّما هو سائد لدى الفقهاء، وهذا نابع من نظره الثاقب وعمق فهمه لأصول الفقه وسنضرب مثالين نوضح بهما كلامنا:

المثال الأول: حرمة التدخين.

درج الفقهاء في الآونة الأخيرة على تحريم التدخين ويبنون هذا الحكم على الضرر البدني أو النفسي أو المالي للمدخن والإسلام لا يقرّ بالضرر والخبائث لذلك فالتدخين محرم.

ففي فتوى لدار الإفتاء المصرية عن حكم التدخين تقول: «حرّم الإسلام على الإنسان كل ما يضر بالبدن حسيّاً أو معنوياً... وقد ثبت طبياً أن التدخين بكل أنواعه مضر بصحة وبدن الإنسان فيكون محرماً».[٣٢]

وفي جواب لسؤال عن حكم شرب الدخان لموقع إسلام ويب كان الجواب: «إن شرب الدخان محرّم بالكتاب والسُّنة لما يترتب عليه من المضار المهلكة والعواقب الوخيمة... ومعلوم لدى كل عاقل أنه لو سئل أي شخص

أين يضع الدخان؟ هل يضعه تحت الطيب أم الخبيث؟ لأجاب كل ذي بصيرة أنه من الخبائث».[٣٣]

---

[٣٠] هامش أصول الفقه في نسيجه الجديد /٣٤٨.

[٣١] انظر تفاصيل ذلك في كتابه «موانع المسؤولية الجزائية» /١١٤.

[٣٢] موقع دار الإفتاء المصرية / الفتاوى، والمجيب على الفتوى فضيلة الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد. والموقع متاح على شبكة الانترنيت.

[٣٣] موقع إسلام ويب، والموقع متاح على شبكة الانترنيت وهو موقع مخصص للإجابة على أسئلة الناس الشرعية.

ويوافق الأستاذ الزلمي (رحمه الله) الآخرين على حرمة التدخين ولكنه يسلك مسلكا آخرَ للتدليل على ذلك فهو يرى أن حرمة التدخين قطعية ثابتة بالعلة المنصوصة للحكم ففي قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[٣٤]

يقول (رحمه الله تعالى) عن هذه الآية: »لا تدل على تحريم المسكرات فحسب وإنما تدل صراحة على تحريم كل ما يكون ضرره أكثر من نفعه كالتدخين؛ لأن الله لم يجب عن السؤال عن الحكم ببيان الحكم وإنما أجاب بالعلة المنصوصة للحكم حتى يشمل كل ما يكون ضرره أكبر من نفعه ويعطي لعقل الإنسان السليم قاعدة عامة نصية يطبقها في كل شيء يكون ضرره أكثر من نفعه وهذا ليس من باب القياس كما يزعم البعض لأن العلة المنصوصة بمثابة النص الصريح.[٣٥]

المثال الثاني: إنهاء الرق في الإسلام.

يرى كثير من الدارسين والباحثين[٣٦] أنه يجوز إلغاء الرق إذا ألغى الآخرون –الكفار– الرق وذلك من قبيل المعاملة بالمثل.

قال الأستاذ علي بابير[٣٧]: «وقد تغيرت الأعراف والعادات السياسية والدولية في أيامنا هذه في التعامل مع أسرى الحرب عموماً... مشجع لتحرير الإنسان وإنهاء الاسترقاق، فتغير الواقع الذي أجبر المسلمين على استرقاق أسرى أعدائهم في الحرب، معاملة بالمثل».[٣٨]

وقال الشيخ عبد الحي يوسف:[٣٩]

---

[٣٤] سورة البقرة آية ٢١٩.

[٣٥] التدخين أضراره وتحريمه في القرآن /٦٦، ولأهمية الموضوع أنقل ما ذكره الزلمي رحمه الله تعالى في كتابه موانع المسؤولية الجزائية /١١٧: «فليعلم الناس جميعاً أن التدخين محرم بنص القرآن شأنه شأن الخمر والقمار، فكل رأي بخلاف ذلك يصطدم معه هذا النص القرآني –الآية– لأن هذا الضرر لا يقتصر على نوع واحد أو جانب دون آخر»

[٣٦] وهؤلاء أحسن حالاً من الذين يقولون إن حكم الرق باق إلى قيام الساعة وذكرنا سابقاً رأي الدكتور عبد الكريم زيدان.

[٣٧] الشيخ علي بابير وتمان من مواليد ١٩٦١م بالسليمانية وهو الآن أمير الجماعة الإسلامية الكردستانية، له العديد من المؤلفات موقع الموسوعة الحرة، ويكيبيديا على شبكة الانترنيت

[٣٨] مقالة للشيخ علي بابير تحت عنوان «استرقاق الإنسان في العصر جريمة ضد الشريعة الغراء» نشرها على صفحته الشخصية «فيسبوك»

[٣٩] الشيخ الدكتور عبد الحي يوسف ويكنى بأبي عمر من مواليد القاهرة سنة ١٩٦٤م وهو داعية إسلامي سوداني تخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وأتم الدكتوراة في السودان سنة ١٩٩٨م يعمل الآن عميداً لكلية الدراسات الإسلامية جامعة أفريقيا. موقع الموسوعة الحرة، ويكيبيديا على شبكة الانترنيت.

«وقد علم من كلام أهل العلم أن الرق الذي أباحه الإسلام في ذلك الحين كان من باب المعاملة بالمثل للعدو المقاتل فلا مانع أن يحظر في وقت ما من باب المعاملة بالمثل كذلك».(٤٠)

ويرى الأستاذ الزلمي (رحمه الله تعالى) أن الرق كان ينبغي أن يستمر لمدة محدودة إلى حين أن تتهيء الظرف ثم يلغى نهائياً يقول (رحمه الله تعالى): «أن القران لم يقر الرق ليكون نظاماً مشروعاً مستمراً في كل زمان ومكان كما يزعم بعض من المسلمين المثقفين... وإنما النتيجة الحتمية للطرق الوقائية والعلاجية هي تهيئة الظروف للقضاء عليه إلى الأبد من غير رجعة خلال فترة لا تتجاوز القرن الأول الهجري اعتبارا من تاريخ مكافحة هذه الظاهرة الجرمية».(٤١)

أما محاولة البعض الخروج من هذا المأزق عن طريق الدعوة إلى المعاملة بالمثل فيرى أنها غير موفقة وذلك للأسباب الآتية: (لم يقم الرسول العظيم صلّى الله عليه وسلّم ولا الخلفاء الراشدين ولا قادة المسلمين باسترقاق أي أسير بعد نزول آيةُ ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.(٤٢)

المقابلة بالمثل تكون بين طرفين متكافئين وهذا شرط مفقود؛ لأن أحد الطرفين هو الله وإراداته والطرف الآخر هو العدو المنحرف عن طريق الصواب وإرادته.

اعتبار الرق جريمة في جميع الدساتير والقوانين وإعلانات حقوق الإنسان وحدوثه من قبل الأفراد يعتبر من القرصنة. فأين المثل في عالم غير المسلمين حتى يقابل بالمثل).(٤٣)

الخاتمة

بعد هذا الجولة الطيبة المباركة في سيرة أستاذنا الزلمي مع تقليب تراثه الأصولي والفكري، نوجز ما ظهر لنا من دراسته في الأمور الآتية:

١- ولد الأستاذ الزلمي (رحمه الله تعالى) سنة ١٩٢٤م بالسليمانية وتلقى العلم منذ نعومة أظفاره إلى أن حاز إجازة في العلوم النقلية والعقلية.

٢- انتقل من دراسة الجوامع إلى دراسة الجامعات وحاز الشهادات العليا – الدكتوراة –

---

(٤٠) موقع طريق الإسلام متاح على الانترنيت، حول سؤال حكم الرق منسوخ.

(٤١) مستنقع العبيد والجواري وتجفيفه في القرآن /٤٣.

(٤٢) سورة محمد آية ٤.

(٤٣) مستنقع العبيد والجواري، الكامل /١٥.

في الشريعة والقانون.

٣- ترك لنا إرثاً فقهياً وأصولياً وقانونياً كبيراً حتى يمكننا القول إنه لا يوجد عالم عراقي ترك بمقدار ما ترك من إرث علمي متنوع.

٤- حبا الله تعالى أستاذنا بعدد من الصفات الطيبة مما جعلته يتقدم على أقرانه وأترابه وهي: حدة الذكاء والحفظ، الإعداد العلمي الرصين، الاعتداد بالنفس.

٥- بلغ – بحسب ما نرى– أستاذنا مرتبة الاجتهاد.

٦- تظهر ملامح استقلاله الفكري وعدم تبعيته للغير بشكل واضح من خلال:

١- الانفرادات في الآراء.

٢- مخالفة السابقين وبيان خطأ رأيهم.

٥- انتهاج طرق علمية للوصول إلى الحكم الشرعي تختلف عمّا مألوف لدى غيره.

٧- توفي (رحمه الله تعالى) سنة ٢٠١٦م وقضى عمره الميمون متعلماً ومعلماً ومؤلفاً ومناقشاً وناقداً ومرجحاً بين الآراء.

المصادر

١- ابن حنبل حياته وعصره – آراؤه وفقهه، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٦م.

٢- أخطاء أصولية لابن السبكي في كتابه جمع الجوامع، الدكتور مصطفى الزلمي، أربيل، ٢٠١٠م.

٣- أصول الفقه في نسيجه الجديد، الدكتور مصطفى الزلمي، طبعة في مطبعة شهاب – أربيل، ط٢٢، ٢٠١٠م.

٤- التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن، الدكتور مصطفى الزلمي «ضمن مجموعة الكامل» ط١، ٢٠١٤م – ١٤٣٥هـ.

٥- التدخين أضراره وتحريمه في القرآن، الدكتور مصطفى الزلمي، أربيل، ط٢، ٢٠٠٩م.

٦- جمع الجوامع في أصول الفقه، للإمام السبكي، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٧- ختان الإناث أضراره وتحريمه في القرآن، الدكتور مصطفى الزلمي، مطبعة شهاب، أربيل، ط١، ٢٠١١م.

٨- الدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي وآراؤه الأصولية والقانونية، تأليف مديحة صالح مهدي، مطبعة الرفاه، ط١، ٢٠١٣م.

٩- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي، تحقيق أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٣١هـ.

١٠-المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية في نمط جديد، الدكتور مصطفى الزلمي، أربيل، ٢٠٠٩م.

١١-مستنقع العبيد والجواري وتجفيفه في القرآن، الدكتور مصطفى الزلمي "ضمن مجموعة الأبحاث القرآنية للكامل"، ط١، ٢٠١٤م.

١٢-معجم لغة الفقهاء، تأليف محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، دار النفائس، ط٢، ١٩٨٨م.

١٣-معين القضاة لتحقيق العدل والمساواة، الدكتور مصطفى الزلمي، ط١، أربيل، ٢٠٠٨م.

١٤-موانع المسؤولية الجزائية في الشريعة الإسلامية والتشريعات الجزائية العربية، الدكتور مصطفى الزلمي، طبع في شركة الحسناء، بغداد، ط٢.

المواقع الالكترونية وهذه المواقع متاحة على شبكة الانترنيت:

١. مقالة الشيخ علي بابير بعنوان «استرقاق الإنسان في العصر جريمة ضد الشريعة الغراء» على صفحته الشخصية «فيسبوك».

٢. موقع إسلام ويب، وهو موقع مخصص للإجابة على أسئلة الناس وفق الشريعة الإسلامية.

٣. موقع الموسوعة الحرة، ويكيبيديا.

٤. موقع دار الإفتاء المصرية / للفتاوى، فتوى للأستاذ الدكتور علي جمعة محمد عن حكم التدخين.

٥. موقع طريق الإسلام، جواب الشيخ عبد الحي يوسف عن سؤال حكم الرق منسوخ.

The Intellectual Independence of Al-Zalami

Prof. Dr. Haitham Abdul Salam

College of Islamic Sciences / Aliraqia University

Abstract:

The research revolves around the personality of Professor Al-Zalami (may God have mercy on him) and his intellectual independence and lack of subordination or imitating others. He hates nothing like his hatred of imitating others, whether the formers or the contemporaries, so he is intellectually independent and his ideas stem from study and scrutiny. The researcher was keen to present the various and diverse evidences to prove Al-Zalami's independence and adopting opinions and ideas not held by others.

It is divided into three sections: in the first one, the researcher talks about Al-Zalami's biography and the aim was to show his study and seriousness in seeking knowledge with mentioning his most important writings.

In the second section: he explained the reasons for independence, which we touched by reading Al-Zalam's books which were limited to:

A- The sharpness of intelligence and memory: This is evident from the testimonies he obtained and the many and varied literature. His books were collected and amounted to "24" volumes under the title "Al-Kamil" of Al-Zalami's books.

B - Sober scientific preparation: In his studies, Al-Zalami combined the dictate and academic method, or between the mosque and the university, but he played around with both methods. From both methods, he made his seriousness and perseverance a way to reach the ranks of great scholars.

C- Self-esteem without being arrogant: The professor is distinguished by his opinion without being afraid of expressing it, even if he brings him

criticism and blame while he speaks out and defends his words; but if he sees them as incorrect, he surrenders and submits to the truth.

In the third section: applied models of intellectual independence.

By tracing the professor's scientific output, one finds that this lies in:

A - Singleness in opinions.

B - Contrasting the previous ones and stating the error of what they said.

C- Adopting scientific methods to reach the legal ruling that differ from what is familiar to scholars.

Various and many examples from his books have been mentioned that clarify these points and reinforce what have been said.

After that, one can see that Professor Al-Zalami has reached the level of diligence, just as God Almighty has granted him the ability to encompass and combine Sharia and law, and few who were able to reach this and innovated and added to knowledge in both.

The Theory of Linguistic Act According To

Dr. Taha Abdel Rahman

Prof. Dr. Latifa Abd Al- Rasul

Mohammed Gasid Ghanim

College of Arts / University of Almustansiriyah

Abstract:

Dr. Taha Abd al-Rahman is considered one of the first founder and creative thinkers of deliberative method.

Dr. Taha Abdel Rahman talked about the importance of this concept (the linguistic act) as it constitutes a central nucleus in the deliberative dimension.

Dr. Taha Abdel Rahman's idea about the linguistic act is based on the communication between two or more parties for getting the message. Linguistic is one of the most important reasons for communication and what language represents.

Dr. Taha Abdel Rahman created new understanding for the levels in the linguistic act, which are more effective than others, as the elocutionary act, (takalumi) act and (taklimi) act. And he defended these three names that have lexical backgrounds in our Arab heritage.

He discussed the principle of cooperation and subsidiary bodies revealing the resources of vulnerability and limitation in them to create a fifth principle called (the principle of ratification). And he mentioned a set of rules, some communicative and others educational to this fifth principle.

Dr. Taha finds out the practice of honesty at the three levels as three advantages that should be given preference for the speaker.

He mentioned the issue of concision and verbosity of what he took from Al-Mawardi, who put the term (restricting) for them instead of (concision) and the term (twaddle) instead of (verbosity).

He focused on the ethical aspect of dealing and its prominent role in controlling the aspect of communication between the two parties.

Reading Skill

An Evolution in Term and Means of Development and Employment

Marwan Asa'ad Mohammed

College of Education and Languages / University of Charmo

Abstract:

The research deals with the reading term and what is happening in this field in the development of the term and the means, and what is new in the factors of developing reading, its employment and function as a basic of the basics of education, in addition to (listening, speaking and writing).

Poetry of Abi Bakr Al-Makhzumi Al-Qurtubi (D.542 AH)

- A Look and Correction-

Assis. Prof. Dr. Safa'a Abdallah Burhan

College of Islamic Sciences / University of Baghdad

Abstract:

The research is a critical look at the collected poetry of Abi Bakr Al-Makhzumi the blind Al-Qurtubi (d.542AH), one of the great Andalusian poets in the days of Almoravids in the sixth hijri century, and a statement of the work presented by the authors of the poetic collection in the service of the poet's poetry within what they collected from the poetry of the blind Andalusian poets, especially that this poet is one of the most famous satirical poets in Andalusia, despite the Andalusian taste's avoidance of this poetic purpose.

The researcher then worked to remedy what the two honorable researchers did not collect; according to what he found of new poetry that they could not find out, he added new pieces of poetry to their poems collection and presented to them with the adopted source for documenting these pieces, and followed them with a statement of the main poetic purpose in them. Then he proceeded to mentioning the poetic pieces according to what the makers of poetic collections followed, and the reimbursement thereof distributing it according to the letter of the Roy, and then it was numbered and the verses included in it, as well as a statement of the signs contained therein of different religious, historical and literary contents. Thus, a new image of Abi Bakr Al-Makhzumi's poetry (satire of Andalusia) was followed by this, noting that it was a temporary image of that collected poetry waiting for new poems which were needed by Andalusian manuscripts that are discovered from time to time, revealing new images of Andalusian poetic life and what it contains of new poetic texts, which specialists in Andalusian literature have not seen hoping that the missing episodes of the lost heritage of Andalusia will be completed with this.

Ibn Mada’a Al-Qurtubi (d.592H) Between Political Employment of Grammar, Facilitation and Description

Prof. Dr. Mohammed H. Ali Zayin

Amir Mahsoon Hadi

College of Education for Human Sciences / University of Kerbala

Abstract:

The importance of this paper stems from the idea that there are several non grammatical intellectual views that include the grammarian project of Ibn Mada'a, as it resembles grammar; for the multiple scientific origins that allowed it to enter the intellectual battle that was called for by Almohad Caliphate in Andalusia. In the light of this vision, the paper tries to reveal the ideology through reading the intellectual, time and spatial environment that accompanied Andalusia. Intuitively, the principles of intellectual views of any project can agree or disagree with other intellectual views whether that is in their methodological, linguistic, philosophical, or juristic structures; and that difference in view was the focus of some studies to assess the approach of Ibn Mada'a project.

This paper focuses on the juristic view and its origin, the philosophical view with its pioneers (Ibn Rushed) and highlights the descriptive view. It also highlights the studies that try to connect the simplification movement and Ibn Mada’a project, including some descriptive studies that linked between the descriptive method and Ibn Mada’a project when it comes to principles.

It ends up with several results, including: Ibn Mada’a was neither simplistic nor descriptive as he explored intellectual grammar through the ideological point of view. Also, Ibn Mada’a tried to exclude the eastern grammar to complete his project by excluding the jurisprudence, philosophical and dogmatic principles of the four Islamic ideologies. Some descriptive researchers tried to study Ibn Mada’a project to add legitimacy to the descriptive approach in the Arabian heritage

Displacement by Deletion In The Light of Sibawayh Book
A Study of Linguistic and Grammatical Functions

Assis. Prof. Dr. Ibrahim Ahmed Omairi Ali Al. Omairi
Ministry of Education/ The General Directorate of Education in Salahaddin Governorate/ Sharqat Education Department

Abstract:

The displacement phenomenon is one of the important linguistic issues related to meaning and falls under the topics of modern linguistics, especially stylistic studies. The modern researchers give the displacement phenomenon many terms including: {Linguistic boldness, linguistic perversion, linguistic expansion, innovation and strangeness}, and others. Imam Sibawayh (may God have mercy on him) turned to displacement issues; took it as a linguistic procedure and looked at its functional secrets, rhetorical, literary and linguistic connotations that result from different displacement procedures, and selected its issues with high accuracy, particularly localized displacement issues like introduction and delay, and displacement expansion as well as repetition, displacement reductionist by deletion, rotational displacement, functional displacement and tonal displacement.

Imam Sibawayh was ahead of Arab and western modernists who later realized that the system of words and their geometry is a basic condition in understanding, and that every language has a specific system that cannot be violated or deviated from.

The Book Between Alkhalil and Sibawayh

Prof. Dr. Saeed Jasim Alzubaidi
University of Nizwa / Sultanate of Oman

Abstract:

This research presents the problematic of method in (The Book) in which the ancient and the moderns differed. Some of them considered it without a curriculum and others made it the first book in all Arabic sciences and some dropped what the contemporary linguistic research has reached. Others claimed that it was the dictates of Alkhalil stripping Sibawayh of any role in it.

It attempted to objectively encompass what was said about it to conclude that (The Book) is between Alkhalil and Sibawayh, as well as the contributions of their contemporaries of Arab sheikhs and a statement of the unique approach in it.

Predictability Mechanisms in the Text
-Word and Context-

Prof. D. Naseera Ahmed
College of Arts / University of Baghdad

Abstract:

This research is about (the expectation mechanisms) that is new in the field of textual criticism, which was addressed in the linguistic context and then the poetic context through the analysis of some poetic texts that provide a disclosure on the mechanisms of the forecast use which is also used in the form of (prediction). It is more specific in the general use than the term expectation and is active in the scientific subjects, psychological research and human development and sometimes researchers combine them. In Wikipedia it is stated that prediction is the process of making predictions of events that are expected to occur. The forecast is a similar but more general term and may refer both to statistical methods. The theory of expectation has been so popular that it has become scientifically accepted as a theory of motivation and performance. In psychology the expectation is defined as thinking of something in the future based on evidence in the present, if there is no evidence, it is an intuition. In English dictionaries its counterpart uses the term expectation or foreseeing and understands that this corresponds to discovery of the unknown of future by supernatural means clever guess of forecast. In this research, the researcher uses the mechanisms of prediction in the method of text revealing of the intuition horizons that combine the creator and the receiver in certain patterns in the classical and modern Arabic poetry.

As for the (horizon of expectation), it is an early level of the reception theory levels, and this matter introduces us to theories of reading and interpretation. Hans R.Jauss reveals, for example, the horizon of expectations as the standards that the readers use to judge literary texts in any era, and this term overlaps in the opinions of some critics and differs among them. Hans Gadamer refers to the extent of vision that includes everything that can be seen from a suitable specific location whereas Hans U. Gumbrecht defines it as a mental apparatus that records deviation and adjustments with extreme sensitivity and this leads us to German virtual

theories. Jauss depended on revealing the horizon of expectation on the theory of interpretation (Herminotecia) of Gadamer who sees that any interpretation of the past literature stems from a dialogue between the past and the present.

In this research, the researcher talks about the mechanisms of expectation in the text of the reader by revealing the mini- patterns in the poetic text based on the suggestive words and what associated with it of the poetic sentences, noting that this expectation of the patterns may or may not be true, and the researcher called the term (similar expectation) on the harmony in the expectation between the creator and the recipient, as for the difference in that; the researcher called it (Negative expectation).

Qur’anic Descending Order

Analytical Approaches to Standards, Lists, and Objectives

Assis. Prof. Dr. Muhammad Jaafar Al-Ardhi

University of Al-Qadisiyah

Abstract:

In the format of this study is a set of analytical demands that seemed to be central motives that had a significant impact on producing a comprehensive understanding of the Qur’anic discourse. The researcher has devoted work to make these motives a methodological path necessary to read the Qur’anic discourse in a manner of holistic consideration, and this is the sign of the methodology of these demands and its instrumental and effective formulation in the way of reading the Qur’anic discourse in the light of the concepts, standards, objectives and procedure that was manifested in a group of downward lists produced by more than one of the Companions, as well as lists produced by modern scholars of Islam and orientalists.

The re-reading of this context showed the need to confirm the foundation of a new understanding that departs from what the explanatory code has settled on from the aspects of the scriptural arrangement of the Qur’anic discourse surahs and verse, and to abandon it to the descending arrangement immersed in the formative content aspects; since it brings great benefits to the explanatory process at the methodological and content levels, especially its effects in monitoring the Qur’anic accompanying the social event, and the Qur’anic ones accompanying the construction of the human self and recording the stations of its perfection and developmental gradation, as well as its impact on introducing the prophetic self a Qur’anic definition that notes the paths of da’wah and its challenges, and the perfect preparation upon which the Noble Prophet Muhammad (may Allah's prayers and peace be upon him and his family) makes him alone capable of receiving and conveying the best.

The central idea from which the partial ideas in this study are based, and upon which the hypotheses that pave the way for the intended results are based, is a systematic intellectual dialogue between the duality of the Qur'anic arrangement and the descending arrangement of the Qur'anic discourse chapters, and the prevailing situation – outside this study – of the Qur'anic arrangement with its engrossing formal features on a descending order with major formative content features that lead to interpretive thinking that works on sensing the active steps in reconsidering the methodological tools that the exegete resorts to for the purpose of producing an understanding of the Qur'anic discourse; in the light of the inspiration of the societal, intellectual and religious values of the Quranic project. Perhaps this is dependent on conducting the order of descent and the requirements of the principle of descending the ladder of the Qur'anic discourse, and employing them systematically in order to produce holistic explanatory statements that establish new tools affecting the Qur'anic understanding. There were follow up stops in the context of this systematic reading that read the sayings of the traditionalists and the modernists; so as the students have options that organize the dependence into a downward, consensual list that appears during the practical work.

Teaching Arabic to Non-Native Speakers in The "Post-Method" Era

Dr. Khaled H. Abu Amsha
Associate Professor of Applied Linguistics

Amman – Jordan

Abstract:

This study aims to present some practical proposals and ideas in teaching Arabic skills and elements that go beyond what is familiar to researchers in the field; namely, teaching methods and language acquisition theories that attempt to present how language learning should take place. The researcher believes none of them have succeeded yet in answering the vital questions that are posed by language learning and acquisition. This prompted the direction of language acquisition according to what was termed the "post-method" era. This is based on the assumption that states that there is no single method or a particular theory that has been able to explain how language is acquired in order to reflect the local needs of learners. This study aims to present some practical and realistic methods that ease the learning of Arabic by passing the crucibles of the well-known teaching methods in the field. It enables teachers to choose coherent methods that answer questions that arise during the teaching process, moving in tandem with other cognitive and meta cognitive thinking skills, critical thinking, globalization, modernity and beyond

The Complex Coordination in The Arabic Linguistic Theory

Dr. Mahmood Bin Yahya Alkindi
Dr. Yaqoob Bin Salim Al Thani
University of Nizwa / Sultanate of Oman

Abstract:

This article mainly discusses the *Complex Coordination* in the Arabic linguistic theory. The Arabic linguistics has studied Coordination as a complex syntactic structure and as a speech strategy. Furthermore, it has distinguished between three types of Coordination: the first one that links together two or more lexical elements, the second that links together two simple phrases (or two simple clauses), and the third type that links together some more *complex phrases*; which we called the *Complex Coordination* form. The current study aims to investigate the third type of these cited forms.

The Complex Coordination has been mentioned under many titles in the Arabic ancient studies; such as coordinating a *story with another story, or* coordinating a *multiple phrase (or structure) with another multiple unit.* However, the two liked elements in this coordination type have synthetic and semantics dimensions.

This article explored the features and properties of the Complex Coordination as in the Arabic theory. We noticed that this type varies from other coordination types. For example, while the harmony is a condition in the linked elements in the first and second types of coordination, we noticed that it is possible to link two different units together in the Complex Coordination form. In addition to this, the syntactic structure can be dissimilar in the connected elements in the complex coordination, while it has to be the same in other forms.

This type of coordination shows the depth of textual studies in Arabic linguistic theory. Moreover, it opens the door to researchers to trace the use of this coordination by Qur'an interpreters as an evidence to illustrate the profound correlation between Quranic verses.

Modern Linguistic Theories and Their Impact on The Manufacture of The Great Lexicon

Prof. Dr. Mohammed Saleh Yassin al-Jubouri

College of Education for Human Sciences / University of Diyala

Abstract:

Linguistics is one of the most important sciences and human knowledge, which arose through special theories as it possesses controls, inferential sources and utilitarian and important advice that are indispensable. In the Arab world, there is a great interest in the study of linguistic investigations and the issues that arise in them, and a lot of what has happened to this science which prompted researchers and academics to hold many national and international seminars and conferences. This study monitors the impact of modern linguistic theories on the manufacture of the great lexicon made by the Arabic Language Academy in Cairo.

The researcher started this study by talking about linguistic theories and their impact on the renewal movement of lexical work, then moved to talk about the great lexicon and its construction plan showing its method of authorship, and he talked about the renewal phenomenon in it, then studied the impact of modern linguistics on the manufacture of the great lexicon which was represented by the following matters: descriptive linguistics and its impact on the great lexicon, the features of social linguistics and its impact on the manufacture of the great lexicon including contextual theory and its impact on the great lexicon and the theory of linguistic communication and its impact on the great lexicon. The researcher then talked about semantic theories and their impact on the manufacture of the great lexicon, including: The Significant Theory and its impact on the Grand Lexicon Committee, Semantic Fields Theory and its impact on the Great Lexicon, Formative Analytical Theory and its impact on the Great Lexicon. Then he talked about the functional linguistics and its impact on the manufacture of the great lexicon and this topic is represented by functional and relational definitions.

This research is concluded with the most important observations and scientific results reached by this study.

The Reclaim Between The Lexicon and The Reality of Use

Dr. Mohammed Goma'a Al-Derbi

Lexical Researcher and a Member of The Egyptian Writers Union

Abstract:

The research aims to study the word (The reclaim) between the lexicon and the reality of use through the historical and critical approaches.

It consists of an introduction and three sections. The introduction deals with the objective of the research, previous studies on it, the adopted scientific method and the contents of the research.

The first section is entitled: the reclaim and the lexical definition.

The second section is entitled: the reclaim and the lexical misses.

The third section is entitled: the reclaim and texts editing.

These three sections are followed by the conclusion and recommendations of the most important results reached by the research, then some sources and references for the research.

Poets and The Creative Language

Prof. Dr. Sahab Mohammed Al-Asadi

College of Arts/ University of Baghdad

Abstract:

This paper explores the nature of the linguistics devices, namely the lexical items, structures and expressions, used by poets. Poetic composition reflects an outstanding harmony in terms of the poet's choices with respect to linguistic devices and the context in which they are used. These choices give rise to a creative deviation from the normal usages of language. The poet takes the linguistics devices from the lexicon agreed upon by linguists, and puts them into a unique poetic use to convey the meanings and images formed in his poetic imagination. This is why critics respond differently (positively or negatively) to poetic products depending on their level of understanding, nature of awareness and variety of views.

Email: iraqacademy@yahoo.com , journalacademy@yahoo.com

Annual Subscription: In Iraq (20000) I.D.

Outside Iraq (100) Dollars



IRAQI ACADEMY OF SCIENCES' JOURNAL

Quarterly Journal – Established on 1369H- 1950

No. 1

Vol. 69

Rajab 1443H
February 2022